مفاهيم إسلامية

تأليف
د. محمد مورو

مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : مفاهيم إسلامية

المـــــؤلف : د. محمد مورو

رقم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٠

مكتبة جزيرة الورد

ميدان حليم ـ خلف بنك فيصل الرئيسي ـ شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا .

ت: ٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤

محمول : ٠١٠٠١٠٤١١٥ - ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦

مفاهيم إسلامية

(١)

علمانيون وخونة

◆◆◆

مقدمة

منذ أن نشأت العلمانية – وهي لقيطة النشأة خبيثة الأثر– وهي تحاول أن تضرب بجذورها في التربة العربية والإسلامية مستخدمة في ذلك كل الوسائل غير المشروعة بالطبع من تلفيق وتزوير وَلَيٍّ للحقائق وتعسف في التفسير وغيرها.

وقصة العلمانية في بلادنا هي في الحقيقة قصة الصراع بين بلادنا المسلمة والاستعمار الأوروبي كآخر حلقة من حلقات التحدي الوثني الأوروبي المتسربل بقشرة مسيحية مزورة، ويمكننا أن نطلق على هذا التحدي اختصارًا كلمة الصليبية أي الوثنية ذات القشرة المسيحية، أو نطلق عليها كما فعل العلامة محمود محمد شاكر المسيحية الشمالية وهي مسيحية لا صحيحة ولا منحرفة. بل وثنية أوروبية أخذت المسيحية فوثنتها توثينًا أي جعلتها وثنية.

بل إن العلمانية الأوروبية ما هي إلا ثورة وثنية أوروبية على المسيحية المنحرفة – مسيحية الباباوات وصكوك الغفران– أي هي محاولة أوروبية للثورة على الكنيسة لحساب القيم الإغريقية واليونانية والرومانية القديمة مع إضافات سكسونية وجرمانية ولاتينية معاصرة، وما عصر النهضة الأوروبية الذي بدأ في القرن الخامس عشر إلا بعثًا للقيم الإغريقية والفلسفة الإغريقية الوثنية، بل وحتى الفنون الإغريقية القديمة مع إضافات لاتينية وجرمانية وسكسونية.

وحتى المسيحية الأوروبية ذاتها – والرومانية أيضًا، لم تكن مسيحية حقيقة ولا منحرفة أيضًا، بل هي إدخال للمسيحية في الوثنية الإغريقية عن طريق الدولة الرومانية القديمة التي فرضت رؤيتها الإغريقية للمسيحية على جميع المسيحيين بما فيهم مسيحيو الشرق واضطهدت منهم من رفض هذه الرؤية اضطهادًا بشعًا تمتلئ

به كتب التاريخ الكنسي وغير الكنسي.

المسيحية الأوروبية الرومانية إذًا أخذت القيم الثابتة للحضارة الإغريقية، وهي القهر والعنف والاضطهاد الديني ومارستها في كل مراحلها، وعلى نفس المنهج سارت المسيحية الكاثوليكية، فاضطهدت العلماء، واضطهدت المسلمين واليهود وأنشأت محاكم التفتيش التي نقبت وبحثت في الضمائر، وأحرقت المخالفين في العقيدة أو حتى في الاجتهاد داخل المسيحية نفسها، بل وحتى العلماء والفلاسفة.

وعندما ظهرت البروتستانتية تعرضت بدورها للاضطهاد الكاثوليكي، ثم عندما تمكنت هذه البروتستانتية في بعض البلدان الأوروبية قامت بدورها باضطهاد الكاثوليك وغيرهم، أي إنها حملت نفس الاضطهاد الأوروبي والقهر والعنف وما كان لها إلا أن تحملها.

ومع عصر النهضة الأوروبية – ومع الثورات الأوروبية ضد الإقطاع المتحالف مع الكنيسة– وهو ما أفرز العلمانية، نستطيع أن نلمح ثورة أوروبية على المسيحية ذاتها وإسقاطها من الحساب لدرجة ما، أي العودة الكاملة للوثنية الكاملة الإغريقية، ووجدنا بعثًا للفنون الإغريقية والشعر الإغريقي والمسرح الإغريقي والفلسفات الإغريقية، ولم تكن العلمانية الأوروبية إلا لتحمل بدورها نفس البذور ونفس القيم الأوروبية الثابتة من القهر والعنف والمنفعة اللاأخلاقية والاضطهاد الديني، وعلينا أن ننظر إلى كل الإفرازات الأيديولوجية والسياسية والاجتماعية الأوروبية من فاشية ونازية واشتراكية ورأسمالية وشيوعية وغيرها، من خلال أنها إفراز طبيعي لنفس الأرضية الحضارية الأوروبية، وإذا فسدت الأرضية فسدت الإفرازات فلا فرق حقيقيًا بين هذه والصراع بين هذه الأيديولوجيات الفاسدة فهو صراع على نفس الأرضية وتحمل نفس السمات العامة وأهمها التعصب ضد كل ما

هو إسلامي ومحاولة تحطيم الإسلام والحضارة الإسلامية، وهكذا لم نجد فرقًا كبيرًا في السلوك بين الممارسات الإجرامية للفرنسيين في الجزائر سواء أكانوا من اليمين أو اليسار، ملكيين أو جمهوريين، ديجوليين أو اشتراكيين، تحالفًا من الرأسماليين والديمقراطيين أو تحالفًا من الاشتراكيين والشيوعيين بل نجد معدل الجرائم يرتفع في الجزائر عندما تكون الحكومة الفرنسية حكومة من الاشتراكيين والشيوعيين فالحكومة الاشتراكية الشيوعية في فرنسا في عام ١٩٤٥ هي التي ارتكبت المذبحة التي قام بها الطيران الفرنسي فأباد وأحرق ٤٥ قرية جزائرية كاملة، بل كان وزير الطيران الفرنسي شيوعيًا.

وفي إطار الصراع بين أجنحة الحضارة الأوروبية، نجد أن كل مدرسة وكل دولة أوروبية تعمل على تجنيد طابور خامس وطني للتبشير بقيم الحضارة الأوروبية عمومًا، وهذه الدولة أو المدرسة وتلك خصوصًا، وهكذا يمكن أن نفهم الصراع بين الإنجليز والفرنسيين أو بين الكنيسة البروتستانتية والكاثوليكية أو المبشرين الألمان والإيطاليين أو المستشرقين من هؤلاء وأولئك على تجنيد أكبر قدر من العملاء المحليين، ولكن هذا كله في إطار تناقض جوهري يضم كل هؤلاء ضد كل ما هو إسلامي.

***

العلمانية في بلادنا ما هي إلا مفرزة استخباراتية متقدمة تتغير وتتبدل حسب أحوال الصراع في أوروبا، فدنلوب الإنجليزي يصفي النفوذ الثقافي الفرنسي في مصر لحساب النفوذ الثقافي الإنجليزي، وهكذا.

وقصة العلمانية هي قصة الصراع بين الحضارة الوثنية الأوروبية أو آخر فصول هذا الصراع مع الحضارة الإسلامية. وهذا الصراع ممتد في التاريخ والجغرافيا وشهد

العديد من المراحل وأخذ الكثير من الملامح حسب الزمان والمكان.

وهذا الصراع بدأ مبكرًا جدًا في حياة الرسول ﷺ، والذي أدرك بفراسته ونبوته أن هذا الصراع سيشكل المساحة الأكبر في تاريخ الإسلام، ووضع له الأسس الصحيحة، وهي أن الهجوم خير وسائل الدفاع، وهكذا خاض المسلمون في حياة الرسول ﷺ العديد من المعارك ضد الدولة البيزنطية وحلفائها، على اعتبار أن هذه الدولة البيزنطية تمثل في ذلك الوقت المواقع المتقدمة للحضارة الأوروبية الإغريقية والرومانية، خاض المسلمون في حياة الرسول ﷺ العديد من المعارك ضد الدولة الرومانية وحلفائها في مؤتة وتبوك ودومة الجندل، وجهز الرسول ﷺ جيش أسامة ابن زيد لغزو الشام، إلا أنه ﷺ مرض فأوصى بإنفاذ هذا الجيش، ووفَّى الخليفة الصديق رضي الله عنه بهذه الوصية بعد وفاة الرسول ﷺ.

واستمر الصراع بعد وفاة الرسول ﷺ، ونجح المسلمون في تحرير الشام وشمال أفريقيا من الدولة الرومانية، بل ووصل المسلمون إلى الأندلس، وأقاموا فيها حضارة إسلامية زاهرة لمدة ثمانية قرون، وهددوا الدولة البيزنطية نفسها في شرق أوروبا، وحاصروا روما أيضًا أكثر من مرة ووصلوا بنفوذهم ووجودهم إلى مختلف جزر البحر المتوسط قبرص، وصقلية، وإقريطش (كريت) وغيرها.

وعندما أصبح وجود الدولة الرومانية البيزنطية نفسه مهددًا بعد موقعة، ماتركرت (ملازجرد) التي انتصر فيها السلاجقة على الدولة البيزنطية سنة١٠٧١م؛ قامت الدولة البيزنطية بالاستنجاد ببابا روما، وهكذا نشأت الحروب الصليبية في الشرق العربي ١٠٩٥ – ١٢٩١ م، ومع فشل هذه الحروب الصليبية واندحارها ثم استمرار عملية الصراع في الأندلس وشمال أفريقيا قبل هذه الحروب الصليبية وبعدها وأثناءها، ومع ظهور الخلافة العثمانية التي أوصلت الإسلام إلى قلب

أوروبا وأسقطت الدولة البيزنطية نهائيًا وفتحت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م على يد محمد الفاتح، ووصلت الجيوش العثمانية الإسلامية إلى أسوار فيينا وجنوب روما ودخل الإسلام إلى ألبانيا والمجر والبوسنة والهرسك وكوسوفو، وخضع الصرب والكروات والمجريون والرومانيون وغيرهم للحكم الإسلامي العثماني، أحست أوروبا بالخطر الشديد، وقررت تغيير التكتيك من الصدام العسكري إلى الاختراق الثقافي والعسكري والسياسي.

ومن خلال هذا الاحتكاك المباشر وغير المباشر والذي وصل إلى قلب أوروبا عن طريق الأندلس إلى جنوب فرنسا وسويسرا وعن طريق العثمانيين إلى كل أوروبا الشرقية، ومن خلال جزر البحر المتوسط، كان من الممكن أن يعرف الأوروبيون حقيقة الإسلام فيدخلوا فيه وقد حدث هذا بالفعل في أكثر من مكان أوروبي مثل ألبانيا والبوسنة والهرسك وكوسوفو وغيرها، وكان لا بد لأوروبا من جهاز للدعاية لحماية رعاياهم من الأثر الإسلامي ونشأ من هنا الاستشراق الذي كان في البدء محاولة لمعرفة الإسلام بهدف تشويه صورته في عيون الأوروبيين، ومع حالة النوم والاسترخاء التي عاشها العالم الإسلامي، طمعت أوروبا في ذلك الوقت فيما هو أكثر، خاصة بعد أخذها بأسباب العلم والقوة، فتحول جانب من الاستشراق إلى تجسس أوروبي مباشر وغير مباشر على الدول الإسلامية؛ لمعرفة نقاط الضعف والتجهيز لحملة صليبية جديدة تحت اسم الاستعمار، وكذلك نشأ التبشير، ومن الاستعمار والتبشير والاستشراق بدأت الحملة الصليبية الجديدة التي انتهت بسقوط الخلافة العثمانية ووقوع معظم بلاد العالم الإسلامي في قبضة الاحتلال الأوروبي، وحدث تطور جديد في الاستشراق، فكان لا بد أن يمنع أي محاولة للنهضة في العالم الإسلامي وأي محاولة للمقاومة، وذلك بطمس معالم القوة في الثقافة الإسلامية

وإحداث ما سمي بالتفريغ الثقافي على حد تعبير العلامة محمود محمد شاكر، وهذا التفريغ الثقافي يقوم على تشكيل مدرسة ثقافية محلية تتتلمذ على يد المستشرقين وتردد نفس رؤيتهم للإسلام واللغة العربية والآداب الإسلامية وغيرها أو يتم تشكيل الوجدان والعقل لهؤلاء المدجنين من خلال المعارف الأوروبية وحدها.

وهكذا وجدنا أنفسنا أمام تيارين أسوأ من بعضهما البعض الأول: هو هؤلاء الذين ينظرون إلى الثقافة والآداب واللغة بل والدين بمنظور المستشرقين، وفضلاً عما في هذا الأمر من تآمر واضح فإنه أيضًا أمر غريب وعجيب؛ لأنه من البدهي أنه مهما كان المستشرق قد تعلم في اللغة العربية أو الآداب فإنه سيظل مجرد تلميذ في هذا الإطار، ولا يمكن أن يتحول إلى أستاذ أو دارس أو باحث أو صاحب مدرسة؛ لأنه قد نشأ وتعلم واكتسب ثقافته في أرضية ثقافية أخرى وبدهي أن أحدًا لن يفهم لغة أو ثقافة ما إلا إذا كان ابنًا لهذه اللغة وهذه الثقافة، وفي هذا الإطار يقول العلامة محمود محمد شاكر في كتابه المهم (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا): «غاية ما يمكن أن يحوزه مستشرق أن يكون عارفًا معرفة ما بهذه اللغة أو الآداب، وأحسن أحواله أن يكون في منزلة طالب عربي في الرابعة عشرة من عمره، بل هو أقل منه على الأرجح، أي هو في طبقة العوام الذين لا يعتد بأقوالهم أحد، ولا يمكن لمستشرق أن يكون محيطًا بالثقافة التي هي لازمة لتعلم اللغة والآداب، وهذه الثقافة سر من الأسرار الملثمة في كل أمة من الأمم وفي كل جيل من البشر، وشرط الثقافة هذا ممتنع على المستشرق كل الامتناع، بل هو أدخل في باب الاستحالة من اجتماع الماء والنار في إناء واحد».

ويضيف العلامة محمود محمد شاكر: «فأعجب العجب إذن أن يعد أحد شيئًا مما كتبه المستشرقون في لغتنا وثقافتنا وديننا متضمنًا لرأي حقيق بالاحترام والتقدير،

فضلاً عن أن يكون عملاً علميًا أو بحثا منهجيًا نسترشد به في شؤون لغتنا وثقافتنا وتاريخنا وديننا، كما هو السائد اليوم في حياتنا الأدبية الفاسدة».

❊ ❊ ❊

أما التيار الثاني، وهو الذي التقطته أوروبا، وعلمته ودجنته بحيث أصبح غربي التفكير والسلوك وحصل على العلوم وخاصة الاجتماعية منها من منظور أوروبي، فهذا سيأتي إلينا للتبشير بالقيم الأوروبية مباشرة.

أي إننا أمام تيار كامل تقريبًا أو تيار يفهم اللغة والآداب بل والدين من منظور المستشرقين وهو منظور سطحي في أحسن الفروض أو مشبوه ومتآمر في أسوئها.

من هؤلاء وأولئك نشأت العلمانية – وهي محاولة للتفريغ الثقافي أو تفسير الدين واللغة تفسيرًا سطحيًا أو تآمريًا يخدم مخططات الغرب، أو محاولة لزرع القيم والثقافة الأوروبية فينا، وكل هذا جزء من مخطط استعماري واضح المعالم معروف الأهداف، وهكذا لم يكن عجيبًا ولا غريبًا أن ترتبط العلمانية في بلادنا بكل مدارسها ورموزها بالاستعمار بطريقة مباشرة ومفتوحة، وقد فضح نابليون نفسه هذا الأمر في رسالته إلى كليبر التي يقول فيها «اجتهد في جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخص من المماليك أو من العرب ومشايخ البلدان لنأخذهم إلى فرنسا فنحتجزهم فيها مدة سنة أو سنتين يشاهدون فيها عظمة الأمة الفرنسية ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا. وعندما يعودون إلى مصر يكون لنا منهم حزب ينضم إليه غيرهم» ويضيف بونابرت: «كنت قد طلبت مرارًا جوقة تمثيلية وسأهتم اهتمامًا خاصًا بإرسالها إليك؛ لأنها ضرورية للجيش وللبدء في تغيير تقاليد البلاد».

وقد قام مفكرون إسلاميون مشكورون بفضح ورصد العلاقة بين الاستعمار وهؤلاء العلمانيين، فالعلامة محمود شاكر فضح لويس عوض وأثبت ارتباطه بدوائر

الاستعمار في كتابه المهم «أباطيل وأسمار»، وطارق البشري فضح ورصد العلاقة المريبة بين الأحزاب الشيوعية المصرية خصوصًا والعربية عمومًا وبين الصهيونية وإسرائيل في كتابه «الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥ – ١٩٥٢» وقال: إن تلك الأحزاب أنشأتها الصهيونية خدمة لمشروعها المرتقب وقتئذٍ في إقامة إسرائيل.

وفي الحقيقة فإنه أينما سرت وفتشت تجد هذه العلاقة بين العلمانية وبين الإنجليز أو الفرنسيين أو الأمريكان أو دوائر التبشير والاستشراق وهكذا، فعلي عبد الرازق مثلاً في دعوته لإلغاء الخلافة الإسلامية والزعم بأنها ليست من أصول الإسلام، وإنكاره أن الإسلام دين ودولة لم يكن إلا ناقلاً لبحث قام به الإنجليز وعملاؤهم في الهند إبان الحرب العالمية الأولى، وذلك خوفًا من إعلان الخلافة العثمانية لفكرة الجهاد لتعبئة المسلمين ضد الحلفاء في تلك الحرب، فأرادوا التشويش على فكرة الخلافة ذاتها، ثم قبع البحث في أدراج الخارجية الإنجليزية إلى أن تم نشره عن طريق علي عبد الرازق، وكذا قاسم أمين فما هو إلا ناقل لشبهات المستشرقين، وجدير بالذكر هنا أن كلاً من علي عبد الرازق وقاسم أمين كانا ينتميان إلى حزب مصري من صنائع الإنجليز، وهو حزب الأمة الذي لم يكن يخفي دعوته لاستمرار الاحتلال الإنجليزي لمصر، ونجد أن الذي هاجم قاسم أمين وكتابه هو حزب الاستقلال ورفض الإنجليز ، والكفاح ضدهم وهو الحزب الوطني، مصطفى كامل – محمد فريد.

نفس الارتباطات المشبوهة نجدها عند أحمد لطفي السيد رئيس تحرير جريدة حزب الإنجليز «حزب الأمة»، ونجدها في سلامة موسى ولويس عوض وغالي شكري، وشبلي شميل الذي يعترف رفعت السعيد أنه كان يدافع عن الإنجليز ويلتمس له العذر لذلك؛ لأنه كان هاربًا من النفوذ العثماني في الشام!

وفي الواقع فإن الأستاذ محمد محمد حسين في كتابه المهم « اتجاهات وطنية في الأدب المعاصر » قد فضح الدوائر الاستعمارية التي كانت تقف خلف الدعوات الفرعونية أو القومية أو العلمانية عمومًا في مصر في أوائل هذا القرن.

وحتى اليوم نفس الارتباطات كحسين أحمد أمين وسعيد العشماوي وهو الأمر الذي فضحه الدكتور محمد عمارة وجلال كشك وغيرهما في أكثر من كتاب ومقال، أو مع مؤسسات أمريكية أوروبية مشبوهة مثل مؤسسة فورد كونديشن التي تمول نشاطات ما يسمى بحركة تحرير المرأة وقد افتضح الأمر على يد بعض عضوات هذه الحركة أنفسهن داخل أروقة المؤتمر الذي انعقد سنة ١٩٨٦ حيث تساءلن عن تمويل المؤتمر فاعترفت نوال السعداوي بأن مؤسسة فورد كونديشن الأمريكية. وكذا هيئة المعونة الأمريكية – بالقاهرة وجمعية نوفيك الهولندية ومكتب أكستوان بالقاهرة - هم الذين موَّلوا هذا المؤتمر!.

وآخر المطاف – هذا هو فرج فودة، الذي يدعو الغرب جهارًا نهارًا للتدخل في مصر عسكريًا، ويدعو أيضًا للتحالف مع إسرائيل وضرب السودان، وعلاقته بالسفير الإسرائيلي أكثر من مشهورة.

وهكذا فإن العلمانية بكل مدارسها وتياراتها ورموزها مشبوهة الارتباطات مشبوهة الأهداف، وهي إما اختراق مخابراتي أجنبي مباشر، أو نشأت في أحضان دوائر التبشير كالجامعة الأمريكية، ببيروت مثلاً التي نشأ في أحضانها الكثير من القوميين العرب أو تلاميذ للمستشرقين المتآمرين أو السطحيين، وبدهي أنه ليس في الاستشراق إلا متآمر أو سطحي.

وهكذا وجدنا كل الدعوات العلمانية من دعوة إلى القومية العربية لضرب الوحدة الإسلامية وتقطيع أواصر المسلمين، أو دعوة إلى الفرعونية أو الفينيقية أو

غيرها من الدعوات المقيتة التي تستهدف استبعاد الإسلام، أو الحركات الشيوعية المريبة ذات العلاقة بقيام إسرائيل، أو هؤلاء الداعين إلى الكتابة باللغة العامية نكاية في اللغة العربية وعزلاً لها وبالتالي عزل القرآن الكريم عن الواقع، أو الدعوة إلى استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية حتى يصبح كل تراثنا طلاسم على أبنائنا يحتاج لمن يترجمه لهم، أو هؤلاء الداعين للأخذ بثقافة الغرب بزعم أنها ثقافة العصر أو الحضارة العالمية، أو غيرها من المصطلحات الداعرة.

أو هؤلاء الذين يدسون في الإسلام ما ليس فيه، أو يهيلون التراب على قيمه الثابتة للتشكيك فيها، ما بين مشكك في إعجازه، أو نافيًا للمعلوم من الإسلام بالضرورة محللاً للربا، أو للخمر، أو هذا الذي يلقي بالشبهات على الصحابة، أو الآخر الذي ينفي الشريعة ويريد أن يفصل الدين من الدولة، أو التي ترى تحرر المرأة في خروجها على تعاليم الإسلام وليس محاربة الاستعمار مثلاً، بل الحصول على التمويل منه لحركة تحرير المرأة وهكذا.

***

على أن آخر مراحل العلمانية وبعد هذا الكم الهائل من الشبهات حول الإسلام واللغة والتاريخ والشريعة، وجدنا من يريد أن يعلمنا الجانب العقائدي في الإسلام ويخضع الغيب للواقع أي ضرب العقيدة في مقتل مثل محمد ركون ومحمود إسماعيل في كتابه سوسيولوجيا الفكر الإسلامي.



سوسيولوجيا الفكر الإسلامي

لم يقتصر أمر الإفساد في حياتنا الثقافية على مجرد نقل وترديد القيم الغربية والدعوة إلى الثقافة الغربية بمعزل عن التراث والوجدان ولا على التتلمذ على يد المستشرقين فيما يخص التراث واللغة بل والدين ونقل ما يقولونه، برغم أن هؤلاء المستشرقين إما متآمرون وإما سطحيون؛ لأن نشأة الاستشراق كطليعة للاستعمار وكذا عدم قدرة المستشرق على فهم عميق لأسرار اللغة والآداب والتراث والدين بسبب نشأته في لغة وثقافة مغايرة، جعل من غير العلمي ولا الموضوعي التتلمذ على يد هؤلاء المستشرقين، وجعل هذه المسألة بمثابة مأساة كبيرة وإفساد ثقافي لا نظير له.

لم يقتصر الأمر على ذلك، بل وصلت الأمور إلى حد استخدام أساليب البحث الاجتماعي التي نشأت في الغرب ، والمدارس الاجتماعية المختلفة التي نشأت في سياق ثقافي وحضاري مختلف، وإخضاع تاريخنا وتراثنا ، بل ونصوصنا المقدسة من قرآن وسنة ـ لهذه المدارس العلمية الاجتماعية الغربية. وبدهي أن هذا الأمر على ما فيه من خطورة يفتقر إلى الحد الأدنى من العلمية ؛ لأنه لا يمكن إخضاع سياق ثقافي وحضاري معين لأساليب البحث الاجتماعي التي نشأت في سياق ثقافي وحضاري مغاير.

ووجدنا دكاترة من أمثال: طه حسين وحسن محمود وعبد العزيز الأهواني ومحمد عودة ومحمد الجوهري وحسن حنفي وعبد المنعم تليمة وطيب تيزيني ووداد القاضي وعبد الأمير ديكس والجابري والحبيب الجنحاني وأحمد عباس صالح وعبد الرحمن الشرقاوي وأحمد صادق سعد وحسين مروة ومحمد أحمد خلف الله،

وغيرهم - يستخدمون أساليب البحث الاجتماعي الغربي بشقيه الرأسمالي والماركسي في دراسة الواقع الاجتماعي والفكري للمجتمع الإسلامي في نشأته وتطوره بعيدًا عن البعد الغيبي - وهو شرط الإيمان - للمسألة، ووجدناهم يتتلمذون على أمثال فرنسيس بيكون ورديكارت وفيورباخ وديدرو ومانهايم وميرلوبونتي وماركس وإنجلز وميرتون وفلهوزن ودي بور ومرجليوث وبيكر ورينان ومكسيم رودنسون، وغيرهم، ونقلوا أساليب البحث للمدارس الغربية المختلفة من الشك الديكارتي، والتجريبية الإنجليزية، والمادية الفرنسية، والمثالية الألمانية، والحدسية البرجسونية، والفرويدية والبراجماتية التبريرية والوجودية والبنيوية الوظيفية. والظاهراتية والمادية الجدلية وغيرها.

وإذا أخذنا الدكتور محمود إسماعيل في كتابه «سوسيولوجيا الفكر الإسلامي» كمثال لهؤلاء - ونحن هنا لا نتهمه في دينه، أو في خلقه ولا يعنينا ما قام به الأزهر الشريف من مصادرة لكتابه- ولكن نقدنا ينصب على المنهج الذي اتبعه في دراسة الفكر الإسلامي وتبيان مدى خطورته وعدم علميته.

والدكتور محمود إسماعيل يحدد منهجه في البحث استنادًا إلى المنهج الاجتماعي الماركسي، ويريد أن يكون له السبق في تطبيق هذا المنهج على التاريخ والفكر الإسلاميين: على أساس أنه يعرف من الخلفية الاقتصادية والاجتماعية لمجتمع ما قبل الإسلام، وكذلك المجتمع الإسلامي أكثر مما يعرف ماركس وأنجلز ومكسيم رودنسون وغيرهم، أي إنه هنا يقول بصحة المنهج الذي اتبعه هؤلاء، ويريد إثراء هذا المنهج وتأكيد صحته من خلال إثبات أن المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي لم يشذا عن هذا المنهج.

ويستخدم محمود إسماعيل إحدى المقولات الماركسية المشهورة في أن الفكر

انعكاس للمادة، وأن البنيان الفوقي من دين وأيديولوجية وفكر وفن ما هو إلا انعكاس للبنيان التحتي وهو وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج.

يقول الدكتور محمود إسماعيل: «إن بنية المجتمع الاقتصادية هي الأساس الواقعي الذي تشاد عليه فيما بعد البنيات الحقوقية والسياسية والفكرية» ويقول: «إن طبيعة الأشياء تتحدد وفقًا لنمط الإنتاج» وإن نمط إنتاج الحياة المادية بشرط صيرورة الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بوجه عام. ويقول: «سوسيولوجية الفكر كما تقدمها المادية التاريخية تنطلق من مقولة: المادة سابقة للفكرة، والمعرفة الناجمة عن ذلك تصبح معرفة يقينية؛ لأنها تسلم بالقوانين الموضوعية للطبيعة وترجمة هذه القوانين في رأس الإنسان ترجمة صحيحة، فالنظرية المادية للمعرفة تبدأ أولاً لا بالمعرفة في ذاتها بل بالواقع المادي الذي هو انعكاس له، وأنه ليس وعي البشر هو الذي يحدد كينونتهم، وإنما كينونتهم الاجتماعية التي تحدد وعيهم». ويقول: «إن نمط الإنتاج السائد نتيجة طبيعية للصراع الطبقي، والطبقة المسيطرة التي تسيطر على وسائل الإنتاج المادي تسيطر كذلك على وسائل الإنتاج العقلي والفكري، ومن ثم تصبح الأيديولوجية انعكاسًا لمصلحة الطبقة، وعلى ذلك فإن الوقوف على الأوضاع الطبقية يستلزم معرفة الأساس الاقتصادي، وبمعرفته يمكن بسهولة إدراك حقيقة الفكر».

وهكذا فالدكتور محمود إسماعيل قد وضح لنا منهج السوسيولوجي الذي سيطبقه على الفكر الإسلامي، وهو مجرد نقل مدرسي ساذج لعلم الاجتماع الماركسي، وعلم المعرفة الفلسفية الماركسي!

ويأتي الرجل إلى حقل التطبيق فيقول: «إن منهج الفكر الإسلامي في دور التكوين لا يتم بمعزل عن الوراء التاريخي للبيئة التي تمخضت عن ميلاد هذا

الفكر، ودراسة الوراء التاريخي وفق منظور سوسيولوجي من الأمور المستحدثة والعسيرة فيما يتعلق بتاريخ العرب والإسلام ولكن لا مندوحة عن الإقدام بل المغامرة - من أجل عيون ماركس- لتحليل الواقع الاقتصادي الاجتماعي للمجتمع العربي قبل الإسلام، كضرورة منهجية اقتضتها طبيعة المحاولة لاستقصاء كافة المؤثرات التي ساهمت في تكوين الثقافة العربية، وظلت مصاحبة لها في مراحل تطورها التاريخي».

والدكتور محمود إسماعيل حتى الآن لم يقل شيئًا جديدًا بل هو يكرر التحليلات التقليدية لعلم الاجتماع الماركسي، الذي يرى أن الفكر انعكاس للمادة، وأن الأديان بما فيها الإسلام مجرد تعبير عن تغييرات في البنية الاقتصادية، وأنه لا وحي ولا رسالة ولا غيب.

والخطأ الفادح في هذه المدرسة ينبع من أمرين :

أولهما : أن الفلسفة التي تستند إليها هذه المدرسة الاجتماعية قد ثبت فسادها ولاعلميتها.

وثانيهما : أن من البدهي عدم إمكانية تطبيق أساليب البحث الاجتماعي التي نشأت في سياق ثقافي وحضاري معين على سياق ثقافي وحضاري مغاير، وهذه من الأمور المعلومة في علم الاجتماع بالضرورة.

وإذا جئنا إلى الخطأ الأول، وهو أن الفلسفة الماركسية نفسها قد ثبت فسادها وانهيارها العلمي والتطبيقي، وأن المادية الجدلية لم تعد أكثر من نظرية نشأت في ظرف معين وتخطاها الواقع العلمي والفلسفي والاجتماعي بل والاقتصادي ذاته الذي جعلت منه محورها، وإذا أخذنا واحدة من مقولاتها الفلسفية التي استند إليها علم الاجتماع المدني الماركسي والتي اعتمدها الدكتور محمود إسماعيل كمنظور

لتحليل الفكر الإسلامي، وهي «أن الفكر انعكاس للمادة» نجد أن هذه المقولة ذاتها قد أصبحت بلا قيمة في عالم والفلسفة والاجتماع، فلو كان الفكر انعكاسًا للمادة، لكانت الماركسية برمتها انعكاسًا لأوضاع ألمانيا في القرن التاسع عشر، وبالتالي فلا يمكن التعامل مع قوانينها في ألاجتماع والتاريخ والفلسفة والاقتصاد كحقائق مطلقة! وفي هذا الصدد يقول محمد باقر الصدر: «إن الاتجاه الماركسي يطبع كل معرفة بالعنصر الذاتي ولكنها ذاتية طبقية وبالتالي تصبح الحقيقة هي مطابقة الفكرة للمصالح الطبقية للمفكر؛ لأن كل مفكر لا يستطيع أن يدرك الواقع إلا في حدود هذه المصالح ولا يمكن لأحد في هذا الضوء أن يضمن وجود الحقيقة في أي فكرة فلسفية، أو علمية بمعنى مطابقتها للواقع الموضوعي وحتى الماركسية نفسها لا تستطيع ما دامت تؤمن بحتمية الطابع الطبقي أن تقدم لنا مفهومًا عن الكون والمجتمع بوصفه تعبيرًا مطابقًا للواقع، وإنما كل ما تستطيع أن تقرره هو أنه يعكس ما يتفق مع مصالح طبقة من جوانب الواقع».

والخطأ الثاني في محاولة الدكتور محمود إسماعيل تأتي من تطبيق المنهج الاجتماعي الماركسي ـ الذي نشأ أصلاً في أحضان الفلسفة الجدلية المثالية الألمانية، وإن كان قد أحدث انقلابًا فيها فوضع الهرم على قاعدته بدلاً من رأسه، كما فعل هيجل، وكما يعترف بذلك ماركس وإنجلز- تطبيق هذا المنهج الذي نشأ في الأرضية الثقافية والحضارية الأوروبية والألمانية منها بالتحديد على الفكر الإسلامي الذي يشكل سياقًا حضاريًا وثقافيًا مغايرًا، وما دام الأمر كذلك فإن تطبيق المنهج الماركسي على الفكر الإسلامي سيكشف المزيد من الأخطاء فتصبح الأخطاء فادحة والتحليلات مضحكة، فما أحدثه الفكر الإسلامي من دعوة إلى المساواة والعالمية وعلاقات التوزيع، وما أحدثه من تغيير في المفاهيم يتحدى المنطق الماركسي ويثبت خطأه،

فالمساواة وفقًا للماركسية لا تأتي المطالبة بها إلا في المجتمع الصناعي البرجوازي، ولم يكن هناك هذا المجتمع الصناعي البرجوازي، وفكرة العالمية ـ وفقًا للماركسية- لا تأتي إلا في المرحلة الاشتراكية ـ فلماذا جاء بها الإسلام على الرغم من وجود علاقات قبلية وتعصب قبلي كبير جدًا في مكة.

وعلاقات التوزيع الإسلامية -التي تحد من الملكية الخاصة لم تكن لتظهر في رأي الماركسية- إلا بعد ثورة صناعية!

لم يكن هذا الخروج على القوانين الماركسية ـ بافتراض علميتها- إلا دليلاً على عدم صحة هذه الماركسية من وجهة نظر علم التاريخ، وهي عندنا دليل على أن الواقع الاجتماعي يتأثر بالفكر، وأن الإسلام كدين ورسالة ووحي هو الذي أحدث هذه التغيرات في الواقع الاجتماعي وليس العكس، أي إن المادة هنا خضعت للفكر ولم يكن الفكر انعكاسًا لها كما تقول الماركسية.

أقصى ما يمكن أن يقوله التلاميذ الجاهلون للماركسية إن هذا الانقلاب الاجتماعي الهائل الذي امتد إلى العالم بأسره بسبب الإسلام جاء نتيجة النمو التجاري في مكة الذي احتاج دولة ثابتة لتدعيمه، ورغم أن هذا القول نفسه لا يتفق مع الماركسية، إلا أن الواقع التاريخي يقول بعكسه فلم تكن التجارة بمكة على هذه الدرجة أولا، وكانت قبل ذلك كثير من المدن في الجزيرة وعلى أطرافها تتمتع برواج تجاري أكبر كثيرًا جدًا مما تتمتع به مكة. مثل بتراء التي أنشأها الأنباط كمحطة للطرق التجارية، ومثل الحيرة في عهد المناذرة، ومثل الإسكندرية وموانئ سوريا وغيرها، فلماذا لم يحدث هذا الانقلاب الاجتماعي في إحدى هذه المدن؟.

المسألة بالطبع أكبر من هذا التفسير ـ ولعل ماركس نفسه وإنجلز نفسه بما أنهما أكثر فهما للماركسية من التلاميذ الجاهلين حاولا القفز على المسألة وتحدثا عن نمط

الإنتاج الآسيوي، ولكن هذا أيضًا لم يكن مقنعًا لأحد، بل حتى الدكتور محمود إسماعيل لا يقتنع به، وإن كان يعزو ذلك ليس إلى فساد المنهج بل إلى قلة المعلومات المتوافرة لدى الماركسيين، يقول الدكتور محمود إسماعيل في هذا الصدد: «قلة النصوص الماركسية النظرية عن العالم الإسلامي في أعمال المنظرين الأول كماركس وإنجلز ولينين مما يعكس ضآلة معلوماتهم عن تاريخ هذا العالم، وإسراف واشتطاط المنظرين من بعدهم في تأويل وتفسير هذه النصوص، واختلافهم في هذا الصدد اختلافًا أبعد الكثير منهم عن المفاهيم الحقيقية لمعطيات هذه النصوص».

وهكذا يتصدى الدكتور محمود إسماعيل لرتق الخرق وسد الثغرة، وهو طبعًا ليس قليل المعلومات مثل منظري الماركسية الآخرين، بل عنده من المعلومات ما يجعله يضع عنوانًا لباب في كتابه هو «سيادة البرجوازية في عصر ما قبل الإسلام، وهكذا وجدنا أنفسنا فجأة أمام برجوازية عربية في شبه الجزيرة العربية في مجتمع القبائل والحروب القبلية، والرعي وحتى دون زراعة وصناعة وحرف وأبراج – فهذا ليس مهمًا في رأي الدكتور- المهم أنه هناك برجوازية والسلام، ويكفي هنا العنوان وشيء من المعلومات غير الموثقة بل والمضحكة حتى يثبت صحة المنهج الاجتماعي الماركسي، وهكذا فالدكتور ينجح فيما فشل فيه ماركس نفسه! وبعد النجاح المنقطع النظير! وبعد التأكد من صحة فرضيات علم الاجتماع الماركسي، فليخضع الدكتور محمود إسماعيل ما شاء من الأحداث والوقائع لمنهجه السوسيولوجي وبهذه القفزة ـ اللاعلمية أضحك الجميع و مادة الضحك- للأسف- كانت هي سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ولا حول ولا قوة إلا بالله».



لماذا فشل مشروع النهضة التغريبي

بعد عشرات السنين من اندلاع حركة التحرر الوطني في العالمين العربي والإسلامي ودول العالم الثالث عمومًا، وبعد سلسلة من التجارب والمحاولات لتحقيق وبناء النهضة، اكتشف الجميع قادة ومفكرين أن مشروع النهضة التغريبي، أي الذي استند على وسائل وأساليب وأفكار مستمدة من الشرق، أو الغرب قد وصل إلى طريق مسدود، وأنه لم يحقق أيًا من أهدافه المرجوة.

وكان من الطبيعي أن يطرح السؤال نفسه، وهو: لماذا فشل مشروع النهضة التغريبي ووصل إلى هذا المستوى من الانهيار واللاجدوى؟ وفي رأينا أن هذا المشروع النهضوي الذي استند إلى إنكار الحضارة الغربية وأساليبها والذي تجاهل خاصية الذات الحضارية لبلادنا كان من الطبيعي والمؤكد أن يصل إلى طريق مسدود؛ لأنه افتقد إلى المقومات البدهية لأية نهضة ولأنه تجاهل العديد من الحقائق العلمية حول عملية النهضة.

منهج النهضة كأي منهج هو ابن سياقه الحضاري:

إذا افترضنا حسن النية في هؤلاء الذين قادوا محاولات النهضة في بلادنا في تاريخنا المعاصر فإننا نجدهم قد وقعوا في خطأ علمي فادح، حينما تعاملوا مع منهجية التغيير بمعزل عن السياق الحضاري لها؛ لأنه في الواقع لا منهج هناك مجردًا من مقولاته ونماذجه؛ لأنه تشكل في أحشاء النماذج التي عالجها واكتسى باللحم من خلال الموضوعات التي ولدها، والمنهج يقوم ويتشكل عبر عملية معقدة من خلال نمط مجتمعي محدد، مما يحدد له مبادئه ومقولاته ونماذجه، فالمنهج الأوروبي في

النهضة تكون عبر تاريخ النمط الحضاري الأوروبي، وبالتالي فإن هؤلاء الذين أخذوا منهج التغيير الأوروبي، حتى لو رفضوا نظريًا المقولات الفلسفية الحضارية الأوروبية، إنما هم في الحقيقة يخدعون أنفسهم؛ لأن هذا المنهج خرج من خلال منظومة حضارية شاملة منهجًا ونماذج ومقولات، وبالتالي فإن هذا المنهج اكتسى وأخذ هذا الطابع الحضاري المميز له. ولكل حضارة شخصيتها المتميزة، ويكاد يكون من المستحيل زرع حضارة في بيئة حضارة أخرى؛ لأن النتيجة ستكون مسخًا، أو ربما أسوأ من المسخ، وحتى هؤلاء الداعين إلى ما يسمى بالتطعيم الحضاري يتناسون حقيقة علمية معروفة، وهي أن التطعيم في علم النبات مثلاً لا ينجح إلا بين النباتات المتقاربة عائليًا، وبدهي أن التطعيم والتلقيح بين الحضارة الإسلامية القائمة على التوحيد والعدل والحرية ورجاء الآخرة، والحضارة الغربية القائمة على الوثنية، والمنفعة اللاأخلاقية والقهر والنهر أمر غير ممكن عمليًا وموضوعيًا.

إن الذين حاولوا بناء نهضة على أسس منهجية غربية لم يدركوا حقيقة موضوعية هامة، وهي أنهم لا يطبقون هذا المنهج في الفراغ، بل إن شعوبًا عاشت تجربة حية من الإسلام لفترة طويلة جدًا، إننا أمام حضارة إسلامية عريقة متميزة وثرية، حضارة تمتلك أصلاً نظريًا إلهيًا، وتمتلك ثروة من التطبيقات الاجتماعية الهائلة من خلال ما حدث طوال التاريخ الإسلامي من علاقات وحالات سياسية واقتصادية واجتماعية ارتبطت بالنص الإسلامي، أو حادث عنه وواجهت هذه الحضارة مشكلات في كافة الميادين، وترتب على تلك المشكلات فقه وثقافة وإجابات نظرية وتطبيقية في مختلف الفروع والمجالات الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية، فضلاً عن ميادين العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية.

وهكذا فإن القفز على هذا الواقع بكل أوجه الصحة والخطأ، والإنجاز،

والقصور فيه سبَّب فجوة هائلة في الوعي والسلوك على حد سواء، وأهدر كل الأساسات فوق التربة، أو تحتها، بحيث كان علينا أن نسير منذ البداية وفقًا للمنهج الأوروبي، ناهيك عن أننا نسير في الطريق الخطأ، الأمر الذي يستلزم مئات السنين زمنيًا، هذا إذا أمكن إخلاء الواقع من الوجدان والتراث الإسلامي وهو مستحيل قطعًا.

إن علم الاجتماع قد أكد على حقيقة بدهية لم يراعها دعاة النهضة التغريبية، وهي أن المنهج العلمي في أساسه أنماط اجتماعية معينة ينبغي أن يتم بمنهج هذه الأنماط ذاتها، وليس بمنهج مغاير، وإلا فإن الأخطاء ستكون بالجملة أي إنه لا يمكن استقرار عملية النهضة والتنمية في مجتمعاتنا بمنهج مستمد من نمط الحضارة الأوروبية مثلاً، وبالتالي فإن شرط النهضة هنا هو أن تقرأ الواقع قراءة صحيحة، وشرط الصحة هنا أن تكون القراءة من خلال منهج تابع من هذا النمط الحضاري الذي نحن بصدده، وليس من خارجه.



غياب البعد الثقافي

محاولات النهضة الحديثة في بلادنا تواكبت مع عملية التحرر الوطني منذ الاستعمار ولا شك أن الصراع مع الاستعمار صراع سياسي واقتصادي وعسكري فلا شك أن الغرب الاستعماري قد استعمل ضدنا أقسى الوسائل العسكرية وأبشعها لتحقيق عملية القهر والنهب، وكذلك لم يتورع عن استعمال كل الوسائل السياسية والاقتصادية في تحقيق أهدافه، وبالتالي كان من الطبيعي أن تشن حركات التحرر الوطني الحرب ضد الاستعمار عسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا.

ولكن البعد الثقافي لتلك المواجهة كان غائبًا، وكان هذا هو السبب بالتحديد في فشل مشروع النهضة بعد رحيل الاستعمار، بل الوصول إلى طريق مسدود أهدر كل المكاسب التي تحققت في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية للمواجهة، بل أقسى من ذلك وأمرّ، أصبحنا مهددين بعودة الاستعمار بجيوشه وأساطيله كالسابق وبآليات أكثر تعقيدًا وأكثر كفاءة.

إن البعد الثقافي للمواجهة كان يعني ضرورة تصفية الرواسب الثقافية الاستعمارية حكوميًا وشعبيًا؛ لأن هذا البعد الثقافي مرتبط بتحطيم، أو بناء المكونات العقدية والفكرية والحضارية والأنماط المعيشية والإنتاجية وأشكال العلاقات الجماعية والفردية وتحطيمها يعني هدم القلعة من الداخل ومسخ الشخصية وجعلها في حالة عدم قدرة على الصمود والمواجهة فضلاً عن تحقيق مشروع النهضة، أما بناؤها بصورة صحيحة فيعني التماسك الفردي والجماعي، والقدرة على المواجهة ـ والقدرة على تحقيق الذات الحضارية وتحقيق مشروع النهضة بالتالي.

والتغريب أدى إلى الاستبداد

ما حدث بسبب التغريب يمكن أن نشبهه بنوع من الانفصال الشبكي بين الشعوب والنخبة الحاكمة، فأصبحت الشعوب بمعزل حقيقي عن عملية النهضة، ولم تستطع النخبة السياسية، أو الفكرية بحكم محدوديتها أن تنجز عملية النهضة.

إن الشعوب كانت وما زالت تحمل الوجدان الإسلامي، كانت وما زالت معبأة بالتراث ومفعمة بالعقيدة، ولا يمكن القضاء على هذا الوجدان، أو طريقة التفكير بسهولة، وبالتالي فإن فرض مشروع نهضوي غير قائم على وجدان الجماهير وعقيدتها وحسها الثقافي وتراثها التاريخي يجعل تلك الجماهير لا تفهم هذا المشروع ولا تتحمس له، أو ترفضه وتعاديه، أو يحدث لها نوع من ازدواج الشخصية، أو انفصامها وبالتالي يعود إلى سلسلة من الأخطاء والخطايا تجعل مشروع النهضة في مهب الريح، وإذا كانت النخبة المغتربة جادة في محاولة تحقيق نهضة على أساس تغريبي، فإن رفض الجماهير لهذا المشروع النهضوي التغريبي، أو عدم حماسها له يجعل تلك النخبة تحاول أن تجبر الجماهير على الانخراط والحماس في هذا المشروع، وبما أن التركيبة الثقافية والوجدانية للجماهير لا تستجيب للتحريض الإعلامي النخبوي بهذا الصدد، فإن النخبة الحاكمة تجد نفسها لاجئة في النهاية إلى قمع الجماهير والاستبداد بها وإجبارها بالقهر على الانخراط في هذا المشروع وبالطبع تبدأ المسألة من هذه الزاوية، وتنتهي إلى أن يصبح الاستبداد والقهر سمة أساسية للحكم التغريبي، بمعنى أن يصبح للاستبداد لبنته الخاصة والذاتية حتى يصرف النظر عن مشروع النهضة التغريبي أي إن التغريب يخلق الاستبداد خلقًا.

* * *

كلمة في مسألة العلوم الطبيعية

من الأشياء التي يتشدق بها دعاة مشروع النهضة التغريبي، أنهم يستهدفون الحصول على العلوم الطبيعية، أو التقنية من خلال مشروعهم التغريبي المرتبط بالمنهج التغريبي في النهضة والمنفتح على الحضارة الأوروبية التي أنجزت تقدمًا علميًا باهرًا.

وينبغي هنا أن نضع الكثير من النقاط فوق الكثير من الحروف في هذه القضية الخطيرة.

ينبغي أن نعرف أن العلوم الطبيعية تنقسم إلى قسمين : قسم خاص بالحقائق العلمية، والمكتشفات العلمية، وقسم خاص بتوجيه هذه العلوم في اتجاه معين، أي لإنتاج سلعة ضرورية، أو كمالية مثلاً، للقضاء على مرض، أو لنشر مرض، أي لإنتاج أدوات تسعد الإنسان وتساهم في راحته، أو لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، لإصلاح البيئة والمحافظة عليها، أو لتخريبها وتلويثها.

أي إن هناك شقًا علميًا وشقًا قيميًا، والشق العلمي تراث إنساني يجب الاستفادة به وليس تراثًا أوروبيًا، ولكن الشق القيمي للمسألة أي توجه العلوم في اتجاه معين - تراث حضاري - أي خاص بتوجه وقيم كل حضارة والحضارة الإسلامية مثلاً عندما كانت متقدمة علميًا كانت توجه هذه العلوم لإسعاد الإنسان وتلبية حاجات كل البشر، بل وكانت تسعى سعيًا لنشر العلوم ولا تحجبها عن الآخرين؛ لأن حبس العلم جريمة في الشريعة الإسلامية الغراء، أما الحضارة الغربية فإنها عندما تقدمت علميًا استخدمت منجزات العلم في تحقيق أكبر قدر ممكن من النهب وقهر

الشعوب الأخرى وظلمها، بل إنها أيضًا حجبت هذا العلم عن الشعوب الأخرى، بل وأصدرت القوانين التي تجرم محاولة حصول الآخرين على تلك العلوم مثل « قضية الدكتور مهندس عبد القادر حلمي مثلاً » ، بل وتغتال العلماء في البلاد الأخرى حتى لا تحدث نهضة علمية فيها« اغتيال الدكتور المشد مثلاً».

إذًا فالعلم كحقائق ومعرفة تراث إنساني ساهمت فيه كل الحضارات والمجتمعات بل إن النهضة العلمية الأوروبية الحديثة استفادت من العلوم والمعارف الإسلامية في تحقيق تقدمها المعاصر. وبالتالي فإن الحصول على العلوم واكتسابها ليس قاصرًا على المشروع النهضوي التغريبي، بل العكس هو الصحيح، فالحصول على العلم هدف أي مشروع نهضوي إسلامي، أما الشق القيمي في العلوم فهذا أمر مرفوض، أي الشق المرتبط بكيفية استخدام هذه العلوم.

والعجب هنا، أن مشروع النهضة التغريبي فشل حتى في الحصول على هذه العلوم لسبب بسيط، هو أن الحضارة الغربية ترفض إعطاء العلوم للآخرين عن طيب خاطر، وما دام المشروع النهضوي التغريبي مشروع غير تصادمي مع الحضارة الغربية، أي متعاون ومهادن لها، فهو لن يحصل على هذه العلوم، بل الصحيح أن المشروع الإسلامي للنهضة هو القادر على الحصول عليها؛ لأنه سينتزعها انتزاعًا، ثم يستطيع أن يهضمها حضاريًا بمعنى أن يوجهها التوجيه المتفق مع قيمه الحضارية.



هذا هو فرج فودة

فرج فودة المصل الواقي ضد العلمانية

يخطئ من يتصور أن فرج فوده قد قتل بسبب فكره، أو بسبب هذا الرأي، أو ذاك، ففرج فودة كمفكر، أو صاحب رأي مجرد كاتب متواضع الإمكانيات رديء البضاعة، بل إن فكره الاستفزازي وآراءه الفجة وتطاوله على المقدسات والرموز الإسلامية وهجومه على التيار الإسلامي بطريقة تفتقر إلى الموضوعية، كان يزيد من قوة هذا التيار ويستفز المزيد من الناس دفاعًا عن دينها وتراثها وعقائدها، والذين جعلوا من فرج فودة بعد موته بطلاً من أبطال العلمانية كانوا في الحقيقة مغفلين، ففرج فودة كان بالضبط مصلاً واقيًا ضد العلمانية، فهو مثل الميكروب العلماني الميت، أو الضعيف والذي يحقن في الجسم الذي تفتقر خلاياه للمقاومة والدفاع، وبالتالي تنجو من المرض، وعندما تحول فرج فودة إلى قضية اكتشفنا أن العلمانية بكل مدارسها من يمين ويسار، ليبراليين وشيوعيين، يخرجون من نفس المستنقع ويستهدفون نفس الهدف، وهو الكيد للإسلام لحساب الاستعمار، انظر مثلاً إلى فرج فودة صديق الإسرائيليين والأمريكيين، أليس هو النجم الساطع في صحف الشيوعيين!

ونحن بداية ورغم كل ذلك، لا نقر اغتيال فرج فودة ولا غيره ولكن على الذين يدينون اغتيال فرج فودة أن يدينوا معه اغتيال الفرنسيين المتعاونين مع الاحتلال الألماني إبان احتلال ألمانيا لفرنسا، وذلك على يد المقاومة الفرنسية، عليهم أن يدينوا اغتيال العناصر المتعاونة مع إسرائيل داخل الأراضي المحتلة على يد رجال الانتفاضة، عليهم أن يدينوا كل حركات التحرر الوطني قديمًا وحديثًا من أجل

عيون فرج فودة، ولكنهم لا يريدون أن يعترفوا بأن فرج فودة قد قتل بتهمة التعاون مع العدو الصهيوني والدعوة إلى التدخل الغربي في بلادنا، وهذا هو فرج فودة الحقيقي لا كما يريد الآخرون أن يصوروه لنا ففي حديثه لمجلة دير شبيجيل الألمانية في عدد ٩/ ٩/ ١٩٨٥ دعا فرج فودة جهارًا نهارًا إلى تدخل الغرب مباشرة لدعم العلمانية والقضاء على التيار الإسلامي - أليست هذه خيانة وطنية!

وفرج فودة - في مجلة أكتوبر - وفي الكتاب الذي صدر عن دار المعارف متضمنًا مقالاته في أكتوبر تحت عنوان: «حتى لا يكون كلامًا في الهواء» له مقال تحت عنوان: «حديث عن آفاق المستقبل، فماذا هو المستقبل في نظر فرج فودة»، يقول فرج فودة: «السلام معناه استعداد الدول العربية وإسرائيل للتعاون والتكامل والتبادل، ثم يزعم فرج فودة «هذا ليس اجتهادًا شخصيًا بل هو واقع ما سيحدث وحقيقة ما يمكن أن يتم».

ثم يزيدنا تفصيلاً فيتحدث عن تشكيل تكتل اقتصادي وسياسي وعسكري يشمل مصر وإسرائيل ولبنان وسوريا والعراق، على أساس حرية انتقال رؤوس الأموال والأفراد وحق العمل داخل هذه الكتلة، ولا ينسى فرج فودة أن يقول : إن دور إسرائيل في إطار هذه الكتلة هو صناعة الإلكترونيات!.

ويقول د. فرج فودة في نفس المقال : «ليس هناك إلا أسلوب واحد وهو أن تصبح إسرائيل جزءًا من نسيج المنطقة ودولة من دولها وعنصرًا من عناصر تكاملها ».

وفي مقال آخر لفرج فودة تحت عنوان : «قراءة في أوراق مؤتمر السلام » نكاد نلمح الرؤية الإسرائيلية الكاملة للمسألة على لسان، أو بقلم فرج فودة. فالأرض ليست مقابل السلام بل مقابل نزع سلاح العرب وتبقى إسرائيل هي وحدها

المدججة بالسلاح النووي، وغير النووي، وبالتالي تفرض شروطها متى شاءت، بل تحتل ما تريد من الأرض أينما أرادت.

وحتى القدس ـ التي تمثل المقدسات في وجدان كل عربي ومسلم نجد فرج فودة لا يمانع في أن تظل القدس موحدة، وأن تخضع إداريًا لمجلسين محليين أحدهما إسرائيلي والآخر عربي، ولا يهم حتى نقل الحكومة والكنيست إلى الجانب الغربي من القدس!

ثم يخوفنا فرج فودة من إسرائيل قائلاً: «الزمن دائمًا في صالح إسرائيل، فهي تضع يدها على مناطق النزاع، وهي قادرة على توظيف الزمن لصالحها سياسيًا وماديًا».

ثم يصل فرج فودة إلى ذروة الخيانة مرددًا نفس الكلام الإسرائيلي عن رفض قيام دولة فلسطينية ويزعم أن ذلك لمصلحة عدد من الدول العربية ـ أي إن رفض الدولة الفلسطينية مطلب عربي- يقول فرج فودة: «والحقيقة الغائبة هنا التي يجب أن يعرفها القارئ أن قيام دولة فلسطينية مستقلة أمر لا يحظى بقبول أطراف عربية في النزاع، وهو يمثل من وجهة نظرها خطرًا داهمًا عليها، وإن أعلنت عكس ذلك» ويستمر فرج فودة مرددًا للرؤية الإسرائيلية للمسألة، وكأن المقال كتب في السفارة الإسرائيلية بالقاهرة ووقع عليه فرج فودة ونشره في أكتوبر، يقول فرج فودة: «المشكلة الحقيقية في السلام هي قضية مستقبل الضفة الغربية»، ثم يتحدث فرج فودة عن الأسباب الأمنية والأسباب الاستيطانية وهي إسرائيلية طبعًا وينتهي به الأمر إلى وضع الحل كالتالي: «أتوقع أن تنتهي المفاوضات الساخنة باتفاق على الحكم الذاتي لعدة سنوات، يعقبه استفتاء وبتعديلات حدودية محدودة، وباتحاد كونفيدرالي أردني فلسطيني في المدى الطويل».

وهو نفس مشروع رابين!! فتأمل!

ويستمر فرج فودة في ترديد وجهة النظر الإسرائيلية بالكامل في مقال له في أكتوبر تحت عنوان: المأزق ـ يقول فيه: «إن العرب بلا أوراق وكذا الفلسطينيون ومن الأفضل أن نستجيب للشروط الإسرائيلية» ويصل فرج فودة في مقاله هذا إلى مستنقع قذر حين يقول: «إن الانتفاضة الفلسطينية لم يعد لها وجود حقيقي إلا في القصائد العربية وإنها مجرد شغب محدود خاضع تمامًا لسيطرة الأمن الإسرائيلي».

وبعد أن يقوم فرج فودة بدور المبشر بالآراء الإسرائيلية حول السلام نراه يقفز ليصبح محامي أمريكا وأوروبا في خلافهما مع ليبيا حول حادثة «لوكيربي» فتحت عنوان لهذه الأسباب يتهمون ليبيا، يتساءل فرج فودة: «هل صحيح أن الولايات المتحدة تتعقب القوى العربية واحدة إثر واحدة وفق مخطط مسبق ومدروس؟ وهل صحيح أنها حرب صليبية ضد العالم الإسلامي؟ وهل صحيح أن مجلس الأمن أصبح ألعوبة في يد القوى الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة، وأنه ينفذ أوامرها دون مناقشة ودون أدلة ودون أسباب؟ وهل صحيح أن اتهام ليبيا بتفجير الطائرتين مجرد فبركة أجهزة إعلام وأجهزة استخبارات وأنه لا يوجد دليل حقيقي على هذا الاتهام؟

وبالطبع يجيب فرج فودة بالنفي، فلا أمريكا تتعقب العرب، ولا هي حرب صليبية، ولا مجلس الأمن ألعوبة، ولا أجهزة الإعلام والاستخبارات الغربية تلفق تهمًا ضد أحد، بل الصحيح أن أمريكا بريئة وليبيا مدانة والغرب على خلق، وليس هناك ازدواج معايير، بل المسألة كلها تحقيقات موثقة قامت بها أجهزة محترمة في القضاء الأمريكي، وقد أتحفنا فرج فودة بنشر تفصيلات ثلاث وثائق هي نص قرارات هيئة المحلفين الفيدرالية العليا بالولايات المتحدة الأمريكية وتفصيلات

المؤتمر الصحفي الذي عقده النائب العام الأمريكي ومذكرة الأسئلة والإجابات الموجهة للمتحدث باسم الخارجية الأمريكية حول اتهامات لوكيربي.

وبالطبع فإن فرج فودة لا يعنيه أن يكون القضاء الأمريكي منحازًا ويتناسى ما حدث في حادثة السود في لوس أنجلوس والتي أثبتت أن القضاء الأمريكي ليس نزيهًا، ويتناسى بالطبع أن يسأل لماذا تتجاهل دوائر القضاء الأمريكي والخارجية الأمريكية والنائب العام الأمريكي حادثة إسقاط الطائرة المدنية الإيرانية فوق مياه الخليج عام ١٩٨٨ على يد الأسطول الأمريكي؟ بل ويتناسى أن مجلس الأمن والمجتمع الدولي المزعوم يبلع لإسرائيل انتهاكاتها لحقوق الإنسان الفلسطيني، بل وإسقاطها الطائرة المدنية الليبية عام ١٩٧٢ والتي كان من ضمن ركابها المذيعة المصرية سلوى حجازي، بالطبع لا يهم محامي أمريكا، إلا الدفاع عن وجهة نظر أمريكا! ولكن ما يهمنا نحن : أن يخفي هذه الصفة، وأن يستخدم صحيفة قومية هي أكتوبر لنشر دفاعه بالمجان؟

وإذا كان فرج فودة يرى في إسرائيل صديقًا وجزءًا من نسيج المنطقة برغم حقائق التاريخ والجغرافيا، وما دام يرى في أمريكا الأخ الأكبر الذي من حقه معاقبة الصغار، فمن يا ترى هو العدو في رأي فرج فوده؟ إنه إيران والسودان، إيران المسلمة والسودان العربية المسلمة، الخطر لا يأتي من أمريكا ولا من إسرائيل بل يأتي من إيران والسودان ويجب أن نعد العدة لمواجهتها، بل لا بد من تجهيز جيش لتأديب السودانيين، وهكذا فإن فرج فودة ببساطة يدعو إلى تمزيق المسلمين وقتال العرب بعضهم بعضًا وهذا بالطبع لخدمة مخططات إسرائيل وأمريكا، فمن المستفيد من الوقيعة بين المسلمين ومن المستفيد من تأديب السودان وإضعاف مصر والسودان أليست إسرائيل؟!.

ولكن هل يكتفي فرج فودة بهذا، بالطبع لا، فلا بد من تمزيق مصر نفسها؛ لأن مصر مهما كانت ـ هي العقبة الرئيسية أمام أحلام التوسع الإسرائيلي ـ فلا بد إذن من تمزيقها، ولكن كيف يكون ذلك، الطريق الإسرائيلي المخطط والمنشور والمعروف هو زرع الفتنة الطائفية وفرج فودة جاهز لزرع الفتنة بالطريقة التقليدية وهي أن يلبس مسوح الرهبان ويجعل من نفسه مدافعًا عن الأقباط ومتهمًا للمسلمين بكل أنواع التطرف والعنف والفتنة، وهو هنا يحقق هدفين فهو يدفع الأقباط إلى الانعزالية بالنفخ في مقولة تعرضهم للاضطهاد، وهو يستفز المسلمين الأغلبية بالافتراء عليهم وتوجيه كل التهم لهم –وعلينا أن نلاحظ أن فرج فودة وأضرابه في إطار المهمة الموكولة إليهم لم يقتصروا في تحليل الفتنة وأسبابها على اتهام الجماعات الإسلامية فقط بل اتهام الدولة والإعلام الرسمي والصحافة الحكومية وعلماء الدين وكل مسلم بتهمة اضطهاد الأقباط، وبالطبع حزب الفتنة الذي ينتمي إليه فرج فودة ليس معنيًا بالأقباط، وهو لا يحب الأقباط ولا يحب المسلمين، المطلوب فقط الادعاء بالدفاع عن الأقباط واتهام المسلمين، أي دفع الأقلية للعزلة ودفع الأغلبية للاستفزاز وهو المخطط الأمريكي الإسرائيلي بحذافيره.



العلمانية والقضية الفلسطينية

منذ أن بدأت الغزوة الصهيونية على بلادنا، بالتحالف مع الغرب الصليبي فإن سلوك القوى العلمانية بمجملها سجل موقفًا محددًا تجاه تلك القضية يختلف في جملته وفي تفصيلاته عن المواقف الجماهيرية عمومًا والإسلامية خصوصًا.

ومن خلال تتبع تاريخ الصراع ويومياته يظهر أن القوى الجماهيرية الإسلامية اتخذت موقفًا مبدئيًا ثابتًا من ذلك الصراع وهو أن الصراع مع الكيان الصهيوني صراع حضاري يمتد في التاريخ والجغرافيا، وأنه ليس هناك أي نقاط للالتقاء مع الكيان الصهيوني وأن الأسلوب الصحيح لإدارة الصراع هو العقيدة الإسلامية وحرب التحرير الشعبية طويلة المدى، في حين أن مختلف القوى العلمانية قد سقطت في فخ التفاوض والحلول الوسط وإمكانية التعايش مع الكيان الصهيوني، وأن ذلك المنهج التفاوضي كان منهجًا ثابتًا لتلك القوى بمعنى أنه كان يعكس فلسفتها ورؤيتها وليس مجرد رد فعل للظروف، ولإثبات هذه الحقيقة فإننا سوف نتتبع مواقف القوى العلمانية وأطروحاتها تجاه الصراع مع الكيان الصهيوني قبل عام ١٩٨٦، أي قبل ظهور تغير المعادلة الدولية بظهور البرويسترويكا، ثم انهيار الاتحاد السوفييتي والكتلة الشيوعية وحرب الخليج والنظام العالمي الجديد، أي قبل أن تكون هناك ظروف دولية غير مواتية، أي إن الموقف التفاوضي كان مبدأ أصيلاً وتوجهًا عميقًا داخل البيئة الفكرية والحركية للقوى العلمانية.

وينبغي في البداية أن نؤكد على عدد من الحقائق الخاصة بالصراع لعلها تكون معيارًا موضوعيًا للتقييم والرصد، فمما لا شك فيه أن الكيان الصهيوني كيان عقائدي توراتي، عنصري استعماري، وأن هناك تحالفًا بين الغرب الصليبي واليهود ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ،

وأن المستهدف هذه المرة هو قلب الإسلام والحضارة الإسلامية بكاملها، وأن هذا الصراع ما هو إلا حلقة من حلقات الصراع الطويل الممتد في الزمان والمكان بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وأن الكيان الصهيوني ما هو إلا إفراز حافل للحضارة الغربية بهدف القضاء على الإسلام والحضارة الإسلامية وبالتالي فإن هناك تناقضًا جوهريًا بين الأمة الإسلامية وبين التحالف الصليبي اليهودي.

وما دام الأمر كذلك فإن الأسلوب الصحيح لإدارة الصراع هو الكفاح الشعبي المسلح طويل المدى في إطار العقيدة الإسلامية، وعدم الوقوع في فخ المفاوضات ووهم إمكانية التعايش مع الكيان الصهيوني، وهذا هو الموقف الثابت للجماهير والقوى الإسلامية.

إن جميع القوى العلمانية وبلا استثناء قد استدرجت إلى فخ التفاوض وعلى مساحة الصراع التاريخية والجغرافية وأن الفرق بينها لم يكن إلا فرقًا في الدرجة، وأنها تصرفت تجاه الصراع بشكل متردد فهي تارة ثورية وتارة تساومية وهي تقبل يومًا وترفض يومًا كما أنها لا تملك رؤية منهجية وحضارية في إدارة الصراع.

والتفاوض فخ استعماري تقليدي، فحينما تشتد حركة الجماهير وتتصاعد فإن الاستعمار يلعب لعبة التفاوض لتطويق المد الجماهيري، وسحب الجماهير المجاهدة من خندق الجهاد والمقاومة ونزع سلاحها وإلهائها وتضييع الوقت. وسنتتبع في هذه الدراسة الموجزة، نهج ثلاث قوى رئيسية يمكن أن تكون نموذجًا لنهج التفاوض، وهي الأحزاب الشيوعية، ثم الأحزاب والحكومات القومية، سواء كانت قومية تقليدية مثل الشريف حسين الملك عبد الله، أو قومية اشتراكية مثل عبد الناصر، أو قومية ماركسية «جورج حبش»، ثم تلك القوى، أو الأحزاب التي بدأت إسلامية، ثم انتهت علمانية، أو دخلتها تشوهات علمانية جوهرية «ياسر عرفات».

الأحزاب الشيوعية

وهي أحزاب هامشية وصغيرة جدًا، وليس لها أي بعد جماهيري، ونشأت بين المثقفين أساسًا وعلى يد الأجانب عمومًا واليهود خصوصًا، وهي لم تصل إلى السلطة وانحصر دورها في بعض الأطروحات النظرية الخطيرة، مثل وحدة البروليتاريا العربية والصهيونية، برغم أن الكيان الصهيوني بكامله بما فيه الطبقة العاملة كيان استعماري وعنصري، وعلى كل حال فإن الماركسية ما هي إلا إفرازات لنفس الأرضية الثقافية الغربية أي جزء لا يتجزأ من الإفراز الحضاري الغربي.

نشأ الحزب الشيوعي الفلسطيني بين المهاجرين اليهود أولاً، ثم ما لبث أن استقطب عددًا من العناصر العربية في فلسطين، ونشأة الحزب الشيوعي الفلسطيني على يد الأجانب عمومًا واليهود خصوصًا أمر يتفق مع نشأة كل الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية وخاصة دول المواجهة (نشأت الحركة الشيوعية في مصر مثلاً على يد كل من جوزيف روزنتال، هنري كورييل، هليل شوارتز وهم جميعًا من اليهود).

وطرح الحزب شعار الوحدة بين الطبقة العاملة العربية واليهودية، كما قام بالدفاع عن المستوطنات اليهودية إبان انتفاضة ١٩٢٩ المعروفة بانتفاضة حائط البراق، كما قاتل إلى جانب اليهود ضد العرب الفلسطينيين.

وقد أدى هذا الأمر إلى استفزاز مشاعر بعض أعضاء الحزب من العرب مما أدى إلى رفع شعار التعريب، ولكن تلك الحركة قد طوقت، واستمر الحزب على نفس المنهج فعاد وأدان انتفاضة عام ١٩٣٥ بل إن الاتجاه التعريبي داخل الحزب نادى بالانخراط في صفوف جيش تشرشل «رفيق السلاح الأحمر» برغم أن الإنكليز

كانوا يضربون الجماهير في فلسطين لصالح اليهود.

وتطور الاتجاه التعريبي داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني ليؤسس عصبة التحرر الوطني، وكان من الشيوعيين الفلسطينيين البارزين فيها إميل توما، فؤاد نصار، إميل حبيبي، موسى الدجاني، وقد طرح هؤلاء صيغة الدولة الديمقراطية وقبول كل اليهود الموجودين داخل فلسطين.

في عام ١٩٤٧ وإثر موافقة الاتحاد السوفيتي على قرار التقسيم انقسمت عصبة التحرر الوطني إلى قسمين، الأول بقيادة فؤاد نصار وإميل حبيبي يؤيد مشروع التقسيم متماشيًا مع السياسة السوفيتية، وبالثاني بقيادة موسى الدجاني وإميل توما يعارض التقسيم.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٤ وفي محاضرة في نادي الغد بمدينة القدس، عاد إميل توما الذي عارض التقسيم سنة ١٩٤٧ فأيد قرار التقسيم وفي سنة ١٩٧٥ أعلن الدكتور خليل البدري قبول مشروع التقسيم (راجع ناجي علوش: الماركسية والمسألة اليهودية، وفي الحقيقة فإن كل الأحزاب الشيوعية العربية وبخاصة في مصر وسوريا ولبنان قد اتخذت تقريبًا نفس الموقف، أو أسوأ منه).



الأحزاب والحكومات القومية

وفي الحقيقة فإن القوى القومية هي أخطر قوة لعبت دورها على الساحة في التمكين للكيان الصهيوني ولنهج التفاوض، فقد طرحت نفسها كبديل للإسلام ووصلت إلى السلطة وأوصلت القضية إلى حالتها الراهنة، وهذه القوة تطورت منذ الشريف حسين عددًا من التطورات فقد بدأت قومية إقطاعية.. الشريف حسين، الملك عبد الله، الملك حسين، ثم قومية، اشتراكية.. عبد الناصر، البعث، ثم قومية ماركسية جورج حبش.



القومية الإقطاعية

نشأت القومية الإقطاعية والأسرية على يد الشريف حسين فيما يسمى بالثورة العربية الكبرى، بدعم إنكليزي كامل، وذلك لتصعيد القومية العربية كبديل للجامعة الإسلامية، ولتصفية الخلافة الإسلامية العثمانية، ويجب أن نرصد في هذا الصدد أن السلطان عبد الحميد قد رفض العرض اليهودي الذي قدمه له هيرتزل، بأن يقوم اليهود بسداد ديون الخلافة العثمانية المنهكة والمفلسة في مقابل السماح لليهود باستيطان فلسطين، فرفض السلطان عبد الحميد ذلك قائلاً: إن هذه البلاد ليست ملكًا له ولا يحق له التصرف فيها، وقد دفع السلطان عبد الحميد والخلافة العثمانية ثمن هذا الموقف التاريخي، وقام الشريف حسين بدوره المرسوم في إضعاف الخلافة وإسقاطها فيما بعد.

وسارت القومية الإقطاعية في نهج التفاوض متمثلاً في العديد من المواقف، فقد صدر وعد بلفور مثلاً في حياة الشريف حسين، ومع ذلك استمر متحالفًا مع الإنكليز ضد الخلافة العثمانية، بل إن الشريف حسين نفسه، وعن طريق وزير خارجيته وهو ابنه الملك عبد الله قد وقع على اعتراف بوعد بلفور في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢١ فكان أول عربي رسمي يوقع على ذلك.

- قام الملك عبد الله بمنح اليهودي روتمبرج صاحب امتياز كهرباء فلسطين الذي كان من أقوى أعمدة الكيان الصهيوني، أرضًا واسعة من أرض الأردن ليقيم عليها مشروعه.

- أيد الملك عبد الله، مع أعوانه من حزب الدفاع «راغب النشاشيبي ويعقوب فراج» فكرة المجلس التشريعي الذي اقترحته بريطانيا لتطويق ثورة

الجماهير الفلسطينية عام ١٩٢٢.

- استمر الملك عبد الله في الاتصال الدائم بالصهاينة بل واستقبالهم في بلاطه.

- قام الملك عبد الله وعلى أثر ثورة ١٩٢٩ وبعد امتناع العرب عن بيع الأراضي لليهود، قام بتأجير ألف دونم من أراضي الدولة في منطقة الغور لليهود لمدة ٩٩ سنة، ثم أخذ يوعز لرؤساء القبائل والعشائر بدعوى أن هناك أرضًا شاسعة معطلة.

- ضلع الملك عبد الله في كل مشاريع التسوية، مثل الكتاب الأبيض البريطاني الأول والثاني والثالث ولجنة واكهوب ومشروع نيمو كومب (١٩٣٨ – ١٩٤٠)، مشروع اللورد موريسون ١٩٤٦، مشروع الملك عبد الله والملك عبد العزيز ١٩٣٨، مشروع التقسيم ١٩٤٧ وكلها مشروعات تنص على الاعتراف بالكيان الصهيوني.



القومية الاشتراكية (عبد الناصر)

وهـي امتـداد عضـوي للقوميـة الإقطاعيـة، وإن كانـت قـد تطـورت في اتجـاه الاشـتراكية لتحقيـق المزيـد مـن تطويـق الجماهـير المسـلمة، بعـد إفـلاس القوميـة الإقطاعية عقب حرب ١٩٤٨.

وقد سار عبد الناصر على نفس نهج التفاوض منذ اليوم الأول لحكمه، ففي ٣ آب (أغسطس) ١٩٥٤ صرح الرئيس عبد الناصر بأن مصر تحتاج إلى السلام واقترح أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بدور الوسيط بين «إسرائيل» والدول العربية، وقال إن مصر تريد أن تنهي التوتر القائم مع «إسرائيل» وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة، والاعتراف بـ «إسرائيل».

- عقد عبد الناصر مباحثات مع روبرت أندرسون سنة ١٩٥٥ لحل المشكلة على أساس قرارات الأمم المتحدة.

- تبادل عبد الناصر الرسائل والاجتماعات مع عدد من قادة الكيان الصهيوني بمن فيهم بن غوريون لحل المشكلة في إطار سلمي وتفاوضي.

- في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥ صرح عبد الناصر للصحف المصرية بأنه يقبل مشروع إيدن لحل المشكلة، وكان إيدن قد قدم مشروعًا في خطاب سياسي له بقاعة البلدية بلندن ينص على الاعتراف بـ «إسرائيل» والعودة لحدود ١٩٤٨.

- طالب عبد الناصر في مؤتمر باندونغ بحل المشكلة بين العرب و«إسرائيل» من خلال التفاوض.

- قبل عبد الناصر قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ والذي ينص

على انسحاب «إسرائيل» من أراض محتلة عام ١٩٦٧ في مقابل الاعتراف بها وإنهاء حالة الحرب.

– وجه عبد الناصر في آيار (مايو) سنة ١٩٧٠ من شبرا الخيمة نداء إلى الرئيس الأمريكي، يدعوه فيه للعمل على حل المشكلة عن طريق التفاوض، وقد ردت الإدارة الأمريكية على ذلك بتقديم مبادرة روجرز التي وافق عليها عبد الناصر، وهي المبادرة التي تنص على الانسحاب من أراض محتلة عام ١٩٦٧ في مقابل الاعتراف بـ «إسرائيل» والسماح لها بالمرور في الممرات العربية وإنهاء حالة الحرب.

– أعلن عبد الناصر - لهيكل - في مقاله بصراحة آب (أغسطس) ١٩٧٠ بعنوان قضايا أساسية للمناقشة أن أمريكا وحدها تستطيع أن تضغط على «إسرائيل» في اتجاه تنفيذ قرار ٢٤٢ وإن ٩٩ ٪ من أوراق اللعبة بيد أمريكا.



الجبهة الشعبية – جورج حبش القومية الماركسية

كان من الطبيعي بعد إفلاس الاتجاه القومي الإقطاعي، والاتجاه القومي الاشتراكي أن يتجه الاتجاه القومي إلى إعادة تشكيل نفسه في أطر جديدة محاولاً استيعاب التغيرات وحقن نفسه بأيديولوجية جديدة ليصبح قادرًا على الاستمرار. وعلى أنه ليس معنى إفلاس التيار القومي الإقطاعي، والاتجاه القومي الاشتراكي العربي أنهما قد غابا عن الساحة تمامًا، فليس هناك قوة تموت فجأة، ولكن معناه أنهما أصبحا غير قادرين على تعبئة أحد، أو ازدراء دورهما التفاوضي، فالحقيقة الواضحة أن حرب ١٩٤٨ قد أنهت التيار الأول وحرب ١٩٦٧ قد أنهت التيار الثاني.

ومن هذا المنطلق خرجت حركة القوميين العرب، من داخل الجامعة الأمريكية، على يد قسطنطين زريق، ووجدت مجموعة من الشباب تلتف حول أطروحة قومية عربية محقونة بأيديولوجية ماركسية، وقد وجدت هذه المجموعة أن التيار القومي قد أفلس، سواء الإقطاعي منه أو الاشتراكي، فقامت بعملية مراجعة ورفض لسلوك هذا التيار الذي تنتمي إليه في محاولة لتطويره عن طريق الأيديولوجية الماركسية، على أي حال فإن تلك المجموعة قد وضعت الكثير من النقاط على الحروف، وحددت الكثير من الأخطاء، ولكنها بدلاً من أن تجعل تلك الأخطاء فرصة لمعرفة أن الصراع صراع حضاري، وأن تلتحم بالجماهير وعقيدة الجماهير الطبيعية، وهي الإسلام، راحت تمارس فوقية ثقافية على الجماهير، فحاولت أن تنزع تلك الجماهير عن درعها وسلاحها الأيديولوجي الطبيعي، وهو الإسلام لتعطيها سلاحًا غريبًا عنها، وهو الماركسية، وصحيح أن تلك المجموعة متمثلة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أدركت الارتباط الذي لا ينفصم بين الاستعمار

والصهيونية إلا أنها تجاهلت أن ذلك الارتباط جزء من التحدي الحضاري الشامل بين الغرب الصليبي والعالم الإسلامي.

وهكذا وقفت الجبهة بعض المواقف الصحيحة في البداية، إلا أنها وقعت في النهاية في نفس المطب وهو قبول التفاوض والحلول الوسط لغياب الأيديولوجية الإسلامية عنها، فرفضت في البداية قرار ٢٤٢ ومبادرة روجرز، إلا أنها عادت لتقبل هذا كله فيما بعد. ففي ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ صرح جورج حبش أمين الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بأنه «خلال مراجعتنا وضح خطأ تصور الجبهة الشعبية لموضوع مشروع روجرز، فقد تصورت أن المشروع معد للتنفيذ الفوري خلال ثلاثة أشهر، وكان يجب أن لا تقع في هذا الخطأ» (الأهرام – عدد ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٧١).



ياسر عرفات – فتح – التشوهات العلمانية

نشأت فتح، والعاصفة سنة ١٩٦٥ وهي تحمل توجهًا وطنيًا وإسلاميًا واضحًا كان له دوره الكبير في سلوكها الصحيح وأطروحاتها الصحيحة للصراع، فقامت بالعديد من عمليات الكفاح المسلح ضد الكيان الصهيوني، ورفضت جميع حلول التسوية والمفاوضات بدءًا من قرار ٢٤٢ ومبادرة روجرز، وتعرضت لأنواع شتى من الحصار والتصفية والمضايقات من نظام عبد الناصر، ثم الملك حسين، إلا أنها صمدت تجاه ذلك كله، ولكن تم تخريبها من الداخل عن طريق حقنها بتشوهات علمانية، أو تصرفات غير مسؤولة وانتهى بها الأمر في النهاية إلى السقوط في مستنقع المفاوضات، وتخليها عن توجهها الوطني وانتهاجها سلوكًا علمانيًا وتفاوضيًا، فطرحت تصور الدولة الديمقراطية التي تضم العرب واليهود، ثم قبلت مبادرة ريغان عام ١٩٨٢، ثم قبلت الخروج من بيروت سنة ١٩٨٢ عن طريق المفاوضات مع فيليب حبيب، ثم قبلت مقررات قمة فاس، ثم قبلت في النهاية إسقاط خط الكفاح المسلح والاستعداد للاعتراف بـ «إسرائيل» بل واستجداء الأمريكان والإسرائيليين للحوار معهم.

وهكذا فإن نهج التفاوض نهج أصيل في القوى العلمانية بجميع درجاتها من يمين ويسار، إقطاعية، أو اشتراكية، أو ماركسية، قومية، أو ليبرالية، أو حتى تلك التي بدأت إسلامية وطنية، ثم تشوهت علمانيًا.



المعركة العلمانية ضد الشعب

لو كانت معركة العلمانيين ضد التيار الإسلامي مثلاً لكان الأمر مقبولاً؛ لأن التيار الإسلامي ليس معصومًا من الخطأ، ولم يزعم يومًا أنه ممثل الإسلام الوحيد، أو أنه احتكر الإسلام، بل هو كما يرى نفسه ونراه مجرد اجتهاد من أجل النهضة يستند إلى الإسلام باعتباره دين الأمة ووجدانها وأيديولوجيتها وباعتبار الإسلام الأقدر على المواجهة وباعتبار المعركة مع الغرب معركة حضارية.

ولكن المعركة الحقيقية للعلمانيين هي ضد الإسلام كدين وكشريعة وكثقافة وكحضارة. ولو استخدم العلمانيون أساليب شريفة في هذه المعركة لكان هذا حقهم؛ لأننا نؤمن بأنه لا إكراه في الدين، وأن من حقهم أن يقبلوا الإسلام، أو يرفضوه ومن حقنا بالتالي أن ننتقد موقفهم هذا، وأن نظهر الغيظ المشروع منه مع احترامنا الكامل لحرية كل إنسان في اختياره، ولكن المشكلة، هنا أن العلمانيين لا يريدون أن يدرسوا الإسلام كما هو، أو تياره الرئيسي التاريخي أو يتعاملوا مع أصوله النظرية كما هي، ثم يقبلون، أو يرفضون، أو ينقدون.

إنهم يريدون بالضبط أن يكف المسلمون عن إسلامهم، ويكف علماء الدين عن دراسة الدين والدعوة إليه، وأن يكف المفكرون الإسلاميون عن استلهام الدين في الحياة، وإلا أصبح هذا إرهابًا فكريًا، أو احتكارًا للإسلام.

إنهم مثلاً يلتقطون من التاريخ الإسلامي كل شاردة وواردة لكي يثبتوا فساد الإسلام وعدم قابليته للتطبيق، أو يفتشون في القمامة عن كل ما يسيء إلى الإسلام كدين وكحضارة وكثقافة وكشريعة.

وبدلاً ـ مثلاً ـ من أن يناقشوا الشريعة بروح علمية يكتفون بالقول إنها رجعية وغير صالحة لزماننا هذا، أو إنها تصلح لمجتمع بدوي دون مجتمع متحضر، أو يقولون مثلاً : إن مجتمعًا كمصر، الذي عاش في كنف الإسلام ثلاثة عشر قرنًا، فإن الدعوة إلى الشريعة فيه ظاهرة جديدة ودخيلة على التدين المصري العاقل الهادئ، كما يقول فؤاد زكريا في كتابه الوهم والحقيقة في الحركة الإسلامية المعاصرة، وبدلاً من أن يدرسوا تاريخ الصحابة بروح علمية نراهم يسيؤون إليهم بروح غير علمية، كما يفعل فرج فودة وحسين أمين وسعيد عشماوي.

وفي الحقيقة فإن الخطاب العلماني في مجمله موجه لإزاحة الإسلام دينًا ودنيا، أو الإساءة إلى رموزه، أو التشكيك في نصوصه، فسلامة موسى وإسماعيل مظهر وشبلي شميل يدعون إلى ترك الأديان كل الأديان والمقصود طبعًا ترك الإسلام؛ لأن خطابهم موجه إلى المسلمين، أو إلى أغلبية إسلامية، وطه حسين يدعو إلى كتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينية لقطع الصلة مع النص الإسلامي، وكذا يدعو إلى محاكمة هذه النصوص كما تحاكم النصوص الأدبية الجاهلية، وكذا يدعو إلى التوجه نحو ثقافة البحر المتوسط كما يسميها، أما لويس عوض وغالي شكري فإن كل همهم هو محاربة اللغة العربية والإساءة إلى الرموز السياسية والفكرية للإسلام، وحسن حنفي يريد علمنة الجانب العقائدي في الإسلام. وعلى عبد الرازق يزعم أنه لا نظام سياسي في الإسلام، أما آخر الإساءات وأخطرها فهي الزعم بما يسمى بتاريخانية النص كما يروج محمد أركون، أي ارتباط النص الديني بمرحلة تاريخية معينة وبالتالي انقطاعه عن عالمنا المعاصر، أو بأن المرحلة الدينية مرحلة أولية من مراحل الفكر البشري ومن ثم فلا بد من تجاوزها، أو أن النص الديني نسبي زمنيًا أي إنه موجه إلى عصر معين كما يقول فؤاد زكريا في كتابه « الصحوة الإسلامية في ميزان العقل »، أو أن الإسلام يجر المسلمين إلى الخلف؛ لأن الدين اكتمل بالإسلام،

وهكذا فالتيار الإسلامي ليس الهدف من المعركة العلمانية بل الهدف هو النص الديني، أو الشريعة، أو الغيب وهي أمور من صحيح الإسلام وليست من اختراع التيار الإسلامي بالطبع.

لا ندري كيف خرج فؤاد زكريا بهذا المفهوم الغريب، فاكتمال المنهج لا يعني بالطبع منع التقدم، أو منع النظر إلى المستقبل، أو محاولة تحسين الحاضر، على أي حال لنتأمل النص الحرفي لفؤاد زكريا لنرى أن المعركة مع الإسلام وليست مع التيار الإسلامي يقول فؤاد زكريا: «حين نتأمل جيدًا موقع العقيدة الإسلامية والوحي القرآني في التاريخ العام للبشر ينكشف لنا أحد الأسباب الهامة التي تحول دون سيادة الاتجاه المستقبلي في الفكر الإسلامي»، وينسى، أو يجهل فؤاد زكريا أن الرسول ﷺ أرشد المسلمين إلى أن يعملوا لدنياهم كأنهم يعيشون أبدًا، وهذه بالطبع دعوة إلى التخطيط للمستقبل، وكذا فإن الإسلام جعل الإنسان مسئولا عن تربية أولاده وحثه على أن يترك أولاده أغنياء ولا يتركهم فقراء عالة على الناس وهذا أيضًا تفكير مستقبلي، وعمر بن الخطاب رفض تقسيم أراضي الفتح وقال إنها ملك لأجيال المسلمين من ولد ومن لم يولد بعد.

لو سلمنا جدلاً - ورغم كل المعطيات اللامنطقية في العلمانية - بأن مشروعها بالنهضة قد ينجح، وأن الجماهير ستتجاوب معه، فإن هذا النجاح ذاته يحمل بذور الفساد والغربة فساد الطبقة الحاكمة، وتعاسة وغربة الجماهير؛ لأن من المعروف في علم الاجتماع، أن الأخلاق لا تنبع من المنجزات العلمية والتقنية في ذاتها، بل تنبع من إطار ثقافي، أو منظومة ثقافية وحضارية، والنهضة الأوروبية اعتمدت في بعدها الأخلاقي أيًا كان الرأي فيه إلى القيم الإغريقية.

وهذه لا شك جزء لا يتجزأ من المنظومة الثقافية الغربية أي إن الأخلاق

الأوروبية وجدت السند الثقافي والحضاري في القيم الإغريقية، ولكن نقل عوامل النهضة العلمية بالتعارض والتقاطع مع المنظومة الحضارية والثقافية الإسلامية سيفقدها بالضرورة بعدها الأخلاقي، ومن البدهي أن من المستحيل مثلاً الحديث عن زرع القيم والأخلاق الإغريقية في بلادنا؛ لأن الإغريقية ليست تراثنا ولا من مكوناتنا الثقافية والحضارية، أي إن الحل الوحيد الذي تقدمه العلمانية هو النهضة العلمية، بدون بعد أخلاقي، وبدهي أن الأخلاق ضرورة لطهارة الحكم، وهكذا لم يكن غريبًا أن يرتبط فساد الحكم في بلادنا بالعلمانية وكان الفساد ابنًا شرعيًا لتلك العلمانية، وبالطبع فإن الفساد في الطبقة الحاكمة، وسدنتها من المثقفين العلمانيين سيشكل بالقصور الذاتي عيبًا جوهريًا في مشروع النهضة العلماني ويؤدي إلى انهياره حتمًا.

أما على مستوى الجماهير المحرومة من منظومتها الثقافية فإنها إما أن يحاول أفرادها ممارسة الفساد كل على طريقته، وهذا طبعًا متاح في حدود ضيقة لعدد محدود من الأفراد يلحقون بصورة أو بأخرى بالطبقة الحاكمة، أو الشعور المتزايد بالاغتراب والتعاسة والحزن وانحطاط وسائل التعايش بين الناس بعضهم ببعض والاحتكام المستمر بينهم ويصبح الآخر هو الجحيم؛ لأن الأخلاق بالضرورة أمر لازم للتعايش بين الناس، ومع غياب المنظومة الثقافية التي تنبثق منها الأخلاق وتعتبر مرجعًا لها، فإن الحياة تصبح بالنسبة للجماهير شديدة القسوة، ولا يمكن احتمالها، وهو ما يعبر عنه بالغربة، هذا مع افتراض نجاح الجانب الصناعي والاقتصادي من النهضة، فما بالك إذا لم يلب هذا الجانب مجرد الطموح الاقتصادي للجماهير، أو حتى الحد الأدنى منه، أليست العلمانية بهذه المثابة هي الجحيم بعينه، وفضلاً عن هذا وذاك، فإن المشروع العلماني للنهضة، والذي يؤدي تلقائيًا إلى

الفساد والغربة، ويحرم الجميع من الأخلاق لغياب الإطار المرجعي لها، هو أيضًا سيحرم الأمة من الفنون والآداب، التي لا تظهر إلا استنادًا إلى مرجعية ثقافية، تقدم رموزًا ودلالات وأذواقا، أي هي تقتل الفن والأدب بإفساد أرضيته الطبيعية، وهي الثقافة، وتحول الإنسان إلى مجرد صرصار يعيش في بالوعة حتى لو كانت ممتلئة بالغذاء والماء اللازم لهذا الصرصار، فما بالك إذا تحول الإنسان العربي في ظل مشروع العلمانية إلى مجرد صرصار مسحوق، لا يجد حتى غذاءه في هذه البالوعة القذرة المسماة بالعلمانية.



التجديد والتغريب والتخريب

التجديد سنة من سنن الله تعالى في الكون والحياة، وجسم الإنسان مثلاً تتجدد خلاياه باستمرار، فتنشأ باستمرار خلايا جديدة وتموت خلايا قديمة، اللهم إلا الخلايا العصبية، ولكن هذا التجديد يتم من خلال الكائن الحي نفسه، ومن داخله ويظل هذا الكائن هو ذاته وليس شيئًا مغايرًا ولا ممسوخًا، أي إن الجسم الحي ككائن متكامل يستخدم عناصر الغذاء والماء وغيرها في عملية تجديد داخلي بحتة.

وإذا حاول البعض أن يقطع جزءًا من الكائن الحي ويلصق مكانه جزءًا آخر فإن الجسم الحي يلفظ هذا الجزء الآخر ويرفضه، وهذا بالضبط ما يحدث لأي أمة ذات شخصية ثقافية وحضارية معينة، فيمكنها أن تستفيد من الثقافات والحضارات الأخرى بحيث تهضم ما تأخذه وتدخله من خلال أنسجتها الحية ليستخدم في تجديد خلايا هذا الكائن الحي.

والنهضة حتى لو اعتبرناها عملية تجديد بحتة، فإنها لا تنجح لو جاءت العملية من خلال بتر عضو من البنيان الثقافي والاجتماعي للأمة، ولصق آخر مكانه — مهما كان هذا الجزء الخارجي جيدًا ومثاليًا.

والإشكال الذي سقط فيه منهج النهضة التغريبي أنه تجاهل وجود كائن حضاري حي، وأن التجديد ينبغي أن يكون من داخل هذا الكائن الحضاري الحي، وليس بتر هذا الجزء، أو ذاك وإلصاق هذا الجزء، أو ذاك من نسق حضاري آخر مكانه، والأمر هنا يؤدي إلى تفجير النسق الاجتماعي من داخله وتنثيره، أي فشل مشروع النهضة.

ولعل هذا يفسر لماذا شجعت السلطات الاستعمارية دائمًا على زرع ألفاظ الثقافة والسلوك الغربي في المستعمرات، فهذا الأمر يتم ليس حبًا في نشر قيم وثقافة الغرب في المستعمرات، وليس حبًا في تجديد وتحديث البنى الثقافية لتلك المستعمرات، ولكن لتخريب وتفجير الواقع الاجتماعي في هذه المستعمرات لكي تظل خاضعة لها وضعيفة عن مواجهتها، ومن البدهي أن الغرب لا يريد لنا النهضة لا على الأساس المحلي ولا على الأساس الغربي ولا على أي صورة.

وهكذا فإن النخب العلمانية والتغريبية، كانت مجرد ناقل لفيروس التخريب والتفجير وليست جسرًا للعبور إلى الحضارة، أو تجديد البنى الثقافية الحضارية في مجتمعاتها.

وهكذا أيضًا نستطيع أن نفهم لماذا ظلت الفكرة التغريبية حبيسة الصالونات وقاصرة على النخب؛ لأنها كانت مؤامرة أكثر منها محاولة للنهضة والتجديد، ونفهم الآن لماذا انصب اهتمام النخب التخريبية على تدمير البنى التقليدية الراسخة للثقافة الوطنية، والتي هي الأساس لعملية الهضم والتجديد من الداخل، إن الأمر أشبه بكسر الإناء وليس تغييرًا ما بداخله، المسألة في مضمونها الأخير ليس تجديدًا؛ لأن التجديد لا يحدث إلا من خلال الكائن الثقافي الحي الموجود فعلاً، وأيًا كانت درجة تخلفه ومن خلال عملية إصلاح داخلي طويلة، ولكنها وسيلة لتحقيق عملية التفتيت، وتدمير قنوات التواصل وحرمان الأمة من القدرة على الصمود والمقاومة وقتلاً لوجودها ذاته في النهاية.

وهذا لا يعني الانكفاء على الذات ولا رفض التجديد، بل يكون التجديد من داخل وفي إطار الكائن الحي الموجود واستفادة وهضمًا للعوامل الخارجية ودمجها من خلال الهضم والتمثيل الغذائي داخل أنسجة الجسم الحضارة الحي للأمة.

وعندما اكتشفت النخب العلمانية والتغريبية أنها لم تكن جسرًا للنهضة بقدر ما كانت حاملاً لفيروس التخريب والتغريب عاد بعضها إلى رشده، واستمرأ البعض الآخر المكاسب التي حصل عليها من خلال أداء تلك المهمة القذرة فشكلت نخبة اجتماعية تميزت على الأمة وانفصلت عنها ومارست عليها تعاليًا، أو تضليلاً، أو تآمرًا ووقفت دائمًا ضد مصالحها المشروعة.



إرهاب المصطلح

إذا رفضت الماركسية فأنت ضد العدالة الاجتماعية ورأسمالي بالضرورة، وإذا رفضت الديمقراطية فأنت ضد الحرية وفاشي بالضرورة، هكذا يضع العلمانيون المسألة، رغم أن وضع المسألة بهذه الطريقة يخل بأبسط قواعد المنطق.

نعم نحن نرفض الماركسية؛ لأنها نتاج غربي وجزء من السياق الاجتماعي الغربي، وننحاز في الوقت نفسه إلى المستضعفين والفقراء وندعو إلى العدالة الاجتماعية، ونرفض استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، والمنهج الإسلامي في هذا الصدد واضح وتفصيلي ومحدد، قد يتشابه مع الماركسية، أو يختلف عنها، ولكنه يظل شجرة مذهبية مستقلة عن الشجرة الماركسية، وتختلف عنها في الأصل والجذور والثمار، وإن تشابه معها في بعض الأشياء كتشابه أي شجرتين مختلفتين، نرفض الماركسية انحيازًا إلى العدالة الاجتماعية؛ لأننا ندرك أن الماركسية لن تحل قضايا الفقراء والمستضعفين، بل تزيدها تعقيدًا وظلمًا وهذه تجربتها تدل عليها.

نعم نرفض الديمقراطية؛ لأنها أيضًا نتاج غربي وجزء من السياق الاجتماعي والسياسي الغربي، وننحاز في نفس الوقت إلى حقوق الإنسان، وحق تداول السلطة، وحق تشكيل الأحزاب، وحق الاختيار الديني والسياسي، وحرية التعبير، واختيار الحاكم والمسؤولين عن طريق صندوق الانتخابات، والمنهج الإسلامي في هذا أيضًا واضح وصريح وتفصيلي ومحدد، ونقول إن هذا قد يتفق في الكثير، أو القليل مع الديمقراطية وقد يختلف عنها وهذا لا يعنينا، فمنهجنا في الحرية حرية الاختيار والتعبير وتداول السلطة وتشكيل الأحزاب وصندوق الانتخابات شجرة

مستمدة من الأصل الإسلامي، تتشابه أو لا تتشابه مع الديمقراطية كما تتشابه أي شجرتين دون أن يكونا شجرة واحدة، أو من بذرة واحدة.

نرفض كل المذهبيات السياسية والاجتماعية الغربية؛ لأننا نحرص على تحرير المصطلح كجزء من الصراع الحضاري مع الغرب الذي يفرض علينا معركته لاستعمارنا ونهبنا والقضاء علينا وزرع إسرائيل في قلبنا، نرفض كل المذهبيات السياسية والاجتماعية الغربية؛ لأنها نتاج لأرضية حضارية فاسدة هي الحضارة الغربية بما في العالم منها الكثير وعانينا نحن أيضًا منها الكثير.

وإن نظامنا السياسي الإسلامي «الشورى» أفضل ألف مرة من الديمقراطية الغربية؛ لأن الديمقراطية الغربية مزدوجة المعايير وعنصرية، أما نظامنا الإسلامي فمعاييره واحدة وغير عنصري، الديمقراطية الغربية هي التي مارست في ظلها دول الغرب كل جرائمها الاستعمارية من نهب وقهر وعنف وعنصرية واستغلال للدول الفقيرة والضعيفة، أما نظامنا الإسلامي فهو يجعل المسلمين كأمة ليسوا فقط ممنوعين من استغلال وظلم غيرهم، أو ضرورة العدل مع العدو قبل الصديق - بل مسؤولين عن رفع الظلم والقهر والنهب والاستغلال عن أي إنسان وأي جماعة بشرية على وجه الأرض.

في ظل الديمقراطية الغربية يمكن أن تفسد البيئة وتلوث الأرض وتنتج السلاح الذري وتصيب الإنسان بالاغتراب، أما نظامنا السياسي الإسلامي فيجعل الأمة مسؤولة عن المحافظة على البيئة وعدم إنتاج إلا ما يسعد الإنسان.

الديمقراطية الغربية تفتقد بالقطع إلى الحرية؛ لأن الحاجة الاقتصادية والحرمان والخضوع للاحتكارات الكبرى يجعل المسألة مجرد لعبة بين المؤسسات العملاقة التي تسلب الإنسان حريته الحقيقية عن طريق الحاجة الاقتصادية ، أو ألمانيا

ومنظمات الجريمة، أو الإعلام المتوحش، أو غيرها . أما نظامنا الإسلامي فإنه يجعل الإنسان قادرًا على مواجهة كل هذا لو نشأ؛ لأنه يعرف أن الله أكبر وأعز من تلك القوى، ثم إنه يمنع نشأة هذه المؤسسات القاهرة للإنسان بوسائل متعددة.

الديمقراطية الغربية تعطي للفرد حرية إفساد المستقبل والقضاء على الأجيال القادمة، أو حتى الإضرار بالآخرين فيما حوله؛ لأن حرية الزنا مثلاً انتقاص لحرية وحق الآخرين في عدم اختلاط الأنساب، فضلاً عن الأضرار التي تلحق بالمرأة التي تتحمل وحدها نتيجة هذا الزنا في معظم الأحوال، وحق الإجهاض مثلاً اعتداء على حق الجنين، وحرية الشذوذ طريق إلى انهيار المجتمع أي مصادرة لمستقبل الأجيال القادمة.. وهكذا.. أما نظامنا الإسلامي فهو يحرر الإنسان ويحمي الآخرين ويحافظ على مستقبل الأجيال القادمة.

نكرر أننا نتمسك بتحرير المصطلح، ونتمسك في نفس الوقت بحق الاختيار لكل إنسان، وحق التفكير والنشر وحق تداول السلطة وحق الاجتهاد وحق تشكيل المؤسسات السياسية الحزبية والنقابية والثقافية ونحترم صندوق الانتخابات ونعتبر أن الاعتداء على كرامة إنسان هو أهم عند الله من الاعتداء على حرمة الكعبة!.

وأطمئن السادة العلمانيين على أن مستقبلهم مضمون في ظل النظام الإسلامي؛ لأن الشريعة الإسلامية تعطي المعارضين لها والمخالفين لها الحق في الاختيار والحق في تشكيل مؤسسات وأحزاب وصحف وتجمعات والحق في الدعوة إلى ما يؤمنون به، بل يجعل من واجب أمة الإسلام أن تحمي حرية هؤلاء في أي مكان وزمان، إذا ما اعتدى على هذه الحرية معتد، وقد يقول العلمانيون : إن هذا بالفعل متاح في الشريعة الإسلامية ولكن تطبيق هذه الشريعة وفهمها أمر مرتبط بالبشر الذين

يقومون على السلطة الزمنية، أي بكلمة أخرى أنهم لا يثقون في أن الإسلاميين المعاصرين سوف ينهجون معهم هذا النهج، وأقول لهم : اطمئنوا فإن أحد قادة الإخوان المسلمين مثلاً وهو المستشار حسن الهضيبي عندما سئل عن «هل يسمح بقيام حزب شيوعي في الدولة الإسلامية، أو الدولة التي يحكمها الإخوان المسلمون مثلاً؟ قال: نعم يسمح بذلك، وهذا حقهم بل إنني أحرص منهم على إعطائهم الحق هم وغيرهم في تشكيل حزب سياسي علني يبشر بمبادئهم، ويدعو الناس إلى انتخابهم على أساسها، وإن كنت أعرف أن الجماهير سترفضهم».



التخبط في الخطاب العلماني

الخطاب العلماني والتغريبي خطاب أيديولوجي أساسًا، وإذا افترضنا البراءة وصرفنا النظر عن النشأة المشبوهة للعلمانية في بلادنا، فإننا نتوقع أن تحاول التيارات العلمانية والتغريبية التوجه بخطابها إلى الجماهير، ونلاحظ في هذا الصدد أن التيار التغريبي فشل دائمًا في إقناع الجماهير بخطابه السياسي وبرنامجه الاقتصادي والاجتماعي، ويرجع هذا إلى عدة عوامل، أولها: أن الوجدان الجماهيري والثقافة الجماهيرية لا يتقبلان الأفكار العلمانية والتغريبية بسهولة؛ لأنها غريبة عنهما، ولأنها لا تدرك جوهر تحدياتهما، ولا تخاطبهما باللغة التي يفهمانها، وثانيها: أن الخطاب العلماني يستخدم الأساليب والوسائل والمناهج ومدارس التفكير التي ظهرت في الغرب، أي التي هي جزء من البنيان الاجتماعي الغربي وتعبر عن واقع ومشاكل مغايرة ومخالفة لواقعنا. وثالثها: أن العلمانيين وبما أنهم ليسوا أوروبيين فإنهم مهما أوتوا من قدرة على فهم لغة الغرب فإنهم سيظلون أعجز من أن يهضموا ثقافة الغرب ويفهموها على حقيقتها، وبالتالي سيقدمون مفهومهم هم للثقافة الغربية وليس الثقافة الغربية في حقيقتها، وهكذا.

وجد العلمانيون أنفسهم في مأزق الجهل بما يريدون تقديمه والجهل بالأرضية الاجتماعية لجماهيرهم أيضًا، ثم الرفض المستمر لخطابهم السياسي من قبل الجماهير، وبدلاً من الاعتراف بفشل خطابهم السياسي راحوا يمارسون نوعًا من الإرهاب الفكري والسلطوي على الجماهير، فزعموا أن خطابهم السياسي ليس مجرد دعوة أيديولوجية كما هي في حقيقتها بل هي علم، وراحوا يكثرون من استخدام كلمات

العلمية والموضوعية والمنهج العلمي وحقل المعرفة، وغيرها من المصطلحات بهدف الإرهاب الفكري للآخرين، وهنا وقعوا في خطأ جديد؛ حيث ساووا بين الأيديولوجية والمذهب السياسي وبين العلم ـ واستخدموا المناهج المختلفة للعلوم المختلفة في علوم أخرى وفي الخطاب السياسي وبدهي أن المناهج أدوات نظرية تختلف من حيث صلاحيتها من حقل معرفي إلى آخر، فما يصلح من أدوات منهجية في علم قد يفشل في علم آخر، أو يحقق نجاحًا جزئيًا.

وكذلك راح العلمانيون يمارسون تعاليا زائفًا، فوصفوا منهجهم بالعقلانية رغم أنه لا علاقة بين العقلانية والخطاب السياسي العلماني، فالعقلانية قد تكون في التراث وقد تكون في غيره وليست حكرًا على تيار سياسي بعينه، وكذا وصفوا أنفسهم بالحداثة لوصف الآخرين بالرجعية في حين أن بعض التيارات الأخرى قد تكون أكثر حداثة من التيار التغريبي بل لا مانع من أن تكون إسلاميًا وحداثيًا مثلاً، ولا مانع أن تكون تغريبيًا ورجعيًا أيضًا.

ومع كل هذا الخلط في الأوراق والتداخل في المناهج العلمية وممارسة الإرهاب الفكري، فإن الخطاب العلماني لم يلق رواجًا لدى الجماهير، وهنا ارتكب التيار التخريبي أقسى جرائمه؛ حيث تحالف مع السلطات المستبدة والعسكر أساسًا لضرب الجماهير وتعذيبها بدعوى القضاء على الفكر الغيبي واللاعقلاني والرجعي، ولأن السلطة في بلادنا ما زالت تخضع لمنطق القوة، أي تخضع للمؤسسة العسكرية أساسًا، ولأن الجماهير عادة تلوذ بالدين والوجدان الديني في مواجهتها للسلطات المستبدة، أصبح الخطاب الديني ورموزه الخطر الأساسي على السلطة المستبدة، وهذه اكتشفت فائدة استخدام العلمانيين في تحديد فاعلية هذه المعارضة الجماهيرية لحماية مكاسب السلطة والتشبث بها، وأصبح المنظر في النهاية مزريًا حيث أصبح

العسكري يستخدم المثقف العلماني كحذاء وسوط وأحيانًا ممسحة لأخطائه وتبريرًا لسياساته.

ومن خلال التحالف السلطوي العلماني يتم ارتكاب كل الخطايا والأخطاء فبدلاً من النظرة الشمولية للواقع وبدلاً من محاولة تجديد الواقع من داخله، نجد النظرة التجزيئية لهذا الواقع والتعامل مع مشاكله كل على حدة، وبدلاً من اعتبار المجتمع كيانًا حيًا مثل الجسم الحي يتجدد باستمرار من خلال تجديد خلاياه الحية نجد المحاولات تأتي من السلطة والعلمانيين لقتل أجزاء من الجسم الحي وزرع أخرى مكانها والنتيجة الحتمية أن يلفظ هذا الجسم المجتمعي الحي ما زرع فيه ويدفع أيضًا ثمن بتر أجزاء منه، أو قتل أجزاء أخرى، ويتحول في النهاية إلى كائن عاجز، ومرة أخرى بدلاً من اعتراف العلمانيين بالخطأ نراهم يتهمون الواقع بالجمود واللاعقلانية والتخلف، وأنه واقع غير قادر على النهضة، أو أن ثقافته لا يمكن لها أن تحمل قيم النهضة وتبدأ الحرب من ثم على المجتمع وهويته وثقافته في دوامة لا نهائية.

ويعبر حسن صعب عن هذه القناعة قائلاً: «إن العنف والقهر حق إذا تعذر سبيل الإقناع السلمي». ويعبر أدونيس أيضًا في كتابه الثابت والمتحول عن نفس الشيء قائلاً: «من الطبيعي أن يحتاج التحديث إلى طليعة أقلية، ما دام المجتمع العربي والثقافة العربية ثقافة تقليدية متخلفة، ولذلك يحتاج هذا المجتمع إلى تغيير جذري شامل لا يتم إلا بالعنف»، ويعلق الدكتور برهان غليون على ذلك في كتابه اغتيال العقل قائلاً: «أي ثورة وعنف تقودها أقلية طليعية ضد الأكثرية المتخلفة من الجماهير»..



الصحوة الإسلامية في خيال العلمانيين

عندما فرضت الصحوة الإسلامية نفسها، راح العلمانيون يرسمون لها صورة من خيالهم بدلاً من التعامل معها كما هي، وهذا بالطبع نوع من الكذب السياسي من ناحية ونوع من الهروب العلماني من مواجهة الحقيقة من ناحية أخرى. والصورة الخيالية غير الحقيقية ، والصورة الكاذبة التي رسمها العلمانيون للصحوة الإسلامية أراحت العلمانيين؛ لأنها جعلتهم يمارسون هوايتهم المفضلة في النقد والتعالي الزائف وادعاء العلمية، وقد افتقدوا العلمية في اللحظة التي قرروا فيها اختراع شكل ومضمون للصحوة الإسلامية من عندهم ومن ثم نقدها، بدلاً من محاولة دراسة وفهم الظاهرة والتعامل معها كما هي وليس كما يتوهمون.

وبدهي أن الصحوة الإسلامية ليست معصومة من الخطأ، ولكن نقد الأخطاء شيء، واختراع أخطاء ونقدها شيء.

والغريب أن هذه الممارسة غير العلمية تجاه الصحوة الإسلامية طالت جميع مدارس العلمانيين بلا استثناء ولم تقتصر على هؤلاء المهرجين في المدارس العلمانية أمثال فرج فودة ورفعت السعيد، بل وصلت إلى عدد العلمانيين ممن تدثروا طويلاً برداء الوقار والعلمية أمثال د. فؤاد زكريا.

في كتاب «الصحوة الإسلامية في ميزان العقل» للدكتور فؤاد زكريا يبدأ الرجل بداية غير علمية ولا موضوعية حين يربط بين تخلف الدول الإسلامية وتمزقها وبين الإسلام الذي يمارسه المسلمون في تلك البلاد على أساس أن الإسلام في رأيه هو ما يصنعه به المسلمون، يقول دكتور فؤاد زكريا: « إن الدول الإسلامية أصبحت على

الصعيد الدولي في ذيل المجتمع العالمي، إنها وحدها هي التي تعيش بلا أمل» يضيف ـ «الكل في بلاد العالم الثالث ينهضون، وإن لم ينهضوا يقاومون وتنتفض قلوبهم بروح الثورة والسخط على الأوضاع ويتملكهم الأمل في مستقبل يتغير فيه مجتمعهم وإنسانيتهم إلى الأفضل.. إلا العالم الإسلامي.. فكل شيء فيه هامد خامد، وكل شيء فيه مبعثر ومنقسم وكل روح فيه منطفئة مكدودة، أما الأمل قصارى الأمل ففي أن يدوم الحال، ولا يطرأ مكروه يقلب الأوضاع ويغير المستقر ويعكر الهادئ».

ونحن بدورنا نسأل الدكتور فؤاد زكريا سؤالاً كان ينبغي هو أن يسأله لنفسه ويجيب عليه متى حدث هذا ولماذا حدث ألم يحدث هذا عندما غاب الإسلام عن الحكم والمجتمع، ألم يحدث هذا في ظل حكم علماني كان هو وغيره من العلمانيين سدنة له وكبار مسئوليه فيه، ألم يتسبب هذا الحكم العلماني في حدوث انفصام في الشخصية الشعبية حالت دون المساهمة والإيجابية وأدت إلى اليأس والسلبية.

قد يكون كلام الدكتور فؤاد زكريا صحيحًا لو كان الحكم إسلاميًا، ولكن الإسلام غاب عن الحكم منذ قرنين تقريبًا، وبالتالي فلا محل لتحميل الإسلام، أو المسلمين أسباب هذا الواقع المزري. ومن ناحية أخرى يرى الدكتور زكريا أن الجميع ينهضون، أو يقاومون ما عدا العالم الإسلامي فكل شيء فيه هامد وخامد، ويتناسى الدكتور زكريا أن الصحوة الإسلامية ذاتها ما هي إلا ثورة ومحاولة للمقاومة والنهضة، وأن جوهر مشروعها هو الثورة على الاستكبار العالمي والقوى الدولية الاستعمارية والاستبداد الداخلي وأسباب التخلف في الواقع، ولعل الدكتور زكريا يدرك الآن أن تهمة الإرهاب والعنف الموجهة من الجميع إلى الصحوة الإسلامية، وبصرف النظر عن رأينا فيها، هي دليل مقاومة وحياة ومعارضة وثورة سواء كانت في الطريق الصحيح أم لا.

ويعود الدكتور فؤاد زكريا، ممارسًا سطحية لا مبرر لها، فيقول: إن هناك من أصحاب الاتجاهات المتخلفة من تعلق بقطار الصحوة الإسلامية، وهذا بالطبع أمر صحيح ووارد، ولكن ليس في الحركة الإسلامية وحدها، بل في كل حركة سياسية، أو اجتماعية، أو دينية، أو فكرية وفي كل الحركات والثورات والصحوات التي عرفتها الدنيا؛ لأن تسلق الانتهازيين لأي حركة أمر موجود ومعروف وليس قاصرا على الصحوة الإسلامية وحدها، بل لعلنا نزعم ولأسباب متعلقة بالمبادئ الإسلامية وبظروف الصحوة الإسلامية أن هذا في أقل حالاته بالنسبة للصحوة الإسلامية، وفي كل الأحوال فإنه لا يصح أن نلصق ظاهرة اجتماعية بحركة معينة، أو نقصرها عليها، أو نجعلها من عيوبها وكأنها اخترعتها هي.

يعود الدكتور فؤاد زكريا فيتعامل مع الصحوة الإسلامية كما يتوهمها، أو يتجاهل جوهرها ويلتقط شيئًا من أطرافها فيقول: «إن الحركات الإسلامية تركز كفاحها على الجوانب الشكلية من العقيدة وتثير ضجة إعلامية هائلة حول تربية اللحى لدى الرجال والحجاب لدى النساء».

والدكتور فؤاد زكريا هنا إما جاهل بالمسار الجوهري والعريض للصحوة الإسلامية وإما أنه يتعمد الجهل والنسيان، ولن أذهب بعيدًا، فكاتب هذه السطور والموصوف لدى أجهزة الأمن بأنه من تيار تنظيم الجهاد لم يكتب سطرًا واحدًا عن اللحية، أو الحجاب في حين كتب عشرات الكتب ومئات المقالات حول القضية الفلسطينية، أو الكفاح الشعبي المصري ضد الاستعمار، أو دور الحركة الإسلامية في تصفية الإقطاع، أو قضايا الحرية والتبعية.. إلخ ونعود فنقول: لماذا يتجاهل الدكتور فؤاد زكريا جهاد الإخوان المسلمين في فلسطين مثلاً، أو على ضفاف القناة، أو النضال السياسي الذي مارسه أحمد حسين ضد الملك والإقطاع، لماذا يتجاهل

الدور الذي تلعبه حركة حماس في فلسطين، وكذا حركة الجهاد الإسلامي سواء في الكفاح المسلح ضد الكيان الصهيوني، أو في تفجير الانتفاضة الفلسطينية واستمرارها، لماذا يتجاهل أن حزب الله في لبنان مثلاً هو الذي حمل على عاتقه عملية الكفاح المسلح ضد التواجد الإسرائيلي في جنوب لبنان.

إنني أزعم أن قراءة الممارسات السياسية، وكذا الإسهامات للصحوة الإسلامية تنصب أساسًا على مناهضة الاستعمار، أو محاربة الاستقلال، أو كشف ألاعيب البنك الدولي، أو الانحياز إلى الفقراء والمستضعفين، أو تبني قضايا الحرية والعدالة، وحتى إذا تكلم أحدهم عن الحجاب فإنه أمر نادر من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه يربطه بقضية التميز السلوكي والقيمي أي كرفض لقيم وسلوك المستعمر، كما يربطه بقطع خيوط التبعية الاقتصادية مع بيوت الأزياء الغربية وشركات تصنيع أدوات التجميل.

ويتابع الدكتور فؤاد زكريًا نفس الخطأ والتجاهل فيزعم أن الجماعات الإسلامية المعاصرة تفتقر إلى برنامج محدد المعالم وهذا لعمري هو الاستهبال بعينه، ففي غضون الأعوام القليلة الماضية هناك عشرات البرامج التفصيلية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي قدمتها الأحزاب الإسلامية، ففي أكثر من مكان تم نشر برنامج جبهة الإنقاذ الجزائرية، وكذا حركة حماس الجزائرية، وهناك البرنامج الخاص بالإخوان المسلمين بالأردن، وحتى في اليمن فإن حزب الإصلاح الإسلامي نشر برنامجه الانتخابي في انتخابات ١٩٩٣ كاملاً، وحتى في مصر هناك برنامج التحالف الإسلامي في انتخابات برلمان ١٩٨٤ وكذا البرنامج الانتخابي لانتخابات المحليات عام ١٩٩٢، وقد نشرت هذه البرامج في كتيبات واسعة الانتشار، وكذا ملخصًا لها في صحيفة الشعب، بل لعلنا نزعم أن وجود برنامج

محدد وتفصيلي هو أمر كان للاتجاه الإسلامي الريادة فيه، فهناك البرنامج الذي نشره حسن البنا تحت عنوان «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي»، وهي رسالة للإمام الشهيد معروفة ومنشورة ومشهورة، وكذا البرنامج الذي قدمه الإخوان المسلمون في أغسطس سنة ١٩٥٢ لإصلاح الأوضاع في مصر عقب حركة ١٩٥٢.



شجرة الزيتون وشجرة الزقوم

* حول قضايا الحضارة والمدنية:

أنتم رافضون للحضارة والمدنية والعلم والتقدم والحداثة، تعيشون في الماضي ولا تعيشون في الحاضر وترفضون المستقبل، هكذا دائمًا يتحدث العلمانيون.

والحديث بهذه الطريقة يحمل مغالطات بالجملة، مغالطات أكثر من عدد كلمات تلك الجمل التي يلوكها العلمانيون دائمًا وأبدًا.

من هذه المغالطات التعامل مع الحضارة الغربية وكأنها هي الحضارة والعلم والمدنية، ورفض الاعتراف بالتعددية الثقافية والحضارية، ومنها إغفال تحليل علاقات السيطرة الثقافية على الصعيد الدولي، ومنها تجاهل الظرف الذاتي والموضوعي المعاصر لعلاقتنا المعاصرة بالحضارة الغربية، أي إغفال ظاهرة الاستكبار والاستعمار والنهب والتبعية والقهر والعنصرية التي شهدها العالم وشهدناها على يد الحضارة الغربية، ومنها أيضًا أن لنا نسقنا الحضاري والثقافي.

وإذا انطلقنا من أن لنا شخصية حضارية وثقافية متميزة، وأن هذه الشخصية الحضارية والثقافية مثل الشجرة، فإن العلمانيين يطلبون منا أن نقطع تلك الشجرة من الجذع؛ لأن قطع الجذور مستحيل وأن نلصق على هذا الجذع شجرة الحضارة الغربية، وبالطبع هذا مستحيل علميًا وموضوعيًا؛ لأن النتيجة أن الشجرة ستموت ولن تورق ولن تثمر، فلا نحن حافظنا على شجرتنا ولا نحن استفدنا من الشجرة الأخرى.

والموقف الصحيح والعلمي هنا أن نبدأ بدراسة خواص شجرتنا، ونعرف أسباب ضعفها، ونستفيد من تجارب الآخرين حول أفضل أساليب العناية بالشجرة

وأفضل وأحدث طرق ريها وتغذيتها ورعايتها، أي الانفتاح الثقافي الواسع جدًا على تجارب الآخرين لنجعلها زادًا وغذاءً وماءً لشجرتنا الحضارية، التي سوف تهضم هذا الزاد الثقافي كله في داخل أجهزتها وأنسجتها الحية وتجعله جزءًا منها .

إن الإسلاميين هنا وانطلاقًا من فهمهم لهذه النقطة لا يدعون إطلاقًا للانغلاق الثقافي والحضاري فهذا أولاً مستحيل، وهو ثانيًا يخالف تجاربهم؛ لأن الحضارة الإسلامية هي أكثر الحضارات انفتاحًا واستفادة من التجارب والثقافات والحضارات، والدعوة إلى الاستفادة من الدم وتجارب الآخرين فريضة إسلامية **«اطلبوا العلم ولو في الصين» «الحكمة ضالة المؤمن» «من تعلم لغة قوم أمن شرهم»** اللغة هنا ليست مجرد اللسان بل هي كل أنواع العلوم والثقافات، والحكمة طبعًا تعني كل أنواع الفنون والعلوم والثقافات، وكذا العلم يعني مختلف أنواع العلوم.

وانطلاقًا من هذا الانفتاح الحضاري والثقافي، فإننا لا نرفض أن نطعم شجرتنا بمختلف أنواع الأشجار الأخرى، والتطعيم في علم الزراعة معروف ولكن له شروطه، فهو لا ينجح إلا بين أنواع معينة من الأشجار، ورفضنا للتطعيم بالحضارة الغربية لا ينبع من الأمر في ذاته، بل ينبع من الموقف العلمي الصحيح للتطعيم؛ لأن التطعيم هنا سيفشل حتمًا؛ لأنه بين شجرتين حضاريتين مختلفتين تمامًا؛ لأن حضارتنا تقوم على التوحيد الحرية والعدل والحضارة الغربية تقوم على الوثنية والقهر والنهب والعنصرية والمنفعة اللاأخلاقية.

إننا نطلب ونرحب ونؤمن بتعاون الحضارات وتفاعلها وتؤمن وترغب في ذلك بالشروط العلمية الصحيحة مع الحضارة الغربية، ولكن المشكلة هنا أن الحضارة الغربية لا تريد لا التعاون ولا التفاعل الحر مع الحضارات الأخرى إنها تريد الهيمنة الثقافية والحضارية والقضاء على الحضارات الأخرى ولم ولن تسمح للآخرين

بالاستفادة منها، إنها تطلب منهم العمل كعبيد لديها، وأظن أن الجميع يعرف أنه في حين أن حجب العلم جريمة في الحضارة الإسلامية حجبه عن المسلم وغير المسلم، فإن الغرب يحاكم ويعاقب من يجرؤ على محاولة الاستفادة من التقنية الغربية وقضية المهندس المصري عبد القادر حلمي خير مثال على ذلك.

ذلك الرجل الذي حكم عليه بالسجن بتهمة نقل التكنولوجيا الأمريكية!

الحضارة الغربية إذن هي التي ترفض التفاعل الحر بين الحضارات وتاريخها مع العالم هو تاريخ الهيمنة والنهب والقهر والتعالم مع العالم بعنصرية وبالتالي فإن طريق التعاون مقطوع، ولا سبيل لنا إلا انتزاع العلم والمدنية والثقافة الحديثة انتزاعًا، وتحقيق النهضة من خلال الصراع مع الغرب وليس الخضوع له ما دام طريق التعاون والتفاعل الحر مقطوعًا سلفًا.

وهب أننا أسقطنا كل هذه الحقائق وسلمنا بالمنطق العلماني في أن الحضارة الغربية هي الحضارة العالمية، وعلينا أن ندخل البيت الحضاري العالمي، وأن الغرب لم ولن يمنعنا من ذلك فهل هذه الحضارة التي تدعو العالم للدخول الحر فيها وليس التبعية لها، تملك مقومات هذه العالمية، الحضارة لن تكون عالمية إلا إذا كانت تتسع للأبيض والأسود والأحمر والأصفر، ولن تكون عالمية إلا إذا كانت ذات معايير واحدة تجاه كل الجماعات البشرية، ولن تكون عالمية إلا إذا كانت منجزاتها تخدم كل البشر وليس جنسًا واحدًا منهم.

وإذا كانت الحضارة حضارة عنصرية فكيف تكون عالمية! وإذا كانت حضارة مزدوجة المعايير فكيف تكون عالمية وإذا كانت منجزاتها العلمية قد استخدمت ليس فقط لصالح الأوروبيين وحدهم، أو طبقة واحدة منهم في رواية أخرى بل هي استخدمت هذه المنجزات العلمية في قهر ونهب الآخرين كيف تكون عالمية وهي

التي تفسد البيئة وتثقب الأوزون وتجعل الإنسان يعيش فوق بركان نووي وذري!

إذا كان لا بد من وجود حضارة عالمية، فلن تكون إلا الحضارة الإسلامية التي تنظر للناس من جميع الألوان والأجناس والأديان نظرة واحدة، بل هي حضارة شارك في صنعها واندمج فيها الأصفر والأسود والأحمر والأبيض، الآسيوي والإفريقي والأوروبي، والتي ترفض فكرة العنصرية «فالناس سواسية كأسنان المشط»، والتي لم تحجب العلم يومًا من أحد بل سارعت إلى تقديمه إلى من يطلبه ومن لا يطلبه، وهي الحضارة التي تجعل أبناءها ليسوا فقط ممنوعون من ممارسة الظلم والقهر والعنصرية، بل مطالبون شرعًا بإزالة كافة أنواع الظلم والقهر والفقر والعنصرية عن أي إنسان، أو جماعة بشرية، وهي الحضارة ذات المسؤولية الأخلاقية عن البيئة والإنسان بل والحيوان **«لو عثرت عنزة في العراق لسئل عمر عنها»**.

والتي: **«ليس منا من بات شبعان وجاره جائع»** والجار هنا قد يكون فردًا، أو جماعة، أو مدينة، أو دولة، أو قارة، أو كوكبًا آخر، الحضارة التي لا تعرف ازدواج المعايير: ﴿ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾.

وهكذا فإن الدعوة إلى الحضارة العالمية تستلزم الدعوة بالضرورة إلى الحضارة الإسلامية وليست الحضارة الغربية التي تحمل كل القيم والممارسات التي تسقط عالميتها..

قد يرد العلمانيون قائلين : إنك تتحدث عن الحضارة الغربية ككتلة صماء، والأصح أن تتحدث عن مذاهبها الصالحة فقط، ونسأل نحن بدورنا: ما هي مذاهبها، أو مذاهبها الصالحة؟ مع العلم أن الاعتراف بفساد مذاهب واسعة منها وليست استثناء، أو مذاهب طرفية، أو جانبية يستلزم بالضرورة التفكير في كون الأرضية الثقافية ذاتها فاسدة، وليست فقط تلك المذاهب ما دامت انتشرت

واتسعت وعاشت في الحضارة الغربية، أي إنها خرجت على أن تكون استثناء على القاعدة، أو شذوذًا عليها، أو مجرد شيء هامشي فيها.

أليست النازية والفاشية والصهيونية والشيوعية من إفرازات الحضارة الغربية، وألا يعني فساد هذه المذاهب وسقوطها فساد الحضارة الغربية برمتها؟ حسنًا سنتجاوز هذا ونتحدث عن المذاهب المزعومة الصلاح. وهي الرأسمالية، أو الليبرالية، أو الديمقراطية وكلها شيء واحد طبعًا.

ولكن أليست تلك المذاهب هي التي حكمت الدول الاستعمارية ؟ وهي التي ارتكبت جرائم إبادة الهنود الحمر والأندوجين في أستراليا واسترقت الأفريقيين السود ونظمت المذابح للشعوب في الجزائر وفلسطين وفيتنام والسلفادور.. والقائمة أطول من أن ترصد، ونهبت العالم كله، وأفرزت الشركات العملاقة المتعددة الجنسيات التي امتصت دماء الشعوب وتركتها في حالة مجاعة وإفلاس؟!

على أي حال سندعو واحدًا من كبار العلمانيين للشهادة في هذا المذهب الأخير المزعوم الصلاح، وبعدها لن يكون هناك محل المدعوة إلى الحضارة الغربية، أو أحد مذاهبها الساقط، أو السائد.

يقول د. فؤاد زكريا: «العالم كله يعرف أن الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا قد ارتكب من الفظائع ما لا تقاس جنبها أية فظائع، وأن فنون التعذيب قد وصلت على أيدي الفرنسيين في شمال أفريقيا إلى حد بالغ الفظاعة».

هذا عن الليبرالية الفرنسية، فماذا عن الأمريكية يا دكتور فؤاد؟ يسجل لها الدكتور فؤاد: «الفظائع التي ارتكبت في فيتنام وتشجيع المذابح السياسية في شيلي والتعصب العنصري ضد الزنوج في أمريكا والتأييد الشعبي لدولة عنصرية مثل إسرائيل».

ويصل الأمر بالدكتور فؤاد زكريا –ونحن نوافقه على استنتاجه– في أن الليبرالية والديمقراطية في الغرب وأمريكا ما هي إلا وهم وأن الحرية الفردية وغيرها من الحريات ما هي إلا أكذوبة، يقول الدكتور فؤاد زكريا: «إن الأمريكي العادي قد تشكل عقله بالطريقة التي يريدها المهيمنون على أجهزة الإعلام الجبارة، وهم الذين يسيطرون على أساليب التفكير وطرق السلوك في المجتمع بأسره، وإن النتيجة الحتمية لذلك أن يصبح الإنسان حتى في أبسط قراراته اليومية إنسانًا مسيّرًا لا مخيّرًا، وهكذا تجتمع في أمريكا ممارسات ظاهرها الحرية وباطنها الخضوع اللاشعوري. وأن في هذا البلد ترفع عصابات مثل المافيا وتهزأ من كل شرعية وانضباط وتمارس تأثيرها على انتخابات الرئاسة والنقابات وتسيطر على الاقتصاد القومي، وأن الإحساس بالأمان منعدم لدى المواطن العادي ويخاف الرجال والنساء أن يسيروا ليلاً في قلب المدن الأمريكية» ويضيف الدكتور فؤاد: «إن المجتمع الأمريكي تنتشر فيه اتجاهات السحر والخرافة والشعوذة ويخلص في النهاية إلى أن المجتمع الأمريكي غير متوازن والحياة فيه غاية تفتقد الكثير والعائد النهائي على الإنسان ناقص هزيل».

ويضيف الدكتور فؤاد: «إن الانتخابات الأمريكية مظهر لأزمة خطيرة في الديمقراطية وأخطر ما في هذه الأزمة هو أن الأمور كلها تسير كما لو كان كل شيء على ما يرام والشكل الخارجي للعملية الانتخابية يومئ بأن كل شروط الحرية والاختيار السليم وتكافؤ الفرص قد استكملت، ومع ذلك فمن وراء هذا الشكل الخارجي يكمن خلل أساسي يستطيع أي شخص يتعمق في تحليل الأحداث أن يلمح ممارسات لا صلة لها على الإطلاق بجوهر الديمقراطية كما ينبغي أن يكون».

وما يقال من نفاق الحرية في أمريكا، يمكن أن يقال بصورة أوسع عن إيطاليا، وبصورة، أو بأخرى عن كل أوروبا، أي إن هذا المذهب الأخير في الغرب فاسد

أيضًا، إذًا ماذا يبقى من شيء في الحضارة الغربية يدعونا العلمانيون إلى الأخذ به؟

إننا حين ندافع عن الحضارة الإسلامية ونتمسك بها فإننا في الواقع نحقق هدفين:

الهدف الأول: هو التصدي لمحاولة الهيمنة والسيطرة الغربية علينا؛ لأننا ندرك أن الهيمنة الثقافية والحضارية هي أحد أساليب الغرب في السيطرة علينا، وأنها الأكثر فاعلية في تحقيق سيطرة مجتمع على مجتمع من كل الوسائل الأخرى السياسية والعسكرية المباشرة.

والهدف الثاني: أننا نؤمن بأن قيم الحضارة الإسلامية هي القيم الأصلح إنسانيًا وأن على انتشارها يتوقف مصير البشرية، وإننا نطمح بها إلى تحرير الإنسانية وإنقاذها من الهاوية التي تسير إليها بسبب سيادة الحضارة الغربية.

الدعوة العلمانية إذن، والتي تستخدم مصطلحات الحضارات العالمية والمدنية والعلم والتقدم والحداثة والمعاصرة، ما هي إلا محاولة لتحقيق السيطرة الغربية الثقافية علينا كوسيلة تضاف إلى الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية، وهي بهذا الأسلوب تحقق هدفين أولهما تسهيل السيطرة الغربية علينا، وإفقادنا قدساتنا الذاتية على المقاومة بمسخ شخصيتنا الثقافية، وثانيهما تشويه سمعة تلك الكلمات والمدلولات والمصطلحات لارتباطها بالممارسات العلمانية والغربية فيتم بناء حاجز نفسي بيننا وبينها أي حرماننا من المدنية والعلم والتقدم والحداثة والمعاصر، ولا شك أننا قد اكتشفنا هذه المؤامرة الخبيثة، فنحن نرفض الخضوع للهيمنة الغربية، ونحن نحرص على تأكيد هويتنا وشخصيتنا من أجل مزيد من القدرة على المقاومة للهيمنة الغربية، ونحن نعتبر العلم والتقنية والحداثة والمعاصرة فريضة علينا ينبغي أن نسعى وراءها في أي مكان وزمان، لنستفيد بها من خلال إدماجها في مشروعنا الحضاري الحي القادر على هضمها من خلال أنسجته الحية وتحويلها إلى عوامل قوة وازدهار في كياننا الحضاري الحي.

الكوكبية أم صدام الحضارات

أصبح كل من مصطلح الكوكبية «نسبة إلى كوكب الأرض»، أو العالمية، أو أن العالم يسير إلى حضارة عالمية واحدة ومصطلح حرب الحضارات، أو صراع الحضارات من المصطلحات الكثيرة التداول في الواقع الثقافي العربي والعالمي منذ أن سقطت الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفييتي وزال الاستقطاب الدولي بين الكتلتين الرأسمالية والاشتراكية.

وينبغي بداية أن نرصد مجموعة من الظواهر حول هذين المصطلحين:

- فمن ناحية ، فإن الدعوة والتبشير بما يسمى الكوكبية، أو العالمية، أو سير العالم إلى حضارة عالمية واحدة قد تفشت في الواقع الثقافي العربي والإسلامي والعالم الثالث عمومًا، في حين أن الحديث عن حرب الحضارات قد ظهر في أروقة دوائر الأبحاث الغربية وبالتحديد في أحد مراكز الأبحاث الجامعية الأمريكية على يد البروفيسور صمويل هاتنجتون.

- ومن ناحية أخرى ينبغي أن ندرك أن صدام الحضارات ليس اكتشافًا جديدًا، بل هو حقيقة معروفة غابت قليلاً بحكم فترة الاستقطاب الدولي، ثم عادت لتؤكد نفسها من جديد، وإن إدراك هذه الحقيقة لم يغب عن كثيرين من المفكرين العرب المخلصين أمثال مالك بن نبي الذي تحدث عن محور طنجة جاكارتا في مواجهة محور واشنطن موسكو، أو محمد جلال كشك الذي تكلم عن الصراع الحضاري باعتباره الحقيقة الأكبر والتي تحرك الصراع العالمي رغم بروز الاستقطاب الدولي في ذلك الوقت بين الكتلتين : الرأسمالية و الاشتراكية.

تقوم دعوة الكوكبية، أو العالمية، أو سير العالم إلى حضارة عالمية واحدة، على عدد من الأسس مثل أن العالم قد أصبح قرية إليكترونية صغيرة بحكم تقدم وسائل الاتصال وبالتالي أصبح الحديث عن الخصوصية الحضارية والثقافية مجرد وهم، وأن القيم الحضارية الغربية ينبغي لها أن تسود العالم بعد أن أثبتت أهميتها وجدواها، وأن من يريد أن يرفضها فإنما هو يرفض المعاصرة بل وعليه أن ينسحب من هذا العالم، وأن القيم الحضارية الغربية هي قيم حضارية عالمية.

أما صراع الحضارات، والذي قال به البروفيسور صمويل هاتنجتون أستاذ علم الحكومات ومدير مؤسسة جون أولين للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد الأمريكية فهو يقوم على عدد من المفاهيم مثل أن القرن القادم هو قرن صراع الحضارات، وأن الحضارة هي الدين، وأنه لا خيار في الهوية الحضارية، أي إن الإنسان لا يملك أن يختار هويته الحضارية بل بها يولد ويموت، وأن الانقسام الأساسي بين الناس سيدور حول محور الثقافة، وأن التناقض الأساسي في السياسة الدولية سيكون بين مختلف الحضارات حيث ستشكل حدود هذه الحضارات ساحات القتال المقبل، وأنه لم يتبق في عالمنا المعاصر سوى ست حضارات هي الغربية، والصينية ، واليابانية ، والهندية ، والسلافية ، والإسلامية، وأن الحضارة الإسلامية هي المرشحة لتحدي الحضارة الغربية وبالتالي يجب تجنيد أبناء الحضارة الغربية لمواجهة المسلمين.

ومن الملفت للنظر هنا، أن الحديث عن صراع الحضارات تم في مراكز الأبحاث التي تمثل الأساس الاستراتيجي للسياسات الغربية، أي إن الغرب يدرك هذه الحقيقة ويعمل على أخذها في الاعتبار ورسم سياساته على أساسها وبدهي أن صمويل هاتنجتون ليس عميلاً للأصولية الإسلامية وبالتالي فنحن أمام حقيقة

بدهية يعمل الغرب من خلالها، فهل تغيب عنا هذه الحقيقة التي طرحها من قبل الكثير من المفكرين الإسلاميين على أساس أنها من البدهيات هل تغيب عنا هذه الحقيقة، ونعيش في وهم الكوكبية التي تفشت في واقعنا الثقافي العربي.

الكوكبية خدعة كبيرة، بل هي مجرد قفاز لإلهائنا عن حقيقة المسألة وبالتالي إخضاعنا في النهاية للحضارة الغربية، وتبريراتها أكثر فسادًا، فإذا كان العالم قد أصبح قرية إليكترونية صغيرة بحكم تقدم وسائط الاتصال، فهذا مدعاة للتأكيد على حضوريتنا الثقافية، فحتى الفرنسيين، وهم جزء من الحضارة الغربية - يقاومون الغزو الثقافي الأمريكي - رغم أنه من نفس قيمهم الحضارية، ولم تحل وسائط الاتصال المتقدمة التي حولت العالم إلى قرية إلكترونية صغيرة عن أن يرفعوا صوتهم احتجاجًا ويدعون إلى المحافظة على الخصوصية الثقافية الفرنسية.

وإذا كان البعض يعتبر الحضارة الغربية حضارة عالمية فإن الحضارة الغربية قد أخضعت العالم قهرًا وسلبًا ونهبًا ولم تخضعه عن طريق الانفتاح الحر، بل إن قيم الحضارة الغربية ذاتها قيم غير عالمية؛ لأنها تقوم أساسًا على العنصرية، سيادة المسيحي الأبيض على باقي العالم، وبدهي أن وجود العنصرية في صميم القيم الحضارية الغربية يجعلها بالضرورة حضارة غير عالمية؛ لأن القيم الحضارية العالمية ينبغي ألا تفرق بين لون، أو جنس، أو دين وإلا كانت دعوة للخضوع الحضاري وليس حضارة عالمية.

وفي الحقيقة فإن إدراك حقيقة أن الصراع الأساسي في العالم كان ولا يزال حضاريًا يؤكد على ضرورة الاهتمام بالمحافظة على هويتنا الثقافية والحضارية وإلا فمصيرنا مصير الهنود الحمر، خاصة وأن الغرب يدرك أن الحضارة الإسلامية هي أكبر التحديات التي تواجهه نظرًا للصراع التاريخي الطويل والذي لم ينقطع يومًا

والممتد في التاريخ والجغرافيا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ونحن إذا أمام مجموعة من الخيارات:

فإما الانخداع بفكرة الكوكبية والاستسلام بالتالي للإبادة الحضارية، وإما مواجهة التحدي الغربي عن طريق التأكيد على الخصوصية الحضارية الإسلامية، وأن نحاول إحداث نوع من التعاون بين مختلف الحضارات، أو التأكيد على الخصوصية الحضارية الإسلامية والاستعداد لصراع طويل وقاسي مع الحضارة الغربية.

وفي الحقيقة فإن الحضارة الغربية ذاتها هي التي لا تقبل التعاون الحضاري بل لا تقبل بأقل من الخضوع الكامل لهيمنتها الثقافية وبالتالي النهب الاقتصادي والقهر السياسي والعسكري، وهكذا فليس أمامنا سوى خيار المواجهة.

أما كيف تتم هذه المواجهة فهناك طريقان، طريق الجمود والسلفية وطريق التحدي والاستجابة، فأما طريق الجمود والسلفية فهو طريق مفيد ولا شك ولكن إفادة مرحلية؛ لأن السلفية والجمود ترفض بداهة كل تجديد، وبالتالي ترفض الخضوع والانفتاح على الغرب وهي بذلك أفضل من تقليد الغرب والاندماج فيه، وأروع ما في الصخرة هو جمودها، ولكن هذا الجمود والسلفية المفيد مرحليًا لا يصلح ولا يقدر على الاستمرار في المواجهة، ولن يكون إلا كنوع من صحوة الموت، أو الحالة الديناصورية التي ستنقرض في النهاية.

أما طريق التحدي والاستجابة، فهو طريق التجديد والإحياء الإسلامي ومواجهة قضايا العصر استنادًا إلى الثوابت الإسلامية «الكتاب والسنة». أي إنه تجديد من الداخل الإسلامي الحي، مثل التجديد الذي يحدث دائمًا في خلايا الكائن الحي من داخله وليس بقطع أجزائه وتثبيت أجزاء خارجية.

أي إن المطلوب تحديًا ومواجهة استنادًا إلى الإسلام واستجابة لمستجدات الواقع وتقديم الاجتهادات المكافئة لها استنادًا أيضًا إلى الثوابت الإسلامية، وهذا الطريق هو القادر على المواجهة والصمود والانتصار في عالم صراع الحضارات.



الإسلام ليس تراثًا فقط

لا شك أن الإسلام كان جوهر التراث العربي منذ ظهور الإسلام وحتى الآن، ولكنه بالقطع ليس تراثًا فقط، إنه كيان حيّ ما زال يعمل في عقل ووجدان الأمة، وهو وسيلتها الصحيحة وأيديولوجيتها من أجل التحرر والانعتاق.

والتغريبيون والعلمانيون يرفضون الإسلام أصلاً، وهم لذلك يرفضون التراث ويقفون منه موقفًا سلبيًا، ولوا أن الإسلام كان جوهر التراث العربي، لما كان هذا موقفهم من التراث، إنهم مثلاً يمجدون التراث الفرعوني، أو القبطي، أو حتى العربي الجاهلي، ونجدهم متحمسين لكل تراث، إلا التراث الإسلامي، وهذا هو المدخل الصحيح لفهم موقف العلمانيين من التراث، المسألة كلها موقف سلبي من الإسلام ولا علاقة لها بموضوع التراث.

ووضع المسألة في إطار أن الصحوة الإسلامية منحازة إلى التراث، والعلمانيون منحازون إلى الحداثة هي مغالطة بالضرورة فالصحوة الإسلامية ليست بالضرورة منحازة إلى كل ما هو في التراث بل هي تقف موقفًا نقديًا من هذا التراث وتعترف بأن فيه إيجابيات وسلبيات؛ لأنه عبارة عن نتاج تطبيقٍ كلي، أو جزئي للإسلام، تطبيقٍ صحيح، أو خاطئ، أو قاصر، هم منحازون بالضرورة إلى الإسلام الذي ما زال حيًا في النفوس ومستمرًا إن شاء الله إلى يوم القيامة ويعتبرونه أيديولوجية الجماهير من أجل التحرر والنهضة، وأن إزاحة الإسلام عن الواقع العربي مثلاً أدى إلى انفصام الشخصية العربية، وكان هذا هو سبب التخلف الحقيقي في الواقع العربي والصحوة الإسلامية أيضًا بالضرورة ليست ضد الحداثة، والحقيقة أن وضع

مسألة التراث في مواجهة الحداثة ليست إلا هروبًا علمانيًا من الاعتراف بالحقيقة وهي أنهم يناهضون الإسلام الحي في النفوس وليس التراث.

ومن الناحية العلمية المحضة مثلاً فليس التراث أيًا كان مسئولاً عن حل مشكلات الحاضر، ولكن إصرار العلمانيين على جعل التراث هو سبب مشاكل الحاضر اعتراف ضمني بأنه قوة حية ينبغي الدخول معها في معركة، وبدهي أن التراث كمفهوم لا يمكن أن يكون قوة حية في الواقع وإلا ما كان تراثًا، إن القوة الحية هي الإسلام، وهذا في الحقيقة المقصود بالحملة وجوهر المشكلة بالنسبة إلى العلمانيين.

نعم الصحوة الإسلامية تحترم التراث وتراه عقلانيًا وإيجابيًا ومجالا للإشادة والفخر، والمدرسة العلمانية على العكس تراه لاعقلانيًا وخرافيًا وأسطوريًا، ولو حتى سلمنا مؤقتًا بموقف العلمانيين من التراث واعتبرناه لاعقلانيًا وخرافيًا وأسطوريًا، لما كان ذلك سببًا كما يقول العلمانيون في تخلف الحاضر، فالتراث الأوروبي مثلاً مليء بالسحر والخرافات ورفض العام والتمسك برؤية الكنيسة للفلك والطبيعة وغيرها إلى درجة حرق كل ما يخالف هذه الآراء ومع ذلك وبرغم ذلك لم يكن هذا حائلاً دون استمرار مسيرة النهضة الأوروبية، فلماذا لم يحدث ذلك في الواقع العربي رغم أن التراث الإسلامي في أسوأ حالات الرؤية إليه كان أقل كثيرًا من التراث الأوروبي في اضطهاد خصومه، أو حرق المعارضين، وفي أحسن حالات الرؤية إليه كان تراثًا مرنًا عقلانيًا وداعيًا إلى الحرية والعدالة، لماذا لم تحدث نهضة برغم إزاحة كل ما هو تراثي بل وإسلامي من الحكم والمؤسسات وسيطرة العلمانيين التامة على مواقع التأثير في المجتمعات العربية منذ قرنين من الزمان.

الخطأ إذن موجود في الشكل والمضمون اللذين يطرح بهما العلمانيون المشكلة

ويبحثون عن حل لها في هذا الإطار.

انظر مثلاً إلى الدكتور فؤاد زكريا يمارس عشرات الأخطاء في عدة أسطر في كتابه الصحوة الإسلامية في ميزان العقل قائلاً: «التجاهل المزعوم لجذورنا ومنها الجذور الدينية هو في رأي الكثيرين السبب الحقيقي لهزيمة ١٩٦٧ وموقفنا من الماضي هو الذي أدى إلى تلك الكارثة، على حين أن الأداء الأفضل الذي قمنا به في عام ١٩٧٣ إنما يرجع في نظر هؤلاء إلى أننا ازددنا اقترابًا من هذه الجذور بعد أن تبينت لنا فداحة الأضرار التي نجمت عن انفصالنا عنها».

والدكتور فؤاد زكريا هنا يختلق تفسيرات، أو يصيغها بطريقته، فالذي قاله الإسلاميون أن الإيمان بالله وليس التراث والماضي هو شرط من شروط النصر بالنسبة للمسلمين، والله تعالى ليس ماضيًا ولا تراثًا، وقالوا : إن الإسلام الحي في النفوس هو الوحيد القادر على تعبئة الأمة وحشد قواها وجعلها إيجابية وهذه حقيقة اجتماعية يلمسها أي دارس لحركة الجماهير العربية — وأن الهزيمة حدثت في ١٩٦٧ كنتيجة طبيعية للحرب على وجدان الأمة الحي وليس جذورها؛ لأن الحرب على وجدان الأمة يخلق انفصام الشخصية ويدفع المجتمع إلى السلبية وهذه بدهية، وأنه عندما سمح للأمة باستلهام دينها ووجدانها في ١٩٧٣ انتهى الانفصام فزادت الإيجابية وأصبح الإنسان متسقًا مع نفسه، فأظهر تعاونه الطبيعي وأدى أداءً متفوقًا في حرب ١٩٧٣ ، وأن الله تعالى أيدنا بنصره في هذه الحرب ومدد الله تعالى يأتي دائمًا بشرطين الإيمان والأخذ بالأسباب، وهذه دعوة للعمل وليست دعوة للتواكل؛ لأن اعتبار العمل هنا فريضة والأخذ بالأسباب هنا فريضة، وأنه بعد الأخذ بالأسباب وبذل أقصى الجهد ومع التسليم بقدرة الله تعالى على إرسال المدد يصبح الإنسان قادرًا على تجاوز كل الصحاب، بل نجده استنادًا إلى قدرة الله التي هي أعلى قدرة في

الكون يصبح شجاعًا إلى درجة اقتحام الصعاب التي لا تسعفه وسائله المادية على اقتحامها، ولو غاب البعد الإيماني عن حرب ١٩٧٣ لتقاعسنا عنها؛ لأن كل الحسابات العسكرية كانت في غير صالحنا.



العلمانية ليست أكثر من شوشرة

يعترف الدكتور فؤاد زكريا بأن العلمانية المعاصرة دفاعية قبل كل شيء، وأنها تستهدف مقاومة التيار الإسلامي الجارف ولا تستهدف بناء مشروعها الخاص، قائلاً في كتابه الصحوة الإسلامية في ميزان العقل: «اتجهت الحركة الإسلامية المعاصرة إذن إلى المزيد من الفعل الإيجابي وإلى المزيد من التوسع والشمول وصب كافة جوانب المجتمع في قوالبها الخاصة، أما العلمانية فإنها علمانية سلبية تعرف جيدًا ما تريد، لكنها لا تتوحد حول هدف إيجابي يحدد لها ما تريد، فالعلمانية اليوم تضم القومي واليساري والليبرالي والمثقف غير المُسَيَّس، وبقدر ما يختلف هؤلاء في تعريف مفهوم التقدم، أو الإصلاح، أو النهضة - وفي تحديد نوع المسار الذي يسعون إلى توجيه المجتمع نحوه، فإنهم يتفقون جميعًا على رفض الأهداف العامة التي يدعو إليها التيار الإسلامي».

ثم يحدد الدكتور فؤاد زكريا سمات العلمانية في بلادنا قائلاً: «إنها لا تكون مشروعًا للنهضة، وإنما تشترك في رفض المشروع الذي تقدمه الحركة الإسلامية المعاصرة، وإن الفرق بين التيار الإسلامي المعاصر والاتجاه العلماني الذي يتصدى له ليس تضادًا بين مشروعين وإنما هناك مشروع إسلامي من ناحية ومحاولات دفاعية لنقد هذا المشروع وبيان نقاط الضعف فيه من ناحية أخرى، وهو ليس تضادًا بين أيديولوجيتين؛ لأن هناك من جهة أيديولوجية إسلامية وتختلف تياراتها في بعض التفاصيل، ولكنه الاتجاه العام والاستراتيجية البعيدة المدى متقاربة، وهناك من جهة أخرى مجموعة من الأيديولوجيات الشديدة التباين التي لا يجمع بينها سوى رفض الحل السياسي الذي يقترحه التيار الإسلامي».

وبالطبع فإن اعتراف الدكتور فؤاد زكريا وهو علماني – جاء في معرض دعوته للتيار العلماني بأن يتحول إلى مشروع للنهضة بدلاً من اكتفائه بدور الناقد لمشروع النهضة الإسلامي، وبدهي أن دعوته هذه لا مستقبل لها؛ لأن العلمانية في نشأتها وممارساتها لا تملك مقومات المشروع ولن تمتلكه يومًا، وعلى أي حال فإن ما قاله الدكتور فؤاد زكريا يؤكد الرأي الذي يقول : إن العلمانية ما هي إلا عقبة في طريق النهضة، وإنها مجرد شوشرة على المشروع الحضاري للأمة وهي إسلامية بالضرورة، ولأنها لم تكن ولن تكون مشروعًا للنهضة فإنها تلقت دعمًا مباشرًا دائمًا من السلطات الاستعمارية والسلطات الاستبدادية التي توجست دائمًا من المشروع الحضاري للأمة وهو المشروع الإسلامي.

وهكذا فليس غريبًا على العلمانية ما تشاهده من ممارساتها التي وصلت في عدائها للمشروع الحضاري للأمة، إنها مثلاً دعمت الاستعمار في مواجهة حركة التحرر الوطني التي كانت إسلامية بالضرورة ودعمت الاستبداد وقمع الحريات للقضاء على التيار الإسلامي، بل وجدنا اليساري العلماني يدعم الفساد والطفيلية والاقتصاد التابع وينحاز ضد الفقراء ما دامت السلطات التي تمارس هذا تقمع الاتجاه الإسلامي، ووجدنا، الليبرالي العلماني يرفض منطق صندوق الانتخابات إذا جاءت بالإسلاميين، ووجدنا العلماني القومي ينحاز إلى الطائفية ما دامت الطائفية مبررًا لإزاحة التيار الإسلامي وهكذا..

وبسبب كون العلمانية مجرد شوشرة على المشروع الحضاري للأمة فإنها ظلت دائمًا ضعيفة الانتشار لدى الجماهير ومقطوعة الصلة بالواقع، وبعيدة كل البعد عن المصالح المشروعة للأمة، بل معادية لها في أغلب الأحيان ولهذا السبب نفسه وجدنا الجماهير تنخرط في الحركات الإسلامية وتتعاطف معها؛ لأن تلك الحركات ليست إلا تعبيرًا وطليعة للمشروع الحضاري لتلك الجماهير.

العلمانيون.. سواء

يعترف د. رفعت السعيد وينسى نفسه ـ أن كلاً من ولي الدين يكن وشبلي شميل وهما من أوائل العلمانيين العرب كانا مواليين للاحتلال البريطاني، يقول د. رفعت السعيد في كتابه «ثلاثة لبنانيين في القاهرة» :«إنه موقف غريب يستحق التأمل أن معظم المفكرين أمثال شبلي شميل وعدلي يكن موالين للاحتلال البريطاني، فولي الدين يكن يصدر صفحات كتابه« المعلوم والمجهول » الذي صدر من مطبعة الشعب سنة ١٩٠٩ بصورة للمعتمد البريطاني اللورد كرومر واصفًا إياه بمصلح مصر».

لاحظ هنا أن اللورد كرومر ممثل سلطة الاحتلال البريطاني، وهو نفسه المسؤول عن مذبحة دنشواي المشهورة.

وأن شبلي شميل هو القائل: «إن مصر تحت سيطرة الإنجليز انتظم ريها وأثرى فلاحاها واتسعت زراعتها وانتظمت ماليتها وبلغت الحرية فيها مبلغًا عظيمًا» ويصل الأمر بشبلي شميل أن يؤيد الإنجليز في محاولة مد امتياز قناة السويس وهو الأمر الذي عارضه الشعب كله ووصل إلى حد اغتيال رئيس الوزراء لمنعه من إتمام هذه الصفقة الخيانية.

وهؤلاء عند رفعت السعيد وغيره هم رواد الاشتراكية والحرية والتقدم والنهضة والعلم... إلخ.. وهم الذين دعوا إلى نبذ الدين والتراث ودعوا إلى الإلحاد والمذاهب الغربية على اختلافها، أي إنهم دعاة العلمانية الأوائل، وهكذا كانت نشأة العلمانية في أحضان الاحتلال أمر له دلالته؛ لأن الاحتلال في حد ذاته اعتداء على

الحرية والنهضة والتقدم والعدالة، فما بالك بمن يصفه بالإصلاح، ويصف عهده بالحرية، ثم يزعم بعد ذلك أنه صاحب مشروع للنهضة! أي نهضة هذه! المسألة كلها شوشرة على الكفاح الوطني وإحداث انفصام في الشخصية الوطنية وقتل لروح النهضة والمقاومة وخدمة لأهداف الاستعمار.

ولكن هل كل العلمانيين سواء. من يمين ويسار واشتراكي وتقدمي وليبرالي.. إلخ .... نعم هم سواء؛ لأنهم أصحاب مشروع واحد هو مشروع الشوشرة على الكفاح الوطني ومنع الاتجاه إلى النهضة بأسبابها الحقيقية والعمل من خلال خطة الاستعمار ولصالحه.

رفعت السعيد نفسه اعترف في تأريخه للحركة الشيوعية المصرية بأنها نشأت على يد اليهود، وأكمل المؤرخ الأمين المستشار طارق البشري الجملة فقال: على يد اليهود ولصالح مشروع قيام إسرائيل!

ولأنهم سواء فإن محمود أمين العالم يبدي إعجابه بزكي نجيب محمود؛ لأنه يتصدى للقوى السلفية ويدعو فؤاد زكريا إلى جبهة معادية للصحوة الإسلامية.

ولأنهم سواء فموقفهم واحد، الليبرالي لطفي السيد أحد أعمدة حزب الأمة الموالي للاحتلال وأحد كتاب صحيفة «الجريدة» المناهضة للكفاح الوطني والمشيدة دائمًا بالاحتلال وقاسم أمين – داعية تحرير المرأة، هو أيضًا من نفس الحزب حزب الأمة، ووجد التشجيع من نفس الصحيفة «صحيفة الجريدة».

والاشتراكي شبلي شميل يتغزل في الاحتلال واللورد كرومر ويتناسى مذبحة دنشواي، بل ويتناسى اشتراكيته حيث يصف الفلاح المصري بالسعادة في ظل الاحتلال رغم النظام الإقطاعي!

والحركة الشيوعية المصرية يهودية النشأة إسرائيلية الأهداف.

ونوال السعداوي وجمعية تضامن المرأة تمولها مؤسسة فورد كونديشن وهو ما كشفته زميلاتها في الجمعية ونشرته الصحف في أكثر من مرة.

وغالي شكري ـ وجماعة مجلة حوار بأكملها ـ تلك المجلة اليسارية التي تمولها المخابرات الأمريكية ـ كما يقول الأستاذ محمد جلال كشك.

واليمين واليسار، الاشتراكية والشيوعيين، والليبراليين ودعاة تحرير المرأة كلهم في خندق واحد لمواجهة ما يسمونه بالخطر الأصولي، أو السلفية، ويدعون لمواجهة هذا الخطر بالتعاون مع إسرائيل وأمريكا والشيطان.



لماذا تأخرنا – وما السبيل إلى النهضة؟

سننسى، أو نتناسى أن القرآن يدعو إلى العلم، بل يعتبره فريضة إسلامية، وأن العلم تراث إنساني وليس اختراعًا غربيًا، وأنه لم يحدث أبدًا أن اضطهد أحد المسلمين في أي حقبة زمنية من مسيرة الحضارة الإسلامية لرأي علمي كما حدث في الصراع بين العلم والكنيسة في الغرب.

سننسى، أو نتناسى أن الدعوة إلى العلم هي بالتحديد دعوة أصحاب المشروع الإسلامي للنهضة، فمحمد كرد علي وشكيب أرسلان والأفغاني وغيرهم دعوا إلى العلم واعتبروه طريق المسلمين إلى النهضة، ويرصد د. برهان غليون هذه الحقيقة قائلاً: «لقد أصبح البرهان على عدم التعارض بين الإسلام كتراث ودين وبين التقدم كقانون للحضارة ونموذج غربي هو في الواقع محور عمل رجال النهضة من الإسلاميين، فمنهم من سعى إلى أن يبين كيف كان الإسلام يحث على التضحية والعمل والجهاد، ومنهم من بين كيف كان الإسلام يحث على العلم والأخذ بالعقل ونبذ التقليد والأعراف السيئة والخرافة، ومنهم من بين تعلقه بالحرية، بل بالسلطة المدنية، ومنهم من أبرز تشجعيه للصنائع... إلخ...».

سننسى كل هذا ونقول للعلمانيين إن المعاهد والجامعات العربية لا تستمد مفاهيمها ولا طرق تعليمها لا من القرآن ولا من اللغة ولا من التراث، بل كلها تأخذ النموذج العلمي والتعليمي الغربي ومع ذلك لم يحدث نهضة ولا أخذنا بأسباب العلم.

ونقول لهم إن الدارسين العرب – الذين تتشكل بالطبع ثقافتهم من الإسلام

والثقافة الإسلامية، هم أنفسهم الذين تفوقوا في العلوم في جامعات الغرب، بل وأصبحوا العمود الفقري للنهضة العلمية الغربية المعاصرة، فلماذا تفوقوا وأسهموا رغم ثقافتهم الإسلامية.

المسألة إذن لا علاقة لها بالذات ولا بالثقافة العربية بل السبب في تخلفنا هو أنكم تحكموننا، وأنكم بأسلوبكم الاستبدادي والانفصامي مزقتم الذات العربية وأفقدتم المجتمع القدرة على تجديد نفسه من الداخل وشوهتم الهوية فلم يعد هناك الوعاء الصحيح والذات السوية القادرة على الانتفاع وتطوير المجتمع من خلال اكتساب العلوم العصرية.

إنه لا نهضة ولا علم ولا تقدم بدون إطار مجتمعي له فاعلياته الثقافية والحضارية أي له شخصيته، وإذا انفصمت هذه الشخصية، ضاعت كل المحاولات للتقدم أي إن الشخصية الثقافية لنا هنا ليست متناقضة مع العلم، أو التقدم، أو النهضة بل هي شرط لها، وهل هناك بناء بغير قواعد، أو شجرة بغير جذور ودائمًا العلم والتقنية ليست بضاعة معروضة في فاترينة نذهب لنشتريها، بل هي تفاعل الذات وإيجابيتها ومحاولتها للحصول على ما يجددها ويطورها ويزيدها غنى، لا من يدمرها ويشوهها ويمسخها.



فلما سقطت الماركسية
سقطت معها العلمانية العربية برمتها

الولـوج إلى الحداثـة والتقـدم والنهضـة يمـر عـبر القضـاء عـلى الـدين والـتراث والهويـة، فزكـي نجيـب محمـود يقـول: «هـذا الـتراث كلـه بالنسـبة لعصرنـا قـد فقـد مكانته»، وطه حسين يقول: «ما يربط مصر بالشرق سطحي وعابر وعلينا أن نصبح جزءًا من أوروبـا»، وسـلامة موسـى يطالـب بحـرق الأديـان والثقافـات والتقاليـد، وشيلي شميل يقـول: «إن تطـور العلـوم غـير ممكـن مـع بقـاء الـدين» ونـديم البيطـار يقول: «إن التخلص من التقاليد هو شرط التخلص من الاحتلال».

ووضـع المسـألة بهـذه الطريقـة وضـع العلمانيـة في مواجهـة المجتمـع، وفي عـداء للجماهير التي لا ترغب بالطبع في التخلي عن دينها ولا ثقافتها فكـان لا بـد أن يـتم قهر هذه الجماهير على ترك هذا الـدين وتلـك الثقافـة عـن طريـق عنـف تقـوده أقليـة طليعية ضد أكثرية متخلفة كما يقول أدونيس.

وبـالطبع فـإن المسـألة بهـذه الصـورة جعلـت العلمانيـة شـيئًا سـوقيًا ومبتـذلاً ولا إنسانيًا، فبحثت لها عن أيديولوجيـة تغطـي طابعهـا السـوقي والمبتـذل واللاإنسـاني، فكانـت الماركسـية هـي هـذا الغطـاء الأيـديولوجي، وهكـذا لم تكـن المسـألة اقتناعًـا بجدوى وصلاحية الماركسية في ذاتها ولا في جدواها وصلاحيتها للمجتمـع العـربي بقدر ما كانت غطاءً تخفي به العلمانية العربية سوءاتها، ويعبر الأسـتاذ برهـان غليـون عن هذه الحقيقة قائلاً في كتابـه اغتيـال الـوعي: «ولا شـك أن الماركسـية قـد أنقـذت أيديولوجية الحداثة من طابعها السوقي الفج المعادي بشكل فج للمجتمع وللجماعة

من خلال عدائه للتقاليد التي أصبحت رمزًا لها ووضعها في سياق أيديولوجية عالمية وإنسانية» ويضيف الدكتور برهان غليون: «كان الدافع إلى تبني الماركسية في النخب العربية هو تبرير الثورة على التقاليد عمومًا والدين خصوصًا وكذا تبرير العنف في مواجهة الجماهير».

إذن الماركسية لم تكن في الواقع العربي إلا قماطًا للعلمانية ومحاولة لتبرير العداء للجماهير وقمعها عن طريق التلويح بنظرية إنسانية، أو عالمية، أو تقدمية.. وهكذا.. أي مجرد محاولة للخروج من مأزق ولتبرير السوقية والإرهاب ضد المجتمع.

وهكذا فإن سقوط الماركسية في بداية التسعينيات من القرن العشرين، وضع العلمانية العربية في مأزق جديد، بل قل وضع لها الكفن ودشن موتها؛ لأن سقوط الماركسية بما أنها إفراز للثقافة للبنية الحضارية الغربية يعني ضمنًا سقوط كل الإفرازات الحضارية الغربية، أي يعني ضمنا سقوط كل المذاهب التي تبنتها، أو دعت إليها العلمانية، بل هو أيضًا سحب لورقة التوت وتمزيق للقماط الذي توارت العلمانية العربية خلفه كثيرًا، وهكذا لم يكن غريبًا بعد سقوط الماركسية أن نجد العلمانيين العرب بما فيهم الماركسيين أصبحوا دعاة للخضوع لأمريكا وللغرب وللرأسمالية ومبشرين بقيم حرية السوق والاقتصاد الحر والنظام العالمي الجديد، والانخراط في أسوأ أنواع الخيانة ملتقين عن عمد مع الصهيونية والصليبية ومعتبرين مهمتهم الأولى والأخيرة هي القضاء على الصحوة الإسلامية التي يطلقون عليها اسم الأصولية الإسلامية.



الأصل الإسلامي والأصل الوضعي لحقوق الإنسان

يعترف العلمانيون ـ وعلى رأسهم د. فؤاد زكريا. بأن هناك أصلاً قويًا لحقوق الإنسان في النصوص الإسلامية، يقول فؤاد زكريا في كتابه: «الصحوة الإسلامية في ميزان العقل»: «إن للعقائد الدينية دور رئيسي في تأكيد القيمة المطلقة للإنسان، الذي ينبغي ألا يتخذ وسيلة، أو أداة لغيره، ومن المؤكد أن الدفعة المعنوية التي بعثتها تلك العقائد كانت من أهم العوامل الحافزة لتلك الحركة التي تعاقبت عبر عصور ممتدة من أجل استخلاص حقوق الإنسان وجعلها حقيقة واقعة، ويضيف فؤاد زكريا: «ولو بحثنا في السمات التي تميز الإسلام باعتباره دينًا توحيديًا في نظرته إلى الإنسان التي بنى عليها فهمه لحقوقه، لوجدنا أن الإسلام يجعل للإنسان طبيعة مكرمة مستمدة من كونه خليفة لله في الأرض، وهذا التكريم مطلق لا يتقيد بجنس، أو مكانة، أو اجتماعية إنما هو تكريم للإنسان بما هو كذلك، فالإنسان الذي تحددت طبيعته على أنه خليفة لله في الأرض لا يصح أن يضطهد، أو يظلم، أو تسلب حريته، أو يفرق بينه وبين أخيه على أساس العرق، أو اللون.. إلخ».

وبالطبع فإن الأصل الإسلامي لحقوق الإنسان أوسع بكثير من هذا الذي قدمه د. فؤاد زكريا، ولكننا نكتفي به هنا ما المشكلة إذن يا دكتور فؤاد المشكلة هي: «أنه من السهل كما يرى الدكتور فؤاد ما دام الأصل في حقوق الإنسان مصدرًا أزليًا وما دام العقاب على انتهاكها هي نفس الجزاءات التي تضمن الخير والشر في العقيدة الدينية، وهو الجزاء الأخروي فقط فإنه إذا لم يكن إيمان الحاكم صادقًا فلن يردعه شيء عن انتهاك هذه الحقوق، ولن يستطيع مواطنوه المضطهدون أن يهبوا ضده بأي شيء سوى الجزاء الأخروي».

ولو لم يكن الدكتور فؤاد زكريا أستاذًا بالجامعة لقلنا: لا يعرف، ولو لم يكن مسلمًا لقلنا: إنه يتحدث عن المسيحية مثلاً؛ لأن من المعروف لدى كل إنسان يعرف قدرًا يسيرًا من الإسلام أن للخير والشر جزاءه الدنيوي في الإسلام وجزاءه الأخروي أيضًا، ومن العجيب أن العلمانيين ينتقدون الإسلام من هذه الزاوية أي زاوية ترتيب عقاب وحدود وتعازير في الدنيا على مرتكبي الآثام والجرائم، ويقولون إن هذا إدخال للدين في ملكوت الدنيا والمفروض أنه أي الدين يختص بالآخرة فقط.

وأعتقد أن الدكتور فؤاد يعرف – كما يعرف تلاميذ الابتدائي أن عقاب ابن عمرو بن العاص عندما اعتدى على حقوق أحد المصريين كان عقابًا دنيويًا وهو الضرب بالسوط وبنفس الطريقة التي ضرب بها المصري، وعلى يد الشخص المضروب ذاته، ولم يقل أحد ساعتها كما لم يتطرق ذهن أحد إلى ترك عقاب ابن عمرو بن العاص حاكم مصر إلى الآخرة لينال جزاءه فيها، إذن فهذا الإشكال في غير محله، فهناك بالطبع جزاء دنيوي، وهناك أيضًا جزاء أخروي وبدهي أن وجود الجزاءين معًا يجعل للمسألة ضمانات أقوى من تلك الموجودة في الأصل الوضعي الذي يعتمد على الجزاء الدنيوي وحده.

ونعود إلى الدكتور فؤاد زكريا الذي يحذرنا بأنه إن لم يكن إيمان الحاكم صادقًا فلن يردعه شيء عن انتهاك هذه الحقوق، ونقول له تردعه الجزاءات الدنيوية، ويردعه الوعي العام ويردعه هؤلاء القوم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وتردعه قدرة الأمة على خلعه، وتردعه المؤسسات المدنية في المجتمع الإسلامي، ويردعه علماء الدين، ويمكن أيضًا أن يتجاوز هذا كله، ولكن هذا التجاوز يصح ويحدث أيضًا بشكل أوسع إذا كان الأصل النظري لحقوق الإنسان

وضعيًا، فمسألة التجاوز هذه تصح في وجود حاكم يخرج على الشريعة وفي وجود حاكم يخرج على القانون الوضعي، ولكن الوضع الاجتماعي للأمة في حالة الاحتكام إلى الشريعة وضع أكثر تماسكًا من ذلك الوضع في حالة القانون الوضعي أي القدرة على ردع الحاكم المتجاوز في المجتمع الإسلامي أكبر بكثير منها في حالة الأصل الوضعي لحقوق الإنسان.

إن الدكتور فؤاد زكريا يعرف بالضرورة أن الأصل الوضعي لحقوق الإنسان لم يحل دون قيام ديكتاتوريات عسكرية في أماكن عدة من العالم لا تستند إلى الشريعة الإسلامية ولا تعرفها.

بل قل إن الأصل الوضعي لحقوق الإنسان كان مزرعة لظهور النازية والفاشية والصهيونية ومن قلب الحضارة الأوروبية ذات الأصل الوضعي لحقوق الإنسان، والأصل الوضعي لحقوق الإنسان لمن يمنع إنجلترا من استعمار ونهب العالم ولم يمنع فرنسا من استعمار ونهب وذبح الشعوب الأخرى، بل وتعذيب المعارضين لسلطتها الاستعمارية كما حدث في الجزائر مثلاً، فضلاً عن الإبادة والمذابح التي حدثت على يد إنجلترا وفرنسا وأمريكا.. وكل هؤلاء المستندين إلى الأصل الوضعي لحقوق الإنسان، وفي أمريكا ذاتها ما زالت حتى اليوم حقوق الإنسان الأسود مهدرة.

إذن فإهدار حقوق الإنسان حدثت في وجود الأصل الوضعي لتلك الحقوق وما زالت تحدث، بصورة واسعة على مستوى ظهور فلسفات ديكتاتورية كالنازية والفاشية والصهيونية وعلى مستوى انتهاك حقوق غير البيض، وعلى مستوى إبادة شعوب بأكملها كالهنود الحمر، أو تنظيم المذابح لشعوب أخرى كما حدث في المستعمرات، أو التطهير العرقي كما يحدث في البوسنة والهرسك، أو انتهاك كل

حقوق الشعب الفلسطيني.

ونعود فنلفت نظر الدكتور فؤاد زكريا وأحزابه أن الأصل الإسلامي لحقوق الإنسان لا يتعارض مع قيام الأمة باستنباط قوانين وضمانات وظروف تفصيلية لزيادة ضمان هذه الحقوق، ولعل المجلس الإسلامي العالمي وضع إعلانًا تفصيليًا لحقوق الإنسان يمكن للدكتور وأحزابه قراءته للتأكد من أننا لا نرفض بل نطالب بكل الضمانات واللوائح والوسائل والظروف التي تمنع انتهاك حقوق الإنسان، ونستند في ذلك إلى الأصل الشرعي، وإلى الضمانات الدنيوية أيضًا؛ لأن تلك الضمانات الدنيوية موجودة أصلاً في الشريعة، والشريعة لم تمنع من الأخذ بأي ضمانات أخرى؛ لأنها شريعة مرنة ومتسعة وتدعو إلى الاجتهاد.

والدكتور فؤاد وغيره في هذه القضية وغيرها دائمًا يواجهنا بأن النص الديني يحتمل دائمًا اتساع التأويل، أو التلاعب به، أو إخراج الشيء ونقيضه.. وهكذا، وينسى الدكتور أن هذا الأمر موجود في كل النصوص دينية ووضعية، والنص الماركسي مثلاً تعرض لتفسيرات شتى متعارضة، وكذا أي نص في أي مذهب، أو فلسفة، أو علم، وإلا ما ظهرت المدارس العلمية والمذهبية، وإلا ما اتهم هذا الماركسي أخاه الماركسي بتحريف النظرية، أو تشويه التطبيق، أو استخدام النص الماركسي لمصلحته.. وهكذا.. إذا كان هذا عيبًا، أو ميزة فهو عيب، أو ميزة بالنسبة للنص الديني وللنص غير الديني على حد سواء، ولعل الضوابط الموجودة في الفقه الإسلامي تجعل التلاعب بالنص الإسلامي بالذات في أضيق الحدود، وتجعل كل من يحاول استخدام هذا النص لمصلحته بطريقة بهلوانية كما يحدث أحيانًا معرضًا للسخرية والاستهجان، ولا يلقي أحد له بالاً، ولا يعتد بكلامه، ولو قارنا بين النص الإسلامي والنصوص الأخرى دينية ووضعية لوجدنا عبقرية في المرونة

والضوابط تستحق التحية لهذا النص وهؤلاء الفقهاء، وأعود فأقول إنه إذا كان هناك من سخر علمه الديني لصالح حاكم، أو طبقة فهناك من سخر علمه الطبقي، أو الماركسي، أو نضاله السياسي التاريخي لصالح الحكومات المستبدة ملكية وجمهورية، ومن أيد منهم إسرائيل وأمريكا، ومن استخدم لضرب العمال والفقراء، أو تبرير الفساد والطفيلية.. إلخ.. وأعتقد أن الدكتور فؤاد زكريا يعرف منهم من الأسماء والمنظمات أكثر مما أعرف.

وهل من العلمية والموضوعية أن أستخدم ظاهرة عامة تحدث في كل المذاهب والأفكار والنصوص وأستخدمها في الهجوم على فكرة واحدة، أو أجعلها مبررًا لرفض هذه الفكرة؟!

والدكتور فؤاد زكريا وغيره في هذه القضية وغيرها لا يمل من تكرار أن التطبيق الصحيح للإسلام كان في عهد مقيد هو عهد الرسالة والخلفاء الراشدين، وأن التاريخ الإسلامي في معظم فتراته ممتلئ بتجاوزات الحكام وإهدار هذا الحق، أو ذاك، أو ممارسة هذه الجريمة، أو تلك ويخلص من ذلك أنه ما دام الأمر كذلك فلنهدر هذه النصوص ونتخلى عن الدعوة إلى تطبيق الإسلام.

حسنًا يا دكتور، فماذا نطبق؟؟ يجيب الدكتور نطبق نصوصًا وضعية، وإذا كان التاريخ الإسلامي فيه فترة صغيرة مثالية باعتراف الدكتور فإن تاريخ المذاهب الوضعية القديمة والحديثة ليس فيه هذه الفترة، وأعتقد أنه معنا في التاريخ الوحشي لأوروبا، ولكن ماذا عن الحاضر، ماذا عن المائة سنة الأخيرة، ألم ترتكب فيها حكومات النصوص الوضعية جرائم بالجملة، جرائم الاستعمار والنهب والقمع والعنصرية وإبادة أجناس وتعذيب في سجون أوروبا ومستعمراتها برغم أنف القوانين الوضعية، وإعلان الثورة الفرنسية والإعلان الأمريكي لحقوق الإنسان

والماضيت كارتا وإعلان الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ وهو نفس العام الذي أعطت هذه الأمم المتحدة للعالم إعلانًا لحقوق الإنسان ووافقت على انتهاك حقوق الشعب الفلسطيني وتجريده من أرضه ووطنه وتاريخه وإنسانيته، ماذا عن جرائم أمريكا في النصف الأخير من القرن العشرين في فيتنام وكمبوديا ولاوس والعراق والكويت والسلفادور... إلخ... ماذا عن التطهير العرقي في البوسنة؟ ماذا عن الجريمة المستمرة في فلسطين، ماذا عن الحقوق المهدرة للسود في أمريكا؟ وماذا عن نظام الأبارتهير في جنوب أفريقيا، وهي وغيرها جرائم ما زالت تمارس حتى اليوم، وهي جرائم بحق شعوب وأمم وجماعات بشرية وليست جرائم ضد أفراد فقط، ونحن طبعًا ضد الجريمة سواء كانت ضد فرد، أو جماعة، ماذا عن التطبيقات المأساوية للماركسية، والتي أدت إلى إفلاسها في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية وغيرها، ألا يعني هذا أنه ما دامت كل هذه الجرائم تحدث فإن الدعوة المزعومة لترك الإسلام بدعوى وجود تجاوزات في التاريخ الإسلامي لا بد أن تكون ذاتها هي الدعوة إلى ترك كل الأفكار والمذاهب التي عرفها العالم، وماذا يبقى هل هي دعوة للانتحار مثلاً؟ أو اليأس.

والمقارنة الصحيحة تقول إن المسار العام للتاريخ الإسلامي كان إيجابيًا مع وجود تجاوزات، وإن المسار العام للمذاهب الوضعية كان سلبيًا، وبالطبع المعول عليه هنا هو المسار العام وليس التقاط الشوارد والبحث في القمامة، ثم استخلاص النتائج، وحتى إذا سلمنا جدًا بأن التاريخ الإسلامي في مساره العام كان سلبيًا، وأن المذاهب الوضعية في مسارها العام كانت سلبية، ألا يكون للإسلام ميزة باعتراف أكبر ناقديه ومنهم فؤاد زكريا بأن هناك فترة قصيرة صالحة، وهذه الفترة القصيرة الصالحة لم تتكرر في أي تطبيق مذهبي آخر، ألا يكفي هذا لترجيح كفة الإسلام، أو

على الأقل تفهم منطق الدعاة إلى تطبيقه، فعلى الأقل دعوتهم فيها شيء من القدرة على التطبيق الصالح الأمر الذي يفتقده الآخرون تمامًا.

وعلى أي حال لم يعد هناك من يستطيع الدفاع عن قابلية الماركسية، أو النازية، أو الفاشية للتطبيق الصالح دون تجاوز وبيروقراطية وفساد، ولا أظن هناك عاقلا يمكن أن يدافع عن الصهيونية، إذن فلا يبقى إلا أن نبحث عن اعتراف علماني من الدكتور فؤاد زكريا نفسه بفساد الديمقراطية الغربية ذاتها حتى لا يكون هناك نظام وضعي أثبت صلاحيته للتطبيق في الواقع، يقول الدكتور فؤاد زكريا في هذا الصدد: «إن هذا النظام مبني أساسًا على قيم فردية وعلى الرغم من المظهر البراق الذي يتخذه هذا النظام حين يؤكد أنه المدافع عن الحرية الفردية، وحقوق التعبير والكلام إلى آخر هذه الحريات الليبرالية المعروفة التي يتخذها المدافعون عن هذا النظام محورًا لدعايتهم على الرغم من هذا كله فإن الحرية التي يدافع عنها هذا النظام هي في واقع الأمر حرية استغلال القوي للضعيف، وكل ما عدا ذلك من حريات تظل ذات طابع شكلي»..



جدول الداخل والخارج في قضايا التخلف والنهضة

لا شك أن للتخلف والهزيمة الحضارية التي نعاني منها أسبابها الداخلية، وعلى طريقة الأستاذ مالك بن نبي فإن هناك في البنيان العربي ما يمكن أن نطلق عليه «القابلية للتخلف» ولا شك أيضًا أن هناك العوامل الخارجية التي نفذت من الثغرات الموجودة في البنيان الاجتماعي العربي، فوسعت قاعدة التخلف وبنت لها حصونًا من عوامل التخلف واستمراره وإغفال أحد العوامل الداخلية، أو الخارجية طريق أكيد إلى تكريس هذا التخلف.

وفي البداية فإن الطريق إلى النهضة يستلزم دراسة كيف تقوم النهضات وكيف تنتزع الأمم والحضارات انتصاراتها ولكن هذا نفسه يصبح عملاً في الفراغ ما لم يتم تحديد معرفي دقيق بالجماعة التي تريد أن تقوم بإنجاز هذه النهضة أي لا بد أن أعرف من أنا لكي أنهض ولا بد بالطبع أن أكون ذاتًا وإرادة، وأن أعترف بموروثي الثقافي سلبيًا كان أم إيجابيًا وأنه شيء فاعل في الذات الثقافية يمكن تطويره وإنهاضه، وتجاوز أو إغفال معرفة الذات وكذا تجاوز أو إغفال التحديات الخارجية هو خطأ علمي لا شك فيه، ويمكن أيضًا في هذا الإطار تحقيق الإصلاح الداخلي عن طريق الجهاد ضد التحدي الخارجي ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وكذلك فإن التخلص من عيوب الذات طريق أيضًا إلى الانتصار على التحدي الخارجي.

والأفغاني مثلاً ناهض السلبيات في الجسم الثقافي العربي والإسلامي وناهض الاستعمار والاستبداد في نفس الوقت، وإذا كانت النظرة التقويمية لتيار الإصلاح

الإسلامي تقول بأنه اهتم أكثر بمناهضة الاستعمار وأغفل عيوب الذات فذلك غير صحيح ولكن هذا الانطباع جاء من إغفال التيار الآخر العلماني لبعد التحديات الخارجية فلم يكن له تأثير يذكر في قضايا مناهضة الاستعمار، أو الصهيونية مثلاً، فالقضايا التي طرحها أحمد خان وأنطون فرح ولطفي السيد وشبلي شميل وسلامة موسى وطه حسين وقاسم أمين وغيرهم تغفل قضية التحرر والحرية وأحيانًا تتورط في الدفاع عن السلطة الاستعمارية، أو تتحول إلى بوق لها.

ولعل هذا الأمر ذاته قد أدركته الأجيال التالية من النخب العلمانية فأرادت أن يكون لها إسهامها المباشر وغير المباشر في النضال ضد الاستعمار خاصة مع تصاعد الاستفزاز الاستعماري والصهيوني ضد بلادنا، الأمر الذي لا يمكن السكوت عليه بسهولة، ولكن بالطبع جاء هذا الإسهام جزئيًا وقصير النفس، وإذا كان التيار الإسلامي يرى في الاستعمار والصهيونية ظاهرة حضارية وبالتالي فلا بد من حسمها بالصراع والنضال والجهاد وأنه لا يمكن الوصول معها إلى حل وسط، فإن التيار العلماني وخاصة الفلسطيني الذي اضطر إلى الإسهام في المواجهة وضع المسألة على قاعدة الصراع الاشتراكي الرأسمالي، أو على قاعدة الصراع السياسي والمصلحي وبالتالي أفقد المسألة بعدها الحضاري فجاء موقف هذا التيار جزئيًا وبالتالي تخبط في المآزق المتوالية، وجاء أيضًا قصير النفس فوقع في النهاية في فخ الحلول الوسط والمساومة ولم يقدر على مواصلة حمل السلاح بل ألقاه مع أول متغير كبير في المعادلات الدولية.

وعلينا أن نرصد ملاحظة هامة في هذا الصدد، وهي أنه في الفترة القصيرة التي دخل فيها التيار العلماني وخاصة الفلسطيني معترك النضال ضد الصهيونية والاستعمار؛ لأنها طرحت نفسها طرحًا لم يستطع تجاوزه، أنه استخدم في التعبئة

الجماهيرية الكثير من المقولات التقليدية للتيار الإسلامي، أي إنه اضطر إلى أن يحشد الجماهير من خلال وجدانها الحضاري وشخصيتها وهويتها واتخذ موقفًا قريبًا من التيار الإسلامي في القضايا التي كان يعتبر نفسه فيها مختلفًا وفي القضايا التي اخترعها هو نفسه لتبرير رفضه للثقافة العربية والإسلامية إنه استخدم لغة تأكيد الذات والهوية ورفض التغريب... إلخ..

وفي كل الأحوال فإن تلك المحاولة جاءت لتضع التيار العلماني في مأزق التخلي عن قناعاته الثقافية من أجل قضايا النضال الوطني، أو التخلي عن قضايا الوطن من أجل قناعاته الثقافية، وأسفرت في النهاية عن تأكيد صحة المقولات والرؤى التي طرحها التيار الإسلامي منذ اللحظة الأولى الأمر الذي جعل الكثير من الشرفاء في التيار العلماني يسقطون خياراتهم الأيديولوجية باتجاه تبني الإسلام من جديد كدين وأيديولوجية ثورية أيضًا.



مأزق تاريخي أم مشروع لقيط

يعبر الدكتور برهان غليون في كتابه «اغتيال العقل» عن فشل مشروع النهضة العلماني ووصوله بالواقع العربي إلى حالة مزرية من الاستبداد والتخلف والتبعية، يعبر عن هذا بقوله إنه انحباس، أو مأزق تاريخي، ويعترف الدكتور غليون بأن هذه الأزمة، أو الانحباس، أو المأزق التاريخي لا يزال مستمرًا لغياب المشروع الاجتماعي والثقافي والسياسي لحركة النهضة، والصحيح أن هذا المأزق، أو الانحباس كان بسبب هذا المشروع أساسًا؛ لأنه مشروع افتقد منذ اللحظة الأولى الجذور القادرة على النمو في التربة والاخضرار والإثمار فيها.

الموقف من مشروع النهضة العلماني الذي ساد الواقع العربي في القرنين الأخيرين والذي استند أساسًا على الصدام مع التراث وتجاوز الهوية وأغفل مفهوم الصراع الحضاري مع الغرب وجعله مجرد صراع جزئي سياسي، أو اقتصادي، الموقف من هذا المشروع بالتحديد هو الذي يجعل المنحاز إلى هذا المشروع يرى هذا الأمر، أو ذاك محاولة للنهضة ويجعل الرافض لهذا المشروع يرى نفس تلك الأمور عمليات إجهاض للنهضة.

ففي حين يرى الدكتور غليون أن محاولة محمد علي للتصنيع وبناء الدولة كانت محاولة للنهضة، ثم يحلل أسباب سقوط هذه المحاولة ويجعلها في كونها حركة عسكرية بيروقراطية وقومية عاجزة عن تعبئة الطاقات العربية الفاعلة في تلك الحقبة، أو أنها سقطت تحت ضربات التدخل الأجنبي الغربي، أو أنها حرمت نفسها من منابع فكرية شكلت لأوروبا الناهضة مرتكزات قوتها الأساسية، وهي المنابع

الفكرية والسياسية التي لا يمكن لنهضة أن تتحقق بمعزل عنها ويعود الدكتور غليون فيقول : إن حركة اليقظة التي أعقبت إجهاض تجربة محمد علي قامت بسد الفجوات الفكرية في مشروع محمد علي وأسهمت في عملية إصلاح فكري وأيديولوجي وأدبي، وقدمت مساهمات تتعلق بتجديد أسس العقائد الدينية، أو تجديد الآداب واللغة العربية. ويصل الدكتور غليون إلى أن هذه اليقظة العربية انتهت بتحقيق نظام إقليمي عربي عبر عنه تأسيس الجامعة العربية في القاهرة عام ١٩٤٥ ونشوء الدول العربية والهوية العربية، ثم يعود الدكتور غليون متابعًا ما يراه محاولات النهضة في حركة ١٩٥٢ في مصر من خلال البعد القومي والاشتراكي ويرجع الدكتور غليون فشل هذه المحاولة إلى تمحورها حول شخص الزعيم، وعدم قبولها إلا ما يدعم مركز هذا الزعيم السياسي، وبنائها نظامها الفكري على الدعاية الأيديولوجية الضيقة ونظامها الاقتصادي على تنمية براجماتية فاقدة للهدف البعيد وللاتساق الذاتي، وبدلاً من أن يعترف الدكتور غليون بالفساد في بنية مشروع النهضة العلماني، وأنه كان السبب في ضياع النهضة وإجهاضها وليس مجرد محاولة فشلت لأسباب تكتيكية، فإن الدكتور غليون راح ينتقد هذه المحاولات في إطار التماس العذر للمشروع وقصر فساده على الجانب التكتيكي منه وليس الاستراتيجي، وكان من المتوقع أن تتناقض أسباب الفشل التي اقترحها الدكتور غليون مع بعضها، أو أن تكون أسباب هي بذاتها دليل على فساد المشروع برمته، فإذا كانت محاولة محمد علي وعبد الناصر قد فشلت لاعتمادها على شخص وممارستها الاستبداد فهذا بذاته دليل على فساد المشروع برمته، فإذا كانت محاولة محمد علي وعبد الناصر قد فشلت لاعتمادها على شخص وممارستها الاستبداد فهذا بذاته دليل على أنها ليست مشروعات للنهضة، فمشروع النهضة لا يمكن أن يحمل اسم مشروع إذا اعتمد على شخص، أو غيب الجماهير عمدا عن المشاركة الفعالة في المشروع.

والدكتور غليون يرى أن من أسباب فشل مشروع محمد علي غياب المرتكزات الفكرية، ثم يقول إن حركة اليقظة العربية التي ظهرت عقب فشل مشروع محمد علي قد سدت هذه الفجوة، ولكن نسي الدكتور غليون، أو تناسى أن حصاد هذه اليقظة التي سدت الفجوات الفكرية في مشروع محمد علي كان حصادًا أكثر مرارة بل أدت إلى كارثة الاحتلال العسكري لبلادنا.

الصحيح والمنطقي والعلمي أن ما يسميه الدكتور غليون حركة نهضة ولو كانت محاولات فاشلة ما هي إلا حركات لإجهاض النهضة وأن كل ما فعلته هو أنها جمعت عن عمد تراكمات القوة والإيجابية في الواقع العربي وأهدرتها إهدارًا فأضاعت المسار الصحيح للنهضة وأضاعت الموارد على حد سواء. والواقع أن ملامح وعوامل النهضة كانت قد بدأت تتشكل في مصر مثلاً قبيل محمد علي، فالشعب المصري تحت قيادة علماء الدين المجاهدين كان قد استطاع أن يمارس جهادًا مسلحًا ناجحًا ضد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ – ١٨٠١ وضد حملة فريزر الإنجليزية ١٨٠٧، أي إنه حسم التحدي الخارجي لصالحه، وكان أيضًا قد نجح في فرض إرادته السياسية على الوالي والخليفة حين فرض زعماء الشعب في انتفاضة ١٨٠٥ شروطهم السياسية والاجتماعية في أن يكون فرض الضرائب والممارسات السياسية عمومًا واختبار الوالي من خلال علماء الدين وأعيان الشعب ورؤوسًا الطوائف مما يمكن أن تطلق عليه الاتجاه إلى حكم برلماني ونيابي، أي إنهم حسموا قضية الحرية والحكم لصالحهم، وفي مجال التصنيع كان ثوار القاهرة قد نجحوا في ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين في تصنيع البارود والمدافع وشارك في هذه الثورة كبار التجار من أمثال السيد أحمد المحروقي أي إن التمويل الصناعي كان جاهزًا والقدرة العلمية أيضًا مع الطاقة النهضوية الهائلة التي تفجرت من خلال مشاركة

الشعب ونجاحه في حسم التحدي الخارجي والتحدي الداخلي في إطار الشريعة الإسلامية وتحت قيادة علماء الدين، أي من خلال القيادة الطبيعية للأمة ومن خلال أيديولوجيتها ووجدانها وكان من الطبيعي أن هذا التراكم في الوعي وهذه المشاركة الواسعة وتلك التركيبة الاجتماعية قادرة على البدء في مشروع كبير للنهضة قادر على حسم كل التحديات، ولكن محمد علي جاء ليفرغ هذه النهضة من محتواها، ويدمر بنيانها الاجتماعي فيفسد الأزهر ويحبس العلماء ويحول كل الموارد لصالح مشروع مرتبط بشخصه، ثم يستخدم هذا كله في الصراع مع الخلافة العثمانية فيضعفها لصالح أوروبا ويضعف مصر أيضًا وتكون النتيجة الحتمية ضياع وإجهاض مشروع النهضة الحقيقي وإفساح الطريق أمام أوروبا للسيطرة على العالم العربي والقضاء على الخلافة العثمانية.

ثم تظهر ما يسميها الدكتور غليون حركة اليقظة العربية، فإذا بها تضرب في ثوابت الأمة وتقطع جذورها وتحدث عملية مسخ ثقافي للذات العربية فتصيبها بالانفصام وبالتالي السلبية فتفسح بدورها الطريق أمام الاحتلال العسكري للبلاد العربية.

والأمر ذاته وبصورة أسوأ في تجربة عبد الناصر، فالأوضاع في مصر والعالم العربي في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات كانت أوضاع ثورة شاملة ضد الاستعمار، المشاركة الشعبية في الكفاح على أشدها وملامح النهضة الصناعية تتشكل من خلال عمليات المقاطعة للبضائع الأجنبية ومحاولات التصنيع التي قطعت شوطًا كبيرًا على يد أمثال طلعت حرب وكذا من وجود ظرف الحرب العالمية الثانية التي فرضت حماية جمركية إجبارية من خلال النشاط البحري للمتحاربين لمدة ست سنوات، واحتياج الحلفاء لاستيراد البضائع المحلية

للمستعمرات مما دعم الصناعة المحلية دعمًا كبيرًا، ومن الطبيعي أن جنين الثورة والنهضة الذي تشكل في لمّ الأمة من خلال وجدانها وأيديولوجيتها الطبيعية كان قادرًا على النمو لولا الإجهاض الذي قام به ضباط يوليو في مصر الذين قطعوا النهضة عن جذورها الفكرية الإسلامية الطبيعية واستخدموا الفكر لتبرير الاستبداد وجمعوا الموارد في مشروع مرتبط بشخص الزعيم فأهدروها إهدارًا وكانت النتيجة أنهم فصلوا السودان عن مصر مثلاً وسلموا لإسرائيل جيش مصر وسوريا والأردن لتمزقه تمزيقًا، وتحتل كل سيناء والضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان.

وهكذا فالصحيح أن مشروع النهضة العلماني، لم يكن مشروعًا بقدر ما كان إجهاضًا للنهضة، وأن الأوضاع المأساوية التي وصل إليها الواقع العربي ليست مجرد انحباس، أو أزمة، أو حتى مأزق تاريخي لمشروع النهضة العلماني، بل هو في جوهره كشف لحقيقة مشروع لقيط لا يمتلك مقومات لا صحيحة ولا خاطئة للنهضة.



الثقافة العربية
بين التحدي الحقيقي والتحدي الزائف

الثقافة والنهضة، الثقافة العربية والتقنية الحديثة، التحدي العلمي والتكنولوجي، العقل العربي هل هو مشدود إلى الخلف، أو جامد في مكانه، أم عقل قادر على التطلع بأمل إلى مستقبل أفضل، الأصالة والمعاصرة، التراث والتجديد، هذه كلها وغيرها إشكالات مطروحة ومشروعة ويجب حسمها، أو الحوار حولها، ولكن بشرط أساسي ألا تكون نوعًا من العلامات المزيفة، أو طريقة لطمس الحقيقة والواقع، أو نوعًا من الدجل السياسي، أو تبريرًا، أو الدعاية لأيديولوجية سياسية معينة، أو لسلطة معينة، أو قفزًا على الإشكالات الحقيقية في الواقع العربي، أو تعاليًا عليه.

وإذا اعتبرنا أن الثقافة هي التي تقود عملية تغيير المجتمع وتقدمه، أو في أقل الحالات في القلب من عملية التغيير والنهضة والتقدم وليست مجرد عملية استهلاك عقلي للإمتاع، أو التسلية، أو إبراز الذات الشخصية، أو المجتمعية لكان من الواجب علميًا أن نضع التصور الصحيح للأرضية الاجتماعية والأوضاع المجتمعية التي تعمل فيها هذه الثقافة، وبالتالي فإن إشكالات أخرى تسبق هذه الإشكالات يجب أولاً أن يكون الحوار حولها أي يجب ألا يتم تجاهلها، أو القفز عليها، وهذه الإشكالات منها هل يمكن للثقافة أن تكون قائدة لعملية التغيير والتقدم في ظل سلطة مستبدة أي حسم تحدي العلاقة بين السلطة المستبدة والثقافة قبل حسم قضية التحدي في علاقة الثقافة بالعلم والتكنولوجيا مثلاً، وبكلمة أخرى هل تصبح

الثقافة قادرة على حسم تحدياتها المطروحة دون أن تصبح ثقافة مواجهة الاستبداد وهل يصح الحديث أصلاً عن دور للثقافة في غياب الحرية!

الأمر ذاته في الحديث عن ثقافة في مجتمع مستعمر، سواء كان استعمارًا تقليديًا، أو استعمارًا حديثًا يعمل من خلال آليات السوق، أو المؤسسات المالية الدولية العملاقة، وهل يمكن الحديث عن ثقافة قائدة وقادرة على التغيير إذا تجاهلت هذه الثقافة قضية كشف العلاقات الاستعمارية ومواجهتها.

ومن هذه الإشكالات أيضًا: الحوار حول طبيعة التصور الحضاري في العالم، فهل الحضارة في العالم مجرد حضارة واحدة تسهم فيها الأمم المختلفة بإسهامات معينة في أوقات معينة، أم أن هناك خصوصيات حضارية لكل أمة، وتواصلاً حضاريًا، أو انقطاعًا حضاريًا يخص كل حضارة على حدة؟ ويشتق من هذا السؤال العديد من الأسئلة هل نحن أمة ذات حضارة خاصة وهل انقطع تواصلنا الحضاري؟ أم أننا في حالة هزيمة حضارية فقط وينبغي البدء في عملية إقلاع حضاري جديد ومواجهة تحدو الهزيمة الحضارية؟. وهل الحضارة الغربية ذاتها حضارة عالمية؟ أم أنها حضارة لا تحمل سمات العالمية؛ لأنها قائمة على العنصرية والقهر والعنف ونهب الآخرين، وهل الطريق إلى التقدم يمر عبر تأكيد الهوية والخصوصية والمواجهة مع الحضارة الغربية أم يمر عبر الاندماج والذوبان في تلك الحضارة.

وفي الثقافة العربية هناك مدرستان أساسيتان، دون إغفال التمايزات البدهية والطبيعية داخل كل مدرسة على حدة، المدرسة الأولى قفزت على الإشكاليات الحقيقية الأولية وتجاهلت الواقع وتعاملت مع الظواهر في الفراغ، انطلقت هذه المدرسة من اعتبار الحضارة الغربية حضارة عالمية نحن جزء منها، أي إنها تجاهلت البعد اللاعالمي في الحضارة الغربية، وتجاهلت عنصريتها وممارساتها الاستعمارية

الصحيفة والنهبية، وراحت بالتالي تناقش وسائل الاندماج وأساليبه وطالبت بالقضاء على كل ما يحول دون هذا الاندماج من خصوصية حضارية، أو هوية، أو حتى دين وهذه المدرسة أيضًا في التي هيمنت على أدوات الثقافة العربية وسيطرت على التوجيه التربوي والتعليمي والإعلامي والفني وارتبطت بالسلطة السياسية بطريقة، أو أخرى فتجاهلت عن عمد غياب الحرية باعتبارها شرطًا للثقافة، وأهم رموز هذه المدرسة : الطهطاوي، وطه حسين، ولويس عوض، ومحمد أركون وغيرهم وكلهم تقريبًا كانوا وزراء تعليم أو ثقافة، أو قيادات كبيرة في أجهزة السلطة الثقافية والتعليمية والتربوية والإعلامية ولم يكن لهم إسهام يذكر في قضايا مواجهة الاستعمار، أو مناقشة قضايا الحرية والتبعية، بل جل إسهامهم يكمن في الدعوة المباشرة إلى الالتحاق بقطار الحضارة الغربية وقطع الصلة بهويتنا الثقافية بل ودينا مثل عبد الله العروي، أو حتى الترويج المباشر والدفاع المباشر عن السلطة الاستعمارية مثل لطفي السيد وقاسم أمين، أو الطعن في عقائد الأمة وتشويه تراثها مثل حسين أمين وسعيد عشماوي ومحمد أركون ولويس عوض، أو الارتباط المباشر بالسلطة وتبرير تصرفاتها الاستبدادية وخلع صفات الثورية والتقدمية عليها وإلباسها ثوبًا أيديولوجيا برغم كونها سلطات عسكر في الأساس مثل محمود أمين العالم ولطفي الخولي ورفعت السعيد، أو حتى ترويجًا للكيان الصهيوني ودعوة للاندماج معه في إطار مشروع إنسان شرق أوسطي يضم العربي والإسرائيلي على قدم المساواة مثل فرج فودة، وهكذا ويرغم السيطرة شبه التامة على أدوات الثقافة من أجهزة وصحف وإذاعة وتليفزيون وسينما ومسرح بل ومؤتمرات علمية ظلت ثقافة هؤلاء مجرد بذور استنبتت في الهواء فلم تخضر ولم تثمر وظلت غريبة عن الواقع شكلاً ومضمونًا.

والمدرسة الثانية في الثقافة العربية كانت تلك المدرسة التي طرحت الإشكاليات الحقيقية الأولية ولم تتجاهل الإشكاليات الأخرى فنجد أن جمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم ومالك بن نبي ومنير شفيق قد طرحوا قضايا الحرية، الاستعمار، التبعية، الخصوصية الثقافية والحضارية لأمتنا ولم يتجاهلوا قضايا التقدم العلمي والتقني والنهضة والعلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، ونشأت هذه المدرسة بعيدًا تمامًا عن السلطات المستبدة بل من خلال المواجهة معها وكذا مواجهة الاستعمار وحشد الجماهير للنضال ضده وتثوير الواقع ورفض كل ما هو سلبي في العادات والتقاليد والتأكيد على عوامل الإيجابية في الشخصية العربية، وبرغم أن رموز هذه المدرسة قد تعرضوا للاضطهاد دائمًا من قبل السلطات الاستعمارية والسلطات المستبدة، إلا أن ثقافتهم التي استنبتوها في ضمير الأمة ووجدان الشعب ما زالت تترعرع وتخضر وتثمر، وبالطبع فإن هذا المدرسة الثقافية لم تقتصر على هؤلاء الذين كان لهم إسهام ثقافي مباشر مثل الأفغاني والنديم ومالك بن نبي ومنير شفيق وغيرهم، بل يمكن أن نضيف إليهم مصطفى كامل ومحمد فريد وعز الدين القسام وعمر المختار وعبد القادر الجزائري وغيرهم؛ لأن ثقافة المواجهة اقتضت أن يكون المجاهدون ذوي إسهام ثقافي فنجد أن الزعماء من أمثال هؤلاء كان لهم إسهامهم ورأيهم ونضالهم على المستوى التربوي والتعليمي والثقافي، بل نجدهم هم أنفسهم قد مارسوا التعليم والتربية من خلال محو الأمية، أو تحفيظ القرآن «عمر المختار»، أو إنشاء الجامعات والمدارس «مصطفى كامل ومحمد فريد»، أو دروس العلم «عز الدين القسام»... وهكذا، بل ونجد أن أصحاب المشروعات الثقافية منهم كالأفغاني والنديم كانوا زعماء المواجهة الشعبية ضد الاستعمار والاستبداد، أو مقاتلين في صفوف الجماهير ضد الكيان الصهيوني مثل منير شفيق.

الإنسان خارج نفسه

هـل تسـتطيع الثقافـة العربيـة اسـتيعاب الحضـارة الحديثـة؟ الـتراث والنهضـة، الأصالة والمعاصرة، هل يستدعي استيعاب الحضارة الحديثة التضحية بالهويـة؟ هـل يقتضي الاحتفاظ بالهوية الانسحاب من العالم؟

هذه وغيرها قضايا وإشكالات تطرحهـا مدرسـة التغريـب وتجيـب عليهـا إجابـة حددتها من قبل، ثم وضعت لهـا الأسئلة، ومـن هنـا جـاءت المغالطـة المقصـودة، أو الخطأ غير المقصود.

يجيـب الـدكتور زكـي نجيـب محمـود في كتابـه تجديـد الفكـر العـربي عـلى هـذه الإشكالية فيقول: «علينا أن نأخذ من تراث الأقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقًا عمليًـا، فيضـاف إلى الطرائـف الحديثـة المستحدثة، فكـل طريقـة للعمـل اصـطفاها الأقدمون وجاءت طريقة جديدة أنجح منها كان لا بد من اطِّـراح الطريقـة القديمـة ووضـعها عـلى الـرف الـذي لا يعنـى بـه إلا المؤرخـون، بعبـارة أخـرى إن ثقافـة الأقدمين، أو المعاصرين هي طرائق عيش فـإذا كـان عنـد أسـلافنا طريقـة تفيـدنا في معاشنا الراهن أخذناها، وكان ذلك هو الجانب الـذي نحييـه مـن الـتراث أمـا مـا لا ينفع نفعًا عمليًا تطبيقيًا فهو الذي نتركه غير آسفين، وكذلك نقف الوقفة بالنسبة إلى ثقافة المعاصرين من أبناء أوروبا وأمريكا، المدار هو العمل والتطبيـق، المـدار هـو مـا يعاش به».

أمـا عبـد الله العـروي فيقـول: «أمـا حـان الوقـت؛ لأن نكـف عـن الـدعوة إلى الانكماش والانعزال تحت شعار الأصالة الخصوصية ».

ويقـول العـروي أيضًـا في كتابـه: «العـرب والفكـر التـاريخي» : «إن الرجـوع إلى نظريات الماضي والحفاظ على أصالة فارغة وهم يعوق التقدم» ويقول: «إن علينا أن نجتث الفكر السلفي من محيطنا الثقافي»..

أما الدكتور طـه حسـين فيقـول في كتـاب مسـتقبل الثقافة في مصر: «إن مسـتقبل مصر مرهون بأخذها مثل الحضارة الإنسـانية وبالفضـائل المدنية والديمقراطيـة كـما مثلها الغرب وعلى مصر أن تصبح جزء من أوروبا وأن تسـير سـيرتها في الحكـم وفي الإدارة وفي التشريع، وعلينا أن نكون أوروبيين في كـل شيء قـابلين مـا في ذلـك مـن حسنات وسيئات»...

وقد يبدو للوهلة الأولى أن هناك خلافًا في الرؤية بين زكي نجيب محمود الذي لا يرفض التراث كله، وبين كل من طه حسـين وعبـد الله العـروي اللـذين يـدعوان إلى نبذ التراث تمامًا والأخذ بالثقافـة الغربيـة جملـة وتفصـيلاً، ولكـن الحقيقـة أن جـوهر الموقف لدى الثلاثة ولدى غيرهم من القضية واحد وإن اختلـف الشـكل وأسـلوب التناول، ذلك أنهم يتعاملون مـع الـتراث ومـع الثقافـة الغربيـة أيضًـا بطريقـة القـص واللصـق، فـيمكن لـدى العـروي وطـه حسـين قـص الـتراث كلـه وإلقائـه في المزبلـة ولصق الثقافة الغربية في العقل العربي بدلاً منـه، ويمكـن لـدى زكـي نجيـب محمـود قص أجزاء من التراث وأخرى من الثقافة الغربية ولصـقها بالعقـل العـربي، والخطأ في هذه الرؤية هو التعامل مع العقل العربي بمعـزل مـن الـتراث وكـأن الـتراث شيء جانبي ميت في هـذا العقـل يمكـن قصـه كلـه، أو أجـزاء منـه، والأمـر نفسـه بالنسـبة للثقافة الغربية وبدهي أن الإنسان ليس شيئًا خارج ذاته وتراثه بحيث يمكـن هكـذا ببساطة لصق أجزاء ونزع أجزاء وقص أجزاء، وهذه عملية غير علمية بـالطبع؛ لأن مجرد تصور حدوثها جهل مركـب بطبيعـة العقـل وبطبيعـة الـتراث وبطبيعـة الثقافـة

أيضًا، ولو تصورنا حدوثها لتصورنا على الفور موت الإنسان، أو على الأقل إصابة عقله بالشلل، وبصرف النظر عن رأينا في التراث سلبًا، أو إيجابًا فهو جزء لا يتجزأ من العقل والوجدان والذات لا يمكن قصه هكذا بمشرط الجراح!

وعند الدكتور فؤاد زكريا فلا بد من شيء من التركيب والتعقيد والفذلكة فتصبح المسألة في كتابه خطاب إلى العقل العربي - صدمة حضارية تولدت عن الاحتكاك بالغرب في أوائل القرن التاسع عشر، ويطرح الدكتور فؤاد زكريا المسألة على أنها إما موقف يتشرنق بالتراث والتاريخ، أو موقف يساير التيار الجديد أملاً في أن يكون له نصيب في ذلك التقدم المادي الذي حققته الحضارة الغربية، أو موقف توفيقي بين الاثنين، أما موقف الدكتور زكريا فلا هو هذا ولا ذاك بل لا بد من نظرة تقييم للتراث ولا بد أن نكون مبدعين أي نشارك بأنفسنا في الحضارة ونصبح جزءًا منتجًا فيها لا مستهلكًا لها.

أخطاء الدكتور زكريا رغم قدرته على تركيب الرؤية تبدو في اعتباره أن المسألة نشأت كصدمة حضارية نتيجة الاحتكاك بالغرب في بداية القرن التاسع عشر، والصحيح أن الاحتكاك والصراع مع الغرب لم يكن فقط في بداية القرن التاسع عشر بل حدث منذ فترة طويلة تزيد على الألف عام وتمر بمحطات كثيرة في حياة الرسول ﷺ ذاته في الصراع مع الدولة الرومانية، ثم في عهد الخلفاء الراشدين في تحرير الشام وشمال أفريقيا من الرومان، ثم في الأندلس، والبحر المتوسط، ثم الحروب الصليبية في الشرق وحرب الألف عام في المغرب العربي وكذا الصراع الذي خاضته الدولة العثمانية داخل أوروبا ذاتها، ليس هناك إذن صدمة ولا شيء نشأ فجأة بل المسألة صراع طويل، ثم حسمه لصالح الغرب في بداية القرن التاسع عشر، لأسباب كثيرة علينا أن نعرفها ونحللها ونتجاوزها في إطار حشد كل القوى

في هذا الصراع لاستعادة زمام المبادرة الحضارية، أو على الأقل الصمود أمام الغرب، والصيغة التي يطرحها الدكتور فؤ د زكريا صيغة زائفة؛ لأنها تتجاهل أولاً البعد الصراعي في المسألة وتتعامل معها بصورة بريئة كما لو كان الاختيار يتم في معرض للمنتجات العلمية والحضارية وليست عملية معقدة من الصراع لا يصح فيها إلا انتزاع التقدم؛ لأن الغرب وأيًا كان موقفنا إسلاميًا، أو علمانيًا، تراثيًا، أو اندماجيًا لن يسمح لنا بالنهضة لا على الأساس الإسلامي ولا العلماني، لا التراثي ولا التغريبي والقضية كيف ننتزع النهضة وكيف نقضي على الهزيمة الحضارية وكيف نستعيد زمام المبادرة الحضارية مع الغرب، ولأنها تغفل مسألة كون الحضارة الغربية حضارة غير عالمية قائمة على العنصرية لا يصح معها التفاعل الحر حتى لو أردنا ذلك، بل يصح معها الصراع لانتزاع النهضة انتزاعًا.

الحضارة الغربية هي حضارة وثنية إغريقية، وليست حضارة عالمية، نعم الحضارة الغربية الحديثة نشأت من خلال بعث الثقافة الإغريقية والثورة على الكنيسة والمسيحية، أي هي حضارة محلية تمامًا؛ لأنها في مسيرتها المعاصرة أسقطت حتى المسيحية باعتبارها شيئًا شرقيًا وأكدت على القيم الإغريقية وبرغم أنها أكدت على القيم الإغريقية القديمة، أي أكدت على التراث الثقافي الأوروبي الخاص، فإنها لم تفتعل معركة تسمى الأصالة والمعاصرة، أو التراث والتجديد، أو غيرها من الثنائيات التي يعشقها دعاة التغريب في بلادنا والتي تعبر عن جهل بأنفسنا وجهل بالحضارة الغربية في نفس الوقت، أو تمثل في أحسن حالاتها نوعًا من التعالي الزائف والتلاعب بالألفاظ.



تخصص علمي وليس مؤسسة دينية

يجهد الدكتور فؤاد زكريا نفسه إجهادًا مؤلمًا حتى يثبت أن في الإسلام مؤسسة دينية مثله تمامًا مثل المسيحية وبالتالي يبرر ظهور العلمانية في بلادنا كما ظهرت في الغرب، أي إنه يريد أن يقول لنا إن العلمانية ليست نتاجًا غربيًا محضًا في ظرف اجتماعي وتاريخي خاص بالغرب، بل هي ضرورة لنا أيضًا؛ لأننا مثل المسيحية الغربية لدينا مؤسسة دينية ينبغي الثورة عليها.

وبرغم أننا نرى أساسًا أن الثورة على الكنيسة في أوروبا لم تكن ثورة على المؤسسة الدينية بقدر ما كانت ثورة على الدين المسيحي ذاته، أي محاولة أوروبية للقصاص من دين دخيل عليها -وهي الإغريقية الوثنية أصلاً- أي محاولة لاستعادة الدين الأوروبي الأصلي وهو الوثنية الإغريقية، برغم أننا نرى ذلك، إلا أننا سنترك هذه النقطة ونناقش الدكتور زكريا فيما يزعمه بالمؤسسة الدينية الإسلامية يقول فؤاد زكريا في كتابه «الصحوة الإسلامية في ميزان العقل»:

«غير أن القول بأن الإسلام لا يعرف ولم يعرف مؤسسة دينية على الإطلاق هو قول ينطوي على قدر غير قليل من الإسراف؛ لأن الإسلام كان ولا يزال يضم سلطة دينية قوية، فالأزهر على سبيل المثال مؤسسة دينية يحتل قمتها شيخ الأزهر» ويعود الدكتور زكريا ليقول: «وطوال التاريخ الإسلامي كانت هذه السلطة الدينية قائمة» ولم يقل لنا الدكتور أين وكيف ولم يضرب لنا مثالاً واحدًا على ذلك.

على أي حال وبرغم أن الدكتور فؤاد زكريا لم يجد مثالاً في طوال التاريخ الإسلامي على هذه السلطة الدينية، وبالتالي لم يقدم لنا هذا المثال، إلا أننا سنترك

هذا التاريخ الإسلامي كله الذي لم توجد فيه سلطة دينية، ونناقش الدكتور في المثال الذي اتخذه دليلاً وهو الأزهر وشيخ الأزهر وبداية فإن أصغر مهتم بتاريخ الأزهر يعرف أنه جامعة علمية وليس مؤسسة دينية، وأن هذا الأزهر يعج بالتيارات الفكرية والفقهية والمذهبية الإسلامية، وهذا في حد ذاته دليل على أنه ليس مؤسسة دينية، إذ لو كان كذلك لتوحد خطابه الفقهي ولانعدم وجود التيارات الفقهية والمذهبية والعقائدية المختلفة داخله، أما شيخ الأزهر مثلاً فإنه يستطيع أن يقول رأيه في أي قضية، ثم يخالفه فيها علماء الأزهر، أو يرفض الاقتناع بها الجمهور العادي ولا يشعر أحد بالإثم، أو الخروج عن الدين وكل العلماء بما فيهم شيخ الأزهر يقررون أن كلامهم صواب يحتمل الخطأ وخطأ يحتمل الصواب ويختمون فتاواهم واجتهاداتهم دائمًا بكلمة والله تعالى أعلم، ولو كان الأزهر مؤسسة دينية لأصبح لما تصدره من أحكام وفتاوى ملزمة للجمهور ولباقي العلماء وإلا أثموا، أو طردوا من رحمة الرب كما هو الحال في المؤسسة الدينية المسيحية.

الدكتور فؤاد زكريا أيضًا يعتبر هيئة الإفتاء وعلى رأسها مفتي الديار- مؤسسة دينية، ولعل فتوى الدكتور طنطاوي مفتي الديار المصرية حول البنوك والتي تعرضت لأكبر قدر من النقد من علماء الدين ومن الحركة الإسلامية بالذات تثبت أنها ليست مؤسسة دينية ؛ إذ لو كانت كذلك للزم الالتزام بهذه الفتوى، وفي المناقشات الواسعة التي تعرضت لهذه الفتوى لم يقل الدكتور طنطاوي مفتي الديار المصرية إن هؤلاء الناقدين خرجوا على الشرع، أو أثموا بل قال: هذا اجتهاد. والذين قالوا بضرورة الأخذ برأي المفتي هم العلمانيون أنفسهم ولقد عبر عنهم الأستاذ محمود السعدني حين قال في إطار هجومه على منتقدي الفتوى: من يفتي غير المفتي؟!

وعلى أي حال فإن التهمة الموجهة من قبل السلطات ومن قبل العلمانيين إلى الإسلاميين عمومًا هو أنهم خارجون عن التفسير الأزهري للإسلام، وإذا كان الأمر كذلك فهل الحركة الإسلامية هي هذه الثورة العلمانية على المؤسسة الدينية؟!

ومن الغريب أيضًا أن العلمانيين ومنهم الدكتور زكريا ينتقد الحركة الإسلامية؛ لأن آراءها في الدين متناقضة مع بعضها البعض وليست ذات رأي واحد في القضايا المطروحة - وهذا صحيح؛ لأن كلاً يقدم اجتهاده الذي يعرف أنه صواب يحتمل الخطأ، أو خطأ يحتمل الصواب كما قال الإمام الشافعي رحمه الله: «رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب».

ويتابع الدكتور زكريا إثبات وجود المؤسسة الدينية في الإسلام قائلاً: «لو تم تطبيق الشريعة الإسلامية بديلاً عن القوانين الوضعية لأصبح من المحتم أن تظهر مؤسسات دينية»..

وعجبًا للدكتور الذي يرى الأزهر ودار الإفتاء مؤسستين في ظل غياب تطبيق الشريعة الإسلامية وتطبيق القانون الوضعي، ثم يعود يتحدث عن مؤسسات سوف تظهر عندما تطبق الشريعة الإسلامية! فهل المؤسسات الدينية موجودة بالفعل أم سوف تظهر.

على أي حال فإن الدكتور يخاف أن تكون هناك هيئة عليا للحكم على شرعية، أو عدم شرعية القوانين، وهذا لعمري موجود الآن، أليس هناك محكمة عليا تحكم بدستورية، أو عدم دستورية القوانين الوضعية وهل هذه مؤسسة دينية مثلاً، وللعلم المحكمة العليا التي تحكم بدستورية، أو عدم دستورية القوانين مثلها مثل الهيئة، أو المحكمة الإسلامية التي سوف تحكم بمطابقة القوانين للشريعة أم عدم مطابقتها هي محكمة، أو هيئة موجودة بالضرورة في ظل أي نظام قانوني وضعي، أو

غير وضعي.

ويعود الدكتور زكريا لالتقاط كل ما من شأنه أن يثبت وجود مؤسسة دينية في الإسلام فيورط نفسه في عكس ما يريد إثباته تمامًا، يقول الدكتور فؤاد زكريا إن المؤسسة الدينية الإسلامية تتدخل في الشئون العلمية والدليل على ذلك: «أنه ما زال داروين وفرويد حتى الآن موضوعين في القائمة السوداء لدى جميع المفكرين الإسلاميين وبخاصة رجال الدين منهم»، ثم يقول: «والأمر كذلك حتى بالنسبة لكشوف علمية محايدة كالهندسة الوراثية، أو أطفال الأنابيب، وكلنا يذكر كيف أن بعض الهيئات الدينية أفتت بتحريم الإنجاب عن طريق الأنابيب، ثم عدلت عن رأيها فيما بعد حينما اتضح لها أن هذا الأسلوب يمكن أن يحاط بجميع الضمانات التي تحول دون الخلط بين الأنساب»..

الدكتور فؤاد زكريا هنا يجعل للإسلام مؤسسة دينية؛ لأن بعض المفكرين الإسلاميين وخاصة رجال الدين منهم يهاجمون أفكار داروين وفرويد وماركس، وبداية فإن داروين وفرويد وماركس لهم أتباع في بلادنا يروجون لهم ولم نسمع عن أحد رجال الدين مثلاً طلب بإحراقهم كما كانت تفعل الكنيسة، كل ما في الأمر أن هناك نقد فكري لأفكارهم وهذا بالطبع متاح للجميع بما فيهم رجال الدين، وإلا لأصبح معنى مجرد كونك مسلمًا أن يحرم عليك العالم أن تنطق بكلمة ضد أحد، وثانيًا يضطر الدكتور إلى إدراج المفكرين الإسلاميين في قائمة المؤسسة الدينية، فكيف يمكن ذلك، أليس وجود مفكرين إسلاميين من غير علماء الدين قد تراجعوا في رأيهم الأمر الذي يؤكد أنهم يدركون أنه مجرد رأي يخطئ ويصيب وليس مؤسسة دينية تفرض رأيها وتعتبره مقدسًا، ولو كان رأيهم مقدسًا لما تراجعوا عنه، ويعترف أيضًا أن الجانب الذي اهتم به علماء الدين كان الجانب الأخلاقي في المسألة وهذا

أمر لا علاقة له بتدخل ما يسمى بالمؤسسة الدينية المزعومة في الأبحاث العلمية المحايدة إذا انصب جهد هؤلاء على مسألة اختلاط الأنساب وهي مسألة أخلاقية.

ما أغفله الدكتور أيضًا : هو أن هناك ممن هم خارج إطار علماء الدين الإسلامي والمفكرين الإسلاميين في العالم كله بما فيه بلادنا من ينتقد ماركس وفرويد وداروين دون أن يخشى أحد من تحولهم إلى مؤسسة دينية.



التيار الإسلامي رائدًا

سنترك هذه المرة الدكتور فؤاد زكريا يحدثنا عن بعض أمراض المجتمع العربي، فهو مثلاً يرى أن الطاعة مرض عربي، وقد نشر مقالاً في مجلة العربي في يوليو ١٩٨٦ تحت عنوان : «مرض عربي اسمه الطاعة» قال فيه: «إذا كانت هناك أسباب معنوية لتخلفنا وتراجعنا واستسلامنا أمام التحديات فإن الطاعة تأتي على رأس هذه الأسباب، إنها بغير تحفظ رذيلتنا الأولى وفيها تتبلور سائر عيوبنا ونقائصنا» وبعد أن يستعرض الدكتور فؤاد زكريا عضلاته الفكرية في تحديد أشكال وأنماط هذه الطاعة في الواقع العربي والآثار السلبية المترتبة على هذه الطاعة يختم مقاله «بأن التمرد قيمة أيضًا وأن أعظم إنجازات الإنسان لم تتحقق. إلا على أيدي الذين رفضوا أن يكونوا مطيعين وأن كل شيء عظيم أنجزته البشرية كان مقترنًا بقدر من التمرد ومن الخروج على مبدأ الطاعة».

ولا شك أن التيار الإسلامي المعاصر تيار متمرد شق عصا الطاعة على الحكام والمؤسسات ورفض الخضوع للواقع الموجود وله أسبابه طبعًا أيًا كان الرأي فيها، وهذا التيار منهم بالعنف والخروج على المألوف وأحيانًا يتهم بإحداث تفسير جديد للإسلام لم يعرفه السلف ولا الخلف! والمهم في هذا وأيًا كان الموقف فإن أحدًا لا يختلف على أن التيار الإسلامي غير مطيع، وهو بهذا يستحق الثناء من الدكتور فؤاد زكريا على الأقل من هذه الزاوية. ولكنني أتوقع أن يعود الدكتور فؤاد زكريا وبعد أن أصبح التمرد علم على التيار الإسلامي أن يعود فيعتبر الطاعة ليست مرضًا عربيًا كما كان يقول بل يدعو إلى هذه الطاعة.

وفي الإطار ذاته يحدد الدكتور فؤاد زكريا في كتابه الصحوة الإسلامية في ميزان العقل أن من أمراض الواقع العربي أن هذا الواقع يستبعد المرأة من العمل الاجتماعي ويتعامل معها بصورة متخلفة، وقد حدد لنا الدكتور أسباب هذا وآثاره التي قد نختلف أو نتفق معه فيها، ولكننا على أي حال سنعتبر من يمارس دفع المرأة إلى العمل الاجتماعي ذا موقف صحيح، وهو كذلك في رأينا، ولكننا سندهش عندما نفاجأ بأن التيار الإسلامي كان رائدًا في هذا المجال فالحركة الإسلامية في فلسطين كان لها فضل تقديم عناصر فدائية قامت بأعمال انتحارية مثل عواطف عليان، والإخوان المسلمون في مصر كانوا روادًا حيث كانت الدكتورة وفاء رمضان هي أول امرأة تنتخب كعضو في مجلس نقابة مهنية هي نقابة الأطباء، وعدد المرشحات مثلاً على قوائم التحالف الإسلامي في مصر سنة ١٩٨٧ كان أكبر من عدد هؤلاء المرشحات على قوائم أي حزب آخر بما فيه الأحزاب التقدمية، بل لقد سقطت إحدى هؤلاء شهيدة برصاص «الأحزاب التي تزعم العصرية والحداثة وهي الشهيدة نعمات، مرشحة التحالف الإسلامي عن سوهاج.. وكذا عدد المرشحات في قائمة التحالف الإسلامي لانتخابات المحليات سنة ١٩٩٣ وحتى بالنسبة إلى الصحافة الإسلامية نجد مجلة مثل المختار الإسلامي يعمل بها عدد من المحررات أكثر مما يعمل بجريدة الأهالي مثلاً، رغم أن الأولى شهرية والثانية أسبوعية، وهكذا فالتيار الإسلامي رائدًا في مجالي التمرد، ودفع المرأة للعمل الاجتماعي – ونسأل الله ألا يعود الدكتور فؤاد زكريا وأحزابه فيطالب بعدم دفع المرأة للعمل الاجتماعي، أو يعتبر هذا عيبًا!.

ويتابع الدكتور فؤاد زكريا في كتاب الصحوة الإسلامية في ميزان العقل الكلام عن علاقة الدين بالعلم ويزعم أن هناك من يناهض العلم باسم الدين، ورغم أننا

لا نصدق هذا؛ لأن قضية دعوة الإسلام إلى العلم قضية معلومة من الإسلام بالضرورة، إلا أننا سنسايره في زعمه ونقول لو كان هذا صحيحًا مثلاً لكان التيار الإسلامي رائدًا في الأخذ بأسباب العلم، والدكتور فؤاد زكريا يعرف أن التيار الإسلامي ينتشر في كليات العلوم التجريبية كالطب والهندسة والعلوم وغيرها، وأن الكثير من عناصر التيار الإسلامي ذوو تخصصات علمية دقيقة بدءًا من الدكتور نجم الدين أربكان أستاذ الهندسة ورئيس الحزب الإسلامي في تركيا وانتهاءً بالدكتور علاء محيي الدين (طبيب بيطري) المتحدث الرسمي باسم الجماعة الإسلامية في مصر.

وما زال كلام الدكتور فؤاد زكريا يعطينا الانطباع بأن التيار الإسلامي تيار رائد، فالدكتور في معرض حديثه عن أن الاستيراد يؤدي إلى زيادة رقعة التيار الإسلامي؛ لأنه يعطيه الأرضية الملائمة وأن الحرية تقلص هذه الأرضية، وبرغم أننا لا نوافق الدكتور على هذا الرأي بل نرى أن التيار الإسلامي؛ لأنه يعبر عن وجدان الأمة ومصالحها فهو ينتشر في حالة الاستبداد، وينتشر أكثر ويتألق في حالة الحرية، إلا أننا سنسايره فيما يقول حيث يصل إلى نتيجة غريبة وهي أنك لو سألت أحد قيادات التيار الإسلامي هل تفضل الاستبداد برغم ما تتعرض له الحركة الإسلامية من تضحيات وقمع وسجون ومشانق أم تفضل الحرية؟ لقال لك إنه يفضل الأولى؛ لأنها تزيد رقعة التيار الإسلامي على الثانية رغم أن تكاليف الأولى باهظة، ثم ينسى الدكتور نفسه ويعود فيقول إن من أمراض الحركات السياسية وخصوصا الإسلامية أنها مجرد تعبير عن مصالح قياداتها وأن هذه القيادات تستخدم التيار الإسلامي للحصول على مكاسب أي إنها حركة انتهازية، ولو كانت كذلك لما فضلت مصلحة المبدأ الذي ينتشر رغم المشانق على مصلحة أمانها الشخصي

ومصالحها التي تتأثر بالقطع في جو الصدام والاستبداد والسجون والمشانق وهكذا يتناقض الدكتور فؤاد زكريا مع نفسه أولاً، ثم يعطي الحركة الإسلامية وسام المبدئية وتغليب مصلحة المبدأ على مصلحة أعضاء الحركة وأمانهم الشخصي! .

***

في مقال للدكتور فؤاد زكريا في مجلة العربي عدد فبراير ١٩٨٧ تحت عنوان: «الإرهاب من زاوية عربية» يقول الرجل كلامًا نوافقه عليه على طول الخط، ونحن نوافق على كل ما هو صحيح ونستفيد من آراء الآخرين حتى لو كانوا في معسكر أيديولوجي، أو فكري، أو عقائدي مخالف لنا **«الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها»**، يقول فؤاد زكريا: إن الغرب مزدوج المعايير فيما يخص قضية الإرهاب؛ لأنه يمارس إرهابًا جماعيًا منظمًا في حين يحرم علينا الكفاح المسلح، ويرى أن من حق الضعيف أن يمارس العنف لطلب حقه من القوي بأي طريقة بشرط أن تكون أخلاقية من ناحية ولها آثار إيجابية من ناحية أخرى، وانطلاقًا من هذا فهو يرفض خطف الطائرات والسفن وغيرها ويعتبرها أعمالاً غير مشروعة؛ لأنها تضر أولاً بقضيتنا ولأنها تضر بأبرياء ثانيًا، ونحن معه في هذا أيضًا، ويشيد الدكتور فؤاد زكريا بعملية نسف مقر المارينز في بيروت، أو ضرب المجندين الإسرائيليين في حائط المبكي ويقول باللفظ الواحد: «وبهذا المقياس يمكن أن ندرج ضمن العمليات المشروعة عملية نسف مقر المارينز في لبنان، أو ضرب المجندين في حائط المبكي بينما تنتمي عمليات خطف السفن والطائرات، أو قتل المسافرين في المطارات إلى ميدان الأعمال غير المشروعة»..

ومن المعروف أن العملية التي نفذت ضد المارينز في بيروت ونضيف إليها العملية ضد مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في صور قد نفذها حزب الله في لبنان

والعملية التي تمت في حائط المبكى ضد المجندين الإسرائيليين نفذتها عناصر حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، وأن عمليات خطف السفن والطائرات وقتل المسافرين في المطارات نفذتها منظمات فلسطينية أخرى ماركسية، أو قومية.

وهكذا فالعمليات المشروعة نفذها التيار الإسلامي والعمليات غير المشروعة من وجهة نظر الدكتور فؤاد ومن وجهة نظرنا أيضًا نفذتها العناصر العلمانية، وهكذا فإن الدكتور فؤاد زكريا يسجل للتيار الإسلامي الريادة في مجال اختيار الأسلوب الأخلاقي والنافع والمشروع في مجال الكفاح المسلح.

وهو هنا لا بد أن يعترف بأن التيار الإسلامي رائد في الكفاح المسلح ورائد في اختيار الأسلوب الأخلاقي ورائد في الحساب السياسي حيث يختار الأسلوب النافع لقضيته.



عقلانية أم براجماتية أم انهزامية؟

بدلاً من بناء نهضة شاملة عن طريق مشاركة جماهيرية واسعة واستنادًا إلى الذات وتطويرًا لها والاستفادة من كل العلوم والتقنيات العصرية، أو حتى انتزاعها انتزاعًا كما يطرح أصحاب المشروع الإسلامي للنهضة، فإن العلمانية التي حكمت بلادنا منذ قرنين تقريبًا، تعمدت تخريب الذات واستبعاد الجماهير بل وقمعها، ثم اختزلت مفهوم النهضة الصحيح إلى مجرد حداثة تعنى باستهلاك السلع الغربية دون الحصول على البنية الصناعية اللازمة لإنتاج هذه السلع، وبذلك بددت الثروات العربية الهائلة في استيراد أحدث المقتنيات والسلع الاستهلاكية، وبعبارة واحدة بددت الثروة وأحدثت انفصامًا في الشخصية العربية.

وفي تطور أخير له ما وراءه قدمت لنا العلمانية شعارًا جديدًا يكشف عن الكذب والنفاق وإرهاب المصطلح، وهو «العقلانية» وحولت هذا المصطلح إلى أيديولوجية كاملة لها سماتها، رغم أن العقل والعقلانية والأسلوب العقلي والعلمي والمنطقي أمر لا علاقة له بالأيديولوجية ولا يمكن أن يشكل أيديولوجية في حد ذاتها وبدهي أننا لسنا في حاجة هنا إلى أن نؤكد ما هو معلوم من الدين والتاريخ والحضارة والواقع بالضرورة من أن الإسلام دين عقلاني والحضارة الإسلامية حضارة عقلانية، أو دعوة القرآن الكريم في عشرات الآيات إلى التفكير واستخدام العقل والنظر والتدبر، بل جوهر الحوار القرآني والإسلامي عمومًا مع خصوم يدور حول دعوتهم إلى استخدام العقل، أي إن العقلانية واللاعقلانية بل محاولة إلى إخفاء السيئات النظرية والأيديولوجية الغربية تحت مصطلح يخفي معالمها ويروج سمها بيننا.

على أي حال يعترف د. برهان غليون في كتابه اغتيال العقل: «أن العقل ليس اكتشافًا جديدًا في الثقافة العربية ولا هو غرة للحضارة الغربية».

وكذا يعترف كل من زكي نجيب محمود ومحمود أمين العالم بأن الإمام الغزالي - وهو عند العلمانيين أسوأ الصور الفكرية الإسلامية وأشدها تخلفًا، «عقلاني النظر إلى أقصى الحدود» الوعي والوعي الزائف، محمود أمين العالم. ويقول محمود أمين العالم أيضًا: «فالحق أنني أجد في الكثير مما كتب الغزالي مستوى رفيعًا من النهج العقلاني» وما دام الأمر كذلك فلماذا تلك الدعوة الغربية حول لاعقلانية التيار الإسلامي، أو لاعقلانية الحضارة الإسلامية، أو لاعقلانية الثقافة العربية، الأمر في جوهره ليس دعوة للعقلانية بل هو دعوة للبرجماتية في أسوأ صورها وتطبيقاتها، المطلوب هو القضاء على العقل العربي والإسلامي، وبناء عقل جديد يتحرر من كل شيء ويعود إلى نقطة الصفر، والاعتماد فقط على جزئيات الواقع الموجود، أي الاعتراف بشرعية هذا الواقع، ثم عقلنته، والواقع هو إسرائيل والنظام الشرق أوسطي والإنسان الشرق أوسطي بدلاً من الإنسان العربي والإسلامي، هو النظام الدولي الجديد، اقتصاد السوق، هو البنك الدولي والتبعية، وعقلنة هذا الواقع تحت شعار «العقلانية» هو أن يصبح عدوي هو صديقي ويصبح الإسرائيلي مثلي إنسانًا شرق أوسطي، ويمكن التعاون في إطار سوق أوسطية تكون إسرائيل فيها صاحبة التكنولوجيا والخبرة ويكون العرب أصحاب الماء والثروات والأرض، ويكون الاقتصاد الوطني جزءًا من الاقتصاد العالمي، أي إن المسألة ليست عقلانية بل انهزامية وربما أيضًا صهينة وأمركة.



نظرة ثقافية لأسباب العنف

لكل مجتمع بنيانه الثقافي، الذي اكتسبته وارتضته هذه الجماعة البشرية، أو تلك من خلال تجاربها ومعارفها وعقائدها وخبراتها وبصرف النظر عن مدى إيجابية، أو درجة صحة هذا البيان من عدمه فإن مجرد الرضا به يعني ضمنًا القدرة على الاحتكام إليه وممارسة الفرد والجماعة علاقاتها وصراعاتها استنادًا إلى هذا البنيان الثقافي وبطريقة سلمية.

ومجتمع مثل المجتمع المصري –الذي عرف طويلاً معنى الاستقرار والحوار والصراع السلمي، أصبح الآن ينطوي على قدر هائل من العنف، لدرجة أن العديد من المفكرين الاجتماعيين الذين كانوا يرددون الميل المصري إلى الدعة والهدوء، قالوا إن هناك تطورًا نوعيًا في الشخصية وإن ترديد المقولات السابقة عن طبيعة المجتمع المصري السلمية أمر يحتاج إلى إعادة نظر، وإنه لم يعد من المسلمات، ولكن أحدًا لم يكلف نفسه عناء البحث عن أسباب هذه التغيرات خارج التفسيرات السطحية والبسيطة والتي لا تغوص إلى العمق.

وفي الواقع فإن النخبة المثقفة –والتي تتشدق بتحليل هذه الظاهرة- هي في الواقع سببها وإن كانت أولى ضحاياها، ذلك أنها ارتضت منذ البداية القطيعة مع الجماهير والتعالي عليها، بل وناصبت الثقافة الوطنية العداء واستلهمت في خطابها الثقافي كل شيء إلا ثقافة الأمة ووجدان الجماهير، وأحيانًا كانت تصل إلى حد المطالبة بقهر الجماهير على التخلي عن قناعاتها تحت شعار تحرير الجماهير كرهًا من التخلف والرجعية، وكانت في كل الأحوال عون للسلطة وعطاءً لها، حتى لو كانت

سلطة مستبدة، أو فاسدة، أو معادية للجماهير، أو حتى متآمرة عليها.

ومع الوقت تحولت الثقافة النخبوية إلى وظيفة اجتماعية وغاية للحصول على مكاسب فئوية، بدلاً من أن تكون وسيلة لزيادة وعي الذات بنفسها وبمزاياها وعيوبها على حد سواء، وأصبح الولوج إلى عالم المثقفين يحمل في حد ذاته رؤية في السلم الاجتماعي ينبغي الحرص عليه والصراع من أجل ديمومته.

ولأن الثقافة النخبوية كانت مغتربة، ولأنها تحولت إلى وظيفة كان من الطبيعي أن تمارس القهر الثقافي بل التعالي على الجماهير واحتقارها والطعن في ثوابتها الثقافية، أو السخرية منها. فكان رد الفعل التلقائي ومع هذا الانفصال النخبوي وفقدان أدوات التواصل مع الجماهير واحتقارها والسخرية منها أن الجماهير لجأت إلى العنف كنوع من القصاص وكإثبات الذات في مواجهة الآخر.

ومن ناحية أخرى فإن المنظومة الثقافية التي تعرضت للتمزيق والضرب المستمر من النخبة المثقفة، لم تعد قادرة على إعطاء الصراع والحوار طابعه السلمي؛ لأن عمليات التشويه المتعمد للثقافة الوطنية أفقد علاقات الصراع السلمي والحوار الثقافي الذي يستند إليه، وأحدث في الواقع الاجتماعي خللاً وعدم توازن قاده بدوره بالضرورة إلى العنف؛ لأنه إذا اهتزت المنظومة الثقافية لمجتمع ما فإن العنف نتيجة حتمية لإعادة التوازن، أو لتأكيد الفئات الاجتماعية لوجودها والدفاع عن مصالحها بعد أن أصبح طريق الحوار استنادًا إلى ثقافة مرجعية تحظى بالرضا العام بسبب غياب أو اهتزاز هذه الثقافة المرجعية.

على أن أهم ما في الأمر أن تمزيق، أو غياب، أو عدم احترام المنظومة الثقافية الوطنية، أو أي منظومة تحظى بالرضا العام تعني أن السلطة تسقط بيد الفئة الأقوى ـ العسكريين مثلاً ـ وأن الطريق إليها، أو إلى غيرها من المواقع الاجتماعية لا يخضع

إلا لمنطق القوة وحده وبالتالي فإن منطق العنف من هذه الفئة، أو تلك ليس إلا تعبيرًا عن إدراك هذه الحقيقة وممارسة لها ووعيها بأن الدعوة إلى نبذ العنف مثلاً ما هي إلا نوع من الخداع تقوم بها إحدى القوى التي مارست هذا العنف على نطاق واسع وبطريقة منظمة لمنع القوى الأخرى من منافستها، أو تهديدها، أو استخدام وسائلها.



تاريخ تسلل التشريع الأجنبي إلى مصر

من المطالب الثابتة للشعب المصري عمومًا وللحركة الإسلامية خصوصًا مطلب تطبيق الشريعة الإسلامية الغراء، والمتتبع لحركة الصراع السياسي في مصر في العشرين سنة الأخيرة ـ خصوصًا ـ يجد أن هذا المطلب كان دائمًا على رأس أولويات الحركة الإسلامية العلنية والسرية كما أن هذا المطلب حظي من القبول الشعبي بما جعله مادة رئيسية في برامج كل الأحزاب والقوى السياسية، سواء في أوساط المعارضة أم في أوساط الحكومة على السواء.

ومنذ أن دخل التشريع الأجنبي مصر منذ عهد محمد علي ومن بعده وخاصة الخديوي إسماعيل والخديوي توفيق نجد أن الحركة الشعبية الجماهيرية اعتمدت مطلب تطبيق الشريعة كمطلب ثابت.

فالحركة الشعبية التي قادها الشيخ الشرقاوي «أحد علماء الأزهر» ضد ظلم المماليك سنة ١٧٩٥ التي انتهت بخضوع المماليك للمطالب الشعبية وكتابة وثيقة بين المماليك والرعية بقيادة العلماء تبين الحقوق والواجبات بين الحاكم والرعية ـ قد أكدت ذلك المطلب، ففي الجبرتي «أن الدفتردار حضر إلى العلماء ـ الذين اعتصموا بالأزهر احتجاجًا على الظلم- ووقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم » فقالوا له: «نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها»، وعندما جاء نابليون إلى مصر غازيًا سنة ١٧٩٨ حاول أن يخدع الجماهير فادعى في منشوره الذي وزرعه بمجرد وصوله «أنه يطيع الله ويحترم نبيه والقرآن العظيم». مما يدل على مدى تغلغل التمسك بالشريعة الإسلامية لدى

جماهير الشعب المصري وقتذاك.

وفي سنة ١٨٠٦ حاول السلطان العثماني عزل محمد علي إلا أن العلماء أرسلوا إلى قائد الأسطول العثماني رسالة جاء فيها: «والشريعة مقامة في أيامه».. يقصدون أيام محمد علي أي إن إقامة الشريعة في أيامه تبرر التمسك به وعدم عزله.

وحتى ذلك التاريخ كان الصراع يدور حول جدية تطبيق الشريعة والتمسك بها من الناحية الفعلية؛ لأن الواقع القانوني والاجتماعي كان واقع سيادة الشريعة من الناحيتين التشريعية والقانونية أي إن الخروج على الشريعة لم يكن سياسة قانونية معتمدة، ولكن كان مجرد خروج على النصوص القانونية المتبعة، أو إهمال التطبيق من الناحية العملية، أما من الناحية النظرية والدستورية فإنه لم يكن هناك تشريع آخر قد حل محل الشريعة الإسلامية.

وحينما بدأت عملية تسلل التشريع الأجنبي إلى مصر في عهد محمد علي وأولاده من بعده، فإن الصراع السياسي كان حول ضرورة إلغاء القوانين الأجنبية والعودة إلى جعل الشريعة الإسلامية الغراء هي المرجع في القضايا والقانون، وكانت الشريعة الإسلامية من المطالب الثابتة لجمال الدين الأفغاني في خطبه وتحركاته وبرامجه السياسية، وفي الصحف التي كان جمال الدين الأفغاني قد أنشأها، أو ساهم في تحريرها، أو مد نفوذه إليها سواء في داخل مصر (١٨٧١ – ١٨٧٩)، أو في خارجها قبل ذلك وبعده. كان جمال الدين وأتباعه وتلاميذه ينادون بإلغاء المحاكم المختلطة والقوانين الأجنبية والعودة إلى الشريعة الإسلامية، صحيح أن اهتمامات جمال الدين الأفغاني كانت أوسع كثيرًا من مسألة الشريعة الإسلامية كشكل قانوني، فقد اهتم بمجمل مشاكل العالم الإسلامي واهتم بتوحيده وترقيته والنهوض به. وتعرض القانون الأجنبي لعملية نقد وسخرية مريرة على يد الثائر العظيم عبد الله

النديم سواء في مقالاته اللاذعة أم في خطبة النارية. كما كانت مسألة التخلص من القوانين الأجنبية والمحاكم المختلطة من ضمن برنامج ومطالب الثورة العرابية.

وعندما تسلم مصطفى كامل راية الكفاح الوطني ظلت مسألة التخلص من القوانين الأجنبية والعودة إلى الشريعة الإسلامية أحد المطالب الأساسية للحركة الشعبية المصرية ضمن مطالبها الكثيرة الخاصة بالجامعة الإسلامية والتخلص من الاحتلال الإنجليزي ودعم قيم البلاد وعاداتها الوطنية لمواجهة الاحتلال وعلى نفس الدرب سار كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش، اللذين خلفا مصطفى كامل في قيادة الحزب الوطني والحركة الشعبية عمومًا.

وبظهور جماعة الإخوان المسلمين على يد الإمام الشهيد حسن البنا سنة ١٩٢٩ قفز الاهتمام بتطبيق الشريعة الإسلامية قفزة واسعة إلى الأمام، وأصبح هذا المطلب من المطالب الرئيسية لجماعة الإخوان ولزعمائها ومفكريها وصحافتها، وإذا كان مطلب الشريعة في برنامج الأفغاني والنديم، ثم مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش كان جزءًا من الدعوة إلى تقوية الخلافة القائمة «الخلافة العثمانية» والصراع مع الاستعمار الإنجليزي والتمسك بشعار «الجامعة الإسلامية».. فإن سقوط الخلافة العثمانية عمليًا ونظريًا قبل ظهور جماعة الإخوان جعل الإخوان المسلمين يفكرون في إقامة جمهورية إسلامية في مصر، أو صبغ مصر بالصبغة الإسلامية أولاً، ثم توحيد العالم الإسلامي تحت قيادة واحدة فيما بعد.. أي إن ترتيب الأولويات قد اختلف عما كان عليه بالنسبة للأفغاني ومصطفى كامل وخلفائهم، فقد كانت الخلافة العثمانية قائمة وبالتالي اتجهت الدعوة إلى تقوية الخلافة والنهوض بالمسلمين والتخلص من الاستعمار، وكانت الشريعة تدخل ضمن عوالم الصراع من أجل وتوحيد التخلص من الاستعمار، وبالتالي تكون مصر

جزءًا من هذا العالم الإسلامي الموحد. وبتغيير ترتيب الأولويات بسبب سقوط الخلافة وصعوبة قيامها من جديد في ظروف قريبة كان على الإخوان أن يعملوا على إقامة نظام إسلامي في مصر أولاً وأن يتجهوا في حركتهم اليومية، أو في برامجهم السياسية، أو خطبهم، أو دراسات كبار المفكرين المنتمين إليهم مثل عبد القادر عودة وسيد قطب، بل ظهرت العديد من القضايا المرتبطة بمسألة تطبيق الشريعة الإسلامية مثل قضايا تكفير الحاكم الذي لا يحكم بما أنزل الله «أي الذي لا يطبق الشريعة»، أو تكفير المجتمع الذي لا تسوده الشريعة الإسلامية وغيرها من القضايا الفكرية والحركية المرتبطة بهذا الأمر، وبعد سلسلة الصدامات المتوالية مع نظام حكم عبد الناصر وعملية القمع البشع الذي تعرضت له الحركة الإسلامية في مصر في الخمسينيات والستينيات ظهرت مجموعة من الأفكار التي سببت حوارًا وخلافًا سواء في صفوف الإخوان أو في صفوف الجماعات المنشقة، وكلها مرتبطة بقضية تطبيق الشريعة الإسلامية والحكم على الشخصيات والحكام والمجتمعات التي لا تطبق ذلك، وظهرت مصطلحات تكفير الحاكم، أو تكفير المجتمع، أو عدم تكفير هذا وذاك، بحيث غطى الحوار مساحات واسعة من اهتمام الحركة الإسلامية. وأثر هذا الأمر أيما تأثير على أسلوب الحركة وعلى مجمل اهتماماتها وعلى صلاتها بعموم المسلمين أيضًا. فهناك من يعتقد بجاهلية المجتمع وبالتالي يجب هجرته، أو جهاده ومن يرى أنه من العبث مطالبة الحكام الكفار بتطبيق الشريعة الإسلامية، ومن يرى بعكس ذلك ومن يرتب على ذلك أو عكسه اتباع أسلوب معين في الحركة، ومن قال بالأحكام الملكية ومن قال بغير ذلك إلى ما لا نهاية. وعلى كل حال فليس من موضوع بحثنا دراسة تلك الأمور، أو تغليب رأي على رأي، فعلينا أن نتابع حركة المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية في مصر.

في نهاية الستينيات ظهرت الجماعات الإسلامية إلى العمل العلني مرة أخرى بعد أن توارت تحت الأرض في العمل السري، أو خلف القضبان لفترة. وكان مطلب تطبيق الشريعة الإسلامية هو المطلب الأساسي والرئيسي، وربما الوحيد في بعض اللحظات، فظهرت الملصقات ومجلات الحائط في الجامعات وكلها تطالب بالشريعة الإسلامية باعتبارها الأسلوب الوحيد لحل مشاكل مصر ولإرضاء الله تعالى أولاً، اعتبرت تلك المجلات والملصقات التي أصدرها طلاب الجامعات خصوصًا أن كل مشاكل مصر من هزائم عسكرية وتخلف سياسي واقتصادي واجتماعي، فضلاً عن الظلم الاجتماعي والفساد إنما هي بالتحديد نتيجة مباشرة لعدم تطبيق الشريعة الإسلامية، وسارت على نفس النهج تقريبًا الصحافة الإسلامية التي ظهرت فيما بعد وفي المقالات التي كانت تنشرها الصحف الحكومية لبعض المتمسكين بالإسلام من الصحفيين والكتاب، بل وبدأت المطالب الأخرى التي تنادي بها الحركة الإسلامية في مصر تتفرع وتنمو من خلال شعار تطبيق الشريعة الإسلامية، فظهرت المقالات والكتب والخطب التي توضح أن الشريعة الإسلامية ليست مجرد حدود، أو قوانين، أو محاكم ولكنها منهج حياة يتضمن مبادئ سياسية وأخرى اجتماعية واقتصادية فضلاً عن القانونية.

وعلى مستوى البرلمان المصري ظهرت المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية في برلمان ١٩٧١ – ١٩٧٦ على يد النائب الشجاع محمود نافع الذي دخل البرلمان عضوًا عن دائرة ميت غمر – دقهلية وبدأ حديثه عن الشريعة الإسلامية في رده على بيان الحكومة في ١٩٧١، ثم صار لا يمل من تكرار هذا المطلب، وقدم العديد من المشروعات الخاصة بتحريم الخمور صناعة وتجارة واستهلاكًا وإلزام المرأة العاملة بالزي المحتشم وصرف معاش للمعوقين ولكبار السن كما تنص الشريعة الإسلامية

وغيرها من القوانين والقاعدة، واعتبر في كل كلامه تحت القبة أن مشاكل مصر تحل بالشريعة وليس بشيء آخر سواها، وفي الحقيقة فإن محمود نافع كان يعبر عن رأي عام متسع يردد ذلك الأمر في كل مكان وفي كل موقع في ذلك الوقت لدرجة أن لجان الاستماع، التي شكلها الرئيس السادات سنة ١٩٧١ لمعرفة اتجاهات الرأي العام المصري بشأن صياغة الدستور - قد استمعت في كل مكان ذهبت إليه إلى كل فئات الشعب المصري تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية، وبالفعل قامت لجنة صياغة دستور ١٩٧١ بتضمينه نصًا يقول: «إن الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد للقوانين»، إلا أن النص تغير فيما بعد وقبل إقرار الدستور إلى نص آخر يقول: «إن الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع، الأمر الذي فهم منه أنها ليست الوحيدة مصدرًا للتشريع وإن كانت مصدرًا رئيسيًا».

معركة الألف واللام:

وقد شهد البرلمان المصري فيما بعد ما يسمى بمعركة الألف واللام، حيث طالب محمود نافع وآخرون معه مثل الأستاذ عبد الفتاح أبو علي والدكتور محمد معتوق والشيخ رمضان عرفه وغيرهم بتغيير تلك المادة –الثانية من الدستور- لتكون «الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع» أي بزيادة ألف ولام على المادة الأصلية، وتمخضت تلك المطالبات التي حظيت باهتمام شعبي واسع عن استجابة الحكومة إلى ذلك فتم تغيير المادة الثانية من الدستور بالفعل وأضيفت إليها الألف واللام في سنة ١٩٧٩، وعقب هذا التغيير شهدت المحاكم المصرية عددًا من المواقف المهمة التي تجاوز فيها القضاة نص القانون وحكموا بموجب أحكام الشريعة الإسلامية مباشرة استنادًا إلى النص الدستوري، واشتهر من بين هؤلاء المستشار محمود غراب، والمستشار محيي الدين عبد الغفور.. كما شهدت المحاكم

العديد من الطعون أمام محكمة النقض لنقض الأحكام بدعوى عدم مطابقتها للشريعة الإسلامية، وشهدت الحياة القضائية حوارًا متصلاً حول جواز، أو عدم جواز التمسك بالقوانين المخالفة للشريعة في المحاكم.

وهنا ظهرت الحاجة، أو الدعوة إلى تقنين أحكام الشريعة الإسلامية في بنود واضحة، وتقدم الأزهر بعدد من مشروعات القوانين المقننة إلى مجلس الشعب المصري إلا أن مصيرها كان الضياع في الأدراج، وما زال التعارض بين الدستور والقوانين القائمة موجودًا حتى الآن، ومن ناحيتها قامت إدارات الأزهر بإلغاء كافة تعاقداتها الربوية والتزمت بالشريعة الإسلامية في تعاملاتها استنادًا إلى نص الدستور مما أوجد العديد من المشاكل القانونية بينها وبين الأطراف الأخرى.

وعقب موت السادات في ١٩٨١ –وظهور حزب الوفد الجديد وانتعاش الصحافة الحزبية والحريات الحزبية عمومًا– تضمنت كل برامج الأحزاب النص على تطبيق الشريعة الإسلامية، واختلفت في تفسيرها كل حسب هواه.. فعلى حين يرى حزب التجمع اليساري الاقتصار على دعم القيم الروحية والخلقية يرى حزب الوفد والحزب الوطني الحاكم ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ولكن بالتدريج، مما جعلهما عرضة للقول بأن التدرج هنا المقصود به تسكين الموضوع الذي أصبح يعتمد على قاعدة شعبية واسعة جدًا ولا يمكن تجاهلها، أما أحزاب الأحرار والعمل والأمة فبرامجها تنص صراحة على ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية فورًا، ويبرز في هذا الصدد حزب العمل بقيادة المهندس إبراهيم شكري الذي يمارس نضالاً برلمانيًا وصحفيًا وحزبيًا من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية، بل لقد شهدت جريدة الشعب ـ لسان حزب العمل ـ الدعوات الصريحة لتطبيق الشريعة وصبغ مصر بالصبغة الإسلامية عمومًا وخاصة في عهد رئيس تحريرها الأستاذ عادل

حسين، وقد تزعَّم هذا الأمر بعد عقد التحالف بين حزب العمل والإخوان المسلمين.

إذن فقد كان مطلب العودة إلى الشريعة الإسلامية مطلبًا شعبيًا ووطنيًا في كل الأوقات، وبدهي أن سيادة تشريع أجنبي في مصر أمر ضار على كل مستوى.. فهو أمر مخالف لأوامر الله سبحانه وتعالى أولاً، ثم هو أمر يجعل هناك انفصامًا في الشخصية المصرية بما له من عواقب وخيمة على كل مستوى ثانيًا، وهو أيضًا أمر يجعل استقلالنا منقوصًا ومشكوكًا فيه من ناحية ثالثة، بل إن البعض يرى أن فشل مشروعات الاستقلال الوطني في مصر كان يرجع لعدم إدراكها بعد التأكيد على التميز في الهوية والانتماء وإلغاء القوانين المستوردة..

ومما لا خلاف عليه بين كافة فقهاء الدساتير وعلماء التشريع وعلماء الاجتماع من كل اتجاه أن القانون لا يحقق الأهداف المرجوة منه ما لم يستند إلى عقيدة الأمة ووجدانها وعاداتها وتقاليدها، والاستعمار لم يكن يلهو حين كان يعمل كل ما في وسعه في سبيل إقصاء الشريعة الإسلامية وإدخال التشريع الأجنبي إلى بلادنا، ولعل أهمية الشريعة الإسلامية في تأكيد هوية الأمة وتميزها، مما يحقق لها قدرة أكبر على مواجهة الاستعمار قد جعل ذلك الاستعمار يحاول أن يروج عددًا من الافتراءات حول هذه القضية، وللأسف فإن عددًا من المفكرين والسياسيين والصحفيين راح يردد بوعي، أو بدون وعي تلك الافتراءات.

يقول الاستعمار وتلامذته: «إن التشريع الأجنبي قد حل محل التشريع الإسلامي بسبب جمود التشريع الإسلامي وعدم مسايرته للتطور، وأن الاستعمار لم يكن له يد في إقصائه، ولكن التطور الطبيعي كان هو المسئول عن ذلك».

وتلك فرية ذات نتائج خطيرة بدءًا من فشل مشروعات الاستقلال التي لم تدرك

أهمية التميز في الهوية والانتماء ولم تغير التشريع الأوروبي إلى تشريع إسلامي وانتهاء بغربة سياسية واجتماعية وقع فيها المثقفون إلا من رحم ربك.

وإذا كان التشريع الأجنبي قد بدأ يتسلل إلى مصر عام ١٨٤٠، وتأكد عامي ١٨٧٥ و١٨٨٣، فإن التحقيق التاريخي يثبت أن هذا السبب غير سليم؛ لأن المجلة العثمانية التي كانت تنشر القوانين الإسلامية مقننة كانت قائمة قبل هذا الوقت، ولأن محمد قدري باشا في مصر كان يقوم فعلاً بتقنين الأحكام وقتها، كما أن الوثائق التاريخية تكشف عن أن السبب الذي دعا حكام مصر إلى الأخذ بالتشريع الأوروبي هو رغبتهم في أن يقدموا لدول الامتيازات نظامًا قانونيًا ينشأ على شاكلة النظام القانوني في بلادهم، أو هو أمر مبيت بليل في أروقة التخطيط الاستعماري.

«إن لفقه الشريعة الإسلامية مرونة وتقبلاً للمعاصرة وقابلية للتقنين تظهر بوضوح في مجلة الأحكام العدلية، وهي مجلة تقنين شكلت لها لجنة برئاسة أحمد جودت باشا بدأت في ١٨٦٩ وانتهت في ١٨٧٦، وأخذت أحكامها من كتب ظاهر الرواية في المذهب الحنفي إلا القليل أخذت فيه بأقوال المتأخرين من الحنفية مراعاة للأنسب والأنفع في تقرير الأحكام». «وإن هذه المجلة كانت عملاً تقنينيًا أي تجميعيا للأحكام وتصنيفها وترتيبها بتبويب منطقي وعلمي على هيئة حوارات متتابعة».

ولقد كان أكمل تقنين أُخذ عن الفقه الإسلامي في ذلك الوقت، كما أنه قد سبقها في هذا الإطار - الجهد التجميعي الذي قام به شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد بن مصطفى العماد» وكذلك الخلاصة التي صنفها من جزأين الشيخ إبراهيم الحلي باسم «ملتقى البحر»، ثم جاء في القرن السابع عشر الجهد التجميعي الفذ الذي أعده فقهاء الهند في ستة مجلدات ضخمة بتكليف من السلطان محمد أورنك زيب

عالمكير واشتهرت باسم «الفتاوى الهندية الشاملة للعبادات والمعاملات والعقوبات على مذهب أبي حنيفة»، ثم هناك «القوانين نامه» التي كان يصدرها سلاطين العثمانيين مشتملة على تنظيمات إدارية وجزائية.

وإذا كان التوثيق التاريخي يثبت تهافت القائلين بأن التشريع الأجنبي قد حل محل التشريع الإسلامي بسبب جمود التشريع الإسلامي وعدم مسايرته للتطور، فإن المزيد من الدراسة يثبت أن ذلك كان أمرًا مقصودًا ومبيتًا ومخططًا له من دوائر الاستعمار، ففي سنة ١٩٠٨ طبع حزب الإصلاح الدستوري كتابًا مترجمًا بعنوان: «رسائل مصري لسياسي إنجليزي كبير في ١٩٠٥.. تضمن الكتاب أربع عشرة رسالة: كتبها المصري بالإنجليزية وعثر عليها في أوراق العضو الليبرالي في البرلمان الإنجليزي «سير روبرتسون»، وورد بالرسالة الخامسة «أن النظام التشريعي القضائي الجديد نشأ في مصر فجأة في يوم واحد وبالقوة القاهرة وعلى يد أمة أجنبية وجعلوا نظامه على نمط أنظمة بلاد بعيدة فرموا به شعبنا دون أن ينبهونا إليه ولا راعوا عواطفنا وإرادتنا وأخلاقنا الوطنية وتقاليدنا القومية.. إنكم غذيتم المصريين بطعام لم يألفوه ولا يستطيعون هضمه.. إن بناء القضاء يجب أن تكون جدرانه من المادة الوطنية.. بمعنى أن يكيف ذلك النظام القضائي على ما يوافق فطرة العقل الوطني الأصلية، أن يعتمد على الوسائل الوطنية.. ولا تكون للقضاء فائدة إلا إذا كان موافقًا لميول الشعب وعاداته وشعائره الدينية وتقاليده، والحق يقال فإن هذه البلاد المصرية ما زالت منذ زمن بعيد ترزأ بالقوانين الأوروبية غير الموافقة ودون مراعاة لعادات الوطنيين وتقاليدهم» ثم ختم رسالته بقوله: «أقول الحق الذي لا نزاع فيه: إن تشعب غرس أجنبي سيئ التأثير والمناسبة والحجم، قد أفسد وشوه تقاليد هذه البلاد، وقد شكلت أغصانه الممتدة الضخمة ظلاً مظلمًا على الشعب».

وإذا كان القضاء في الإسلام له أهمية كبيرة لدرجة أن الرسول الأعظم ﷺ قد مارسه بنفسه، وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد أفرزت مدرسة قضائية عادلة ومتميزة، سواء إبان صعود الحضارة الإسلامية أو حتى في أوقات ضعفها واستشراء عوامل التفكك في داخلها، وإذا لم يكن غريبًا أن تحفل كتب التاريخ بآلاف الأمثلة التي تدل على نزاهة القضاء الإسلامي ومدى مرونة الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان، بل بالمواقف الشجاعة والمتميزة للقضاة في مواجهة ظلم الحكام، أو غيرهم وصدوعهم بالحق مهما كانت النتائج. فإننا سوف تقدم مثلاً قضائيًا فذا حدث قبيل دخول التشريع الأجنبي إلى مصر ليكون هذا المثل دليلاً واضحًا على أن الشريعة كانت ولا تزال حتى اللحظة الأخيرة في أوج قوتها وصلاحيتها بما يقطع حجج المرجفين والمنافقين.

«ففي يوم ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ اجتمع زعماء الشعب في دار المحكمة وطلبوا من القاضي أن يرسل في استدعاء وكلاء الوالي ليحضروا مجلس الشرع فأرسل يستدعيهم على عجل فحضروا، وعندما انعقد المجلس عرض الزعماء ظلامة الشعب وحرروا مطالبهم وهي ألا تفرض من اليوم ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان، وأن تجلو الجنود عن القاهرة وألا يسمح بدخول أي جندي إلى القاهرة حاملاً سلاحه، وأن تعاد المواصلات في الحال بين القاهرة والوجه القبلي».

وقد أقرت المحكمة هذه الطلبات وأبلغت بها الوالي خورشيد باشا إلا أن الأخير لم يذعن لحكم المحكمة فانعقدت المحكمة في اليوم التالي وأصدرت حكمًا بعزل الوالي، بل وأصدرت المحكمة سندًا شرعيًا بذلك جاء فيه: «إن للشعوب - طبقًا لما جرى به العرف قديمًا ولما تقضي به أحكام الشريعة الإسلامية- الحق في أن يقيموا

الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم؛ لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة ».

بدأ تسلل التشريع الأجنبي إلى مصر في عام ١٨٤٠، وهو العام الذي أبرمت فيه معاهدة لندن بين محمد علي وبين الباب العالي، أو قل العام الذي فرضت فيه أوروبا رأيها على كل من محمد علي والسلطنة العثمانية معًا بعد أن دمر محمد علي قوة السلطنة العثمانية وجيوشها تمامًا وأصبح قريبًا جدًا من الآستانة، وهنا تدخلت الدول الأوروبية مجتمعة وفرضت صلحًا بين الطرفين يحقق لها تقليص نفوذ محمد علي والهيمنة على الخلافة حتى حقق لها تدمير القوة العسكرية للخلافة، فقررت أوروبا أن تبقي على الخلافة محتضرة ولا تسمح بظهور خلافة جديدة تحت حكم محمد علي تجدد شباب العالم الإسلامي، إذن ففي ١٨٤٠ كانت الخلافة المنهكة بفعل حروبها مع محمد علي قد وقعت عمليًا تحت النفوذ الأوروبي، واستطاعت أوروبا أن تفرض نفوذها على الخلافة ومحمد علي معًا. فتدخلت أوروبا في الوقت المناسب – بعد إنهاك قوى الطرفين- وأجبرت بجيوشها وأساطيلها محمد علي على توقيع اتفاقية لندن ١٨٤٠، وبخضوع محمد علي لذلك كان عليه أن يفتح الأسواق المصرية على مصراعيها أمام التجارة الأوروبية تنفيذًا للمعاهدات المبرمة من قبل، وأصبحت مصر مأوى للمغامرين والمرابين وغيرهم تحت ظلال نظام الامتيازات الأجنبية. وعلى كل حال، فقد أنشأ محمد علي في سنة ١٨٤٠ ما يسمى بمجالس التجار «مجالس أحكام التجارة»، وهي عبارة عن محاكم تجارية للفصل في المنازعات التجارية بين الأهلين، أو بينهم وبين الإفرنج، وتتألف هذه المحكمة من رئيس وباش كاتب وكاتب وثمانية من التجار: خمسة منهم من الوطنيين وثلاثة من الأجانب، وكان بكل من القاهرة والإسكندرية محكمة من هذا النوع. وبتمثيل

التجار الأجانب في هيئة المحكمة، فإن الباب قد فتح عمليًا أمام التشريع الأجنبي ليتسلل إلى مصر، واستمرت تلك المحاكم تعمل حتى عهد إسماعيل، وأضيفت إليها محكمة استئناف تسمى «مجلس الاستئناف»، كما زاد عدد الأجانب فيها فأصبح مساويًا لعدد الوطنيين وقد ألغيت هذه المحاكم لتحل محلها المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٦.

وبالإضافة إلى تلك المحاكم، أو مجالس التجار فإن الامتيازات الأجنبية التي تمتع بها رعايا الدول الأجنبية عمومًا والأوربية خصوصًا كانت هي الأخرى بابًا واسعًا لتسلل التشريع الأجنبي إلى بلادنا، وقصة الامتيازات الأجنبية تتلخص في أن الدولة العثمانية ـ في سبيل تحصين بلاد المسلمين ضد النفوذ الأجنبي - كانت قد منعت الأجانب من حق تملك العقارات في بلاد السلطة العثمانية، ثم عادت تحت الضغط الأوروبي فأعطتهم هذا الحق عندما ضعفت وخضعت للابتزاز الأوروبي سنة ١٨٦٧، وفي مقابل هذا الحق قبلت الدول الأوروبية خضوع رعاياها للوائح والقوانين المالية والعقارية التي تضعها السلطنة العثمانية من غير حاجة إلى موافقة الدول الأوروبية، بل خضوع هؤلاء الأجانب للمحاكم التركية في المنازعات العقارية سواء كانوا مدعين، أو مدعى عليهم، كما اشترطت تركيا اختصاص المحاكم العثمانية بنظر قضايا الأجانب ـ مدنية، أو جنائية، أو تجارية - إذا كان في الخصومة صالح أهلي، وتفصل في هذه المنازعات طبقًا للقوانين الأهلية دون حاجة إلى حضور القنصل، أو مندوبه أثناء المحاكمة.. وكذلك نص هذا القانون على أن تسري أحكام القوانين العثمانية الخاصة بالعقوبات على الرعايا الأجانب كما تسري على الأهلين سواء بسواء، وكذلك تسري عليهم القوانين الجنائية ويحاكمون أمام المحاكم العثمانية، أما إذا كانت هناك منازعات غير عقارية وطرفاها أجانب وليس فيها صالح أهلي فيمكن للطرفين اللجوء إلى قناصل بلادهم للحكم فيها بينهم.

وإذا كانت تركيا قدمت ذلك منحة وفي حدود ضيقة كما يظهر من نص القانون فإن الدول الأوروبية راحت تطور تلك المنحة وتستغلها أبشع استغلال، بل بصورة مخالفة للقانون الصادر في ١٨٦٧ واستغلت تغلغل نفوذها في مصر في عهدي سعيد وإسماعيل وجعلت من الامتيازات الأجنبية اعتداءً صارخًا على السيادة المصرية، وصار للامتيازات الأجنبية في مصر مظاهر ومميزات مختلفة تمامًا عما خوله لها القانون الصادر في ١٨٦٧، وإذا كان النفوذ الأجنبي قد ظل ضعيفًا في مصر وكذلك التواجد الأجنبي في عهد محمد علي وإبراهيم وعباس الأول فإن فتح قناة السويس ومد السكك الحديدية وظهور العديد من الشركات والبنوك الأجنبية التي تعمل في مصر جعل تلك الامتيازات بلا حدود وجعلها اعتداء صريحًا على السيادة المصرية، وقد طغى الأجانب الذين بلغ عددهم في عهد إسماعيل ١٠٠ ألف نسمة أمام ضعف الحكومة، فقد كان سعيد باشا كثير السخاء معهم ولم يكن يرفض أي منحة يطلبونها وكان ينساق من غير تبصر إلى أي مشروع يعرضونه عليه، فإذا لم ينالوا من تلك المشاريع ما يبغونه من ربح عوضهم سعيد باشا ما فاتهم من الأرباح، وكان القناصل يتدخلون لتأييد مطالب هؤلاء الأجانب ويكرهون سعيد باشا على إجابتها، وكانوا يتحرجون في عهد عباس الأول من هذا التدخل لما كان لديه من الوسائل لوقفهم عند حدهم، وقيل إنه كان لديه نمر يألفه ويضعه بالقرب منه محجوبًا عن الأنظار فإذا اشتد الجدل بينه وبين أحد القناصل استدعى النمر في رفق وهدوء إلى حيث يراه القنصل فكانت لهذه الوسيلة «الدبلوماسية» أثرها في حسم النزاع.

إذن فقد ظلت الامتيازات في مصر تتبع أوضاعها الأصلية على عهود محمد علي وإبراهيم وعباس، كما كانت بالإسكندرية والقاهرة محكمتان تسمى كل منهما

المحكمة التجارية، أو مجلس التجار تفصل في المنازعات التجارية بين الأوروبيين والمصريين، وقضاتها من الوطنيين والأجانب، والغالبية فيها للوطنيين كما سبق أن وضحنا، ولكن مع ضعف سلطة الحكومة في عهد سعيد وازدياد النفوذ الأجنبي بفعل الديون في عهد إسماعيل طغت سلطة الأجانب ونالوا عددًا من المزايا بالعرف والعادة كما يلي:

- انتزع القناصل سلطة الحكم فيما يقترف رعاياهم من الجرائم التي تقع على الرعايا الوطنيين.
- التزم الأهالي عندما يقاضون الأجانب بأن يرفعوا دعاواهم أمام المحاكم القنصلية، وأن يكون التنفيذ في حضور القنصل، وبدهي أن القناصل كانوا يمتنعون عن الحضور إذا كان الحكم في غير صالح الأجانب، فيضطر الأهالي للتوسل إلى القناصل لحضور التنفيذ وهنا يقوم القناصل بمساومة الأهالي والوصول معهم إلى اتفاقات مجحفة لصالح الأجانب، فيضطر الأهالي لقبولها بدلاً من تعديل التنفيذ إلى ما شاء الله.
- كما اغتصب القناصل سلطة الفصل حتى في القضايا التي يرفعها الأجانب على الأهالي، أو على الحكومة المصرية ذاتها.

وعلى سبيل المثال فقد حكمت المحاكم القنصلية بتعويضات وصلت إلى ٢,٨ مليون جنيه في مدى أربع سنوات (١٨٦٤ – ١٨٦٨).

وقد عبر فان بلمن عن هذه الحالة بقوله: «إن الأوروبيين يعبرون عن الاختصاص المختلط للقنصليات بأنه نشأ عن العرف، وفي الحقيقة فإنه وليد الاغتصاب الواقع من الأقوياء على الضعفاء».

وبدهي أن ذلك حقق قدرًا هائلاً من الاضطراب والظلم للوطنيين، فكل قضاء

قنصلي يحكم طبقًا لقانون بلاده، فلم يكن التعامل بين الناس قائمًا على قواعد معلومة وضوابط مرسومة، بل صارت المعاملات عرضة لأهواء المحاكم القنصلية وقوانينها، وإذا علمت أن القنصليات العامة للدول المتمتعة بتلك الامتيازات كانت ١٧ قنصلية.. أي إنه كانت بمصر ١٧ محكمة قنصلية تحكم كل منها بقوانين بلادها، وأنه لكي تستأنف حكمًا منها كان عليك أن تقدم هذا الاستئناف أمام محكمة إكس بفرنسا، أو أنكونا بإيطاليا، أو أثينا باليونان، أو لندن في إنجلترا، أو محكمة تريستا بالنمسا، أو محكمة نيويورك بأمريكا على حسب جنسية طرف الخصومة الأجنبي، وبدهي أن الأجانب كانوا يستأنفون أمام تلك المحاكم مما يؤدي إلى تنازل الطرف الوطني عن الخصومة بدلاً من الدخول في تلك المتاهات التي لا يعرف لها آخر.

فكر الخديوي إسماعيل في إصلاح ذلك الخلل ولكنه – بدلاً من أن يعالجه بأن يكون القضاء الأهلي وشريعة البلاد هما المرجعان في التقاضي بصرف النظر عن أطراف الخصومة انتهى إلى اتفاق مع أوروبا بإنشاء محاكم مختلطة يكون العنصر الغالب فيها للقضاة الأوروبيين وتحتكم إلى القانون الفرنسي والإنجليزي والإيطالي، وتفصل فيما يقوم من المنازعات بين الوطنيين والأجانب وتختص بنظر الجنايات والجنح والمنازعات المدنية والتجارية، واستثنت بعض الجنح والجنايات التي يرتكبها الأجانب فظلت من اختصاص المحاكم القنصلية، وقد وقع هذا الاتفاق كل من الولايات المتحدة – النمسا – المجر – بلجيكا – الدنمرك – فرنسا – ألمانيا – إنجلترا – اليونان – هولندا – إيطاليا – البرتغال – روسيا – إسبانيا – السويد – النرويج.. وذلك في سنة ١٨٧٥، وكانت كل القوانين المعمول بها أجنبية في تلك المحاكم والغلبة فيها للقضاة الأجانب.. ويصف القاضي الهولندي فان بلمن ذلك بقوله: «إن المحاكم المختلطة ركن قوي من أركان السيطرة الأوروبية

على مصر».

وبهذا القضاء المختلط تمت السيطرة الفعلية على القضاء المصري، بل التشريع المصري ذاته، حيث إنه لم يعد في مقدور الحكومة أن تصدر قانونًا بدون موافقة الأجانب عليه، وبذلك تكون مصر قد خسرت حتى استقلالها التشريعي كما يقول جابرييل شاوم، فتلك المحاكم قد شاركت الحكومة سلطة التشريع، ولم يعد في مقدور الحكومة أن تصدر قانونًا نافذًا إلا إذا صدقت عليه الجمعية التشريعية للمحاكم المختلطة.. أي إن تلك المحاكم تمارس أيضًا سلطة البرلمان!!

ومن الناحية التاريخية فإن تلك المحاكم قد تسببت في ضياع استقلال مصر، ففضلاً عن كونها في حد ذاتها اعتداء على السيادة وانتقاصًا للاستقلال الوطني، فإنها وقفت مع الدائنين في صراعهم مع الخديوي إسماعيل سنة ١٨٧٩، وألغت مرسوم ٢٢ إبريل ١٨٧٩ مما أدى إلى تكريس الرقابة الثنائية التي كانت في حد ذاتها أول أشكال الاحتلال الأجنبي – كما أنها مع تزايد أعداد الأجانب في مصر أدت بأحكامها إلى زيادة ثروة هؤلاء على حساب ثروة الوطنيين، الأمر الذي مهد الأرض للاحتلال تمامًا، يقول القاضي فان بلمن في هذا الصدد: «إن المحاكم المختلطة صارت سلطة أقوى من سلطة الحكومة المصرية، وقد أدرك الخديوي إسماعيل – في الوقت الأخير وبعد وقوع المحظور- أنه بإبرامه الاتفاقات المنشئة لهذه المحاكم قد خلق لنفسه أسيادًا جددًا إلى جانب سيادة القنصليات» ويضيف: «إن هذه المحاكم التي يرتدع لها الخديوي والباشاوات لم تكن مستقلة تمام الاستقلال عن العنصر الأجنبي في مصر فبينما حكومة البلاد والأهالي عزل أمامها كان الأجانب يعدونها محاكمهم ويرون أنها أنشئت خصيصًا لمناصرتهم في جميع الأحوال والقضاء لمصلحتهم ضد العرب والترك والخديوي «يقصد بالعرب

المصريين»، فكانوا منها في موقف حصين إذ يحميهم الرأي العام الأوروبي والمحامون ورجال الأعمال والصحف فضلاً عن المال، وتشد أزرهم قوات القنصليات والدول والجاليات الأوروبية التي تتحفز لمهاجمة كل قاض وكل محكمة لا تنحاز إلى جانبهم، وقد أسرفت تلك المحاكم في إصدار الأحكام ضد الحكومة والخديوي لصالح الأجانب من المقاولين والموردين، أو من الأفاقين من مختلف النحل ممن كانوا يطالبون بما ليس لهم حق فيه، أو بإضعاف ما يستحقونه، ولقد أدى الإسراف في هذه الأحكام إلى تضخم الديون السائرة التي أثقلت كاهل الحكومة وتفاقم النكبة التي تولدت منها، وكانت هذه المحاكم هي أداة السيطرة الأوروبية والاستقلال الأجنبي في مصر فهي محاكم أجنبية تقضي بين الناس بلغة أجنبية وتطبق قانونًا أجنبيًا، ويعد عملها -على الخصوص في البيوع الجبرية والرهون العقارية- كارثة على مصر».

ويقول الرافعي: «وصفوة القول إن نظام القضاء المختلط قد أنقص سيادة مصر واستقلالها، وكان هذا النظام أداة لاستغلال مصر واستعبادها».

إذن فهناك إجماع على أن التشريع الأجنبي قد دخل مصر بفعل الضغط الأوروبي وبسبب النفوذ الأجنبي، وأن ذلك كان مقصودًا لتكبيل مصر وتجهيزها للخضوع للاحتلال الأجنبي، الأمر الذي يؤكد الصلة المباشرة بين الاستقلال الوطني وسيادة الشريعة الإسلامية كما يؤكد أيضًا أن التشريع الأجنبي كان أحد أشكال الهيمنة الاستعمارية وأنه كان أحد أدوات استغلال مصر واستعبادها، وأنه كان وسيلة لإغراقها في الديون والنفوذ الأجنبي، ولعل كل ذلك يكون قذى في عيون من يقول بأن التشريع الأجنبي لم يدخل مصر عنوة، أو لم يدخلها بسبب الاستعمار، فالقانون الأجنبي كان وسيلة استعمارية ثابتة على كل مستوى.

وقد تواكب مع ذلك المخطط الاستعماري الجهنمي قيام الخديوي إسماعيل بتعريب مجموعات القوانين الفرنسية، وترجمت فعلاً بقلم الترجمة «القوانين المدنية والدوائر البلدية والمحاكمات والمرافعات والحدود والجنايات، وطبعت ما بين ١٨٦٦ – ١٨٦٨، ثم إن الخديوي إسماعيل استدعى من فرنسا في سنة ١٨٦٥ مهندسًا فرنسيًا كان اسمه «فيكتور فيدال»، وكان حاصلاً على ليسانس الحقوق بالإضافة إلى الهندسة، فكلفه الخديوي إسماعيل بإعداد لائحة تأسيسية وقانون للإجراءات الجنائية وقوانين أخرى، وأن يدرس القانون الإداري لولي العهد، ثم أنشأ مدرسة الإدارة والألسن في أكتوبر ١٨٦٨ قام منهجها على دراسة الشريعة الإسلامية والقانون المدني للدول الأوروبية والقانون الطبيعي والقانون الروماني والقانون التجاري والبحري والمحاسبة التجارية وقانون المرافعات المدنية والتجارية وقانون العقوبات وقانون تحقيق الجنايات فضلاً عن اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية والإيطالية واللاتينية، أي إنها كلية حقوق بالمعنى الكامل أخفي اسمها تحت اسم لم يكن لمناهجها منه نصيب هو «مدرسة الإدارة والألسن»، ولم يكن حتى القانون الدستوري والإداري من مواد التدريس بها ولم يضافا إلى مناهجها إلا بعد عشرين عامًا من إنشائها ١٨٨٨، ولعل إخفاء حقيقة تلك المدرسة تحت اسم آخر كان مجرد حذر من مقاومة قد تظهر من الأزهر لإنشائها.

إذن فقد تم استنبات التشريع الأجنبي في البيئة المصرية عمليًا ونظريًا وتعليميًا بفعل الضغط والنفوذ الأوروبي ولتحقيق أهداف الاستعمار وطلائعه الأولى من المرابين والأفاقين المغامرين والموردين.

وفي سنة ١٨٨٣ تم إنشاء المحاكم الأهلية، وقد نص الأمر العالي بإنشائها على أن تكون القوانين التي تطبقها المحاكم الأهلية هي نفس قوانين المحاكم المختلطة

وصدر القانون المدني في ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٨٣ وقانون التجارة والقانون التجاري البحري وقانون المرافعات وقانون العقوبات وقانون تحقيق الجنايات في ١٣ نوفمبر ١٨٨٣، وقد شكلت المحاكم الأهلية من قضاة من المصريين الذين شغلوا المناصب القضائية بالمحاكم المختلطة، أو أتموا دراساتهم القانونية في أوروبا وفي مصر مع تعيين بعض القضاة الأجانب بشرط مراعاة أرجحية من يكون منهم عارفًا باللغة العربية، وكذلك من قضاة من المجالس المحلية القديمة، وهكذا فإن ظهور تلك المحاكم على أساس القانون والتشريع الأوروبي قد كرس التبعية القانونية لبلادنا للأجانب على مستوى القضاء الأهلي والقضاء المختلط معًا، ولعل هذه كانت من الأمور التي تروق للاستعمار الإنجليزي الذي احتل مصر سنة ١٨٨٢، فلو لم يكن موافقًا على ذلك لما سمح به وقد عطل أكثر من مشروع دستور وغير من سلطات مجلس النواب بشكل يقلص نفوذه وأهميته، وتسامح أو تشجيع الاستعمار الإنجليزي لذلك كان شكلاً جديدًا ومتسعًا للهيمنة الأجنبية على بلادنا، وقد تم تأسيس تلك المحاكم في المدن الكبرى في الوجهين القبلي والبحري، كما تم إصدار مجموعة من اللوائح المنظمة لاختصاصات المحاكم وضرورة نشر القوانين في الجريدة الرسمية وعدم قابلية القضاة للعزل وعدم جواز سريان القوانين بأثر رجعي وغيرها من المبادئ القانونية التي تتفق فيها كل التشريعات الحديثة، وهي أيضًا غير مخالفة للشريعة الإسلامية إلا أن كل القوانين المعمول بها في تلك المحاكم الأهلية كانت مستمدة من التشريعات الأوروبية، كما تم إنشاء محاكم الاستئناف وتنظيم للنيابة العامة. وإذا كان البعض قد امتدح عملية تنظيم القضاء وضبطه وتقنينه عن طريق المحاكم الأهلية، فإنه قد فاتهم أن استخدام التشريع الأوروبي في تلك المحاكم قد جعل كل مميزاتها في النهاية بلا قيمة حقيقية.

وفي عام ١٩٣٧ تم عقد معاهدة مونترو التي نصت على إلغاء المحاكم المختلطة بعد مرور ١٢ عامًا، وقد تم هذا الإلغاء في ١٤ أكتوبر ١٩٤٩.

وفي عام ١٩٤٨ صدر القانون رقم ١٣١ الذي ألغى القانون المدني المعمول به أمام المحاكم الأهلية الصادر في ٢٨ أكتوبر ١٨٨٣، والقانون المدني المعمول به أمام المحاكم الصادرة في ٢٨ يوليو ١٨٧٥، واستعيض عنهما بالقانون المدني الصادر في ١٩٤٨ على أن يعمل بهذا القانون ابتداء من ١٥ أكتوبر ١٩٤٩، أي بعد إلغاء المحاكم المختلطة، وهكذا تم صدور القانون المدني الذي ما زال يعمل به حتى الآن، واستند ذلك القانون في تشريعاته أيضًا على النصوص الأوروبية وخاصة القانون الفرنسي، ولكي نعرف موقفه من الشريعة الإسلامية فإننا نورد نص المادة (١) من هذا القانون «تسري النصوص التشريعية على جميع المسائل التي تتناولها هذه النصوص في لفظها، أو في فحواها، فإذا لم يوجد نص تشريعي يمكن تطبيقه حكم القاضي بمقتضى العرف، فإذا لم يوجد فبمقتضى القانون الطبيعي وقواعد العدالة».

وقد فسر الأستاذ أنور العمروسي تلك المادة بأنه «ما دام المجتمع وليد العقيدة الإسلامية فقد أصبح قانونه الطبيعي هو القانون الذي أنتجته والذي ازدهرت حضارته وبقيت على أساسه ١٤ قرنًا تفرد خلالها بحمل أعلام الحضارة بين الأمم». وأضاف الأستاذ أنور العمروسي: «أن تلك المادة ترتب مصادر التشريع كالتالي: «النصوص – العرف – مبادئ الشريعة الإسلامية – مبادئ القانون الطبيعي وقواعد العدالة».

أي إن الشريعة الإسلامية هي المصدر الثالث بعد النصوص، والعرف، ومن العجيب أن يقرر في مصر وليد العقيدة الإسلامية، ومع ذلك يأتي ترتيبها الثالث في ٨٠ رجال القانون أن المجتمع مصادر التشريع!!

وعلى مستوى القوانين الجنائية صدر تقنين للإجراءات الجنائية عمل به ابتداءً من ١٥ نوفمبر ١٩٥١، أما تقنين العقوبات فقد تم تنحيته مرتين الأولى سنة ١٩٠٤ والثانية ١٩٣٧.

وفي عام ١٩٦١ بعد ظهور الموجة الاشتراكية في مصر – ظهر اتجاه لتعديل القوانين بما يتلاءم مع تلك الموجة الاشتراكية، وتم تشكيل لجان لهذا الغرض إلا أن معظم أعمال هذه اللجان لم ير النور فيما عدا تقنين المرافعات الذي صدر في ١٩٦٨ وكذلك قانون الإثبات.

وظلت الشريعة الإسلامية بعيدة عن مجال التطبيق ومستبعدة، وتأتي في المرتبة الثالثة من مصادر التشريع كما جاء في قانون ١٩٤٩ اللهم إلا في قانون الأحوال الشخصية الذي استمد من الشريعة الإسلامية.

وفي سنة ١٩٧١ – ونتيجة للضغط الشعبي- نص في المادة الثانية من الدستور على أن تكون الشريعة الإسلامية مصدرًا رئيسيًا للتشريع، ثم تعدل هذا النص في ١٩٧٩ لتكون «الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع» ومع ذلك فما زالت النصوص القانونية غير مستمدة من الشريعة الإسلامية حتى الآن.



الشرق أوسطية.. مفهوم ثقافي حضاري

يخطئ من يتصور أن الشرق أوسطية هي مجرد سوق، بل ربما لا تكون ذات صلة بمفهوم السوق وعالم الاقتصاد أساسًا.. أو قل إن السوق فيها طريق إلى تمرير المفهوم الثقافي والحضاري.

والتعامل مع الشرق أوسطية ينبغي أن يكون بحذر؛ لأن الطريقة التي تم تسويق هذا المفهوم عن طريقها تُعد أخطر ما في المسألة، وهناك بالتالي جزء من جبل الجليد الطافي، والجزء الباقي الأهم والأخطر والأكبر لا يزال تحت الماء!

الجزء الطافي من جبل الجليد:

ينطلق الجزء الظاهر من مشروع الشرق أوسطية إلى مفهوم إقامة سلام شامل بين العرب وإسرائيل.. وأنه بعد فقدان العرب الكثير من أوراقهم السياسية في السنوات الأخيرة والتي انتهت بتوقيع الحكومات العربية لمعاهدات واتفاقيات سلام مع الكيان الصهيوني، وانتهاء منظمة التحرير الفلسطينية إلى التخلي عن ميثاقها ودستورها، والتخلي بالتالي عن مشروعيتها بتوقيع اتفاقية أوسلو، فإن المحافظة على هذا السلام، وتحقيق المزيد منه، أو حل المشكلة برمتها يعتمد على الإدماج الاقتصادي لإسرائيل في النظام الإقليمي الشرق أوسطي وكذا الإدماج الأمني، بمعنى أن السبب في الصراعات في تلك المنطقة هو سبب اقتصادي أساسًا، يرجع إلى تواضع مستويات النمو الاقتصادي في المنطقة، والضعف الشديد للتبادل التجاري فيما بينها، وبقيام السوق الشرق أوسطية تستطيع إسرائيل التي تملك العقول والمشروعات أن تكون رائدة للتنمية الاقتصادية في المنطقة، وبالتعاون بين

العرب وإسرائيل تجاريًا واقتصاديًا وعلميًا يمكن النهوض بمستوى المعيشة في المنطقة، ونزع أسباب النزاع الاقتصادي، وبالتالي ديمومة السلام.

ومن الناحية الأمنية، فإن المقترح هو أن تصبح إسرائيل القوة النووية والتقليدية الوحيدة في المنطقة؛ أي أن تصبح المنطقة خاضعة للسلام الإسرائيلي، وهذا في حد ذاته يمنع وقوع الحروب مستقبلاً؛ لأن نتائجها تكون معروفة، وبالتالي لا داعي لها!

ومحصلة المشروع هو الخضوع الاقتصادي والأمني لإسرائيل، وتحقيق نوع من العلاقات غير المتكافئة اقتصاديًا وأمنيًا يحول دون اندلاع حروب، وهكذا فإن المشروع يعني حتمًا إغلاق أي مسار للقوة، أو النهضة عربيًا، ويجعل اختلال القوى الشديد مدخلاً إلى السلام الشامل!

الإبادة الحضارية والثقافية:

في مناقشة لمشروع الشرق أوسطية نظمته جريدة الأهرام اندفع أحد الباحثين فقال: إن الهوية تعطل التنمية.. وكشف هذا الرجل بتلقائيته عن الهدف الحقيقي للشرق أوسطية! ومن ناحية أخرى فإن الأستاذ لطفي الخولي، وهو أحد كبار مخططي ومروجي الشرق أوسطية وضع كتابًا عنوانه «عرب نعم... وشرق أوسطيون أيضًا».. ولا شك أن هذا الكتاب يكشف عن قصد، أو دون قصد عن الهدف الحقيقي للشرق أوسطية، وهو ضرب الانتماء والهوية والتميز الحضاري، ولعل ذكاء لطفي الخولي حال دون تورطه في إنكار أن العرب يمثلون تميزًا حضاريًا وثقافيًا لا يمكن تجاهله، فاختار أن تكون البداية بعدم إنكار الهوية العربية الإسلامية تمامًا، ولكنه جعلها مجرد بُعد من أبعاد الشخصية العربية التي أضاف إليها الكثير من الأبعاد الهلامية والمبيتة وغير المحددة، ثم أضاف إلى الجميع بعد الشرق أوسطية، ليكون بذلك قد مهد الطريق لسيادة الشرق أوسطية فيما بعد..

على كل حال.. مسألة ضرب الهوية العربية والإسلامية للمنطقة أمر ليس جديدًا، بل هو قديم جديد، ولعل مصطلح الشرق الأوسط نفسه هو مصطلح اخترعه الاستعمار لوصف حالة سياسية وليست جغرافية، ولتقسيم مناطق النفوذ في بداية المرحلة الاستعمارية بين قوى الاستعمار، ثم ليكون نواة للإلحاق الحضاري، أو الإبادة الحضارية وإبعاد العرب بالذات عن هويتهم الإسلامية؛ لأن القوى الاستعمارية كانت تدرك أن الهوية الإسلامية كعرب هي التي تحفظهم وتجمعهم؛ وهي النواة الصلبة التي يمكن أن تكون طريقًا إلى النهضة، والتخلص من الاستعمار وتحقيق الطموحات استنادًا إلى بُعد ثقافي وحضاري، وبُعد جغرافي واستراتيجي متمثلاً في الأمة الإسلامية برمتها.

الكثير من المفاهيم والمحاولات الثقافية تم ترويجها وفشلت جميعًا للقضاء على الهوية الإسلامية للعرب منها بعث بعض الثقافات، والانتماءات القديمة كالفرعونية والآشورية والسومرية.. إلخ. ومنها إنكار الهوية العربية الإسلامية، والتحدث عن هوية متوسطية.

مثلما فعل طه حسين، أو سلامة موسى، أو غيرهما وآخر ما وصلنا إليه الآن هو ما يسمى بالهوية الشرق أوسطية، والتي تعبر عن حالة ومستجدات ظهرت في العالم بعد سقوط المنظومة الاشتراكية، وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم، ومحاولتها صياغة نظام عالمي جديد يدشن قيادتها، ومن ضمن هذا النظام إخضاع المنطقة العربية لنظام إقليمي تحت قيادة إسرائيل أمنيًا واقتصاديًا؛ الهدف منه القضاء على كل محاولة للتميز الحضاري، أو محاولة شق الطريق للمستقبل استنادًا إلى إنسان مستقل متميز.

وهكذا فالشرق أوسطية هي محاولة لنزع الانتماء الإسلامي، وطمس الهوية

الحضارية للعرب، وتحويلهم إلى نوع جديد من البشر بلا ثقافة ولا هوية اللهم إلا ثقافة الاستهلاك والخضوع؛ ويصبح الجميع عربًا ويهودًا مجرد بشر عالميون لا يعكسون أي تميز حضاري، وبذلك يسهل خضوعهم بل إدمانهم للخضوع للقيمة الحضارية الغربية، وبالتالي ترحيبهم بالخضوع السياسي والاقتصادي والأمني لأمريكا والغرب، وإذا كانت إسرائيل قد فهمت المسألة مبكرًا.. بل ساهمت في صياغتها بهذه الطريقة؛ فإنها قد حظيت في هذا النظام بدور الشريك للغرب، والقائد المحلي للمنطقة الشرق أوسطية، أما العرب فهم الضحايا!

بيريز يحدد أهداف الشرق أوسطية:

كانت إسرائيل للأسف – تدرك مبكرًا- ما يحدث في العالم من تغيرات، وبسرعة استفاد شعبها، بل ساهمت في صياغتها، وإذا كانت الشرق أوسطية ليست صناعة إسرائيلية بمعنى أنها آلية للهيمنة الحضارية الغربية والأمريكية، على العالم، فإن إسرائيل صاغت الجزء الخاص بالمنطقة وأعطته المضمون الذي يلائمها، وجعلت من نفسها حارسًا لتنفيذ هذه المنظومة، وأكبر مستفيد منها، وبذلك تكون شريكًا للغرب في الهيمنة، وعلى كل حال فهذا الأمر ليس غريبًا على إسرائيل، فإسرائيل برمتها ما هي إلا إفراز غربي، وجزء من معالم الصراع التاريخي بين الحضارتين الغربية والإسلامية، أي إن اليهود قد قبلوا دور الوكيل للغرب في ضرب الحضارة الإسلامية، وإبادة العرب والمسلمين! لو استطاعوا وجاء كتاب بيريز «الشرق الأوسط الجديد» كمحاولة إسرائيلية لوضع التصورات والآليات وتحديد الأهداف من التطورات التي ضربت العالم بعد سقوط الاستقطاب الدولي، في الوقت الذي كان فيه العرب غارقون في الضعف والتفكك وعدم تحديد الأولويات.

يطرح بيريز في كتابه تصورًا اقتصاديًا وأمنيًا للمنطقة يجعل إسرائيل عصب

المنطقة.. وهذا التصور في رأي بيريز حتمي وطبيعي في نفس الوقت؛ لأن العرب في رأيه متخلفون يحملون ثقافة رجعية ومتخلفة، مصابون بالتعصب، ويحملون كل الأخلاق الشريرة ومعادون للحضارة الغربية وللعصر برمته، أما إسرائيل فهي الخير المطلق؛ لأنها تحمل القيم الحضارية الغربية... والمطلوب بالطبع تخليص الشرير من أخلاق الشر، وتحويله إلى كائن معاصر يحمل القيم الحضارية الغربية، وبالتالي فإن على الجميع أن يضرب روح الشر – التي هي الأخلاق الإسلامية التي تدعو إلى الوحدة والجهاد، وترفض وجود إسرائيل، وترفض الإذعان للغرب.. فإذا تحقق ذلك كان الجميع شرق أوسطيون، ليسوا عربًا، أو مسلمين، بل شرق أوسطيون.. ومن يرفض ذلك من العرب فهو أصولي إرهابي ينبغي قتله بلا رحمة!

المواجهة.. أو الدمار:

ينبغي ألا نستهين بالمخطط الغربي لطمس الهوية والقضاء على الذات الحضارية العربية الإسلامية، وينبغي في نفس الوقت ألا نبالغ في ضعفنا، وفي قوة خصومنا.

فمن ناحية فإن الإسلام كان ولا يزال وجدان هذه الأمة، وكان ولا يزال حيًا في الضمير والقلب والعقل، وأنه من المستحيل اجتثاث الثقافة الإسلامية... وأن الأمر ليس أكثر من منعطف حاد في تاريخ الأمة الإسلامية ستخرج منه كما خرجت من قبل من تحديات أكبر وأخطر، وعلينا أن ندرك أن التواصل الحضاري الإسلامي لم ينقطع يومًا، ولا يزال مستمرًا، سواء في فترات الصعود الحضاري الإسلامي، أو فترات التعادل الحضاري، أو حتى في فترات نزول المنحنى الحضاري الإسلامي، وحتى الآن لا تزال الثقافة الإسلامية هي ثقافة الجماهير، ولا يزال الشعور بالوحدة الإسلامية حيًا لدى الجماهير، ولعل التعاطف الواسع جدًا مع قضايا شعوب إسلامية بعيدة في البوسنة، أو الشيشان مثلاً دليل كبير على هذا الأمر، وكذلك لا

يزال الإسلام يحرك كل الأمة من طنجة إلى جاكارتا، ومن أنقرة إلى جنوب إفريقيا للتضامن مع شعب فلسطين، وحتى اليوم لا يزال الإسلام قادرًا على بعث حركات وثورات وانتفاضات، ولا تزال دولاً إسلامية تعتمد في شرعيتها على الإسلام، وهكذا فالتواصل الحضاري والثقافي الإسلامي ولو في جانبه الشعبي – لا يزال موجودًا.

والثقافة الحية لا تموت بسهولة.. والمطلوب فقط هو تغذية جذورها الضارية في التربة، وحتى لو تم قطع الجزء الظاهر من الشجرة فوق التربة، فإن الجذور لا تموت.

ولعل استمرار المواجهة، شرط أساسي لاستمرار حياة الجذور، والمحافظة على الجذوة مشتعلة تحت الرماد، وهكذا فالمواجهة، قد لا تعني الانتصار، ولكنها تعني للمحافظة على البذور حية..

أما الخضوع فإنه يعني قتل الشجرة وإفساد البذور!



مفاهيم إسلامية

(٢)





الدور المشبوه لليسار الأمريكي في مصر

(١)

الصراع الفكري في البلاد المستعمرة صراع متنوع ومتشعب، والبلاد المستعمرة هنا نقصد بها - تلك البلاد الواقعة تحت الهيمنة الاستكبارية للدول الكبرى، الرأسمالية منها أو الشيوعية. وإذا كان الاستعمار المباشر قد رحل عن معظم بلداننا - فإن بلادنا ما زالت مستهدفة - أو خاضعة - لأشكال أخرى من الاستعمار أو الهيمنة الاقتصادية أو السياسية - أو الدخول في محاور شرقية أو غربية.

والعالم الآن - كقرية صغيرة؛ بحكم وسائل الاتصال الحديثة، وبحكم تعقُّد وتداخل المصالح والأهداف الاستكبارية للقوى الكبرى.

ومن البديهي أن تحاول القوى الاستكبارية في عالمنا المعاصر - أن تحاول باستمرار خلق مناخ سياسي واقتصادي واجتماعي ملائم لأهدافها في بلادنا.

ومن البديهي - أيضًا - أن شعوبنا تحاول باستمرار التخلص من السيطرة الاستكبارية، ولفظ أشكال التبعية والتخلف، ومن البديهي أن ينشأ بين الطرفين - وبين الهدفين صراع مرير وقاسٍ وطويل.

وهذا الصراع يشغل مساحات واسعة جدًا. سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وأشكال الصراع متداخلة متشابكة بحيث يصعب أن نطلق على إحداها سياسية والأخرى اقتصادية والثالثة ثقافية إلخ. إن كل المجالات ذات صلة مباشرة وغير مباشرة ببعضها بعضًا.

والصراع بين الطرفين صراع له قواعده؛ فالقوة الأولى هي الدوائر الاستكبارية

في العالم، وتمتلك أحدث الأسلحة – وأقوى الجيوش، ووسائل اتصال حديثة، وأجهزة تجسس مختلفة، وبنوك وأموال وشركات واحتكارات وحكومات عميلة أو نصف عميلة ودوائر أبحاث عملية واجتماعية. أمَّا القوة الثانية؛ فتمتلك طاقات إنسانية تضم كل المستضعفين في العالم وهم أغلب سكان هذا الكون.

وقد يبدو للوهلة الأولى – أن توازن القوى بين المعسكرين مختل تمامًا لصالح المستكبرين. وهذا غير صحيح إطلاقًا بل لعله أحد وسائل المستكبرين في استمرار سيطرتهم.

إن المعسكر الثاني – يملك طاقات هائلة – فالإنسان أساسًا أقوى من التكنولوجيا، والمستضعفون يمتلكون حلم الثورة.. وهو حلم كفيل بقلب ميزان القوى لصالح إقامة مجتمع العدل والحرية وإنهاء آلام العالم ومظالم المستكبرين.

والمعسكر الاستكباري – يدرك هذه الحقيقة ويعيها تمام الوعي؛ وبالتالي فلو أن المستضعفين خاضوا المعركة لانتصروا.

إن القضية – ليست في مَنْ سينتصر إذا ما نشبت المعركة لأن انتصار المستضعفين أمر مفروغ منه. ولكن القضية أن المستكبرين يستهدفون دائمًا وأبدًا إلى منع المعركة من النشوب – ووسائلهم في هذا كثيرة ومتشعبة، وهذا هو سر أهمية الصراع الفكري.

إن طلائع المستضعفين – عليها الآن واجب حتمي – في منع الوسائل الاستعمارية من تحقيق ثمارها؛ وبالتالي قيادة المستضعفين لخوض المعركة وتحرير البشرية.

ووسائل المستكبرين في منع المستضعفين من دخول المعركة. من التنوع والتعقيد بحيث تستحق اهتمامًا دؤوبًا من طلائع المستضعفين، ومن هذه الوسائل الاستكبارية تخدير المستضعفين – نشر الجهل – الفقر – المرض – الاستبداد

السياسي، التحليل الخاطئ للظواهر، زرع مؤسسات وأحزاب للتضليل، افتعال معارك جانبية، جر المستضعفين إلى معارك ثانوية. خلق زعامات هشة أو عميلة إلخ.

(٢)

معركتنا – في مصر والعالم الإسلامي اليوم هي معركة في طليعة معارك المستضعفين في العالم.

أولاً : لأن عالم المستضعفين معظمه من المسلمين.

ثانيًا : لأن الإسلام – والإسلام وحده – هو الوحيد القادر على تحقيق التلاحم وضمان النصر المستضعفين.

ثالثًا : لأن المنطقة التي نعيش فيها هي أهم المواقع التي يريد المستكبرون استمرار السيطرة عليها.

وإذا أخذنا ما سبق في الاعتبار – وإذا أدركنا التحديات التي تواجهنا فإن خطوة هامة على طريق النصر تكون قد أنجزت.

إن أهم التحديات التي نواجهها هنا – هي التحدي الصهيوني باعتباره رأس الحربة الاستكبارية، وهي الاستبداد السياسي، وهي التصدي لمحاولات التقريب وإفقادنا للهوية والتميز – وهي النضال من أجل الكادحين في مواجهة دوائر الاحتكار والسمسرة ومص الدماء؛ وكل العوامل السابقة متداخلة تمامًا وهي معركة واحدة وغير منفصلة.

(٣)

إننا سنقدم هنا – جهدًا متواضعًا في الصراع الفكري. ولا شك أن هناك الكثيرين الذين سبقونا في هذا المجال، ولا شك أيضًا أننا نأمل من المتخصصين وطلائع المستضعفين أن يبذلوا جهدًا أكبر وعملاً دءوبًا في هذا المجال.

إننا سنركز هنا على الدور المشبوه الذي يلعبه – في السنوات الاخيرة – ما يسمى باليسار الأمريكي في مصر، ولا يعني هذا أن نغفل الدور المشبوه الذي لعبه اليسار منذ نشأته في مصر – كما لا يعني هذا أن اليمين لا يؤدي دورًا مشبوهًا. بل إننا نعتقد أن اليسار واليمين على حد سواء يؤديان نفس الدور بوسائل متشابهة أحيانًا ومختلفة غالبًا.

إن هذا الجهد المتواضع – فرصة لمعرفة أساليب الاستكبار الخبيثة والملتوية، والتي يقوم بها عن طريق مؤسسات التغريب والأحزاب اليمينية واليسارية.

ليس هذا الجهد – موجهًا إلى التشهير بتيار سياسي مثلاً. ولكنه مجرد إضاءة على الوسائل الاستكبارية لفضحها – وتحصين المواقع الجماهيرية ضدها لقضية النصر وحلم الخلاص.

(٤)

إننا نؤمن أن القوى العلمانية في بلادنا – قوى خائنة على المستوى الاستراتيجي – وليس هذا بلاغًا إلى السلطات– لأننا لن نقدم وثائق بل سنقدم استقراءً سياسيًا. ونحن أيضًا نرفض استخدام الوسائل البوليسية في ضرب القوى السياسية.. إننا نريد صراعًا سياسيًا ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ . وإيماننا بأن العلمانية في بلادنا خائنة – تنبع من استقرائنا لتاريخنا القديم والمعاصر والحديث، ولفهمنا لحقيقة أهدافنا من ناحية – ولحقيقة الدور المعوق الذي تلعبه تلك القوى، إننا نؤمن أن المشكلة لا تكمن فقط في السياسات الخاطئة التي تمارسها حكوماتنا بل في أن المعارضة العلمانية تكمل حلقة التضليل من جهة أخرى.

والأمر يبدو كما لو كانت الحكومات والمعارضة العلمانية تكمل بعضها بعضًا في

هذا الإطار. أو كمن يضع يده على عين الجماهير اليمني – ويضع الآخر يده على العين اليسرى والهدف واضح وهو حجب الرؤية وممارسة التعطيل وتخدير العملاق الذي إذا استيقظ فسيكون هائلاً يكتسح في طريقه حصون الاستكبار الهشة وأراجيف العملاء الملتوية.

إننا حين نتهم القوى العلمانية «بالخيانة الاستراتيجية» فإننا نستند على عدد من الحقائق والأفكار – التي تؤيد ذلك وتعضده. أولها أنها قضية تحرر وطني؛ وبالتالي فأي هدم أو تعطيل أو تأخير أو تحويل للمسار عن مجراه الطبيعي عن عمد يعد خيانة وطنية، وحقيقة أن شعورنا الجماعي وروح الانتماء فينا هي إحدى أهم أسلحتنا في قضية التحرر، وأصبحت قضية لا شك فيها؛ وبالتالي فإنه أي جهد في غير هذا الاتجاه خيانة حقيقية.

إن الأستاذ طارق البشري مثلاً. والذي اكتشف هذه الحقيقة بعد أن غابت عنه – كان من الشجاعة بحيث إنه راجع نفسه وأعلنها جهارًا نهارًا.

يقول الأستاذ طارق البشري في ص٤١ – من مقدمة كتابه «الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥ – ١٩٥٢» الطبعة الثانية دار الشروق ١٩٨٢:

«لقد أصبحت الآن أكثر قدرة على إدراك مدى التدمير الذي يلحقه تدفق موجات التقريب، على هويتنا وشعورنا الجماعي وروح الانتماء فينا – مما من شأنه أن يصيب قضية الاستقلال والتحرر بأعظم الخلل – وعلينا أن نلاحظ حرص الاستعمار دائمًا على زرع ثقافته وأنماط فكره وحضارته ولغاته فينا – وشغفه بإحلال كل ذلك محل ما لنا مما ورثناه وبتغييب وعينا التاريخي – لقد عقد الاستعمار العزم على أن يكون حاكما لشعوبنا ولا بد من جامع يجمع الحاكم والمحكوم – ولا يستقر لحاكم سلطان إلا بهذا الجامع وهنا يلعب نشاطه الثقافي دوره الحاسم في تغيير

العقول والقلوب منا، أنه يلحقنا به سياسيًا واقتصاديًا، وعليه لاستدامة ذلك أن يلحقنا به فكريًا وحضاريًا. وهذا ما يعبر عنه البعض بالاستعمار الفكري والحضاري.

وأهمية هذا الأمر أن صراعنا والاستعمار لا يتعلق فقط بشيء خارج ذواتنا فنحن كجماعة بشرية موضوع للصراع، ولسنا طرفًا فيه فقط، وطلبة الاستعمار ليست أرضًا لنا جرداء ولكن طلبته هي نحن البشر بما نملك، وأي حركة للمقاومة لدينا ليس من شأنها أن توجد وتنمو إلا أن تستند إلى تميز وثيق لنا في الهوية والانتماء؛ أي أن ندرك ذاتنا الجماعية في تميز وثيق ولنا في الهوية والانتماء، أي أن ندرك ذاتنا الجماعية في تميزها واستقلالها ولا يتأتى ذلك إلا بإدراك أكيد لتاريخنا المتميز ولمجمل الموروث الفكري والحضاري فينا. ويضيف الأستاذ طارق البشري نحن نلاحظ على مدار عشرات السنين السابقة هذا الجهد الدؤوب الذي قامت به وتقوم به المؤسسات الثقافية الاستعمارية في بلادنا تروج مفاهيمها وتطمس كل مميز فكري وحضاري لنا وتعمل لطمس ماضينا وتفريغنا منه».

اليمين واليسار على حد سواء. واقعان في الخيانة الاستراتيجية وموضوعنا هو الدور المشبوه لليسار الأمريكي ونقصد به حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي (حدتو).

ولليسار في بلادنا قصة لا تجعله خائنًا على المستوى الاستراتيجي فحسب بل على المستوى التكتيكي أيضًا، وهناك عدد من الحقائق ينبغي هنا أن نسجلها باعتبارها لم تعد محل خلاف بين كل المفكرين على اختلاف مشاربهم.

إن اليسار نشأ في بلادنا على يد الأجانب عمومًا - واليهود منهم خصوصًا - حدث ذلك في العراق وفلسطين ولبنان ومصر، وفي حالة مصر مثلاً نجد أن الحركة

الشيوعية نشأت على يد جوزيف روزنتال (تاجر ذهب يهودي) - هليل ستوارتز - هنري كورييل والجميع يهود. «راجع كتابات د. رفعت السعيد عن تاريخ الحركة اليسارية في مصر - وبالمناسبة فالدكتور رفعت نفسه ينتمي إلى ذات الحركة».

إن ملف الخيانات والمواقف المشبوهة للأحزاب الشيوعية مثلاً - كبير وضخم؛ فالحزب الشيوعي العراقي مثلاً عارض مشروع تأميم النفط في العراق - ودعا العمال والكادحين في العراق إلى الوقوف بوجه مشروع التأميم!!!

كما عارض الحزب الشيوعي العراقي مشروع الوحدة بين العراق وسوريا ومصر وقد تطابق ذلك الموقف مع موقف دعاة الملكية في العراق ومصر الذين كانوا يعارضون هذا المشروع وكذلك تطابق مع موقف الكيان الصهيوني في هذا الصدد.

وعندما قرر العرب إرسال قواتهم المسلحة لمحاربة إسرائيل عارض الحزب الشيوعي العراقي خطوة إرسال المتطوعين المجاهدين العراقيين إلى جبهات الحرب، وأصبح يشيع بين الناس أن هذه الحرب هي حرب استعمارية بل ونظم المسيرات المؤيدة للمؤامرة الدولية الكبرى التي حاكتها أمريكا وبريطانيا والاتحاد السوفيتي ضد المسلمين العرب والتي تمثلت بتأسيس الكيان الصهيوني على الأراضي الإسلامية في فلسطين السليبة.

كذلك الأمر بالنسبة للحزب الشيوعي السوري حيث أعلن الحزب عن مساعدته ودعمه لإبقاء المستعمر الفرنسي في سوريا وذلك إبان الحرب العالمية الثانية التي كانت كل من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية حلفاء للاتحاد السوفيتي فيها.

وقد أيَّد الحزب الشيوعي السوري - اتفاقية فرض الذل والخنوع من قبل فرنسا على القطر السوري - التي تم بموجبها إقامة قاعدة عسكرية فرنسية داخل

الأراضي السورية – وإنزال قوات فرنسية فيها.

وحزب تودة الشيوعي في إيران يدعم مشروع فصل كردستان وأذربيجان عن إيران.

أمَّا فيما يخص المواقف التي اتخذتها الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية تجاه القضية الفلسطينية – فحدِّث ولا حرج. فقد أيدت جميع الأحزاب الشيوعية في المنطقة قيام إسرائيل – وكذلك أيدت قرارات التقسيم، وادعت أن الشعب اليهودي مظلوم ومن حقه إقامة دولة له على أرض فلسطين. بل إن الحزب الشيوعي الفلسطيني قاتل أحيانًا في صفوف اليهود!! «راجع في هذا الصدد د. محمد مورو – التحدي الاستعماري الصهيوني – وجهة نظر إسلامية دار الفتى المسلم – ١٩٨٥».

والحزب الشيوعي الجزائري عارض الكفاح المسلح الذي كانت تخوضه جبهة التحرير الجزائرية ضد فرنسا – وذلك مسايرة للحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان ينادي بوجوب إلحاق الجزائر بفرنسا.

(٥)

ما الذي نقصده بكلمة اليسار الأمريكي في مصر؟!

وبداية فإن الحركات العلمانية في مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي مجرد حلقات صغيرة بين المثقفين، والحقيقة أن الجماهير ظلت دائمًا في حصن منيع ضد التغريب، ولم تستجب يومًا للتغريب يمينًا كان أم يسارًا، واليسار في مصر على وجه الخصوص مجرد حلقات بين المثقفين وقلة مثل كل القوى العلمانية، بل حلقاته أكثر ضيقًا، ولأسباب كثيرة – ليس هنا محل دراستها – فإن اليسار المصري شديد الانقسام – وكثيرة هي الأحزاب الشيوعية في مصر – وهي تتبادل باستمرار

الاتهامات بالخيانة والعمالة أو الانتهازية، والعجيب أن أكبرها لا يصل عدد أفراده إلى ١٠٠ عضو مثلاً وأصغرها ربما يصل إلى أقل من عشرة أفراد ومع هذا فكل حزب يدعي أنه ممثل الطبقة العاملة أو غيرها من الأكليشيهات المحفوظة والأحزاب الشيوعية في مصر لم تتوحد قط في تاريخها إلا مرة واحدة، كان ذلك قبيل حرب ١٩٤٨. ثم تمزقت مرة أخرى بعد الحرب. وهذا في حد ذاته يثير تساؤلاً هامًا: لماذا توحدت على العكس طبيعتها الدائمة – ولماذا كان ذلك قبيل حرب ١٩٤٨؟ هل توحدت لأسباب صهيونية؛ أي لتؤدي دورًا معينًا قبيل إعلان إسرائيل؟!!.

توحدت المنظمات اليسارية في يوليو عام ١٩٤٧ تحت اسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني «حدتو» ثم انتهى التحالف وتمزقت الوحدة عام ١٩٤٩.

(بدايات ١٩٤٩ – ويمكننا اعتبار أوائل ١٩٤٩ بمثابة الإعلان النهائي لاندثار حدتو – وقد حدثت الانقسامات تباعًا بدءًا من نهايات ١٩٤٨. ويلاحظ أن قيام إسرائيل قد تم في ١٥ مايو ١٩٤٨ – والمعلومات السابقة من د. رفعت السعيد. تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠ – ١٩٥٠ دار الثقافة الجديدة – الطبعة الأولى – نوفمبر ١٩٧٦.

والسؤال عن أسباب الوحدة – ثم الانقسام وتوقيته محل شكل وريبة ليس باعتباره حدثًا غريبًا على الحركة الشيوعية في مصر فحسب وليس باعتبار التوقيت فحسب. ولكن لاعتبارات أخرى تؤكد الشك يقول الأستاذ رفعت السعيد – في ص٤١٤ من المرجع السابق «وكانت حدتو» – تنمو وتنمو معها مشاكلها – مشاكل التوحيد غير المبدئي بين تيارات غير متجانسة – ومشاكل للعمل الحزبي بغير مقومات – فلا برنامج ولا استراتيجية ولا تكتيك ولا حتى لائحة.

والشهادة السابقة من جنس ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ فلماذا كان التوحيد يا دكتور رفعت. ما دام أنه لا برنامج ولا استراتيجية ولا تكتيك ولا حتى لائحة؟!!

ولنستدعِ شاهدًا آخر من أهلها أيضًا – وهو أحد الكوادر الأساسية في قيادة ح. م (سيد سليمان رفاعي) كان يرى «أن الوحدة فُرِضَت فرضًا تحت مؤثرات خارجية – فقبل الوحدة وحل بعض أعضاء الحزب الفرنسي وممثليه من الحزب اللبناني والحزب الإسرائيلي وعملوا مناقشات» ص٣٧٧ – د. رفعت السعيد نفس المرجع.

وشاهد ثالث – من أهلها – يقول في ص٣٧٨ د. رفعت السعيد نفس المرجع – «كان كورييل هو القوة التي جرت ح. م. للوحدة» حسنًا – لماذا جاء الأجانب. ولماذا الفرنسيون واللبنانيون والإسرائيليون؟!

نعود الآن إلى السؤال. ما المقصود باليسار الأمريكي؟! وإذا كان الحديث عن انقسام الحركة الشيوعية – قد جرنا إلى الحديث عن المرة الوحيدة التي اتحدت فيها ولماذا اتحدت فإننا بالمناسبة سنقدم عرضًا سريعًا لأهم المنظمات اليسارية في مصر سابقًا والآن – لنحدد من داخلها المقصودين باليسار الأمريكي – ووفقًا لتقسيمة د. رفعت السعيد. فإن الحركة الشيوعية قد ضمت ثلاثة روافد أساسية كان يقود الأولى هنري كورييل، والثانية هليل شوارتز، والثالثة مارسيل إسرائيل وبالطبع ليس هنا مجال شرح الخلافات بينها. وبديهي أن تحت قيادة هؤلاء الثلاثة وهم يهود وأجانب كانت تظهر وتختفي عشرات الأسماء لمنظمات صغيرة متناثرة أمَّا الآن. فيمكننا أن نرصد امتدادات لتلك التيارات الثلاثة – وإن كان أهمها – هؤلاء المنتمين أو الذين يشكلون امتدادًا لمنظمة هنري كورييل «الحركة المصرية للتحرر الوطني» وهم المقصودون بكلمة اليسار الأمريكي – وهم أيضًا الذين يسيطرون

على قيادة حزب التجمع حاليًا. وعلى كل حال فإن مصطلح اليسار الأمريكي ليس من عندنا ولكنه من عند ماركسيين آخرين اتهموا هؤلاء بنفس التهمة – «تؤمن مجموعة يسارية مثل التورتسكيين» – الماديين ومنظمات ماركسية لينينية «حزب العمال الشيوعي المصري – التيار الثوري» بأن قيادة التجمع تمثل اليسار الأمريكي.

وفي الحقيقة فإذا كانت الخيانة الاستراتيجية تطل على كل العلمانيين من يمين ويسار للأسباب السابقة ذاتها على المستوى الاستراتيجي – ولأسباب تكتيكية منها أن بلادنا اليوم تتعرض للخطر الأمريكي المباشر والبشع ومنها أن رفع شعارات ماركسية على قوى أمريكية تخدم المخططات الأمريكية هو أمر غاية في الخطورة والبشاعة والخيانة.

إن اليسار المصري اليوم – ليس كله متهمًا – بالتأمرك – فهناك بالفعل يسار روسي ويسار مادي ويسار تروتسكي وهناك التيار الثوري. وخلافنا مع هؤلاء – رغم إيماننا بالخيانة الاستراتيجية للجميع – أقل طبعًا نظرًا لأن عدونا الأساسي الآن هو أمريكا؛ وبالتالي فالدور المشبوه الذي يلعبه اليسار الأمريكي هو الأخطر قطعًا – واليسار المادي هو أقل الجميع سوءًا لا شك.

إذن فاليسار الأمريكي هو الامتداد للحركة المصرية للتحرر الوطني (ح. م) التي أسسها هنري كورييل – وهو شخصية غامضة – يهودي – مليونير. لعب دورًا هامًا في الأربعينات في خدمة الصهيونية، واتهم المنادين بتخفيف التأييد لإسرائيل في داخل الحركة الشيوعية بأنهم انتهازيون وبرجوازية صغيرة إلى غير ذلك من التهم. كما لعب دورًا هامًا في التقريب بين المؤسسات الإسرائيلية وقطاعات خائنة في منظمة التحرير الفلسطينية في السبعينات من هذا القرن وقد اغتيل أخيرًا في أحد شوارع باريس.

وخطورة اليسار الأمريكي تأتي من كونه يدعي اليسارية؛ وبالتالي فهو مؤهل للقيام بدور مقاول جماهيري – يصرف الجماهير عن أيديولوجيتها الحقيقية – ويسير بها في مسارات جانبية، وكونه يدعي العداء لأمريكا يعطيه فرصة أكبر لأداء مهمته المشبوهة. وسوف نرى من خلال قراءتنا لجريدة الأهالي الناطقة باسم اليسار الأمريكي كيف لعب هذا اليسار دورًا هامًا في إجهاض التوجهات الثورية لشعبنا – وكيف مارس تزييف الحقائق وتفسير الأحداث بصورة تسحب تراكم الوعي الثوري لأمتنا. وكيف أنه في النهاية ساهم في تمرير الحلول الأمريكية برغم ادعائه معارضتها.

ومن الطبيعي أن أمريكا – وهي الكيان الاستعماري الأكبر حاليًا – من مصلحتها خلق وزرع مثل هذه المجموعات المشبوهة – وهي تعمل على توسيع وتضخيم تلك المجموعات ماديًا ومعنويًا خدمة للأهداف السابقة؛ ولكي تجعل الجماهير في حالة شك دائم من الثورة والثوريين على اعتبار أن الجماهير لا تريد الاستجارة من الرمضاء بالنار – خصوصًا وأن اليسار ذو سمعة سيئة جدًا وملفوظ شكلاً وموضوعًا في وجدان الجماهير وفي حسها التاريخي.



شهادات ذات دلالات

سنقدم في هذا الفصل عددًا من الشهادات لمفكرين مرموقين حول الحركة الشيوعية في المنطقة. وكلهم لا يمكن الطعن في شهاداتهم لأسباب كثيرة. منها أنهم إما كانوا متعاطفين مع الحركة الشيوعية – أو كانوا قيادات لها.

الشهادة الأولى للأستاذ طارق البشري. ولا يمكن بحال من الأحوال أن يتهمه الماركسيون بالتحيز ضدهم. وهو مشهود له بالكفاءة والحياد. وهو مؤرخ مصري ويعمل مستشارًا بمجلس الدولة.

يقول الأستاذ طارق البشري ص١٧ في كتابه الشهير «الحركة السياسية – مرجع سابق» وبالنسبة للحركة الشيوعية– نقطة التحفظ الأساسية التي صارت لدي على ما ورد بالكتاب عن هذه الحركة، هي أنه مع الإيجابيات التي أدخلها الشيوعيون المصريون في الفكر السياسي المصري وفي الحركة الشعبية، مما أشير إليه في الكتاب – فثمة جانب آخر سلبي أشرت إليه في الكتاب سريعًا؛ لأني كنت أدركه بشكل ما، ولكن لم أكن أدرك وقتها كامل أبعاده وحقيقة توجهاته. ذلك هو الوجود الأجنبي اليهودي على رأس الكثير من التنظيمات الماركسية في الأربعينات، وقد أتاح الاطلاع على ما صدر فيما بعد من دراسات عن الحركة الشيوعية. أن أدرك الأبعاد الممتدة لهذا الوجود ووظيفته السياسية، إن هذا الوجود الأجنبي اليهودي في الحركة الشيوعية المصرية يبدو لي أنه لم يكن بعيدًا عن التحرك الصهيوني في المنطقة العربية في الأربعينات، وعما ساهم به هذا التحرك في إنشاء دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨، كما أن هذا الوجود كان يوجه نشاط الشيوعيين المصريين وجهة المجابهة ضد تيار الحركة السياسية الإسلامية.

وقد جاء هذا التوجه الأجنبي في الحركة الشيوعية المصرية، جاء بمناسبتين الأولى هي النشاط الصهيوني في فلسطين خاصة والبلاد العربية عامة منذ العشرينات ثم ثورة فلسطين ١٩٣٦ وفي الأربعينات، والمناسبة الثانية هي استعداد مصر للهيمنة الكاملة على سيادتها التشريعية والقضائية مع إلغاء الامتيازات الأجنبية في ١٩٣٧ – الأمر الذي جعل الأجانب المقيمين في مصر يتوجسون الحذر من الأنشطة المصرية بسائر فصائلها على وجودهم وامتيازاتهم الاقتصادية والاجتماعية، ويسعون أن يكون لهم دور ما في الحركة السياسية المصرية. وحسبهم من الحركة الشيوعية أن تكون ركيزة شعبية وفكرية لمقاومة التيارين الإسلاميين والقومي وهما تياران شعبيان – وأن تكون بوتقة لتذويب الشعور المصري بالتحيز والاختلاف عن الأجنبي وعن الغرب.

والشهادة الثانية من الأستاذ منير شفيق. مدير مركز التخطيط الفلسطيني وكان مسيحيًا وماركسيًا سابقًا وقد هداه الله إلى الإسلام.

يقول الأستاذ منير شفيق في كتابه «الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر» دار طه للنشر – لندن – ١٩٨٢ : إن الذي أفقد الجماهير حيويتها التي تميزت بها في الأربعينات وبداية الخمسينات هو الدور المشبوه الذي لعبه اليسار دائمًا. وهو دور إجهاض – إن جنين الثورة كان إسلاميًا دائمًا. وإن محاولات اليسار المستمرة لتشويه الجنين كانت تؤدي دائمًا إلى الإجهاض المبكر لكل زحف جماهيري وثوري.

والشهادة الثالثة. نقدمها من قادة حزب تودة الإيراني من خلال اعترافاتهم.

اعترافات نور الدين كيانوري

نور الدين كيانوري السكرتير الأول للجنة المركزية لحزب تودة في إيران «إني نور الدين كيانوري» انتميت إلى حزب تودة عام ١٩٤٢م وأصبحت عضوًا في اللجنة

المركزية منذ عام ١٩٤٥ – ١٩٤٦م، تم اعتقالي بعد حادثة الجامعة – التي تم فيها إطلاق النار على الشاه بعدها هربت من السجن وأمضيت عدة سنوات مختفيًا عن الأنظار وكان ذلك أيام النضال النفطي – هاجرت إلى أوربا – وأقمت لفترة قصيرة في الاتحاد السوفيتي – بعدها هاجرت إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

تم إقصائي من اللجنة المركزية للحزب لعدة سنوات (خلال أعوام ١٩٦١ – ١٩٧١م) بسبب اختلافات مع الأعضاء الآخرين – ثم انتخبت مرتين منذ أوائل السبعينيات عضوًا في اللجنة المركزية – انتخبت كسكرتير أول للجنة المركزية لحزب تودة أوائل اندلاع الثورة – أي حوالي كانون الأول ١٩٧٨م.

الأخطاء التي ارتكبناها بعد الثورة تقع في ستة محاور رئيسية وهذا لا يعني بالطبع أنه لم تكن لدينا غير هذه المحاور الستة. بل كانت لدينا أخطاء أخرى. إلا أن هذه المحاور تعتبر بتصوري أساسية ورئيسية أكثر من غيرها، وظهرت بشكل أكثر دقة ووضوح من غيرها.

تمثَّل الخطأ الأول الذي ارتكبناه خلال هذه الفترة – وهو أهم الأخطاء – تمثل في مخالفتنا لمضمون الشعار الرئيسي والمبدئي الذي رفعه الإمام الخميني والذي تستند عليه السياسة الخارجية للجمهورية الإسلامية، وهو شعار لا شرقية ولا غربية وأعتقد أن المفهوم الصائب لهذا الشعار هو كالآتي:

يجب على الأشخاص الساكنين ضمن الحدود الإيرانية والذين يتمتعون بحق ممارسة النشاط السياسي الحر طبقًا للقوانين السارية في إيران أن يتجنبوا إقامة أي نوع من الاتصال أو إقامة أي شكل من العلاقات مع البلدان الأجنبية أو القوى الأجنبية سواء الشرقية منها أو الغربية – أمريكا كانت أو الاتحاد السوفيتي.

لقد أعلنا عن موافقتنا على هذا الشعار ظاهريًا ولكننا لم ننجح في الحقيقة في فك

ارتباط حزبنا عن الحزب الشيوعي السوفيتي الذي يمتد لعدة سنوات مضت.

كذلك فقد فشلنا في توطين أنفسنا على ممارسة النشاط السياسي ضمن إطار القوانين السارية في الجمهورية الإسلامية، وبالقدر الذي يسمح به الدستور العام للبلاد – وكانت النتيجة أن انزلقنا في الطريق الضال، الذي أدى بنا تدريجيًا إلى السقوط الأكبر في أعماق الخيانة والعمالة والتبعية للأجنبي.

وهذا يعني أن نشاطاتنا السياسية قد تحولت في بعض المجالات إلى نشاطات تجسسية بحتة، وخيانة صارخة للجمهورية الإسلامية. وكنا نقوم بإعداد التقارير المختلفة عن الأوضاع السياسية والعسكرية ونوصلها إلى المسؤولين في الاتحاد السوفيتي.

لقد تضمنت تلك التقارير معلومات مهمة عن القوات المسلحة، وكذلك عن الأوضاع السياسية العامة للبلاد، وقد كنت شخصيًا أقوم بإعداد التقارير المتضمنة تحليلات عامة عن الأوضاع السياسية السائدة في البلاد وإرسالها بين فترة وأخرى إلى الاتحاد السوفيتي فضلاً عن إيصال الأخبار العسكرية التي كنا نجمعها عن طريق عناصرنا المتوغلة داخل أوساط الجيش.

وأعتقد أن هذه الأشياء كانت من أكبر الأخطاء التي ارتكبناها في تاريخ الحزب – وهي تمثل عين الخيانة وعلى رأس جميع الأخطاء الأخرى.

أي أننا لو لم نكن قد ارتكبنا ههذ الأخطاء – لكان باستطاعتنا تجنب ارتكاب الأخطاء الأخرى – أو على الأقل عدم متابعة ارتكابها. ويتمثل خطؤنا الثاني في مسألة حيازة الأسلحة والاحتفاظ بها ومن الأمور المعروفة أن كثيرًا من الأسلحة العائدة للجيش، قد سقطت بيد العناصر التابعة للأحزاب والتنظيمات المختلفة – وذلك إبَّان أحداث الثورة في شباط (فبراير) ١٩٧٩م – ويضمنها مقادير لا بأس

بها من الأسلحة سقطت بيد بعض الفئات الصغيرة التي كانت تمارس نشاطها تحت مظلة اسم حزب تودة.

وفي الحقيقة أن ثورة شباط (فبراير) فجرتها الجماهير الشعبية المليونية التي كانت تتظاهر تحت راية الإسلام. وتسير تحت لواء الإمام الخميني وهي ترفع الشعارات الإسلامية – التي منها الشعار المبدئي الأصلي – الاستقلال – الحرية – الجمهورية الإسلامية.

وقد نجحت الجماهير في جهودها – وأوصلت بالتالي عجلة الثورة إلى شاطئ الانتصار، ولم يكن للفئات اليسارية الصغيرة ومن ضمنها حزب تودة أي دور يذكر في ذلك – وفيما لو كان – فإنه لم يتعد الدور الفرعي الضئيل وغير المؤثر حيث إنه لو لم تكن الفئات موجودة على ساحة الأحداث، لسارت الثورة أيضًا في طريقها ولانتصرت كما نراها اليوم.

ولكننا بعد ذلك – وبدلاً من أن ندرك الحقائق العلمية ونهضمها جيدًا – ونفهم عمق ما جرى في بلدنا كاملاً – فشلنا في فهم الحقيقة ومواكبة الأحداث ومسايرة الظروف الجديدة التي طرأت على مسرح الحياة في بلادنا، وبقينا نراوح في مكاننا البدائي – الذي أوضحته سابقًا، والذي تمثل بالعمالة والذيلية للأجنبي.

وكانت قضية الأسلحة – ضمن هذا الإطار – حيث إنه عندما أصدر الإمام – في مطلع انتصار الثورة، أوامره للجميع بتسليم أسلحتهم إلى الجهات المسؤولة وإلى لجان الثورة الإسلامية فإننا وبدلاً من تنفيذ تلك الأوامر – فقد احتفظنا بكميات لا بأس بها من تلك الأسلحة وأخفينا القسم الآخر. رغم إصدارنا للتعليمات الظاهرية والصورية بالإسراع في تسليم الأسلحة إلى المسؤولين وبهذا نكون قد ارتكبنا خطأً كبيرًا وخيانة عظمى.

إنني أعتقد أنه لو كانت مسألة الاحتفاظ بتلك الأسلحة من قبلنا تعتبر خطأ كبيرًا وصارخًا في الفترة التي سبقت الاعتداء العراقي ضد أراضينا – فإن ذلك العمل يعتبر بالتأكيد خيانة عظمى في الفترة التي أعقبت ذلك الاعتداء؛ وذلك لأن تلك الأسلحة كانت تكتسب أهمية كبيرة بالنسبة للقوات المدافعة في الجبهات، وكان المدافعون بأمس الحاجة إليها. ومن هنا فإني أعتبر نفسي مسؤولاً مسؤولية كبرى عن ذلك العمل.

ويشتمل خطؤنا الثالث – في مسألة عدم التزامنا بالمواد العشرة للبيان الذي أصدره المدعي العام للجمهورية الإسلامية – حيث يعتبر ذلك البيان برأيي بمثابة رحمة كبيرة أفاض بها الإمام على الفئات والمجموعات السياسية العاملة في إيران حيث تضمن ذلك البيان تعليمات تم بموجبها إصدار العفو عن جميع الأعمال التي قامت بها المجموعات السياسية في إيران في الفترة التي سبقت صدور البيان – ودعا البيان كذلك جميع التنظيمات لأن ترضخ للحقيقة وتعلن عن حل تنظيماتها السرية. وتسليم أسلحتها إلى الجهات المسئولة والتفرغ للنشاطات السياسية البحتة حسب الأفكار والمعتقدات والآراء التي تؤمن بها كل فئة أو تنظيم.

أنني أعتبر ذلك البيان يكتسب أهمية وقيمة فائقة للغاية – ولكن للأسف أننا لم ندرك ذلك جيدًا بسبب المآرب والأحلام والأهداف التي كانت تراودنا.

وبدلاً من حل تنظيماتنا السرية التي كانت بدائية جدًا. فقد لجأنا إلى دعمها وتقويتها بشكل واضح – وأدخلنا عناصر جديدة إليها – وحولناها إلى تنظيم سري كبير – اضطلع بمهمة تجميع المعلومات السرية والخطيرة التي كانت تجرنا إلى التجسس والخيانة لصالح الأجنبي. وبذلك نكون قد ارتكبنا خطأ كبيرًا نستحق على أثره العقوبات الصارمة.

ويتمثل المحور الرابع – خطؤنا في مسألة تشكيل الخلايا السرية في أوساط الضباط العسكريين.

حيث أرى أن الإمام كان محقًا جدًا عندما أعلن عن وجوب ابتعاد القوات المسلحة عن التنظيمات والأحزاب السياسية وضرورة الحفاظ عليها بعيدًا عن القلاقل السياسية.

وكذلك أراه محقًا تمامًا عندما أعلن أن القوات المسلحة يجب أن تصب جهودها في مجال ترسيخ سيادة الجمهورية الإسلامية والابتعاد عن العمل الحزبي داخل صفوف تلك القوات واضعًا الحد أمام أهواء كل فئة تريد تطبيق آرائها السياسية في أوساط القوات المسلحة.

لقد كانت تلك الآراء صائبة للغاية – ولكننا وللأسف الشديد ولنفس الدوافع السابقة تجاوزنا تلك الدوافع ولم نأخذها بعين الاعتبار.

فقد كان وضعنا التنظيمي داخل القوات المسلحة بهذا الشكل: حيث لم نكن نملك حينذاك سوى أعداد قليلة جدًا من الضباط المتعاطفين مع أفكار الحزب – الذين يتصلون بنا عن طريق أصدقائهم الحزبيين، ولم يكن لدينا أي عمل منظم داخل أوساط الضباط إلى تلك الفترة ولكن بعد ذلك التاريخ قمنا بتجميع الضباط المتعاطفين في خلايا تنظيمية عديدة – وربطنا تلك الخلايا بشبكات سرية ووضعنا الحدود– وشخصنا الخطوط التي يجب السير عليها والالتزام بها داخل التنظيمات. مبينًا كيفية إجراء الاتصال فيما بين الأفراد دون أية مشاكل.

وبذلك فقد سارت الأمور بشكل منظم – وأصبحت تلك العناصر مصادر قيمة لتزويدنا بالأخبار السرية والمعلومات الخطيرة عما يجري داخل القوات المسلحة – وتجميع تلك المعلومات والأخبار وترتيبها؛ ومن ثَمَّ إيصالها إلى المسؤولين السوفيت.

وباعتقادي فإن ذلك يعتبر وحده – أيضًا – نوعًا من الخيانة بحق الجمهورية الإسلامية.

ويتمثل المحور الخامس لأخطائنا في مسألة كيفية تعاملنا مع قانون تطهير الدوائر الحكومية من العناصر المعادية للثورة والمصدق عليه من قبل مجلس الشورى الإسلامي؛ حيث يعتبر سن هذا القانون حقًا مشروعًا لأي حكومة لا ترغب في وجود العناصر المعارضة لسياستها على رأس مؤسساتها العسكرية أو المدنية المختلفة والتي تتقلد المناصب الحساسة.

ومن الجدير بالذكر أنه لم تتم الإشارة الصريحة لحزب تودة في مواد القانون ولكن أشير إليه ضمنيًا – حيث نصت إحدى المواد على ما يلي «يجب تصفية وتطهير المؤسسات الحكومية، سواء منها الثقافية أو الجامعات أو بعض المناصب الحساسة وبالأخص في المؤسسات العسكرية من العناصر المرتبطة بالأحزاب العميلة للدول الأجنبية وإخراجهم من تلك المؤسسات.. وحزب تودة يُعْنَى في هذه المادة، إنني أرى أن مَنْ وضع هذا القانون كان محقًا جدًا – ولا يجوز الاحتجاج عليه إطلاقًا أو إثارة الشبهات حوله؛ فإنه حق مشروع للجمهورية الإسلامية في إيران أن تضع مثل هذا القانون. ولكننا وبدلاً من الرضوخ لهذا القانون، وفك ارتباط العناصر المعنية بالقانون وإخراجهم من الحزب أو نصحهم بكشف ارتباطاتهم للسلطات أو ترك المناصب التي يشغلونها مع ارتباطهم التنظيمي – بدلاً من كل ذلك تعاملنا مع القضية بكامل الجبن والخسة والرياء – وسعينا حثيثًا من أجل تشجيع العناصر المعنية على اتباع أساليب الكذب والخداع والرياء أمام المسؤولين – والتظاهر بالتدين أمامهم – وإنكار الانتماء للحزب – بل والعمل على التدرج في المناصب واستلام مناصب أرفع من السابق، وأكثر من ذلك فقد لجأنا أحيانًا إلى اتباع أساليب ملتوية واستغلال بعض العلاقات الخاصة مع المسؤولين

لدفع عناصرنا إلى مناصب أرفع وتشجيعهم على الاتصال بالحزب.

وهذا هو مصداق عملي للأعمال التسللية غير المشروعة التي شُجبت من قبل الجمهورية الإسلامية.

ويتمثل المحور السادس لأخطائنا - والذي يعتبر من الأخطاء القاتلة التي وضعت اللمسات الأخيرة لنهايتنا في المخطط الذي بدأنا في تنفيذه في الفترة التي سبقت فاتضاح أمرنا.. حيث كنا نبحث عن طرق لا قانونية تساعدنا على الخروج من القطر عبر الحدود.

وكان الهدف من ذلك بالدرجة الأولى هو إخراج الكوادر القيادية للحزب من القطر؛ وذلك لأننا كنا نشعر بقرب نزول الصفعة المنتظرة على رأس الحزب، وقد حاولت مرة الخروج من القطر بهدف الاستشارة والتباحث في الأمور والتطورات المستجدة مع الآخرين وهذا يعتبر من الذنوب الكبيرة التي اقترفناها خلال مسيرتنا الحزبية. إن هذه جميعًا تمثل المحاور الأساسية لأخطائنا وخياناتنا لهذا البلد.

إجراء المشاورات مع الحزب الشيوعي السوفيتي

تقدمت بطلب إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي تضمَّن رغبتي في إجراء مشاورات معهم لتبادل وجهات النظر حول الأوضاع المعقدة والسيئة التي تسود المنطقة والتي تسير يومًا بعد يوم نحو الأسوأ.. والتي سببت لي حالة من الاضطراب والقلق والحيرة استدعت إجراء بعض المشاورات والمباحثات معهم للتداول في الأمر قبل فوات الأوان.

أمَّا بالنسبة لتاريخ علاقتي مع باقي أعضاء الحزب - ودرجة ارتباطي مع السفارة السوفيتية بطهران - فإنه يعود بالضبط إلى عام ١٩٤٥م حيث تعرفت في هذا التاريخ على أحد أعضاء السفارة السوفيتية عن طريق أحد الاشخاص المدعو

«عبد الصمد كامنجسن» ولم تدم تلك العلاقة طويلاً بسبب تطورات أحداث مقاطعة أذربيجان وما أعقب ذلك من أحداث.

ثم حدثت أحداث عام ١٩٤٨م التي اعتقلت على أثرها ولم تتهيأ لي أي فرصة للاتصال مع السفارة بعد الإفراج عنّي واستمر ذلك حتى تاريخ هجرتي من إيران - حيث مكثت لفترة وجيزة بلغت حوالي عامًا ونصف في الاتحاد السوفيتي - ورحلت بعدها إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية.. حيث كنت في تلك الفترة على اتصال مستمر مع الحزب الشيوعي السوفيتي، وكانت تلك الاتصالات ضعيفة وغير مؤثرة، في الفترة التي كنت فيها خارج اللجنة المركزية لحزب تودة، وبعيدًا عن ممارسة المسؤوليات القيادية بشكل مباشر.

ولكن الأوضاع عادت كالسابق بعد عودتي للجنة المركزية بعد عام ١٩٧٢م؛ حيث أصبحت بعد هذا التاريخ أمارس نشاطي المكثف، وكنت على اتصال مستمر مع السفارة السوفيتية في طهران، أمّا فيما يخص درجة ارتباط باقي أعضاء الكادر القيادي واللجنة المركزية بالمسؤولين السوفيت، فإنها لم تكن متساوية مع جميع الأفراد ولكن قد تكون هناك ارتباطات أخرى لبقية الأعضاء لم نكن نعلم بها بشكل كامل.

وفيما يخص وجهة نظري حول التخلفات والخيانات التي أحمل وزرها شخصيًا. فإني أعتبر أنها كبيرة وثقيلة جدًا على كاهلي وهي تدخل في إطار التجسس والخيانة ونقض القانون. وهي ثقيلة بحيث إنها تستحق أشد العقوبات باعتباري المسؤول الأول عن تلك الأعمال الخيانية.

نداء إلى الشباب الحزبي

أوجه ندائي إلى الطبقة الشابة من الخريجين وإلى كل أولئك المخدوعين والمتعاطفين مع المعتقدات السياسية والفكرية للفئات اليسارية وأحذرهم من مغبة

الوقوع في شباك العمالة والارتباط بالدول الأجنبية وأدعوهم إلى تجنب ذلك قدر الإمكان في مسيرتهم النضالية.

لقد كانت العمالة والارتباط بالأجنبي – السبب الرئيسي الذي جرنا تدريجيًا نحو الانحراف والسقوط في المزالق الخيانية التي أدت بنا بالتالي إلى المصير المشؤوم الذي نحن فيه اليوم، لقد أصبحنا اليوم مطالبين بحق للإجابة على كل تلك التصرفات والأعمال الخيانية التي اقترفناها خلال سيرتنا أمام الشعب الإيراني الذي كنا نتصور أننا نخدمه عن طريق الحزب، ولكن النتيجة كانت عكس ذلك تمامًا. فإياكم والانزلاق في الطريق الضال الذي أدى بنا إلى هذا المصير.



اعترافات «به آذين»
المسؤول المباشر عن الصحيفة الرسمية لحزب تودة

إني «محمود اعتماد زاده» المعروف بـ «به آذين» رئيس الجمعية الإيرانية لأنصار السلام، والأمين العام لمجلس الكُتَّاب والفنانين الإيرانيين والمسئول المباشر عن صحيفة «اتحاد مردم» الأسبوعية انتميت إلى حزب تودة «الحزب الشيوعي الإيراني» عام ١٩٤٤، وانقطعت علاقتي بالحزب بعد الانقلاب العسكري – الذي نُفِذَّ في ١٩ آب ١٩٥٣.

استمرت هذه القطيعة لمدة ثلاثة وعشرين عامًا – حتى انتصار الثورة الإسلامية في إيران – حيث اتصلت بالحزب وأعدت ارتباطي به بعد الثورة أي عام ١٩٨٠، وقد دُعِيْت في الأيام الأخيرة التي سبقت إلقاء القبض علي للانضمام للجنة المركزية لحزب تودة.

سوف أخصص حديثي عن الأعمال التي قامت بها الفئات والتكتلات اليسارية منذ بدايتها وحتى انتصار الثورة الإسلامية في إيران – وأترك الحديث فيما يخص الفترة التي أعقبت الانتصار لباقي قادة الحزب للتحدث عنها بإسهاب.

الماركسية في إيران والطريق المسدود

إن ما ينبغي التأكيد عليه في بداية حديثي هو الطريق المسدود الذي وصلت إليه الماركسية في إيران، بعد انتصار الثورة الإسلامية واستتباب السيادة المطلقة للإسلام في هذا البلد. وهي اليوم لا تملك حتى موطئ قدم في الحياة السياسية في إيران ولن يمكنها أن تنال ذلك بتاتًا.

النقطة المهمة هنا تكمن في وصول الماركسية في إيران إلى طريق مسدود – كيف حدث ذلك؟

يعود ذلك – حسب اعتقادي – بالدرجة الأولى – إلى وجود الإسلام – الإسلام الثوري – الذي أدى بالماركسية إلى الإفلاس أمام نظرية منسجمة – متبناة من قبل الجماهير المليونية في إيران. لقد امتاز الإسلام الثوري هذا – بسعة نفوذه وترسيخ أفكاره في أذهان الجماهير المليونية في إيران، وبالأخص الطبقات المستضعفة منها.

ولعل أهم أحد العوامل في ذلك هو امتلاك الشعب الإيراني للثقافة الدينية العريقة والمترسخة.

وأؤكد مرة أخرى أن مستضفعي إيران – سواء من كان منهم في المدن أو القرى – تربطهم بعلماء الدين المسلمين روابط ووشائج وثيقة جدًا. وأن هذا الارتباط الثقافي والفكري الوثيق والعريق، والمتأصل في نفوس الجماهير المستضعفة – والذي يمتد لقرون متطاولة تزيد على الألف عام – يكسب في الحقيقة الجماهير الإيرانية نوعًا من الوقاية والصيانة اللازمة – التي تجنبهم أي نوع من التمايل أو التبني لأية فكرة وعقيدة غير إسلامية.

والنقطة الأخرى المهمة هنا أن انتصار الثورة الإسلامية ومن ثمَّ استتاب حاكمية الإسلام التامة في إيران – قد تم بمشاركة الجماهير الشعبية المليونية، وبالأخص المستضعفين منهم وتحت قيادة الإمام الخميني. وكذلك بفضل توجيهات وإرشادات علماء الدين الملتزمين الذين استطاعوا عبر السنوات الطوال وبالأخص السنوات الأخيرة التي سبقت الثورة أن يدمنوا حركة الجماهير الثورية والمعارضة بشكل عام باتجاه إسلامي أصيل.

إن الحاكمية الإسلامية الثورية، التي سادت البلاد بعد انتصار الثورة، قد هيأت

جميع الوسائل والعوامل - المادية والمعنوية اللازمة لحل الشؤون المختصة بالمستضعفين في إيران، وإنقاذهم من الحرمان والظلم والاستغلال.

كما أنها أثبتت خلال الأعوام المنصرمة الأربعة من عمر الثورة أنها مصممة على إيجاد الحلول الصائبة والنهائية لهذه المشاكل حيث إننا كلما تتبعنا هذه الأعوام الأربعة رأينا أن الجهود والمساعي لتنفيذ حاكمية الإسلام الثوري في هذا المجال قد توسعت وزادت. وأصبحت أكثر ثمارًا وإنتاجًا من ذي قبل. وبناء على ذلك - فالماركسية لم يعد لديها شيء - تقدمه للجماهير الإيرانية المستضعفة في هذا المجال - ناهيك عن أنها تمتلك فقط إمكانية رفع الشعارات دون العمل بها - وإن ما يمكن تحقيقه من إنجاز مهم لأجل المستضعفين، قد تحقق الكثير منه حتى الآن بفضل الثورة الإسلامية في إيران.

هناك نقطة أخرى أود الإشارة إليها - فيما يخص شعار «لا شرقية ولا غربية» الإسلامية حيث إن هدف هذا الشعار يكمن من جهة في تأمين استقلال البلاد - ومن جهة أخرى يهدف إلى تحقيق مصداق الرفض العملي لكل الطرق والأساليب المستوردة وكذلك رفض مظاهر الحضارة المزيفة - وأسس نظام الحكم وتركيبة المجتمع - على الطراز الشرقي والغربي على حد سواء.

من هنا فإن المعتقدات والأفكار المتأصلة في أذهان ووجدان الجماهير المستضعفة في إيران - والتي تعتبر بحق المدافع الأصيل عن الثورة الإسلامية - حيث لا زالت تقدم أبناءها على طريق تحقيق أهداف الثورة وإيصالها إلى النصر النهائي - تقف دومًا سدًا منيعًا وحائلاً دون تغلغل الأفكار الماركسية في نفوس أولئك المستضعفين.

وهناك مسألة مهمة أخرى في هذا المجال وهي أن الماركسية لا تهتم أساسًا

بالجوانب الروحية والمعنوية المتعالية للإنسان بل إنها لا تهتم أساسًا بالجانب الإلهي في الإنسان – وعليه لا أرى وجود أي موطئ للماركسية من هذه الناحية بين أوساط الجماهير الشعبية في إيران.

عمالة حزب تودة للاستكبار الشرقي

لو تجاوزنا كل ذلك – فإن مسألة عمالة وارتباط التيارات اليسارية – وحزب تودة بالخصوص للاستكبار الشرقي، والتي أدت بهم إلى تنفيذ الأعمال الخيانية واللا قانونية وحياكة المؤامرات داخل البلاد، قضت تمامًا على أي احتمال لتقبل الأفكار الماركسية وتبنيها من قبل الجماهير الشعبية – التي تدرك جيدًا تلك الأمور.

كما أن الخيانات التي ارتكبتها الفئات والأحزاب ذات التوجهات اليسارية في إيران – منذ نشأتها وحتى الآن – فضلاً عن الجرائم والمؤامرات التي نفذتها تلك الفئات، والتي انطبعت جميعها في أذهان جماهير الشعب – بعد أن عاشتها عن كثب – قد تركت حالة من الكراهية والنفور والانزعاج من اليسار والشيوعية بشكل عام في قلوب جماهير الشعب وأفراده المحبين لوطنهم بشكل عام.

وسوف أشير بشكل إجمالي – إلى عدد من النماذج الناطقة فيما يخص تلك الخيانات ومنذ بداية «عهد المشروطة» وحتى الآن – وهي تعطي الدليل القاطع على مدى خيانة التيارات اليسارية وحزب تودة لمصالح الجماهير الشعبية في إيران.

القضية الأولى التي أود الإشارة إليها: هي قضية المجاهدين القادمين من تبريز من السلاح والذين كانوا تحت قيادة (ستارخان، وباقرخان) وكانوا يقيمون في منتزة أتابك في طهران حيث اتخذ الجهاز الحاكم في ذلك الوقت، قرارًا بتجريد هؤلاء المجاهدين من السلاح – للحيلولة دون إعطاء أي فرصة للقوى الشعبية للتأثير على سياسة إيران وتجميدها، وقد نفذت تلك العملية بأيدي بعض الشخصيات

اليسارية من أمثال (حيدر عمو أوغلي بيرم) وآخرين.

والقضية الأخرى هي قضية إحباط حركة الغابة – المعادية للاستعمار التي ظهرت في شمال إيران – والقضاء عليها من قبل الحكومة المركزية.

حيث كان قد تم في حينها تشكيل ائتلاف كبير ضم الكثير من الفئات المعادية للحكومة المركزية، وذلك بعد دخول قطاعات الجيش الأحمر إلى ميناء إنزلي وعودة الإيرانيين الذين كانوا يسكنون مقاطعة القفقاس وعلى الخصوص المناطق القريبة من (آبار بادكوبه) النفطية.

وكان الهدف من تشكيل ذلك الائتلاف هو دعم ثورة الغابة والعمل على اتساعها وانتشارها في اتجاه إيران حيث تم بالفعل تشكيل حكومة مؤقتة هناك.

ولكن الفئات اليسارية – التي كانت قد تغلغلت في تلك الحكومة سعت لأجل السيطرة على جميع الأمور وإضواء الثورة من الداخل؛ وكان نتيجة ذلك أن تم تنفيذ انقلاب عسكري وإجبار «الميرزا كوجك فان» على اللجوء إلى الغابات المنتشرة في تلك المنطقة حيث أدى هذا الأمر بحد ذاته إلى تصدع أركان جبهة القوى الثورية في منطقة كيلان؛ وبالتالي أفلح رضا خان وحكومته المركزية الرجعية المرتبطة ببريطانيا في القضاء على تلك الحركة الثورية الرائعة وإخماد نيرانها.

والقضية الأخرى: معارضة السيد المدرس لخطة رضا خان المرائية في الإعلان عن تأسيس الجمهورية في إيران بتنصيب نفسه رئيسًا لها. فإننا نرى أيضًا أن العناصر التي كانت تحسب على الفئات اليسارية في إيران من أمثال (سليمان ميرزا إسكندري) الذي كان يتزعم التنظيمات الاشتراكية الديمقراطية في إيران كانت قد أعلنت عن دعمها وحمايتها لإجراءات رضا خان. كما أن إسكندري نفسه – كان قد قبل منصب وزير المعارف في حكومة رضا خان – وكان يشير في أحاديثه دومًا إلى

رضا خان باعتباره ممثلاً للبرجوازية الوطنية في إيران في ذلك الوقت – وهذا الرأي كان يتطابق تمامًا مع رأى الاتحاد السوفيتي برضا خان؛ وبذلك فقد أفلح رضا خان في السيطرة على مقاليد الأمور وتثبيت موقعه في السلطة الملكية وتنصيب نفسه ملكًا يتربع على العرش الإيراني.

كذلك يمكن الإشارة هنا إلى الأحداث التي جرت في إيران خلال أعوام (١٩٤١م – ١٩٥١م) وما اتخذه حزب تودة من مواقف تجاه التطورات التي جرت في هذه الأعوام العشرة التي كانت تتعلق عمليًا باستقلال ووحدة الأراضي الإيرانية.

وكمثال نذكر خيانة حزب تودة للسياسة الوطنية في حادثة تشكيل الحكومة الديمقراطية في أذربيجان – والحكومة الديمقراطية في كردستان أو فيما يخص قضية منح السوفيت امتياز نفط الشمال وما شابه ذلك من أحداث ليست بخافية على الجميع؛ وهي تدل على الخيانة التي اقترفها حزب تودة– وكذلك تثبت مدى عمالته وارتباطه التام بالسياسة السوفيتية في المنطقة.

تأميم صناعة النفط

ثم نصل إلى المواقف التي اتخذها حزب تودة – فيما يخص قضية تأميم الصناعة النفطية – التي أعلنت عنها الحكومة الوطنية برئاسة الدكتور مصدق – حيث عمد الحزب إلى وضع الحواجز والعراقيل أمام حكومة مصدق عن طريق المظاهرات المتتالية والاضطرابات العديدة التي دعا إليها الحزب، فضلاً عن إشاعة الدعايات المغرضة والباطلة حول السياسة الوطنية التي كان ينتجها الدكتور مصدق، وقد ساعدت هذه الأعمال كثيرًا في تهيئة الأجواء المناسبة لتنفيذ المؤامرات الإمبريالية الأمريكية والبريطانية من قبل أذنابهم الرجعيين والانتهازيين داخل البلاد. حيث تبلورت تلك المواقف كليًا في الانقلاب العسكري المشئوم الذي نُفِذَّ في ١٩ آب (أغسطس ١٩٥٣م)

وما أعقب ذلك من مآسٍ وويلات صبت على رؤوس أبناء الشعب الإيراني.

ولم يكتف الحزب بذلك - بل اتخذ تلك المواقف المهادنة والخيانة المعروفة أمَّا الحكومة العسكرية الجائرة - وما سُمِّي بالحركة الإصلاحية للشاه التي لم تكن في الحقيقة سوى لعبة خبيثة تهدف إلى تحقيق مآرب الشاه ونوازعه الخيانية - ولم يكن للشعب منها أي نصيب أو مشاركة تذكر - بل اتبع فيها أساليب الجبر والإكراه، وكان رأي الحزب فيها - أنها كانت تحتوي على جوانب إيجابية لا بأس بها.

كما أن الحزب كان قد أعلن تأييده ودعمه لحكومة (المشروطة) الملكية التي تمنح الشاه حق ممارسة الصلاحيات الحكومية فيها، وكان ذلك متطابقًا مع الشعارات التي رفعتها الجبهة الوطنية والبرجوازية بشكل عام في أنحاء العالم.

إن كل تلك المواقف العملية - تعتبر مصاديق صارخة تثبت خيانة ومهادنة اليسار، وحزب تودة بالخصوص.

كما أنها تثبت الدسائس والأحلاف التي كانت تخطط وتحاك خلف الكواليس - وبعيدًا عن أنظار الجماهير، وأدت تلك الأعمال بدورها إلى إسقاط اليسار وحزب تودة من أنظار الجماهير المليونية في إيران - تلك الجماهير التي تشخص الحقيقة من ظواهرها دون أية رتوش؛ وبالتالي إصدار الحكم من قبل الشعب بإماتة هذا الحزب وطرده من الأوساط الشعبية وتركه وحيدًا في الساحة، باستثناء أعداد ضئيلة من الذين خدعوا بأفكار الحزب أو نتيجة لجهلهم بالشؤون السياسية وانضموا إلى صفوفه وساروا على نهجه الخاطئ.

والمسألة الأخرى التي تجرد اليسار والماركسية في إيران من أية قاعدة أو موطئ في أوساط المجتمع والمعروفة لدى الجميع هي مسألة ذيلية الحزب وتبعيته المطلقة للسياسات السوفيتية في المنطقة والتي حولت الحزب إلى أداة طيعة في أيديهم

يستخدمونها لتنفيذ سياستهم ومخططاتهم الجهنمية في إيران.

إن كل ما أشرنا إليه قد طرح الماركسية بصورة سلبية أمام أنظار الجماهير.

وبالتالي يمكننا القول الآن بكل صراحة وثقة، إن الماركسية قد انتهى أمرها في إيران – بعد أن تحققت السيادة التامة للحكومة الإسلامية الثورية على كل التراب الإيراني.

صحيفة أعمال حزب تودة في إيران

أمَّا فيما يخص ما ارتكبه حزب تودة من أعمال خيانة – خلال الأعوام الأربعين التي انحرمت من وجوده في إيران، فإنه عمل في الفترة التي أعقبت انتصار الثورة الإسلامية على تبرير الأعمال الخيانية السابقة وتزكية فهمه أمام أبناء الشعب عن طريق فتح مقرات في أنحاء إيران والاستفادة من الوسائل الإعلامية المختلفة والكتب والنشرات وغيرها.

لقد بذل الحزب جهودًا حيثية في هذا المجال وقام بإصدار نشرات كثيرة بهذا الخصوص ووزعها بين صفوف الشعب ولكن لابد من القول وبكل صراحة إن من تلك التبريرات واختلاق المعاذير، لم تلقَ القبول والرضا عند ضمائر وأفكار جماهير الشعب المليونية، من المستضعفين والكادحين والعمال في إيران، وبقيت نظرة الناس إلى الحزب، كما كانت في السابق باعتباره جزءًا مشبوهًا ومُدانًا ومطرودًا من بين أوساط الشعب.

رأيي بحزب تودة

أمَّا بالنسبة لوجهة نظري بخصوص حزب تودة فإنها تنبع من الوقائع التي أفرزتها الأعمال الخيانية التي اقترفها الحزب خلال عمره الطويل في إيران، والتي

شملت النقض المتعدد لقانون الجمهورية الإسلامية واتباع سياسة نفاقية ومرائية أمام نظام الجمهورية الإسلامية في إيران، وكذلك التجسس لصالح الاتحاد السوفيتي وللمعسكر الشرقي بشكل عام؛ وبالتالي تدبيره لمؤامرة الإطاحة بنظام الجمهورية الإسلامية.

مع ملاحظة تلك الأمور وأخذها بنظر الاعتبار فإنه لا يبقى أي مجال لحسن الظن بالحزب ولا يمكننا بالتالي أن نعتبر حزب تودة ككيان سياسي قانوني في إيران.

إن هذا الحزب – مع الأخذ بنظر الاعتبار الأعمال الخيانية التي اقترفها – مثله الآن كمثل جثة متعفنة لا بد من دفنها بسرعة لئلا تسري عفونتها إلى أذهان البسطاء من شباب هذا الشعب، ولا أرى أي لزوم للتفصيل في هذا المجال – تاركًا الفرصة للآخرين للتحدث بشكل مفصل حول هذا الجانب من القضية – أي أعطي المجال لكياتوري مثلاً أو باقي قادة الحزب – لكشف الستار عن تفاصيل الأعمال الخيانية والفتنة التي اقترفها الحزب.

ولكنني وبسبب ارتباطي المجدد مع تشكيلات الحزب بعد انتصار الثورة وبعد قطيعة تامة معه دامت ثلاثة وعشرون عامًا. أعترف باقترافي خطأ فاحشًا وذنبًا كبيرًا بحق نفسي أولاً، وبحق الجماهير المستضعفة الإيرانية ثانيا التي حققت بدمائها وتضحيات أبنائها انتصار الثورة الإسلامية في إيران وحافظت على مكاسبها، وهي لا زالت تضحي وتقدم القرابين تلو القرابين في هذا الطريق لأجل دفع عجلة الثورة إلى الأمام والوصول إلى النصر النهائي والتام في المستقبل.

وإنني أعتبر نفسي مسؤولاً عن أعمالي أمام هذا الشعب وأمام الإمام الخميني قائد الثورة ومؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران كذلك.

وكذلك أعتبر نفسي في الحقيقة شريكًا بشكل ما ـ بالخيانة التي ارتكبها حزب

تودة في إيران ودون اعتذار أو سماح أو تردد أعتبر نفسي مستحقًا للعقوبة القانونية.

اعترافات «عموئي» عضو اللجنة المركزية لحزب تودة

إني «محمد علي عموئي» عضو اللجنة المركزية لحزب تودة طالب في الصف الخامس الإعدادي. بعد حصولي على شهادة الإعدادية وقبولي في كلية الضباط انقطعت علاقتي مع الحزب.

ثم أعدت انتمائي للحزب بعد تخرجي من كلية الضباط - حيث أصبحت عام ١٩٤٩ عضوا في التنظيم العسكري للحزب.

ارتفعت بعد خمسة أعوام من النشاط الدءوب في التنظيم العسكري لحزب تودة (أعوام ١٩٤٩م - ١٩٥٤م) إلى درجة مسؤول منطقة في التنظيم الحزبي.

ألقي القبض على سائر أعضاء التنظيم العسكري للحزب عام ١٩٥٤ - وبقيت رهن الاعتقال لفترة طويلة دامت أكثر من ٢٤ عامًا وعدة أشهر أي حتى أواخر عام ١٩٧٨م؛ حيث أفرج عني بفضل أمواج الثورة الهادرة التي حطمت قيود جميع المعتقلين السياسيين، وكنت بدوري من الذين تمتعوا بأدنى ثمار جهود أبناء الشعب الثائر.

عاودت مزاولة نشاطي الحزبي عند عودة النشاط العلني للحزب بعد انتصار الثورة، وقد كنت قبلها قد انتخبت غيابيًا عضوًا في اللجنة المركزية للحزب. ثم أصبحت عضوًا في الهيئة السياسية للحزب وأخيرًا انتخبت عضوًا لأمانة السر في المؤتمر الأخير للجنة المركزية للحزب وبقيت أحتل هذا المنصب حتى تاريخ اعتقالي منذ بداية النشاط الحزبي بعد انتصار الثورة - أعلن دعمه وتأييده للدستور العام للجمهورية الإسلامية في إيران - وكان يشيع بين الناس بأنه قرر تحديد نشاطاته ضمن الأطر التي وضعها الادعاء العام للثورة في البيان ذي العشر المواد الآنف

الذكر – وكان يستغل كل فرصة أو مناسبة لإصدار بيان يؤكد النشاط القانوني للحزب.

كما أن الحزب كان يشارك دومًا في الانتخابات التي أقيمت في البلاد – بل وشجع الآخرين على المشاركة والإدلاء بآرائهم في صناديق الاقتراع، وكان يستنكر ويدين الفئات والمجموعات التي كانت تعمل من أجل وضع العراقيل أمام عجلة الثورة المتقدمة، ويعلن عن أسفه واحتجاجه على الأزمات والمشاكل التي تثيرها العناصر المقاومة للثورة الهادفة إلى الوقوف أمام المد الثوري.

وكان الحزب من جهة أخرى، يصنع المشاريع والخطط الإصلاحية ويعرضها على المسؤولين ليثبت عن هذا الطريق نزاهته ودعمه وتأييده الكامل لمشاريع وخطط الحكومة بالشعار والكلام والإعلام على الأقل.

ولكن كل ذلك لم يكن يتعدى الكلام والشعارات والإعلام المزيف وجميعه يصب في مجرى السياسة التي رسمها الحزب للسير عليها. ومتى كان الكلام مهما بلغ يفي بالغرض عن العمل؟ إذن لنرَ ماذا كان العمل؟

لقد تميزت ممارسات الحزب في تلك الفترة بأنها كانت تجسيدًا عمليًا للكذب والخداع والرياء ومشبعة بسلسلة طويلة من الخيانة ومعارضة القانون.

فنرى أن الحزب ينظم قائمة تضم أسماء أربعة وعشرين فقط من قادة الحرب، بدلاً من إدراج أسماء جميع القادة ويسلمها إلى وزارة الداخلية.

وفي الوقت الذي كان الحزب فيه يدعي الشرعية والقانونية، ويسعى للحصول على ترخيص قانوني لنشاطه، كان يعمل من جهة أخرى على تشكيل الخلايا والشبكات السرية.

كذلك في الوقت الذي كان الحزب فيه يدعي أنه يراعي تمامًا المقررات

والضوابط القانونية الموضوعة، كان يسعى حثيثًا من جهة أخرى لأجل التسلل إلى المؤسسات والدوائر الحكومية، واتباع الأساليب اللاقانونية لترسيخ أقدامه هناك.

وفي الوقت الذي كان الحزب فيه قد أصدر تعميمًا حزبيًا داخليًا إلى جميع أعضائه، يدعوهم فيه إلى التجرد من كل نوع من السلاح، كان من جهة أخرى يزيف الحقائق ويمنعهم من تسليم السلاح إلى المسؤولين.

وكان يؤكد صوريًا على الاستقلال والتضامن، بينما كان يطلق عليهم «بالأحزاب الشقيقة» إلا أنه كان ينفذ الأوامر التي تصله من الاتحاد السوفيتي بشكل مباشر أو عن طريق الاتصالات السرية مع بعض الجهات.

ولم يكتفوا بذلك بل إن درجة العمالة والارتباط بالأجانب وصلت إلى حد بحيث شكل التجسس أحد الواجبات الرئيسية التي كان يكلف الأعضاء بتنفيذها.

وحقيقة الأمر أن درجة عمالة وارتباط الحزب بالاتحاد السوفيتي كانت منذ البداية إلى حد بحيث إنها تحولت إلى ظاهرة عامة ومتلاصقة لكيان الحزب.

ولو ألقيت نظرة عامة إلى بداية نشاطات الحزب – لظهر أن شعُب الحزب ومكاتبه التي افتتحت في تلك الأيام، كانت بشكل أساسي في المدن القريبة من الاتحاد السوفيتي، وبشكل عام في محافظات كيلان ومازندان وأذربيجان – ولم يتيسر ذلك للحزب لولا وجود قطاعات الجيش الأحمر هناك؛ وهذا يعني أن حزب تودة كان قد تأسس وظهر تحت مظلة التواجد الأجنبي في تلك المناطق.

وبديهي فإن نفس ظاهرة العمالة والارتباط بالأجانب توجب سلب الشخصية المستقلة، وتضعف سمات الاعتماد على النفس لأي حزب أو فئة تريد العمل في أوساط المجتمع.

وقد جرب شعبنا جيدًا – نموذجًا بارزًا دلَّ على نتائج هذه العمالة للأجنبي في

التاريخ القريب جدًا حيث كان النظام المقبور مسلحًا من رأسه حتى أخمص قدميه بمختلف أنواع الأسلحة المتطورة، وكانت الأسلحة تنهال عليه من الإمبريالية العالمية وبالأخص أمريكا – وقد جعلته هذه الحالة يلجأ إلى استخدام أساليب القمع والبطش والرهبة ضد أبناء الشعب – وكذلك تحول فيما بعد لأداء دور شرطي المنطقة وحارسًا أمينًا للمصالح الأمريكية ومشرفًا بارعًا على عمليات السطو والقرصنة التي كانت تنفذها أمريكا في المنطقة.

وقد أدت حالة الانفصام التام للنظام عن الشعب، وعمالته التامة للإمبريالية الأمريكية، إلى تغرب النظام عن أبناء الشعب وابتعاده عنهم، إلى حد بحيث إنه طرد من أوساط الشعب بهذه السرعة، ولم يبقَ منه أي ذكر بمجرد أول انتفاضة وثورة قام بها شعبنا – بعد تقديم التضحيات العظام في هذا الطريق وقد أدى ذلك إلى لفظ النظام وطرده من جميع أعوانه من صفوف الشعب باعتبارهم عناصر مريضة وعميلة وبعيدة عن أماني الشعب ورميهم جميعًا في مزابل التاريخ.

إن أهمية سياسة اللاشرقية واللاغربية تكمن أنها تكسب الاستقلال للبلد، وكذلك تقضي على نوع من الارتباط والعمالة سواء للشرق أو للغرب، وإن ذلك يولد الشخصية المستقلة والاعتماد على النفس فضلاً عن ازدهار وتفتح الطاقات والإمكانات المستترة فإظهارها إلى الوجود.

وبإمكاننا أن نرجع جذور عوامل اقتراف أكثر الأعمال الخيانية واللاشرعية للحزب، خلال السنوات العديدة الماضية، إلى هذه العمالة والذيلية للأجانب. وذلك لأن أي نوع من الارتباط لأي حزب أو فئة سياسية مع أية جهة أجنبية – سوف يجعل من ذلك الحزب أداة طيعة بيد ذلك الأجنبي – لتنفيذ سياساته المرسومة في تلك المنطقة.

وهذه هي النقطة التي يتقابل فيها الادعاء مع العمل وجهًا لوجه وبث تفرغ الشعارات التي أطلق عليها بالثورية من مضمونها الأصيل.

كانت القانونية تتحول عمليًا إلى تنفيذ أعمال مخالفة للقانون، وكانت النشاطات المدنية التي يقوم بها الحزب تقترن مع تشكيل الخلايا السرية، وكانت عمليات تجميع وتمزيق الأسلحة من قبل الحزب مستمرة على قدم وساق.

وكانت سياسة الحزب تجري تدريجيًا بعيدًا عن الصدق والواقعية وتأخذ طابع المؤامرة، وأصبحت الأمور في النهاية بهذا الشكل. حيث بات قادة الحزب يفكرون في كيفية السيطرة على مقاليد الأمور وكسب القدرة بالطرق اللاقانونية.

وأخيرًا استسلم الحزب للأمر الذي تعوّد عليه عبر تاريخه الطويل والذي أدى به في النهاية إلى المواجهة المباشرة مع النظام القانوني الذي يحكم البلاد.

وهذا المصير الذي آل إليه الحزب – يعتبر طبيعيًا جدًا، حيث إن تاريخ الحزب، منذ ظهوره وخلال جميع مراحل نشاطه اللاقانوني كان مليئًا بسياسة خسيسة، وبأعمال مخالفة للقانون. وخيانات متعددة اقترفها الحزب وهذه الأمور لا تؤدي في النهاية إلا إلى المصير الذي وصل إليه الحزب وهو الوقوف ندًا بوجه نظام الجمهورية الإسلامية في إيران.

وتحوّل الحزب الذي كان يجهد نفسه من أجل إضفاء صفة الشرعية والقانونية على نشاطاته إلى حزب غير قانوني بفعل الأعمال التي ارتكبها والتي عجلت به إلى هذا المصير.

في الحقيقة، إن وزارة الداخلية كان لها الحق منذ البداية، أن تعلن حظر الحزب وانحلاله بالاستناد إلى الممارسات اللاشرعية التي كان يقوم بها الحزب، بعيدًا عن الشعارات والأراجيف التي كان يطلقها أعلام الحزب وقادته.

لقد اختار الحزب بنفسه طريقًا غير قانوني، ووصل إلى المرحلة التي كان لابد أن يصلها – وأن الحزب حسب اعتقادي، بأعماله وممارساته الآنفة الذكر، قد أصدر حظرًا على نفسه بنفسه.

وكما أني أعتقد بأن ما بينه المشاركون في هذه المقابلة لا يدع مجالاً للشك في لزوم انحلال هذا الحزب بشكل دائم، ويخالجني هذا الشعور الآن وهو أن ضرورة تنفيذ هذه الخطوة في هذه المرحلة تعتبر مضاعفة أكثر من أي وقت مضى.

وبالطبع فإن المسئولين في وزارة الداخلية، هم المكلفون قانونيًا بإصدار أي حكم يرتئونه، سواء السماح لممارسات نشاط الحزب أو الإعلان عن حله وحظره إلى الأبد. إلا أني باعتباري أحد مسئولي الحزب – لا أكتفي بالإعلان عن حل الحزب بل أعطى لنفسي كامل الحق بالإعلان عن الانحلال النهائي للحزب بكل صراحة.

وأعلن كذلك بأنه لا يوجد بعد اليوم حزب باسم حزب تودة في إيران وكل مَنْ يدعي انتماءه لحزب تودة بعد اليوم فإنه لا يتعدى كونه عضوًا في حزب منحل ومحظور.

وإن الإعلان عن حل الحزب يعتبر نتيجة منطقية وطبيعية تمامًا إذا ما قورنت بالأعمال الجنائية التي اقترفها الحزب خلال حياته السياسية والتي أشير إلى البعض منها من قبل المشاركين في هذه المقابلة.

إن ما أوضحه المشاركون في هذه المقابلة – يعتبر بمثابة إعلان عن جرم وإدانة صريحة للحزب جاءت على لسان مسؤوليه، وإن عبء هذه الجريمة ثقيل إلى الحد الذي لا يمكن التغاضي عنه أو تعويضه إلا بحل الحزب وإخراجه نهائيًا من المسرح السياسي في هذا البلد وإنقاذ الشباب الفاضل من شباك الخداع والكذب التي وقعوا فيها؟

ومن أجل ذلك كله – فإني أعلن من هنا عن انحلال هذا الحزب، وأعتبر هذا

المصير نتيجة طبيعية ومنطقية للأعمال الخيانية واللاقانونية التي اقترفها الحزب خلال تاريخه الطويل في إيران.

وإن هذا الذي أصرح به – هو تنفيذ لمسئوليتي في الحزب ومنصبي في القادة القيادي، وأملي في ذلك أن يكون خطوة متخذة من أجل تحقيق مصالح الشعب والبلد، وأكون ولو لمرة واحدة في حياتي قد خطوت على هذا الطريق.

وبذلك أكون قد شاركت في القضاء على مخالب الفساد والتي تعتبر مسلكًا خداعًا يقف أمام الشباب المندفع بلا وعي والذي يجرهم إلى الضياع الحتمي وعسى أن أكون وحسب مسؤوليتي قد قللت من احتمال الأخطار المحدقة بالشباب وأن يحول ذلك دون وقوعهم في هذا المهلك العميق وأن يختاروا السير في الطريق القويم.

وأمّا النداء الذي أود توجيهه إلى أنصار الحزب هو كالآتي: إني أرى من المناسب جدًا، بعد كشف النقاب عن جرائم الحزب أو الحقائق التي تدور حول تاريخه في إيران من قبل زملائي المشاركين في هذه المقابلة أن أتحدث قليلاً مع أنصار الحزب وبالأخص الشباب منهم، مع أولئك الذين اندفعوا بحب وتعلق ورغبة للعمل من أجل مستقبل أمتهم ووطنهم، وسلكوا طريقًا ترون اليوم نهايته، النهاية التي ليس فيها سوى العار والخزي والفضيحة والأسف لسالكي هذا الطريق. أقول لكل أولئك وبكل صراحة:

إنكم اندفعتم بكل صدق إلى الانخراط في صفوف الحزب بعد تأثركم بشعارات الحزب البراقة – وإنكم اندفعتم نحو الحزب نتيجة للحب والرغبة الصادقة في تقديم خدمة إلى شعبكم ووطنكم.

إنكم ولا شك قد طالعتم أدبيات الحزب ووجدتم فيها ضالتكم وأمنياتكم وإن

شعارات ونشرات الحزب التي طالعتموها قد صورت لكم ماضي الحزب وحاضره بشكل جعلكم تعتقدون بأن الانخراط في الحزب يعتبر واجبًا أساسيًا ملقى على عاتقكم – بل وحتى أحيانًا باعثًا للفخر لديكم – ولكن أيها الإخوة – إن العامل الرئيسي الذي دفعكم للانخراط في صفوف الحزب تمثل بالدعايات المضللة والكلام والشعارات الخاوية.

إن التاريخ الذي يتحدث عن ماضي الحزب والذي لقنتم به لم يكن سوى تزوير للحقائق – فلابد لكم أن تبحثوا عن الحقيقة في يوميات وسجل تاريخ الحزب. استمعوا إلى الحقائق من أفواه منفذي السياسة العميلة للحزب – أمعنوا النظر قليلاً ولو بشكل سريع فيما ورد في هذه المقابلات التي عرضت عليكم وكذلك فيما عرض في اعترافات المسؤولين الحزبيين المشاركين في هذه المقابلة عسى أن يبين ذلك لكم الوجه الحقيقي لهذا الحزب، الذي انخرطتم في صفوفه، إن حزبكم ليس حزب الجماهير المحرومة والكادحة، إن حزبكم ليس حزبًا أساسًا، إنه لا يتعدى كونه ألعوبة بين يدي الاتحاد السوفيتي، لو كنتم تضمرون في أعماقكم حبًا لشعبكم – لو كنتم تحترمون شخصيتكم واستقلالكم الذاتي وتشعرون بقيمة ذلك، أدعوكم أن تعودوا إلى أنفسكم – وأن تراجعوها قبل فوات الأوان. وقبل أن تصبحوا ألعوبة لا إرادة لكم.

افتحوا أعينكم جيدًا وانظروا إلى الأمور بتبصر، فإن هذا البلد يشهد أحداثًا هزت العالم – أحداثًا حمل أعباءها الملايين من أبناء بلدكم ليلاً ونهارًا وهم يضحون من أجل الحفاظ على انتصارهم.

أزيلوا غشاوة التعصب الأعمى لتروا أي طريق عظيم وبطولي وباعث للفخر والاعتزاز يسير في بلدكم، وفي المقابل لتروا أي مستنقع عفن آسن انحدر إليه حزبكم.

إنكم الآن في عمر الشباب وأمامكم مستقبل طويل – ومتى رأيتم في أنفسكم

جرأة اتخاذ القرار، فإن تلك اللحظة هي لحظة بداية التعويض عن الأخطاء والتكفير عن الذنوب.

أوصلوا أنفسكم إلى هذه اللحظة المصيرية قبل فوات الأوان، فليس من إنصاف أن تسلكوا وبنوايا خالصة وبهدف تقديم الخدمة طريقًا لا يؤدي بكم إلا إلى الخيانة.

كما أن عليكم أن تعرفوا هذه الحقيقة وهي أن الحزب لا يضم أكثر من هؤلاء الأعضاء ومسؤوليه الكبار الذين ترونهم أمامكم، وأن مسؤولية جميع الجرائم تعتبر مشتركة وتشملنا جميعًا ونتحمل وزرها بأنفسنا.

عودوا إلى أنفسكم قبل فوات الأوان، وإني مطمئن بأن ما سمعتموه في هذه المقابلة على لسان مسئوليكم الحزبيين قد يعتبر جديدًا عليكم وذلك لأنكم لم تقرؤوا ولم تسمعوا سوى أقوال وسائل الإعلام الحزبية، وأنكم لا تدركون تمامًا مقدار البون الشاسع بين أقوال الحزب وأعماله.

نعم إن جميع ما سمعتموه في هذه الندوة، والذي جاء على ألسنة مسئوليكم الحزبيين، يعتبر أمرًا جديدًا عليكم، ولعله أثار دهشتكم أنها الحقيقة بعينها، بل إنها الوجه الحقيقي الذي مثله واقع الحزب – وليس ما لقنوه لكم في السابق.

إنكم عشقتم الحزب عن جهل، الحزب الذي كان سيصنع منكم عبيد الأجانب ومحبين لهم ومنهجهم بدلاً من أن تكونوا خدمًا لأمتكم ووطنكم. لو لم تعودوا إلى أنفسكم قبل فوات الأوان، فإن الحزب سوف يفر بكم حتى عن طبيعتكم النفسية.

ولحسن الحظ أنكم تمتلكون الآن فرصة مراجعة ماضي الحزب وسجل أعماله من جديد مرة أخرى.

لقد آن الآن وقت اتخاذ القرار والرضوخ للحقيقة رغم مرارتها، إن القضية تحتاج إلى قدر من الشجاعة – وإني أرى فيكم أيها الشباب شجاعة الرضوخ للحقيقة المرة

- ولهذا السبب فقد خصصت حديثي إليكم.

ولتكن لديكم الجرأة على تحطيم الجدران الخانقة والتخلص من القوقعة التي فرضها الحزب عليكم، ليبعدكم عن أجواء الثورة الحيوية التي تسود وطنكم وأنقذوا أنفسكم من التعصب الحزبي - وعندها ستفهمون معنى الحياة الحرة والتفكير المستقل الحر.

لا تهابوا عواقب مثل هذا العمل - فإنكم مسئولون مسؤولية مباشرة عن تكوين شخصياتكم، وفي ذات الوقت فإن عليكم أن تكونوا خدمًا لشعبكم وبلدكم، وإني أرى فيكم القدرة على ذلك، اندفعوا للسير في هذا الطريق واتجهوا نحو شعبكم ونحو الجمهورية الإسلامية، عليكم أن تثقوا بالقوانين السارية في البلد - وكونوا أوفياء لها بكل صدق وإخلاص وعندها سترون كيف أن القانون يدافع عنكم ويضمن حقوقكم.

أيها الشباب الأعزاء - يا أنصار الحزب - إنكم تسمعون هذه الوصايا وهذا التأكيد، وهو النداء الحديثي الغني من فم حزبي قضى كل عمره في معرفة الحزب - إنكم تعرفونني جيدًا، وإني على ثقة تامة بأنكم لو عملتم بنصائحي - وما عليكم في النهاية إلا ملاحظة هذه النقطة المهمة جدًا والعمل بها بعد التدقيق بها وهي أنكم أبناء هذه التربة وشربتم من ماء هذا الوطن - أنكم تربيتم وترعرعتم في أحضان هذه الأمة - أنكم مدينون إلى خدمات أبناء هذا الشعب.

واليوم ما عليكم إلا أن تختاروا الطريق الذي يجعل منكم خدمًا لشعبكم ووطنكم - وإذا تم ذلك فإني سأطمئن بأن ندائي هذا لم يكن عبثًا ولم يذهب أدراج الرياح - بل أعطى ثماره - وأكون قد قدمت عونًا ولو بقدر ضئيل جدًا، من أجل إنقاذ أنصار الحزب المضللين وهذا ما يدخل البهجة والسرور إلى قلبي.

اعترافات «قائم بناه» عضو اللجنة المركزية لحزب تودة

إني غلام عباس قائم بناه – من مواليد عام ١٩٢٣ – تخرجت من كلية الضباط عام ١٩٥٧. انتميت إلى صفوف حزب تودة عام ١٩٤٥م عندما كنت طالبًا في الكلية – هربت من الجيش عام ١٩٥٠م إلى الاتحاد السوفيتي – وأصبحت أتنقل منذ ذلك التاريخ بين الاتحاد السوفيتي وباقي البلدان الاشتراكية – حيث كنت مقيمًا فيها.

منذ دخولي للأراضي السوفيتية عام ١٩٥٠م تعهدت لوكالة الاستخبارات السوفيتية (K.G.B) بالتعاون معها حيث استمر هذا التعاون بصيغ مختلفة.

عند اعتقالي كنت عضوًا في اللجنة المركزية لحزب تودة – وعضو لجنة التفتيش والمتابعة – التي شكلت من قبل الأمانة العامة قبل عام تقريبًا – كذلك كنت عضوًا في هيئة تحرير صحيفة (مردم – الشعب) الناطقة بلسان الحزب.

لأجل التعرف على ممارسات الحزب والأعمال التجسسية التي قام بها خلال حياته وكيفية ذلك لابد من الرجوع قليلاً إلى الوراء وتفحص تاريخ الحرب.

كما يعلم الجميع – أن حزب تودة كان قد تأسس خلال سنوات الحرب العالمية الثانية عندما كان وطننا يرزح تحت نير احتلال الجيوش الأجنبية النازية.

تم وضع أسس هذا الحزب في تلك الأيام من قبل بعض العناصر التي ترعرعت وأُعِدَّت مسبقًا في الاتحاد السوفيتي – لتنفيذ مثل هذا العمل من أمثال «بقراطي – وآوا نسيان وروستا» وآخرين. وهؤلاء جميعًا من الذين تربوا في أحضان الجامعات الشيوعية في البلدان الاشتراكية وتخرجوا منها.

وكما هو معروف – فإن المدرسة الستالينية الفردية الحاكمة آنذاك كانت قوية ومؤثرة جدًا في الاتحاد السوفيتي – وكانت تتبع أساليب خاصة في تربية العناصر

المؤيدة لها – وإعدادها للمستقبل – وتهيئة أذهانها لإنشاء أحزاب عميلة ومرتبطة بالاتحاد السوفيتي، وزرعها في البلاد الآسيوية والمجاورة للاتحاد السوفيتي؛ ومن ثمَّ تكلف تلك الأحزاب بمهمة التجسس وجمع المعلومات الشريرة والمفيدة لصالح الاتحاد السوفيتي من تلك البلدان.

لذلك فإن ظروف التأسيس كانت بهذا الشكل – وتجسد ذلك في الأعوام التي تلت ذلك – حيث أثبتت الأحداث والتطورات التي جرت في تلك الأعوام – تبعة سياسة الحزب الكاملة للسياسة والمصالح السوفيتية.

وكمثال على ذلك، ما جرى أثناء تشكيل الحزب الديمقراطي في مقاطعة أذربيجان، والحزب الديمقراطي في مقاطعة كردستان وذلك أثناء رزوح هاتين المقاطعتين تحت احتلال الجيش الروسي وبدعم كامل من ذلك الجيش، وقد ساند حزب تودة مباشرة هذين الحزبين، وأعلن عن دعمه واعترافه بهما وأكثر من ذلك شكل ائتلافًا ثلاثيًا معهما.

ولم يستمر ذلك طويلاً. حيث أعلن حزب تودة فيما بعد عن سحب تأييده لهذين الحزبين وتنصل عنهما، وذلك بعد أن رأت السياسة الروسية في إيران أن ينسحب الجيش الروسي من التراب الإيراني ويترك الحزبان الديمقراطيان في أذربيجان وكردستان ليواجها النظام بمفردهما.

وقد تم ذلك مباشرة وبعد زيارة قام بها لموسكو (توام السلطنة) رئيس الوزراء في ذلك الوقت واتفاقه مع الحكومة السوفيتية على منح امتياز نفط الشمال لها. حيث تبعه قنصل الاتحاد السوفيتي في دعمه ومساندته وحمايته للديمقراطيين الأذربيجانيين والأكراد.

نرى في هذه الحادثة – كيف استطاع الحزب تغيير سياسته من حليفية في

الائتلاف المعلن معها – ودخوله في حوار ومباحثات ودية مع حكومة قوام السلطنة بعد استلامه إيعازًا بذلك من الاتحاد السوفيتي.

أي أن قيادة حزب تودة – لم تكتف بدعمها وحمايتها للحكومة المعادية للشعب الإيراني، التي سببت الويلات والآلام له، بل إنها وافقت على الدخول في صفوف حكومة قوام السلطنة، حيث اشترك ثلاثة من الكادر القيادي للحزب في الحكومة المشكلة بمنصب وزير، والمسألة الثانية هنا هي تطورات قضية تأميم النفط خلال أعوام (١٩٥١ – ١٩٥٣م) التي كثر الحديث عنها ويعرف أغلب أبناء الشعب تفاصيلها وتفاصيل السياسة التي انتهجها الحزب الحديث عنها، ويعرف أغلب أبناء الشعب تفاصيلها وتفاصيل السياسة التي انتهجها الحزب في تلك الفترة حيث تميزت بأنها كانت تهدف إلى تضعيف التيارات الوطنية التي كانت تنادي بتأميم النفط وتثبيط عزائمها.

وفي الحقيقة فإن الحزب التزم في هذه الحادثة سياسة داعمة لصالح الاتحاد السوفيتي، بل والتبعية الكاملة للسياسة والنوايا السوفيتية في إيران.

ولم يقدم الحزب أي نوع من المساعدات أو المعونات باتجاه اتساع التحرك الوطني لأبناء الشعب الإيراني ودفعه إلى الأمام في الوقت الذي كان هدف الجميع وقتئذ تأميم النفط الإيراني وخلال ذلك، كان الحزب يعمل دومًا من أجل تدعيم أركانه التنظيمية، وجمع شتات أعضائه، وتشجيعهم على التسلل داخل المؤسسات الحكومية، ومن ضمنها الجيش حيث نجح في ذلك إلى حد كبير.

كان هذا في الوقت الذي كان فيه الحزب لا يتجرأ على اتخاذ أية خطوة سياسية أو القيام بأي عمل مستقل – دون استشارة الأسياد في الاتحاد السوفيتي، وصدور التعليمات بذلك من موسكو؛ وبالتالي العمل وفق ما تقتضيه السياسة الخارجية

للاتحاد السوفيتي، وتلبية للمصالح السوفيتية في إيران.

وإن وزر جميع تلك الحوادث، والأعمال الخيانية والتجسسية لصالح السوفييت تتحمله الكوادر القيادية للحزب بشكل مباشر.

وقد هرب الكثير من الكوادر الحزبية وأعضاء القيادة، إلى خارج إيران بعد الانقلاب العسكري الأمريكي، الذي نُفِذَّ في ١٩ أغسطس (آب) ١٩٥٣م والذي أعيد على أثره الشاه إلى الحكم حيث أقام أغلب هؤلاء في البلاد الاشتراكية وبالأخص الاتحاد السوفيتي، وكنت شخصيًا شاهدًا على أحداث هذه المراحل من تاريخ الحزب، ورأيت بأم عيني مدى تبعية الحزب للسياسة السوفيتية بشكل تام، وخضوعه لها، و كونه منفذًا لما كانت تقرره روسيا لإيران.

وكما أنني شاهدت عن كثب، المشاركة الفعالة لمندوب الحكومة السوفيتية أو مندوب الحزب الشيوعي السوفيتي أحيانًا، أو مندوبي المؤسسات السوفيتية الأخرى، وحضورهم في جميع مؤتمرات الحزب الدورية، وكانوا يتدخلون بشكل مباشر رسمي في أعمال هذه المؤسسات والتجمعات الحزبية.

وكنموذج لذلك أورد هنا حادثة وقعت في إحدى السنوات عندما ظهر انشقاق في صفوف الحزب تزعمه بعض أعضاء اللجنة المركزية وقد امتنع أعضاء اللجنة المركزية في حينها عن إخراج المتمردين من الحزب ولكنهم اضطروا إلى إعادة النظر في قرارهم السابق بعد تدخل مندوب الاتحاد السوفيتي في القضية وأصروا بالتالي على إصدار قرار يقضي بفصل المنشقين عن صفوف الحزب.

بينما نرى في أوائل الستينيات – حيث تميزت تلك الفترة بتحسن العلاقات الاقتصادية والتجارية وتوثيقها بين النظام الشاهنشاهي الخائن والحكومة السوفيتية – قيام الحكومة السوفيتية وبهدف توطيد وتوثيق تلك العلاقات – بإصدار قرار

بتجميد نشاطات الواجهات الحزبية لحزب تودة العاملة في الاتحاد السوفيتي تقريبًا، وفرض الحظر عليها، وتأسيس جمعية أطلق عليها (جمعية المهاجرين السياسيين).

في أعقاب ذلك – أي عام ١٩٧٦م كان الحزب يمتلك محطة للبث الإذاعي في بلغاريا باسم (بيك إيران) – الرسول أو الساعي- حيث أغلقت هذه المحطة بعد تحسن العلاقات بين بلغاريا ونظام الشاه المقبور وإزاء ذلك يعلن حزب تودة عن دعمه وتأييده للإجراءات التي قامت بها الحكومتين السوفيتية والبلغارية وباقي الحكومات الاشتراكية في هذا المجال.

أي أن درجة العمالة كانت إلى حد بحيث إن زعامة الحزب لم تكن تمتلك بشكل عام أية سياسة مستقلة تصب في مصالح الشعب الإيراني بل إن جميع تلك السياسات والإجراءات المتخذة كانت تدور في محور رعاية المصالح السوفيتية في إيران. كما تأكدت لدي أثناء مرحلة الهجرة، هذه المسألة تمامًا وهي: أن الحزب يسير بشكل عام في تلك التبعية الاقتصادية للاتحاد السوفيتي – أي أن جميع إمكانات ميزانية الحزب تؤمن من قبل الاتحاد السوفيتي.

وسببت تلك التبعية الاقتصادية التامة للاتحاد السوفيتي في زمن التزامات أكثر على الكوادر القيادية للحزب، وأوجبت عليهم الوفاء بتلك الالتزامات أمام الحكومة السوفيتية.

ومن ضمن تلك الالتزامات والتنازلات التي قدمها الحزب، هو السماح لعملاء المخابرات السوفيتية (K.G.B) بالنفوذ داخل صفوف الحزب واختراق تنظيماته الداخلية – بل وحتى التغلغل إلى اللجنة المركزية وتكليف تلك العناصر المتسللة بمهمة جمع المعلومات السرية والدقيقة جدًا؛ ومن ثمَّ إيصالها إلى المصادر الخيرية والأسياد في موسكو.

ولتوضيح ذلك أورد هذا المثال: كان لدينا أحد الأشخاص في بداية نشاط الحزب يدعى «خود كام بحسن» مكلف بتنفيذ تلك المهام التجسسية وهو من قادة الحزب البارزين ثم توضح فيما بعد أن «كيانوري» نفسه يقوم بنفس تلك الأعمال.

وكما أني كنت من الأشخاص المكلفين من قبل المخابرات السوفيتية (K.G.B) للحصول على الأخبار والمعلومات من داخل تنظيمات الحزب وبالأخص حول الإيرانيين وإيصالها إليهم.

وهنا نطرح مسألة سياسة الحزب، والأعمال الخيانية التي قام بها أثناء اندلاع الثورة وفي الفترة التي أعقبت الانتصار حيث جرت مباحثات طويلة قبل انتصار الثورة بثلاثة أو أربعة أعوام داخل أوساط الكوادر القيادية للحزب، وكانت المواقف تتوزع بين مؤيد ومُدِين لحركة علماء الدين ودورهم في إشعال الثورة.

واستمر ذلك حتى انعقاد المؤتمر السادس للحزب خارج القطر على أعتاب انتصار الثورة، حيث حدثت أثر ذلك تغييرات في زعامة الحزب، وكان من أهمها انتخاب (كيانوري) لمنصب السكرتير الأول للجنة المركزية لحزب تودة في إيران.

ومع انتصار الثورة تم ترتيب الأجواء المناسبة والإعداد لعودة بعض الكوادر القيادية وأعضاء اللجنة المركزية ولجنة التخطيط لكيفية العمل بين أوساط الشعب وكذلك بعض القادة الآخرين إلى الوطن.

وقد سبق ذلك تنفيذ بعض الإجراءات التمهيدية التي ساعدت في ذلك، سواء في الاتحاد السوفيتي أو في ألمانيا الديمقراطية أو في أماكن أخرى.

ومن ضمن تلك الإجراءات تأسس شركة تجارية في الاتحاد السوفيتي؛ ومن ثمَّ نقل مقرها إلى إيران وانتخاب ثلاثة أشخاص للقيام بهذه المهمة، كان اثنان منهم من أعضاء اللجنة المركزية للحزب والثالث من الكوادر القيادية المعروفة الذي كان

يسكن الاتحاد السوفيتي منذ ثلاثين عامًا، أي منذ عام ١٩٤٦م.

وقد عاد الجميع مع تلك الشركة إلى إيران، حيث ظهر فيها بعد أن هذه الشركة هي القناة السرية التي خُطِطَ لها لتكون أداة لكسب المعلومات والأخبار الهامة التي تأخذ طابع الجاسوسية وانتزاع تلك المعلومات من السكرتير الأول للحزب، ومن القيادة الحزبية بشكل عام وإيصالها إلى المسؤولين السوفييت.

وكذلك فقد ظهر فيما بعد، أن هذه الشركات كانت قد تأسست بعد اتفاق مبيت بين (كيانوري) والمؤسسات والأجهزة السوفيتية لتحقيق هدفين.

الأول – تمثل بتقديم المعونات بشكل مباشر إلى الحزب، أو عن طريق تزويده بالسلع المجانية وبأثمان زهيدة.

والهدف الثاني – الذي كنت من المشاركين في تحقيقه ويكتسب أهمية أكبر من الأول تمثَّل بتحقيق أهداف تجسسية بحتة وبصورة مباشرة – أي جمع الأخبار والمعلومات من داخل التنظيمات الحزبية وتسليمها عن طريق السكرتير الأول للحزب (كيانوري) إلى أعضاء هذه الشركة، الذين يوصلونها بدورهم إلى الأجهزة والمؤسسات السوفيتية أو إلى السفارة السوفيتية في طهران وقد اطلعت بنفسي على تلك الأمور عن طريق أحد أعضاء الشركة الذي كان يقيم في منزلي لفترة معينة.

وكان العمل يسير بهذه الصورة – حيث كان (كيانوري) يسلم لي الأخبار والتقارير المعينة، التي كنت أرفعها بدوري إلى ذلك الشخص الذي كان يسلمها إلى السفارة السوفيتية في طهران أو المؤسسات السوفيتية ذات العلاقة. وفي المقابل كانت التقارير الجوابية تأخذ نفس المسار السابق بعد أن ترسل من قبل المسئولين السوفييت.

وقد أطلقت على مضمون أحد تلك التقارير، الذي كان سريًا للغاية ويدخل في إطار التجسس المكلف به الحزب حيث احتوى ذلك التقرير على أخبار ومعلومات تخص

الحكومة الإيرانية – والأمور السرية للبلد والقضايا السياسية للجمهورية الإسلامية.

أمّا فيما يخص الأعمال التجسسية التي قمنا بها فيمكننا تقسيمها إلى ثلاثة محاور:

المحور الأول: انخراط أعضاء القيادة واللجنة المركزية للحزب في المنظمات التجسسية لبلدان الكتلة الشرقية والاتحاد السوفيتي.

المحور الثاني: تجميع الأخبار والمعلومات السرية من داخل الخلايا الحزبية وتصنيفها في شعبة الأخبار والمعلومات وإرسالها إلى اللجنة المركزية للحزب وإلى (كيانوري) على وجه الخصوص.

وبحكم عملي ومسؤوليتي في لجنة المتابعة والتفتيش، كنت أتردد باستمرار على التنظيمات الحزبية في المدن وأتابع شئونهم حيث إصرار المسؤولين على قضية جمع المعلومات– وكتابة التقارير عن الأوضاع السائدة في البلد، وكذلك إعطاء معلومات عن مصادر جمع الأخبار وتشجيع الأعضاء على إقامة العلاقات مع الموظفين العاملين في المؤسسة الثورية المختلفة أو تشجيعهم على التسلل داخل تلك المؤسسات، وكانت جميع تلك المعلومات والأخبار تبوب وتصنف وبعد ذلك ترسل إلى الجهات العليا للحزب واللجنة المركزية.

وهذا يعني أن الأخبار والمعلومات المهمة، كانت تجمع عن طريق العناصر المتغلغلة داخل المؤسسات والأجهزة الثورية والمتسترة تحت الأقنعة المختلفة. وبعد ذلك تبوب وتلخص تلك المعلومات، وترسل إلى المراكز أو إلى السكرتير الأول للحزب (كيانوري) بالخصوص حيث يقوم بدوره في إيصالها إلى السفارة السوفيتية في طهران.

وبشكل عام يمكننا القول بأنهم حولوا الحزب إلى شبكات واسعة لتجميع المعلومات والأخبار المهمة، حيث تضم تلك الشبكات مجموعة من الشباب الأبرياء، الذين انخرطوا في صفوف الحزب ووافقوا على التعاون معه – بعد تلقينهم

بأفكار كاذبة وخداعة؛ وبالتالي رسم صورة جيدة عن الحزب وأعماله وأهدافه في أذهانهم، وأخيرًا ضلوعهم في هذا التيار التجسسي المكلف بجمع المعلومات والأخبار المهمة لصالح دولة أجنبية وقد كانت بعض الأخبار ترسل إلى المسؤولين السوفييت عن طريق السفارة الأفغانية في طهران.

وقد قال لي في إحدى المرات نفس الشخص العامل في الشركة التجارية والذي كان يأخذ الأخبار مني ويوصلها بدوره إلى السفارة السوفيتية في طهران، بأن لديه ارتباطًا مع السفارة الأفغانية في طهران وكان قد قام بمهمة تبادل الأخبار والتقارير مع السفارة الأفغانية في طهران.

وأود أن أضيف هنا أن عمالة الحزب تبدأ من تبعيته للسياسة الأجنبية أو السوفيتية في إيران؛ وبالتالي فإني باعتباري كنت أشغل منصبًا قياديًا في الحزب كنت شاهدًا على كيفية تحول الحزب إلى تيار تجسس بحت. تيار تجسس يعمل لصالح الاتحاد السوفيتي. ويشترك جميع أعضاء قيادة الحزب واللجنة المركزية في ذلك العمل التجسسي.

أمَّا بالنسبة للمشاعر التي أحملها حول تلك الأعمال الخيانية فأول القول إننا في بداية العمل الحزبي – حيث كنا شبابًا وكنا نعمل تلبية لاندفاعنا – حيث كانت الأمور تطرح أمامنا بهذه الصورة – وهي أن جميع ما نقوم به يصب في رافد العمل من أجل الاشتراكية – أي من أجل تحقيق الهدف الذي كنا نصبو إليه – وكنا نقوم بذلك دون النظر إلى وسيل تحقيق ذلك تنفيذًا لمبدأ «الغاية تبرر الوسيلة».

لقد كانت الأمور بتلك الصورة في البداية ولكن تغير ذلك بعد أن كبرنا وبدأنا ندرك الأمور جيدًا وبدأنا نشعر أن ما نقوم به هو عين الخيانة ومصداق تام لها، ولكن التيار السياسي الجارف كان إلى حد بحيث إن الإنسان عندما يكون متسرعًا في الأمور وينجرف مع هذا التيار، فإنه سرعان ما يتجرد عن الإرادة ويعجز عن

اتخاذ القرار باستقلالية وبالتالي يصبح تابعًا وطيعًا للتيار الجارف وبلا وعي ويمشي كالأداة المسيرة التي جردت منها الإرادة ويبقى وضعه هكذا ما لم يتعرض إلى ضربة مفاجئة توقظه من الغفلة التي يغط فيها.

في الحقيقة أن هذا المعتقل كان بالنسبة لنا بمثابة الضربة التي أيقظتنا من سباتنا، حيث هيأ المعتقل لنا فرصة مراجعة النفس ومحاسبة الذات، فأجريت تحقيقًا دقيقًا وعميقًا، وبعيون مفتوحة وبكامل الوعي حول الأعوام التي انصرمت من عمري، والتي قضيتها داخل صفوف الحزب، ووصلت إلى هذه النتيجة المؤسفة والمؤلمة معًا. وأنبت نفسي على وصولها إلى هذا المصير، والمستنقع الآسن الذي نحن فيه اليوم والمليء برائحة الخيانة النتنة.

وفي نهاية حديثي أود أن أشير إلى قضيتين الأولى تخص السياسة التي نتهجها الحزب وقيادته وبالأخص «كيانوري» الذي كان يدعي زورًا وبهتانًا مساندته وحمايته لخط الأمام ودعمه للثورة الإسلامية، وكذلك الموقف الذي اتخذه من الثورة الإسلامية إلى المواقف المرائية والمنافقة للحزب بهذا الخصوص.

والقضية الثانية: هي قضية احتلال أفغانستان من قبل الجيش السوفيتي، وكذلك قضية الحرب التي شنها العراق على إيران وموقف الحزب من هاتين القضيتين.

لقد كان الحزب وقيادته وبالأخص «كيانوري» يعلن عن دعمه وحمايته للسياسة السوفيتية في هذا المجال، سواء في المقالات التي كان يكتبها أو في أحاديثه، ولم يكن يراعي إطلاقًا سياسة الجمهورية الإسلامية فيما يخص القضية الأفغانية – التي اعتبرها بحق سياسة سليمة وصائبة ومرتكزة على دعم الجمهورية الإسلامية لنضال الشعب المسلم في أفغانستان، وإدانة الاحتلال الأجنبي لهذا البلد – لقد نقض الحزب ذلك بشكل تام، وكان موقفه متطابقًا مع المواقف السوفيتية في هذا المجال.

والمسألة الأخرى متعلقة بالعراق، ومواقف حزب تودة فيما يخص الحرب المستعرة بين العراق وإيران وبالأخص في الفترة الأخيرة كان موقف الحزب متطابقا مع موقف الاتحاد السوفيتي، الذي التحق بدوره بالبلدان الغربية - التي اتخذت موقف الدعم والمساندة لنظام صدام - والتي لا يرون لها سقوط النظام وإحلال نظام مستقل بدلاً منه في العراق - وكان ذلك مع إعلان الحكومة السوفيتية عن دعمها وحمايتها للنظام الحاكم في العراق وإرسال الصواريخ المتطورة إلى العراق - وهذه المسائل ليست بخافية على أحد - فقد طرحت في الصحف العالمية بشكل علني.

ولكن الحزب لم يكتفَ بتجاهل هذا الأمر والامتناع عن الإشارة إليه - بل كان يعمل على تبرير ذلك بأي شكل من الأشكال - وكان (كيانوري) يشير إلى هذه الأمور بإجابته على الاستفهامات التي كانت تثار حول هذه القضايا - وكان يساند دومًا السياسة السوفيتية بهذا الشأن.

إنني بحكم منصبي الحزبي كعضو في اللجنة المركزية - أعتقد أنه ينبغي علينا جميعًا (أنا وباقي الكوادر القيادية السياسية) أن نعترف بكل صراحة أمام الشعب الإيراني - بأن جميع أعمالنا ونشاطاتنا السابقة في الحزب - كانت أعمالاً خيانية - ارتكبناها بحق هذا الشعب وهذا الوطن.

وكلمة أخيرة أود الإشارة إليها وهي أن باقي أعضاء اللجنة المركزية للحزب - كان لديهم مثل هذا الارتباط مع السوفييت وكانوا منجرفين في هذا التيار».

سنبدأ الآن في ضبط اليسار الأمريكي متلبسًا بالخيانة وإذا كانت الخيانة الاستراتيجية والتكتيكية كانت من نصيب اليسار الأمريكي.

حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي (حدتو) الذي يقبع في قيادته اليسار الأمريكي. حزب نشأ بقرار من السادات شخصيًا. وهذه أولى الأثافي وليست

آخرها بالطبع – والحزب نشأ أولاً كمنبر داخل إطار الاتحاد الاشتراكي، ونشأ فيها منبر لليمين ومنبر للوسط ومنبر لليسار، كان ذلك في ١٩٧٥م. وقبل الانتخابات البرلمانية في ١٩٧٦م تحولت المنابر إلى أحزاب حزب اليمين وحزب اليسار وحزب للوسط. إن فهمنا للظروف الموضوعية التي سادت مصر وقتها – وكذلك السياسات التي اتبعت فيها بعد ستلقي بالتأكيد ضوءًا على الدور المرسوم لهذا الحزب وكذلك يجيب على السؤال لماذا قام السادات بإنشاء منبر لليسار وحزب لليسار بعد ذلك. أي أن الحزب نشأ بقرار سلطوي وأي حزب سياسي لا ينشأ عن مواقف نضالية أو عبر انتفاضة شعبية أو كتعبير عن جنين شعبي لانتفاضة أو ثورة هو بالتأكيد حزب مشبوه أراد صانعوه من ورائه شيئًا.

ومصر في تلك الفترة كانت تتجه بمعدلات واسعة نحو الهيمنة الأمريكية وسياسة انفتاح اقتصادي مدمرة وتدمير كل صناعة وطنية والاستعداد لعقد صلح مع الكيان الصهيوني.

ما هو هذا الدور في هذا الإطار والظروف – المنوط بحزب التجمع. حسب تفسير أوساط حزب التجمع ذاته. فإن الحزب قد قام بقرار من السادات كنوع من تفتيت قوى اليسار من ناحية، ولتحقيق معرفة السادات لمدى قوة المعارضة في خطوة سياسية ما حتى يتسنى لهم اتخاذها «وأن السادات» والكلام السابق للأستاذ محمد سيد أحمد أحد قيادات حزب التجمع ومدير تحرير جريدة الأهالي «جاء ذلك في كتاب الأستاذ محمد سيد أحمد مستقبل الديمقراطية في مصر» والسؤال الآن – لماذا وافقتم وأنتم تعرفون هدف السادات هذا؟!

أمّا التفسير الأكثر واقعية فهو أن المخطط الأمريكي استهدف من قيام مثل هذا الحزب – تجميل وجه النظام والظهور بمظهر الديمقراطية وتقديم معارضة شكلية

للسياسات الخائنة للسادات، معارضة تجمل تلك السياسات وتدعمها على المستوى الشعبي – لأن المخطط الأمريكي يعرف أن اليسار في مصر بلا شعبية هذا من ناحية – ومن ناحية أخرى فإنه مرفوض وملفوظ في الشارع السياسي بمعنى أن معارضته لسياسة ما ربما يؤدي إلى ترويجها شعبيًا وليس العكس. إن هذا سيظهر عندما نناقش بعض تلك المواقف المشبوهة لهذا الحزب المشبوه.

إن جميع الفرقاء في مصر – يتفقون على أن أهداف القوى الوطنية في مصر هي التصدي للكيان الصهيوني – وهي تحقيق استقلال وطني حقيقي تجاه قوى الاستكبار العالمي – وتحقيق خط من التنمية مستقل وغير تابع، والوقوف بجانب الحركات الطلابية والعمالية لتحقيق مطالبها في حق العمل العلني والنقابي المستقل وكذلك حقوقهم الاقتصادية. بالإضافة إلى حقوق الكادحين في حق العمل والكسب ورفع الأجور وغيرها من المطالب العادلة.

وسوف نقدم مجرد نماذج على خيانات اليسار الأمريكي على كل واحدة من هذه القضايا التي تحظى بالإجماع الوطني. إنه من الطبيعي والحالة هذه أن يكون كل عدد من صحيفة الأهالي مفعمًا بكم هائل من الخيانات والاستفزازات – ومن الطبيعي أن على الباحثين الشرفاء أن يخضعوا هذه الصحيفة لدراسة علمية خدمة لقضايا الصراع الفكري في بلادنا – وعلى أي حال فنحن سنكتفي بمجرد نماذج ليس إلا.



الملحوظة الجديرة بالتسجيل هنا – هي لماذا تدفع الحكومة دعمًا ماديًا مستمرًا لحزب التجمع ولصحيفة الأهالي؟!



جون قرنق – الثائر التقدمي

لم تفتأ الأهالي عن الإشادة بجون – قرنق – أو جيش تحرير شعب السودان. ولمدة عامين متتالين ٨٤ – ١٩٨٥ – ١٩٨٦. أصبح قرنق في صحيفة الأهالي – فارسًا وشريفًا وداعيًا إلى تحرير السودان – وقائدًا لجيش التحرير – الذي سيحرر السودان: شماله وجنوبه.

سنناقش الآن – حركة قرنق – لنفهم إلى أي مدى وصلت خيانة صحيفة الأهالي:

من الحقائق المعروفة أن جارانج – هذا الطفل الذكي من قبائل الدنكا الذي تلقى تعليمه في مدارس التبشير – فالتقطته وبعثت به إلى الولايات المتحدة ليواصل تعليمه الجامعي – ويعود بحركة أنيانيا عام ١٩٧٠، وفي عام ١٩٧٤ سافر مرة أخرى على الولايات المتحدة في بعثة عسكرية لمدة عام ثم توجه مرة أخرى إلى أمريكا ليحصل على الدكتوراه ويعود في نهاية ١٩٨١ ليقود حركة التمرد.

– إن مطالب الحركة تتمثل في إلغاء قوانين الشريعة الإسلامية – وتقسيم الجنوب، وسندها في ذلك أن المسلمين إقليم الجنوب يمثل ١٨٪ من السكان والمسيحيون يمثلون ١٧٪ فقط – والباقي من أهل المعتقدات الأفريقية وهؤلاء لا تشغلهم مسألة الشريعة – ومعنى ذلك أنه إن صح أن قرنق – ربيب مدارس التبشير – يعبر عن مسيحيي الجنوب فهم لا يمثلون أكثر من ٤ ,٣٪ من مجموع السودان كله، ومن هذا يبدو التعنت ظاهرًا في مطلب جارانج بوجوب تنحية الشريعة الإسلامية من التطبيق في السودان كله شماله وجنوبه خاصة وأن الشريعة لم

تطبق على غير المسلمين كما أن شعب السودان قد عبر عن تمسكه بالنهج الإسلامي بدليل أن الانتخابات أسفرت عن فوز القوى الإسلامية الثلاث في السودان «حزب الأمة – الحزب الاتحادي – الجبهة الإسلامية» بأكثر من ٩٥٪ من المقاعد على حين فاز الحزب الشيوعي مثلاً بمقعد واحد يتيم ولم يكن هذا المقعد على أساس عقائدي بل عشوائي؛ أي أن جارانج يريد بإثارة المشكلة أن تتحكم أقلية الأقلية في السودان جميعه.

والمطلب الآخر للحركة : هو إلغاء الاتفاقيات العسكرية والسياسية المبرمة مع مصر وليبيا.

أي أن مطالب الحركة تتمثل في قطع صلات السودان العربية والإسلامية وفرض هوية غير إسلامية عليه.

إذا علمنا أن السودان – كيان حيوي – للثقافة الإسلامية والأمن العربي في أفريقيا – ويمثل الامتداد الحيوي لمصر – وبه منابع النيل شريان الحياة الرئيسي لمصر وخاصة في الجنوب الذي ينطلق منه جارانج – لأدركنا أهداف تلك الحركة الحقيقية – أو الأهداف التي يريد محركو جارانج تحقيقها.

إن الحركة – التي تدعمها الولايات المتحدة – وإسرائيل وأثيوبيا – تستهدف أولاً إضعاف السودان دائمًا وإغراقه في مشاكل لا حصر لها – والمشكلة أساسًا خلقها الاستعمار الانجليزي – والهدف واضح هو منع تطور اقتصادي سوداني بالنظر إلى إمكانات السودان الهائلة والقادرة على تحقيق اكتفاء عربي من السلع الغذائية – وثانيًا الحركة تهدف باستمرار إلى استنفاد طاقة السودان العسكرية حتى لا تكون دعمًا في العمل العسكري ضد الكيان الصهيوني، وثالثًا تهدف إلى الضغط على مصر عن طريق تهديد منابع النيل – وتهديد السودان عمومًا المرتبط أمنه بأمن

مصر. كل هذا لإضعاف مصر وإخضاعها للنفوذ الأمريكي - وتقليل قدرتها على مواجهة الكيان الصهيوني.

وقليلاً من الربط بين الحقائق السابقة - يعطينا السبب الحقيقي لذلك الحماس والتأييد الذي حظيت به الحركة من اليسار الأمريكي في مصر ومن صحيفة الأهالي؛ فالحركة تخدم مصالح أمريكا - وتخدم مصالح إسرائيل وهو ذات الهدف الذي جاء من أجله اليسار الأمريكي في مصر وإذا ادعى المتحذلقون من دعاة اليسار الأمريكي أن تأييد التجمع - وجريدة الأهالي لحركة التمرد في جنوب السودان كان لكونها حركة ماركسية فالواقع أنها ليست كذلك فلا قرنق ماركسي ولا الحركة تقدمية - أمَّا قرنق فهو قس أمريكي مرتبط بمجلس الكنائس العالمي - وأمَّا الحركة فهي مجموعة من المتمردين وليسوا ثوريين إطلاقًا، والدليل أنهم أسقطوا الطائرات المدنية - وارتكبوا المذابح في الآمنين من سكان الجنوب ومنعوا معونات الإغاثة عن الجائعين.

وبديهي بعد ذلك أن مَنْ يؤيد أو يدعم حركة مثل هذه فهو خائن لأمن مصر الاستراتيجي - وخائن لمصالح السودان ومصر - ومستقبل العرب والمسلمين - وهو في النهاية يساعد بعمله هذا مخطط الأمريكان والصهاينة ومجلس الكنائس العالمي!!



أفغانستان

قامت صحيفة الأهالي – لسان حال اليسار الأمريكي – بحملة ضخمة جدًا حول أفغانستان – استغرقت عشرات الصفحات من الصحيفة المذكورة – وذلك عقب رحلة قام بها رئيس تحرير الأهالي الأستاذ حسين عبد الرازق ومعه كل من السيدة أمينة النقاش أخت زوجته – وكذلك صحفي آخر «خليل عبد الكريم».

وجاء الوفد الصحفي – ليبشرنا أنه جاء بالحقائق. فحكومة كارميل من وجهة نظره حكومة وطنية – والثوار ما هم إلا حفنة من المتمردين – وجيش الاحتلال الروسي (١٥٠ ألف جندي) ونحن هنا لسنا بصدد الدفاع عن الثوار الأفغان – أو كشف التزوير والكذب في حملة الأهالي، فقط سنظهر الهدف الخفي وراء الحملة.

فإذا كان تدخل جيش احتلال أجنبي مكون من ١٥٠ ألف جندي لدعم حكومة ليست عميلة فحسب ولكنها دمية – في مواجهة حركة ثورية فاعلة بالتأكيد بدليل استمرارها وتصاعدها منذ عام ١٩٧٩ وحتى الآن – إذا كان ذلك ليس غزوًا أجنبيًا – وإن ذلك يبرره الدفاع عن المكاسب الثورية أو غيرها من المصطلحات التي تستخدم للتبرير. فما هو هدف الأهالي من ذلك؟

إن هدف جريدة الأهالي – واليسار الأمريكي في المنطقة– من زرع هذه المقولة الخائنة في نفوس الجماهير هو تبرير أي غزو أجنبي آخر أو التمهيد له – إن تلك المقولة بالطبع تسقط التراث النضالي لأي حركة ثورية – وتقدم المبرر لتدخل أمريكي هنا أو هناك – وبالطبع فإن المبررات الأمريكية أو الإسرائيلية ستكون مثلاً مطاردة الإرهاب أو الدفاع عن حقوق الأقليات أو غيرها من

المصطلحات ذاتها وإذا كان الهدف الأول هو ضرب إحدى المكتسبات الثورية التي انتزعتها الشعوب بالعرق والدم وهي عدم حق أي قوة خارجية في التدخل في شئون الدول الأخرى - فإن الهدف الثاني هو التمهيد والتبرير للضربة الأمريكية لليبيا والتي تزامنت والحملة الصحفية للأهالي مع فترة الإعداد لها. وهكذا فإن اليسار الأمريكي في مصر أراد أن يقلل ويخفف من ردود الفعل المرتقبة في الشارع المصري وذلك بإلغاء الشك حول حق الدول الكبرى في التدخل في شؤون الدول الصغرى - فبديهي أنه إذا كان من حق الاتحاد السوفيتي أن يرسل جيش احتلال مكون من ١٥٠ ألف جندي لحماية نظام كارميل ضد الثوار المسلمين بدعوى الدفاع عن الحكومات الثورية فمن حق الولايات أن تهاجم ليبيا لمطاردة الإرهاب. وشعوبنا تعرف أن كل حجج الاستكبار الروسي الأمريكي واهية، وأن التدخل في شؤون الدول الصغرى تحت أي حجة عمل عدواني ومدان شكلاً وموضوعًا - وبالتالي فحملة الأهالي تلك حملة خائنة.



حكاية الإنفاق العسكري

حينما تقدمت الحكومة المصرية بميزانيتها العسكرية لعام ١٩٨٥ – ١٩٨٦ طالبت صحيفة الأهالي – بتقليل الإنفاق العسكري؛ بدعوى أن ذلك سيخفف العبء على الطبقات الكادحة. وإذا وضعنا عددًا من الحقائق في اعتبارنا لأدركنا حجم الخيانة المترتبة على هذا المطلب.

– إن مطلب تخفيض حجم الإنفاق العسكري مطلب أمريكي وإسرائيلي – وهو أحد مطالب صندوق النقد الدولي– فما الذي جعل صحيفة الأهالي تتفق مع هؤلاء في مطلب كهذا.

– إن الخبرة التاريخية لشعبنا – تدرك أن هذا المطلب – مطلب استعماري قديم ولعل الزعيم المسلم أحمد عرابي كان مدركًا لهذا حينما طالب في انتفاضته في ٩ سبتمبر ١٨٨١ بزيادة عدد الجيش المصري.

– إن أحدًا لا ينكر حجم المصاعب التي تواجه مصر من الظروف المالية والاقتصادية الحالية – وإن الحوار حول الإنفاق العسكري أمر طبيعي ولكن الحذر هنا يأتي من أن يتحول ذلك إلى فهم في الرأي العام بدلاً من أن يكون سندًا مستمرًا للأمن والدفاع والاستقرار.

– إن تخفيض الإنفاق العسكري لا يحقق بالضرورة مكسبًا في قطاعات مدنية أخرى.

– إن مصر هي أهم دول المواجهة – بشريًا وعسكريًا وسياسيًا – وإن حجم التحديات التي تأتيها من الكيان الصهيوني كبيرة جدًا – حتى رغم أنف كامب

ديفيد – وبالتالي فإن المحافظة على قوات مسلحة قوية وجاهزة هو أمر حيوي لمصر وللعالم العربي والإسلامي.

- إننا ننحاز بالقطع إلى زيادة الإنفاق العسكري – وإن الأزمة الاقتصادية ليست مبررًا لتخفيضه – ومع هذا نؤكد ضرورة تطوير نظرية أمن تعتمد على حقيقة مشاكلنا، وتعتمد على قدراتنا الذاتية في تصنيع السلاح واستخدامه، وتعتمد على إبراز الدور الإنساني أي أن تعتمد أكثر على الإنسان بما يحمله من خامات هائلة – وأهم من هذا وذاك الاستناد في توجهنا المعنوي إلى تراثنا «الأيديولوجية الإسلامية» باعتبار أن ذلك هو تميزنا الأهم ومدخلنا الأخطر للتفوق والانتصار.

والأول – أليس من الخيانة أن يطالب اليسار الأمريكي بتخفيض الإنفاق العكسري – وأن يتفق في هذا المطلب مع الكيان الصهيوني مع العلم أن إسرائيل تنفق أكثر من ثلث ميزانيتها على النواحي العسكرية؟



كامب ديفيد

لا شك أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية لأمتنا الإسلامية – ولا شك أنها أهم تحدٍ تواجهه أمتنا الآن – ولا شك أيضًا أن فهم معادلات الصراع مع الصهيونية مدخل هام لفهم كثير من السياسات والمواقف في المنطقة حاليًا ومستقبلاً.

وأمتنا – صاحبة المصلحة في التصدي للكيان الصهيوني– وبما أنها مستهدفة كأمة وكحضارة وكتواجد سياسي واقتصادي واجتماعي – تصدت منذ الوهلة الأولى للخطر الصهيوني واختارت عن وعي وقناعة – طريقًا وحيدًا لا بديل له وهو «الكفاح المسلح – الأيديولوجية الإسلامية – حرب التحرير الشعبية – رفض كافة أشكال التصالح والتفاوض مع الكيان الصهيوني» واستهدفت أمتنا دائمًا انتزاع حقها في الكفاح المسلح رغم أنف الأنظمة المستبدة – والأحزاب المغتربة التي حاولت تحويل مسار أمتنا إلى طرق جانبية وهامية كما أن أمتنا خاضت صراعًا مريرًا ضد الأطروحات الانتهازية اليمينية واليسارية التي كانت تحاول وما زالت تحاول أن تلقي بظلال من الشك حول جدوى التصدي الجذري واللاتفاوض لأمتنا.

ولقد دفعت الأمة – وعبر مرحلة طويلة من الكفاح – العديد من قوافل الشهداء وقدمت أنماطًا من الكفاح الفذ برغم الحصار الحكومي والعلماني. فمنذ الوهلة الأولى تصدى الفلاحون الفقراء بالسلاح لموجات الهجرة الصهيونية وتوالت بعد ذلك الانتفاضات الشعبية – حائط البراق – ثورة ١٩٢٩ – ثورة ١٩٣٦ – كفاح عز الدين القسام ١٩٣٥ – كفاح القساميين ١٩٣٦ – ١٩٤٠ العديد من العمليات الفدائية في الثلاثينيات والأربعينيات – حرب ١٩٤٨

ومشاركة القوى الإسلامية فيها – حافظ سلامة – معركة السويس ١٩٧٣ – بلال حفص – راغب حرب ١٩٨٢ وما بعدها.

وعلى الجانب الآخر استهدف الكيان الصهيوني مجموعة من الأهداف هي:

- تدمير أي توجه شعبي نحو الكفاح المسلح.

- جعل إسرائيل أمرًا واقعًا، ومحاولة جعل المسلمين يتقبلونها وذلك عن طريق عملية زرع اليأس في قلوب الجماهير، وعملية تغريب حضاري للجماهير لإسقاط أيديولوجيتها من الاعتبار.

- التفاهم – والتصالح مع الأنظمة العربية.

ولا شك أن القوى العلمانية تلعب دورًا هامًا في عملية التغريب الحضاري.

وبالتالي فقد خدمت بوعي أو بدون وعي المخطط الصهيوني كما أنها طرحت التفاوض كأسلوب بديل للكفاح المسلح فماذا كان دور اليسار في ذلك؟

وفي الواقع – فإن اليسار العربي – كان أكثر القوى العلمانية خيانة في هذا الإطار – بل إن مفكرين شرفاء ومرموقين مثل الأستاذ طارق البشري يرى أن اليسار زُرِعَ زرعًا في العالم العربي خدمة للتوجه الصهيوني ومن الحقائق التي لا ينكرها أحد بما فيهم اليساريون أنفسهم أن اليسار العربي وقف دائمًا مع حق إسرائيل في الوجود – ووقف دائمًا مع التصالح مع الكيان الصهيوني ولم يقف يومًا مع الطرح الذي اختارته الأمة لإدارة الصراع وإذا كان اليسار العربي – قد قاتل إلى جانب الصهاينة أحيانًا – وأدان كفاح الجماهير ضد الكيان الصهيوني دائمًا. فإننا نرى أن هذا السبب كان هو الأهم في كون اليسار العربي وُلِدَ ميتًا وتدشن دفنه عندما أعلن الاعتراف بالكيان الصهيوني عام ١٩٤٨م.

واليسار المصري – الذي نشأ على يد اليهود أصلاً – جوزيف روزنتال – هليل

شوارتز – هنري كورييل – مارسيل إسرائيل كان مثالاً واضحًا على الخيانة الاستراتيجية والتكتيكية لأمتنا في هذه القضية والمقدمة السابقة هامة لكي نفهم موقف اليسار الأمريكي «حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي» من كامب ديفيد. عارض الإسلاميون بالطبع كامب ديفيد – وعارضتها الجماهير المسلمة وكانت المعارضة هنا استراتيجية بمعنى أنها معارضة ليست لكامب ديفيد وحدها – ولا لسياسات السادات وحدها – ولكن معارضة لكل تفاوض أو صلح أو اعتراف بإسرائيل أو حتى تعبير خط الصراع معها.

وعارض قطاع من العلمانيين كامب ديفيد – ولكن لأسباب تكتيكية. منها مثلاً أنهم يرونها صلحًا منفردًا – أو أن كامب ديفيد تستبعد قوى ودولاً هم يؤيدونها، أو لخصومة شخصية مع السادات أو غيرها.

وقد عارض حزب التجمع «اليسار الأمريكي» اتفاقية كامب ديفيد لأسباب تكتيكية أيضًا، وموقفه المعلن من القضية الفلسطينية حاليًا كالتالي: «نحن بكل تأكيد نصر على أن تجري تسوية النزاع في إطار مؤتمر دولي بحضور كافة الأطراف المعنية – وتشمل هذه الأطراف منظمة التحرير الفلسطينية والاتحاد السوفيتي» من مقال محمد سيد أحمد مدير تحرير الأهالي – العدد ١٣/ ١١/ ٨٥ وكذلك نرى نفس الموقف في افتتاحيات الأهالي – وفي برنامج الحزب ذاته وفي تصريحات قيادته – وهذا الموقف يترجم إيمان اليسار الأمريكي بحق إسرائيل في الوجود – واعترافه بها كدولة – وإيمانه بمنهج السلام ولكن في إطار شامل يضم منظمة التحرير والاتحاد السوفيتي.

البعض فسر هذا الموقف – المؤيد للسلام ولكن ليس في إطار كامب ديفيد – على أنه جاء لإشراك السوفييت في اللعبة – أو لأسباب عرفاتية بمعنى أن عرفات يدفع

للأهالي ويدللون عن ذلك بأن التجمع أيد الاتفاق الأردني الفلسطيني – كما أيد إعلان القاهرة – وهما لا يختلفان في الجوهر عن كامب ديفيد. ومن ناحيتنا فإننا نرى هذه التفسيرات تبسيطية أكثر مما ينبغي، ومعرفتنا لبعض قواعد لعبة الصراع الفكري – فالولايات المتحدة رأس الحربة الاستعمارية حاليًا حققت عن طريق معارضة اليسار الأمريكي لكامب ديفيد عددًا من الأهداف .

أولها : أنها تضمن أن تكون المعارضة غير جذرية خدمة لمصالح إسرائيل – وبديهي إن مَنْ يعارض كامب ديفيد ويقف مع السلام في مؤتمر دولي هو في النهاية يخدم أهداف إسرائيل.

وثانيًا : ضمنت تشويه سمعة المعارضين – فالجماهير بحسها التاريخي – ترتاب في مواقف اليسار – دائمًا – وبالتالي فمعارضة اليسار لكامب ديفيد سيروجها وليس العكس .

وثالثًا : فإن كون اليسار الأمريكي من المعارضين لكامب ديفيد ستضمن لليسار بعض الشعبية يستطيع من خلالها ممارسة مهمته التغريبية على الجماهير.



سليمان خاطر

حظيت قضية سليمان خاطر بتعاطف شعبي منقطع النظير، وأثارت القضية جموع الجماهير التي راحت تتظاهر تضامنًا مع سليمان خاطر.. وتطورت الحركة إلى رفض شعبي شامل للتصالح مع الكيان الصهيوني.. والمطالبة بحرب تحرير شعبية إسلامية طويلة المدى ضد الكيان الصهيوني ومجمل المصالح الأمريكية في المنطقة.. وكانت الحركة من الاتساع والعمق ووضوح الشعارات بحيث إنها حققت أهم وأكبر التفاف شعبي حولها منذ عشرات السنين.

ولا شك أن الصحافة المعارضة - كان لابد أن تلعب دورًا في تأييد الحركة ودعمها فهذا واجب أخلاقي أولاً - كما أن الحركة كان يمكن لها أن تتطور إلى حركة كاملة باتجاه إلغاء كامب ديفيد وانتزاع مزيد من الحريات على الصعيد الطلابي والنيابي والنقابي.

وسوف نفهم الدور الشيوعي لليسار الأمريكي في مصر - إذا ما قارنا بين تغطية جريدة الشعب الناطقة بلسان حزب العمل - وبين تغطية جريدة الأهالي «لسان حال اليسار الأمريكي» - فإذا ما علمنا مثلاً حماس الأولى - وقلة حماس الثانية لعلمنا على الفور تلك الخطة المفصلية التي تظهر فيها حقيقة اليسار الأمريكي - فإذا أضفنا إلى ذلك حماس قيادة حزب العمل لسليمان خاطر - وعدم حماس قيادة حزب التجمع له لزاد ذلك في الأمر وضوحًا. فمثلا المهندس إبراهيم شكري يذهب إلى «أكياد» مسقط رأس سليمان - وكذلك في ذكرى الأربعين يحدث الشيء ذاته - كما ينظم حزب العمل مثلاً عددًا من المؤتمرات السياسية تضامنًا مع سليمان خاطر - في حين لا يحدث شيء من هذا في حزب التجمع.

إن حزب التجمع مثلاً – يمكن أن يقوم بعمل مؤتمر سياسي في الذكرى الأولى أو الثانية أو غيرها لاستشهاد سليمان خاطر – ولكن لماذا يتخلف في لحظات الذروة – هنا «مربط الفرس». هنا التفسير الحقيقي للدور المشبوه لليسار الأمريكي – فإذا ما كانت الأجواء هادئة فلا مانع من مجاراة الوجدان الشعبي – أمَّا إذا كان هناك تحركًا شعبيًا حقيقيًا يهدد المصالح الأمريكية – فالدور الحقيقي لليسار الأمريكي – يظهر – إمَّا بطريقة تهدئة الأوضاع – وإمَّا بتقديم التحليلات التخديرية – وإمَّا بإرهاب الجماهير وتخويفها – أو بإلقاء ظلال من الشك حول القضية التي حظيت بالإجماع الشعبي.

لقد قام اليسار الأمريكي بكل هذا في قضية سليمان خاطر فمن ناحية – تعامل خالد محيي الدين رئيس حزب التجمع مع الموضوع بصورة أقل مما هو مفروض – ومن ناحية ثانية قام الدكتور رفعت السعيد أحد أركان حزب التجمع بالتصريح لصحيفة عكاظ السعودية بأنه مقتنع بانتحار سليمان خاطر!! على عكس الوجدان الشعبي تمامًا – وعلى عكس الحقائق المجردة أيضًا.

أمَّا صحيفة الأهالي – فمنذ كانت شبه خالية من التغطية الخبرية أو التحليلات السياسية في عددها الصادر ٨ يناير ١٩٨٦. وذلك في وقت الذروة حيث كان المد الجماهيري في أوجه – واكتفت بنشر البيان الرسمي عن مقتل سليمان خاطر داخل السجن. بل الأخطر من هذا أن المانشيت الرئيسي للصحيفة «الأهالي» كان يتحدث عن أن وزارة الداخلية تجهز لضربة واسعة لقيادات المتظاهرين ويمكننا أن نفهم الهدف من هذا المانشيت الرئيسي إذا فهمنا أن هناك مدًا شعبيًا عارمًا – وأن هناك مظاهرات مستمرة – وأن سليمان خاطر استشهد في سجنه والمحصلة أن هناك احتمالاً قائمًا بظهور حركة شعبية فاعلة – ولنا أن نتخيل شخصًا ما يأتي في وسط

مظاهرة يقول البوليس سيعتقلكم – بالتأكيد سيؤدي هذا لشيء من البلبلة وردود الأفعال التي ستؤثر حتمًا على تلك المظاهرة باتجاه سلبي. إن ظروف العمل الشعبي وقتها وظروف الوضع السياسي ومقتل سليمان داخل زنزانته – وتوقيت ظهور المانشيت بهذا الشكل «ظهر المانشيت يوم ٦/ ١/ ١٩٨٦ وكان سليمان قد قتل يوم ٤/ ١/ ١٩٨٦» يعطينا دلالة واضحة على أن هذا المانشيت كان محاولة إجهاضية خائنة من قبل صحيفة الأهالي.

حسنًا – وفي الأسبوع التالي مباشرة – اعتذرت صحيفة الأهالي عن تغطية أحداث «أكياد» بقولها إن مراسلها في أكياد «ثروت شلبي» ما زال محاصرًا وغير قادر على الخروج من البلدة – والسؤال الآن – وكيف خرج الصحفيون الآخرون؟! نعم إن البلد محاصرة – ولكن للصحفيين وسائلهم.

كما ظهر تحليل سياسي كتبه مدير تحرير الجريدة «صلاح عيسى» جاء فيه أن سليمان خاطر مصاب بشطحات صوفية وعدم اتزان عقلي. أليس هذا تشكيكًا ومحاولة للقول بأن احتمال انتحار سليمان أمر وارد، والهدف واضح وهو إجهاض المد الشعبي وتقليل الحماس الجماهيري مع سليمان خاطر وقضيته.

كان هذا في ذروة المد الجماهيري – وإذا ما هدأ المد الجماهيري وتقلص خطر ذلك المد على المصالح الأمريكية– فلا مانع بعدها لليسار الأمريكي من أن يتبنى القضية ولكن بعد موتها.



الحركة الطلابية

لا شك أن الحركة الطلابية – هي إحدى أهم قلاع العمل الشعبي في مصر، ولا شك أن تاريخ الحركة الطلابية تاريخ مشرف – ولا شك أيضًا أن الحركة الطلابية كانت دائما في قلب الحركة الشعبية إن لم تكن طليعتها وبالطبع فليس هنا مجال الحديث عن تاريخ الحركة الطلابية – إننا فقط سنقدم نموذجًا لخيانات اليسار الأمريكي في مصر في مسالة الحركة الطلابية. والوقائع كثيرة – ولكننا سنقدم نموذجًا واحدًا منها – أشارت إليه أكثر من جهة منها صحف الخليج – ويعترف بها الماركسيون – كما أن الناصريين كانوا شهودها.

في عام ١٩٨٤ – اتخذت الحركة الطلابية موقفًا رائعًا – يمكن اعتباره بحق بداية الحركة الطلابية الثالثة من أجل جامعة مستقلة – ومن أجل عمل طلابي حر بعيدًا عن وصاية اللوائح المشبوهة التي فعَّلها نظام السادات – كانت الحركة الطلابية في المنصورة من أهم فصائل العمل الطلابي في مجمل الحركة الطلابية المصرية.

في نهاية ديسمبر ١٩٨٤ قام طلاب جامعة المنصورة بإضراب شامل من أجل تغيير اللائحة ورفع الوصايا وغيرها من المطالب الطلابية، وانتشر المد الطلابي إلى جامعة القاهرة والإسكندرية المهم أن الحركة في المنصورة كانت تتسم بالشكل الجبهوي فقد كان فيها الإسلاميون – الناصريون – الماركسيون. وبينما كانت الحركة تتصاعد والإضراب يزداد نجاحًا. فوجئ الطلاب بموقف الماركسيين الغريب – وهو الدعوة إلى فض مفاجئ للإضراب – ورغم أن الطلاب قد رفضوا تلك الدعوة المشبوهة. كما رفضها الإسلاميون والناصريون – بل إن الناصريين اتهموا الماركسية بالخيانة، وقام الصحفي محمد بدر بفضح ذلك الموقف المشبوه في صحيفة

«الخليج» التي تصدر في دولة الإمارات ولكن لماذا كان ذلك الموقف؟! إن تسجيل وقائع القصة سوف يضع النقط على الحروف – اتصل وزير الداخلية وقتها اللواء «حسن أبو باشا» بالسيد خالد محيي الدين رئيس حزب التجمع – ووعد السيد خالد محيي الدين وزير الداخلية بأن يصدر تعليمات للطلاب التابعين للتجمع داخل الحركة في المنصورة وذلك في مقابل ألا تتدخل الحكومة في الانتخابات التكميلية في الإسكندرية بين أبو العز الحريري مرشح التجمع وآخر يمثل الحزب الوطني «حزب الحكومة» – وعقب هذا الاتصال الهاتفي – فوجئ الطلاب بجريدة الأهالي تعلن عن انتهاء الإضراب بجامعة المنصورة رغم أن الإضراب كان قائمًا وفي أقوى مراحله. وتبعها الطلاب الماركسيون الذين دعوا إلى إنهاء الإضراب.

والخيانة هنا واضحة – فالمفروض أن جريدة الأهالي – جريدة معارضة – وبصرف النظر عن الموقف المشين الذي اتخذه رئيس حزب التجمع حيث باع الحركة الطلابية في مقابل نجاح أحد مرشحي التجمع في الانتخابات – فإن الصحيفة بنشرها الخبر الكاذب قد ضربت الحركة الطلابية في المنصورة في مقتل؛ لأنه من المفروض بحكم كونها جريدة معارضة فسوف يصدقها الطلابية العاديون وبالتالي فالهدف كان فض جماهير الطلاب عن قياداتهم الإسلامية أو الناصرية التي استمرت في الإضراب.

وبداية فإن موقف خالد محيي الدين كان مشينًا – وكذلك استجابة الطلاب الماركسيين لنصائح رئيس التجمع كان أيضًا مشينًا – ولكن كل هذا ضئيل بالمقارنة إلى دعوة هؤلاء الماركسيين من الطلاب إلى إنهاء إضراب وإلى ذلك الخبر الكاذب الذي نشرته الأهالي. كان من المفروض ألا يتاجر خالد محيي الدين بالنضال الطلابي ولا يبيع تضحيات الطلاب من أجل فوز مرشح الحزب في الإسكندرية – وكان من

المفروض ألا يستجيب الطلاب الماركسيون لنصائح خالد محيي الدين وأن يكونوا رجالاً ويقفوا مع الحركة حتى نهايتها – ولكن الخيانة المركبة كانت هنا أن هؤلاء لم يستجيبوا فقط لخالد محيي الدين ولكن ضربوا الحركة في ظهرها بدعوتهم إلى إنهاء الإضراب – كان عليهم على الأقل أن ينسحبوا ويتركوا الحركة وشأنها.

وللأمانة فإن الدكتور رفعت السعيد أمين عام الحزب قد رفض هذا الموقف. كما أنه من الجدير بالذكر أن جريدة الأهالي لم تنفِ أي شيء متعلق بهذا الموضوع حينما تحدثت عنه الأوساط الصحفية والطلابية.



انتفاضة عمالية ناجحة

سنقدم الآن نموذجًا آخر – من نماذج التصرفات المشبوهة لليسار الأمريكي. والقضية هنا أن عمال شركة المحلات الصناعية للحرير والقطن «إسكو» قد خاضوا معركة ناجحة بكل المقاييس استطاعوا خلالها أن يحصلوا على حقوقهم في صرف أجرهم عن الراحة الأسبوعية كما ينص القانون، وطبيعي أن العمال لجؤوا في ذلك إلى المحاكم والرأي العام، وإلى الامتناع عن صرف مرتباتهم، وإلى الاعتصام داخل المصانع، وأخيرًا إلى الإضراب.

والآن لنرَ كيف تصرفت جريدة الأهالي تجاه ذلك العمل النقابي والعمالي الناجح بكل المقاييس؟

سنستدعي أحد العمال للشهادة – والشهادة منشورة في مجلة «الحقيقة» غير الدورية – العدد ٨ – ورقم إيداعها في دار الكتب ٦٠٩٧/ ١٩٨٠ عدد إبريل ١٩٨٦ ص٤٦. تحت عنوان خبرة كفاح عمال إسكو – والعامل صاحب الشهادة هو محمد المنشاوي – الذي يقول: «بعد أن حصل العمال على الحكم المبدئي راحت جريدة الأهالي تضخم في الموضوع وتنشر عن المبالغ الضخمة التي ستتحملها الدولة من جراء تنفيذ الحكم كما لو كانت تحرض على عدم تنفيذه، وأن هذا الحكم لو طُبِّق على عمال «إسكو» فسيطبق على كل عمال القطاع العام الأمر الذي صعب من مهمة المفاوض باسم عمال «اسكو»، ومن ناحية ثانية ادعت جريدة الأهالي أن خالد محيي الدين تدخل فاستجابت الحكومة ومعنى هذا إنكار لدور العمال النضالي – كما أن صحيفة الأهالي قامت بعمل تحقيقات صحفية مع عدد من أعضاء اللجنة النقابية ونشرت صورهم مع أن هؤلاء الأعضاء بالذات كان العمال قد منعوهم من

دخول مصانعهم أثناء الإضراب».

ووفقًا لمخطط اليسار الأمريكي – فإن صحيفة الأهالي لم تكن تريد للعمال أن يكسبوا معركتهم – لأن هذا يعطي العمال ثقة في أنفسهم ويحقق أثرًا إيجابيًا على مسيرة النضال العمالي – وهذا هو سر التحريض الخفي للجريدة للحكومة على عدم الاستجابة لمطالب العمال.

أمَّا إذا كسب العمال المعركة – فلابد من سحب رصيد الثقة – وليكن ذلك بطريقة أن العمال لم يكسبوا هم المعركة – ولكن كسبها خالد محيي الدين – والهدف واضح جدًّا – وهو أن على العمال ألا يتعبوا أنفسهم ويخوضوا معاركهم – فإن خالد محيي الدين يخوضها بدلاً منهم – وهذا الأمر هو إحدى السمات الثابتة لتصرفات اليسار الأمريكي – وهو أن يأخذوا من المواقف ما يسحب رصيد الثقة من المناضلين، وأن يدعوا إلى ثورية زائفة تسمح لهم بالحصول على توكيل من الجماهير يضمن به اليسار الأمريكي ألا تتجاوز تلك الجماهير الخط الأحمر في ضرب مصالح الاستعمار أو الاضطلاع بمهام المعارك التي تعنيهم.



الإعلانات

إذا ما تتبعنا الإعلانات في جريدة الأهالي – نكتشف عجبًا؛ سنكتشف حقيقة هذه الجريدة – وحقيقة توجهاتها – وأي فئة من الناس تخدم ولصالح مَنْ تعمل.

ومن البديهيات المعروفة في الأوساط الصحفية أن الإعلان إمَّا يعبر عن حاجة إعلانية حقيقية. وإمَّا أنه عملية دعم للجريدة من المعلنين باعتبار أن المعلن مقتنع بخط الجريدة الشخصي – أو كشركة وفي حالة «كشركة» فإن الصحيفة تكون مدافعة عن مصالح هذه الشركة أو القوى التي تمثلها. ومن ناحية ثانية فإن الأخلاق الصحفية تقتضي أن تكون الشركة أو السلعة المعلن عنها لا تمثل خطرًا على مبادئ تلك الصحيفة من قريب أو بعيد.

وفي حالة الحاجة الحقيقية للمعلنين – فإن المعلن يبحث عن وسيلة واسعة الانتشار وعادة ما يكون التلفزيون أو صحيفة يومية كبيرة هي طريق إلى ذلك. ونحن لا نضيف جديدًا إذا قلنا إن صحيفة الأهالي – لا تتحقق فيها هذه الشروط.

إن عينة عشوائية من صحيفة الأهالي – تعطينا عددًا من النماذج الإعلانية التالية.

- إعلانات لوزارات وهيئات حكومية – أحيانًا على صفحة كاملة «الصفحة الأخيرة عادة» وزارة الزراعة مثلاً – وزارة الصناعة. البنوك إلخ. وبديهي أن تلك الوزارات وزارات حزبية ومن الطبيعي أن تعلن إمَّا في التليفزيون أو في الصحف القومية – أو حتى في صحف الحزب الوطني – فلماذا ظهرت تلك الإعلانات في الأهالي– هل هو دعم حكومي؟! ولماذا – خاصة أن وزارة الزراعة مثلاً يقف على رأسها أمين عام الحزب الوطني «الدكتور يوسف والي»! وإن لم يكن دعم حكومي

فهل هو رشوة؟!!

- إعلانات كثيفة متكررة لشركات «عثمان أحمد عثمان : مثل شركة شويبس – شركة الشرق الأوسط لاستصلاح الأراضي – شركة قناة السويس للتأمين – بنك المهندس. وكل هذه شركات عثمانية نسبة إلى عثمان أحمد عثمان» فهل هي رشوة عثمانية أم يا ترى اقتناع بالدور الوطني لشركات عثمان الانفتاحية – أم أن الشويبس على يسار البيبسي.

- إعلانات لبعض شركات يقوم على أمرها عناصر تنتمي إلى التيار الإسلامي مثل شركة الشريف للبلاستيك – مجموعة شركات الهلال – شركة الريان!!

- شركات انفتاحية – سعودية وكويتية وأمريكية وغيرها مثل مجموعة الشركات المصرية السعودية للاستثمار والتنمية – البنك العربي الأفريقي الدولية – بنك الإسكندرية الكويت الدولي – شركات عبد الرحيم البيضاني (بتاع المجاري).

والسؤال – هل «الأهالي مقتنعة بالدور الوطني للشركات الانفتاحية أم أن الشركات الانفتاحية مقتنعة بدور ما «للأهالي»؟!!



التغريب الثقافي

التغريب الثقافي أو التخريب الثقافي.. وعن التغريب فحدث ولا حرج - فالواقع أنه ما من نقيصة تغريبية إلا وارتكبتها «الأهالي»، وما من قيمة وطنية إلا وحاولت «الأهالي» هدمها، ومن نافلة القول أن الثقافة الشعبية «إسلامية» لحمًا وسدى، وأنها الجامع الوحيد القادر على تحريك الأمة وتحقيق تضامنها والتقدم صوب آمالها وقهر تحدياتها - على كل حال سنقدم نماذج.. مجرد نماذج.



لاهوت التحرير – وقساوسة ثوريون

على رأس هؤلاء تأتي فريدة النقاش – زوجة رئيس التحرير وهي تحدثنا وقد وضعت يدها أسفل ذقنها عن لاهوت التحرير – وعن قساوسة ثوريين في أمريكا اللاتينية وتتناسى تمامًا الدور الوطني الفذ الذي قام به علماء الإسلام في الكفاح ضد الاستعمار والصهيونية والظلم الاجتماعي وبداية – فلا مانع من الحديث عن لاهوت التحرير والقساوسة الثوريين ولكن بشرط ألا تتناسى كفاح علمائنا – وإذا كان تقديم النماذج الثورية أمر جيد فلنقدم نماذجنا أولاً ثم نقدم نماذج الآخرين. وإذا علمنا مثلاً أن تاريخنا القديم والحديث والمعاصر مفعم بالنماذج الثورية لأدركنا كم هو غريب ذلك التناسي أو الإهمال. في تاريخنا المعاصر مثلاً هناك الشيخ المجاهد عمر المختار الذي قاتل ضد الإيطاليين في ليبيا، وهناك الشيخ المجاهد عبد القادر الجزائري الذي قاتل الفرنسيين في الجزائر – وفي مصر هناك محمد كريم – عمر مكرم – الأفغاني – النديم – مصطفى كامل – محمد فريد – حسن البنا، وفي العراق آية الله الشرازي – وفي لبنان بلال فحص وراغب حرب – وفي فلسطين عز الدين القسام – وفي مصر مرة أخرى هناك حافظ سلامة بطل معركة السويس. فلماذا السكوت عن هؤلاء جميعًا – هل لأنهم إمَّا علماء دين أو منتمين إلى وجدان الأمة «الإسلامي» والهدف هنا واضح من تجاهل هؤلاء – وإبراز الآخرين وهو أن يتلقى الوجدان الشعبي في مصر صدمة تجعله يفقد الثقة في نفسه – فما دام الآخرون ثائرين ونحن غير ثوريين – فهم من طينة أخرى – أو نحن لا نقدر على الثورة – والمستفيدون من هذا هو الاستثمار الأمريكي قطعًا بالإضافة إلى أن الاستعمار الأمريكي يدرك أنه لا ثورة في بلادنا بدون إسلام ولا ثورة بدون علمائه المجاهدين

– وبالتالي فإن طمس هذه الحقيقة وتجاهل التواصل التاريخي لكفاحنا يعني مباشرة تعطيل متعمد لقضية الثورة في بلادنا – فلحساب مَنْ يقوم اليسار التجميع في مصر بهذا؟ لحساب الاستعمار الأمريكي قطعًا.

وفي هذا الإطار ذاته – وقف السيد خالد محيي الدين رئيس حزب التجمع يدعو شعب لبنان في صيف ١٩٨٢ إلى الاقتداء بشعب ستالينجراد في التصدي للاحتلال. وذلك إبَّان الغزو الصهيوني المجرم على شبعا في لبنان في ١٩٨٢، وبالطبع تناسى السيد خالد أن يدعو شعب لبنان مثلاً إلى الاقتداء بشعب «عكا» مثلاً حينما تصدى لنابليون بونابرت. والهدف كسابقه – الهدف أيضًا الإيحاء بأن تاريخنا مجدب لدرجة استعارة تاريخ الآخرين – وإذا كان تاريخنا مجدبًا «وهو قطعًا غير مجدب بل خصب وخلاق» فلماذا يكون حاضرنا مثمرًا؟

تحذير: إن انحيازنا لكفاحنا – ولمجاهدينا لا يعني أننا لا نحترم ولا نقدر كفاح الآخرين.



البابا شنودة — لا فض فوه

البابا شنودة من الثوابت في جريدة الأهالي – فالجريدة لم تكن تفتأ عن المطالبة بعودته – قبل عودته – أو الإشادة بمواقفه – ولنا هنا بعض الملاحظات على تلك المسألة.

إذا كان الأمر مجرد الدعوة إلى إلغاء قرارات سبتمبر التي طالت البابا شنودة. فلماذا تم تجاهل كل من الشيخ أحمد المحلاوي. الشيخ عبد الحميد كشك – الشيخ حافظ – الشيخ عبد الرشيد وآخرين من علماء الإسلامي؟ هل لأن البابا شنودة يمثل قطاعًا سكانيًا أكبر من هؤلاء – هو السبب؟!

– هل يرجع السبب في هذا إلى ارتباط البابا شنودة بمجلس الكنائس العالمي ذي الصلة المباشرة بالمخابرات الأمريكية – وجدير بالذكر هنا أن محكمة القضاء الإداري ألغت جميع قرارات سبتمبر الساداتية ما عدا قرار عزل البابا شنودة مستندة إلى تلك الصلات المشبوهة للبابا شنودة بمجلس الكنائس العالمي، وإلى دوره المشبوه في إذكاء نيران الفتنة الطائفية.

ملاحظة: إننا نؤمن بأن البابا شنودة قد تخلى عن التراث القبطي في مصر – وأنه على عكس العقيدة الأرثوذكسية ارتبط بالولايات المتحدة، وفرض أن الأقباط الأرثوذكسي في مصر لهم تاريخهم الخاص – الذي يؤهلهم لرفض التغريب فهم كنيسة مستقلة في العقائد، وأنها تعرضت للتذويب والاضطهاد على يد الرومان – الصليبيين والاستعمار – وأن هامش التحالف بين المسلمين والأقباط الأرثوذكس في مواجهة الاستعمار والصهيونية هامش كبير جدًا. «راجع كتابنا ملف الكنيسة المصرية – دار المختار الإسلامي – ١٩٨٦».

وداعًا بونابرت

أشادت صحيفة الأهالي بفيلم وداعًا بونابرت ومخرجه يوسف شاهين فهل معنى هذا أن صحيفة الأهالي تؤمن بنمط التعايش الذي نادى به يوسف شاهين في فيلمه المذكور بين العرب والشرق على طريقة «علي – كافاريللي» التي جاءت في الفيلم على صورة علاقة شذوذ جنسي بين الاثنين – مع ملاحظة أن «كافاريللي» حسب رواية الفيلم كان جنرالاً في الحملة الفرنسية وأن «علي» كان ينتقد موقف المجاهدين الرافضين للحملة بكافة صورها والرافعين بوجهها السلاح – وفي الحقيقة فإن جريدة الأهالي لا تفتأ تقدم رؤيتها الثقافة والنقدية في كل القضايا الثقافية والفنية متبنية نفس المنظور السابق – وسؤالنا لها – هل يمكن التعايش بين الاستعمار وضحاياه؟!!



فرج فوده

الدكتور فرج فوده – صاحب كتاب «قبل السقوط» وصاحب السهم الأكبر في الهجوم الإعلامي على الإسلام والتيار الإسلامي – وإذا كان الهجوم على التيار الإسلامي يمكن أن نتغاضى عنه – فالهجوم على الإسلام ذاته هو ما يجعل الدكتور فرج استفزازيًا ومجرمًا. والدكتور فرج يرى أن الإسلام لا توجد فيه شريعة. وأنه لا تجربة واحدة في الحكم نجح فيها الإسلام ولا حتى تجربة الصحابة رضوان الله عليهم. على كل حال هذا هو الشق الأول من قضايا الدكتور فرج.

وبالطبع لم تكذب الأهالي خبرًا – فشادت بالكتاب وصاحبه ثم طاردته – فما أن ينطق بكلمة حتى تنشرها – وما أن يلقى محاضرة إلا وتنشرها – وما إن تدعو إلى مؤتمر حتى يكون الدكتور فرج على رأس المتحدثين والنجوم.

وإذا كانت الصحف الأخرى – كالمصور والأهرام قد استخدمت الدكتور فرج في مهمة محددة وهي الهجوم على التيار الإسلامي وتجربة الإسلام في الحكم – فإن الأهالي قد فاقتهم جميعًا.

إلى هنا والأمر مفهوم – فالهجوم على الإسلام والتيار الإسلامي أحد أهم أهداف العلمانيين عمومًا – واليسار الأمريكي خصوصًا.

ولكن إذا عرفنا أن الدكتور فرج فوده – هو رئيس ما يسمى بحزب المستقبل – وأنه وفدي لحمًا ودمًا على حد قوله – وأنه خرج من الوفد أو طرد منه لأسباب لا تهمنا، وأن حزبه الذي أسسه يميني جدًا، وأن الدكتور فرج وحزبه يؤمنان بحسن الجوار مع إسرائيل ويؤيدان كامب ديفيد – بل إن السفير الإسرائيلي زبون دائم على

مائدة العشاء في منزل الدكتور فرج فوده – وأنه يتباهى بذلك – وأنه معجب بالنظام الأمريكي وبالممارسات السياسية الأمريكية في المنطقة لأدركنا على الفور سر الحماس والتبني الذي قامت به «الأهالي» تجاه الدكتور – والأهالي والدكتور فرج في حب أمريكا سواء.



الحجاب

قضية الحجاب – من القضايا التي شغلت اليسار الأمريكي كثيرًا – وصحيفة الأهالي استدعت من كل حدب وصوب كل مَنْ يريد الطعن في الحجاب وأفردت الصفحات لحسين أحمد أمين وغيره للكلام عن الحجاب والتخلف والتقدم إلخ. وفريدة النقاش لطمت الخدود وشقت الجيوب عندما طالب أحد وكلاء وزارة التربية والتعليم الفتيات بالالتزام بالزي الإسلامي.

وإذا كان الكثيرون استغربوا من هذه الحملة الضخمة فإننا لم نستغرب، وإذا كان الكثيرون قد عجبوا لماذا كل هذا الاهتمام – هل أصبح الحجاب قضية قومية مثلاً. فإننا لم نعجب – والسبب في عدم عجبنا أننا ندرك أن الحجاب سيؤدي إلى ظهور نمط في الأزياء خاص بنا وهذا يقلق بال محلات الموديلات وشركات الأزياء العالمية التي تريد أن تظل سوقًا لترويج منتجاتها وتقليعاتها – كما أن الحجاب سيؤدي إلى انتهاء عصر المساحيق وأدوات التجميل في مصر وهذا يقلق بال شركات التجميل. لأنه سيتطور إلى توفير كل المبالغ التي يختلسها هؤلاء من ميزانيتنا بهذه الأدوات، وإذا كان الحجاب خطرًا على شركات الأزياء ومراكز تصدير أدوات التجميل. فهو أمر يقلق اليسار الأمريكي قطعًا.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحجاب أو الزي الإسلامي كان أحد أدوات الكفاح الذي خاضته المرأة الجزائرية والإيرانية ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر والاستعمار الأمريكي في إيران – لعلمنا سر تلك الحملة التي قامت بها «الأهالي» ضد الحجاب.

نقطة أخرى جديرة بالتسجيل – وهي أن الاستعمار يهدف دائمًا إلى إضعافنا اقتصاديًا ليسهل عليه السيطرة علينا – وأن توفير تلك الأموال المنفقة على الأزياء غير الإسلامية ستؤدي إلى شيء من العافية الاقتصادية لبلادنا هي بالتأكيد خطر على الاستعمار.

ومن ناحية أخرى بأن ضياع وقت المرأة في استخدام الأزياء والمساحيق هو بالتأكيد ضياع لساعات كان يمكن أن تستخدم في زيادة الإنتاج أو توفير الراحة للأبناء وخلق مناخ صحي يساعد على زيادة الإنتاج والحجاب قطعًا دافع قوى لتحقيق جدية المرأة في عملها وفي علاقاتها وكل هذا يؤدي إلى زيادة الإنتاج والنهوض ببلادنا.

هل فهمنا الآن سر الحملة على الحجاب؟!



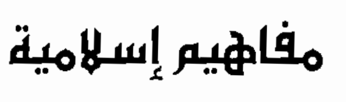
التحريض على الاتجاه الإسلامي

أحد أهم ميزات جريدة الأهالي أنها دائمًا في حالة تحريض للحكومة على ضرب الاتجاه الإسلامي. فهم خطر على الديمقراطية مثلاً – وهم يمارسون إرهابًا على زملائهم في الجامعة – وهم يضربون الأساتذة. وهم لا يتحاورون بل هم مستبدون – والأهالي تنشر دائمًا أخبارًا ملفقة عن أوكار للسلاح مع عناصر الاتجاه الإسلامي – أو إن الإخوان مثلاً يريدون مرشدًا عنيفًا أو له تاريخ من العنف – كما أن الأهالي مثلاً تقدم تحليلاً يتهم الإخوان بتدبير حادث المنشية برغم أن المحكمة برأت الإخوان من هذه التهمة – وسيل التهم لا ينقطع. وبديهي أننا لن نناقش هذه الأشياء. سنكتفي فقط بتقديم نموذج.

حين فاز الاتجاه الإسلامي بانتخابات نوادي أعضاء هيئة التدريس قامت الأهالي بندب حظها ولطم خدها وقطع جيبها– وتعجبت كيف يفوز الإسلاميون بأصوات أساتذة الجامعة – وقالت الأهالي إن هذا خطر على الديمقراطية – وحذرت: الفاشيون قادمون.

ونحن هنا نسأل هل من احترام الديمقراطية التي تدعونها أن تنزعجوا من انتخابات جاءت بالاتجاه الإسلامي – أم الديمقراطية والانتخابات مكفولة للجميع ما عدا الإسلاميين– وهل الذين دخلوا الانتخابات – فاشيون. وهم لم يدخلوها بموانع بل ببرامج والواقع أن هيئات التدريس هي أنضج فئات المجتمع المثقف – فلماذا لا تحترمون رأي هذا القطاع المحترم؟!

نعم – إنهم يساريون وخونة.



(٣)

مفتريات هيكل في خريف الغضب



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لعلنا لا نضيف جديدًا حين نقرر أن المثقف المسلم في العالم الإسلامي مسؤول مسؤولية مباشرة أمام ربه ثم أمام أمته وخصوصًا أن أمته تواجه تحديات متداخلة ومتشابكة تاريخية ومصيرية.

ولعلنا لا نضيف جديدًا حين نقرر أن الصراع الفكري في عالمنا الإسلامي، مرتبط أشد الارتباط وأوثقه بتلك التحديات.

ومن هنا وانطلاقًا من مسئوليتنا فإن علينا أن نحذر أشد الحذر ونحرص أشد حين نتصدى لنقد كتاب مثلاً حتى لا نصبح ضحايا للغزو الفكري ونسبح في عكس اتجاه مصالح أمتنا.

إن علينا أن نستخدم وسائلنا الثقافية ومن ضمنها نقد الكتب في زيادة وعي أمتنا وإثراء نضالها.

وعلينا في الوقت نفسه أن نتصدى لكل محاولة لتزييف وعي أمتنا أو تطويق نضالها.

* * *

إننا ندرك بوضوح حقيقة الصراع بين المدرسة الإسلامية، والمدرسة الاستعمارية العلمانية بشقيها اليميني واليساري وعلى هذا الأساس فسوف نركز على ما يمس الحركة الإسلامية وما يمس نضال أمتنا.

وانطلاقًا مما سبق فإننا سنحاول كشف محاولات المدرسة الاستعمارية - متمثلة هنا في محمد حسنين هيكل أحد جنودها - محاولات تلك المدرسة في التزييف والتضليل ومحاولة سحب رصيد الوعي لدى الجماهير وتطويق نضالها خدمة للاستعمار سواء عن طريق عدم تشخيص أمراضنا تشخيصًا سليمًا أو الاتجاه بنا في مسارات جانبية أو القفز بما هو ثانوي ليصبح جوهريا أو ما هو جوهري ليصبح ثانويا إلى آخره من أساليب الغزو الفكري.

❊ ❊ ❊

عادة ما يواجه إنسان منا يحاول أن يقدم رؤية لكتاب - عادة ما يواجه مشاعر معينة قد تكون المتعة أو القرف. قد تكون الصعوبة أو السهولة قد تكون الاختلاف أو الاتفاق.

ولكننا حين نواجه محمد حسنين هيكل فالإنسان يضطر اضطرارًا إلى ضبط نفسه والصبر على الكذب والتضليل حتى يستطيع أن يكمل الكتاب إلى آخره.

فهيكل كمثقف لا يساوي كثيرًا، وهو برغم أنه ابن المدرسة الاستعمارية. فهو ليس أقوى جنودها أو أذكاهم.

إنه ببساطة لا يمتلك حتى الأداة الفكرية المنهجية للمدرسة الاستعمارية، وهو دائمًا يطرح الشيء ونقيضه، ويظهر قدرًا من الغرور والتعالي يثير السخرية أكثر مما يثير الخوف.

ومن هنا تأتي سهولة التعامل مع هيكل. سهولة كشفه. بل سهولة ضبطه متلبسًا بالتضليل.

على أن للمسألة جانبًا آخر حيث إن التعامل مع هيكل يستدعي في النفس قدرًا كبيرًا من الغثيان لأنك أمام مثقف دعيٍّ.. لا يصدق إلا نادرًا ومصاب بالنرجسية

حتى الهوس.

***

تكمن أهمية كتاب خريف الغضب في:

١- أنه تمثيل جيد لشخصية وفكر كاتب مثل هيكل وبالتالي فإننا يمكننا أن نضع أيدينا على مجموعة من الخصائص التي يتميز بها مثقفونا المعاصرون والتي تنسحب بشكل أو بآخر على نضال شعوبنا من أجل الحرية والعدالة وبناء المجتمع الإسلامي المعاصر.

٢- أن الكتاب يمس فترة من أخطر فترات تاريخنا المعاصر وبالتالي فإن أي خطأ في تحليل هذه الفترة يؤثر حتمًا على مسيرة نضالنا.

٣- أن الكتاب يمس الحركة الإسلامية وبالتالي فإننا مطالبين أن نكون شديدي الحذر حتى لا ننزلق إلى هاوية التحليل الخاطئ فيما يمس هذه الحركة؛ لأن ذلك يعني انكسارًا حادًا في مسيرة نضال أمتنا على أساس أن الحركة وبحكم تاريخها وظروف الصراع في العالم هي طليعة الأمة في مواجهة تحدياتها وقد ارتبطت بشكل لا ينفصم بكل ما هو إيجابي في نضال أمتنا وبكل إنجاز في تاريخها القديم والمعاصر.

بل إننا نستطيع أن نجزم دون أن تطرف لنا عين أن كل المكاسب التي حققتها شعوبنا قد جاءت على يد رجال الحركة الإسلامية الذين أريقت دماؤهم وسنوات عمرهم خلف القضبان ثمنًا لتصديهم الطويل والدائب والفذ للاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسي، وأنه لولا الحركة الإسلامية لضاعت أمتنا منذ أمد بعيد.

٤- إن الكتاب في النهاية هو حلقة من حلقات الغزو الفكري لعالمنا الإسلامي.

إننا ندرك بوضوح أن معركة أمتنا مع الاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسي والظلم الطبقي تتماشى بشكل مباشر مع قيمنا الثقافية.

وإن الغزو الفكري هو أحد أفتك أسلحة الاستعمار ضدنا.

إن كتاب خريف الغضب فرصة طيبة لتوضيح جدل العوامل السابقة وترابطها. وسوف نركز في نقدنا له على تلك العوامل متوخين الإيجاز وضرب الأمثلة الواضحة جدًا.

* * *

الكتاب :

الكتاب يقع في ٥٦٥ صفحة من القطع الكبير وطباعته فاخرة.. ولقد كتب باللغة الإنجليزية أصلاً وترجمه المؤلف بنفسه إلى العربية - انظر كيف تصبح لغة الثقافة الأساسية لدى مثقفينا هي اللغة الإنجليزية برغم كونهم عربًا.

والكتاب يضم مقدمة وستة أجزاء هي على التوالي: صناعة نجم - النهب الثاني لمصر - الإسلام السياسي - الكنيسة القبطية - العواصف تتجمع - الصواعق.

وسف نتناول المقدمة بشكل منفصل ثم نقوم بنقد أفكار الكتاب ككل غير خاضعين لتقسيم المؤلف.



مُقَدِّمَة

والمقدمة عادة ما تكون مفتاحًا لفهم الكتاب ومدخلاً له وتحديد هدف الكاتب من الكتاب.

وسوف تكون المقدمة فرصة طيبة لنضع المدرسة الاستعمارية عمومًا وهيكل خصوصًا تحت الدراسة لمعرفة خصائصها وتوجهاتها ومدى خطرها على أمتنا.



النمط الغربي :

يقول هيكل في أول صفحة: «إن وقائع هذا الكتاب سوف تكون صدمة لكثيرين في الغرب». وهكذا ومنذ الوهلة الأولى يمكن أن نحدد معيار هيكل وهو كنموذج للمثقف العلماني يعتبر الغرب هو القدوة والنموذج ومناط الاهتمام.

وكذلك يعتبر المعيار الغربي هو المعيار. وهكذا سيكون الكتاب من أوله إلى آخره على هذا المنوال.

فمثلاً يعتبر هيكل أن أخطاء السادات ترجع إلى كونه لم يفهم طبيعة العلاقات الدولية أو خصائص القوى المتحكمة في العالم - وليس لأنه لم يقوم بتعبئة شعبه وفقًا لمعايير ذلك الشعب وقيمه وتراثه الأخلاقي.

وهكذا فإننا ودون أن نشعر نتزلق مع هيكل ليحدد لنا ويلقي في وجداننا المعيار الغربي العلماني فهيكل يرفض معنا أو مثلنا تجربة السادات ولكن من منظور غربي. وهذه أولى حلقات الغزو الفكري.

وهكذا فإنه يحجب عنا الضوء الذي ألقاه نضال الشعب المسلم في مصر ضد السادات لإرساء معيار إسلامي للحكم على سياسات نظام ما.

ذلك المعيار الذي أثراه بالدم والعرق والصبر كل المجاهدون مسترشدين بتجربة الرسول الكريم وصحابته ومن سار على نهجه طوال التاريخ، وآخرهم المجاهدون والمعاصرون من أمثال محمد كريم، عمر مكرم، عرابي، النديم، الأفغاني، مصطفى كامل، فريد، حسن البنا، سيد قطب، أحمد المحلاوي، حافظ سلامة.

هؤلاء الذين أدركوا تشابك الصراع السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وأدركوا أن الاستقلال ليس مجرد استقلال عسكري مزيف

ولكن نمط مستقل في الحياة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا وتحرير الإرادة والتوجيهات.

* * *

النرجسية:

وككل المثقفين العلمانيين يمارس هيكل نرجسيته بشكل فج.

فهو الذي اختار السادات نائبًا لعبد الناصر، وهو الذي أدى به إلى منصب الرئاسة، وهو الذي قدم إليه التوجيهات الحاسمة في حسم صراع السلطة ضد مراكز القوى عام ١٩٧١.

وهو الذي شارك في التخطيط لحرب أكتوبر.

والنرجسية سمة أساسية من سمات المثقف العلماني فالكون كله يتمحور حول ذلك المثقف فهو الذي فعل كذا ورفض كذا.

على أن خطورة تلك الصفة على نضال أمتنا يدفعنا دفعًا إلى مناقشتها.

المثقف أصلاً مسئول أمام أمته. له رسالة محددة. عليه أن يفهم طبيعة أمته، طبيعة مشاكلها وتحدياتها، طبيعة القوى المناوئة لها.

عليه أن يناضل بالدم والعرق ضد كل المؤامرات التي تحاك ضدها. عليه ببساطة أن يقف مع أمته بل في طليعتها ضد الاستعمار والصهيونية، وضد الاستبداد السياسي. عليه أن يلقي الضوء الهادي لأمته. عليه أن يدافع عن أمته، عن حريتها وكرامتها.

ولكن وبسبب النرجسية نجد المثقف يقف مع نفسه يقف مع كل نظام أو مؤسسة تسمح له أن يكون أحد أركانها أو إذا سمحت له بالانتشار أو حقق

مكاسب ماديا في ظلها.

ويصبح المثقف أسيرًا لنفسه فهو يدافع ويمجد كل مؤسسة أو نظام نال من خلاله أو في ظله الحظوة والنفوذ ووسائل الانتشار، بصرف النظر عما إذا كان ذلك النظام أو المؤسسة مع أمته أو ضدها.

بصرف النظر عما تم في ظل ذلك النظام أو المؤسسة من سحق لكرامة الإنسان أو مصادرة لحريته أو سفك لدمائه أو خيانة لقضايا الوطن. بل نجد ذلك المثقف يشارك في صنع هذا وتبريره.

ويرتبط بالنرجسية ارتباطًا مباشرًا خلق آخر وصفة أخرى وهي «الكذب». وهيكل كمثقف علماني استعماري خير مثال وأوضح نموذج للكذب.

انظر إلى هيكل كيف يدعي أنه صنع السادات، وكيف أنه صفى مراكز القوى مع السادات، وكيف أنه أسهم في التخطيط وسوف نختار واحدة من أكاذيبه، كمثال.

يدعي هيكل أنه شارك في التخطيط لحرب أكتوبر وبالرجوع إلى مقالات هيكل في عام ١٩٧٢ تحت عنوان بصراحة في أهرام الجمعة نجد هيكل يركز على ما يلي:

- عدم قدرة القوات المسلحة على الدخول في معركة إسرائيل وأنها تعاني من نقص حاد في الخبرة والسلاح.

- أن الجيش الإسرائيلي لا يقهر وأنه أقوى الجيوش في المنطقة وأن أي محاولة لعبور القناة ليست إلا مجرد انتحار جماعي.

- أن جميع القوى - الولايات المتحدة - الاتحاد السوفيتي - أوروبا تستفيد من حالة الاسترخاء العسكري.

ولقد أحدثت تلك المقالات هزة عنيفة داخل أوساط القوات المسلحة المصرية

والشعب المصري وأوصلت الكثير إلى حافة اليأس.

فهل يعود هيكل كاهن اليأس إلى الادعاء بأنه أحد مخططي حرب أكتوبر؟

* * *

الكتاب:

كما قررنا سلفًا فإننا سوف نركز في نقدنا للكتاب على ما يمس الحركة الإسلامية وما يمس نضال شعبنا وسوف نهتم بما قام به هيكل من تضليل وتزييف وتطويق لوعي أمتنا متوخين ضرب الأمثلة الواضحة جدًا والفجة جدًا وبالتالي فإننا سنناقش قضيتين رئيسيتين:

١- الغزو الفكري الذي مارسه هيكل.

٢- ما يمس الحركة الإسلامية.



الغزو الفكري

منذ أن بدأت الموجة الأخيرة لغزو العالم الإسلامي والمسماة بالاستعمار فإن العالم الإسلامي يتعرض لأشكال وأنماط عدة من الغزو.

ولعل الاستعمار قد أدرك وبوضوح أن فشل الحملة الصليبية كان يرجع في جزء منه إلى رسوخ مجموعة من القيم في العالم الإسلامي قد استطاعت أن تحفظ حيوية الأمة وتمدها بطاقة خلاقة. كانت كافية لإلحاق الهزيمة بالحملة الصليبية برغم شراستها اللامحدودة. وبرغم أن أوروبا قد حشدت لها كل إمكانياتها.

وهكذا ومنذ أن وطأت الحملة الفرنسية أرض مصر في عام ١٧٩٨ فإن عمليات الغزو المستمرة للعالم الإسلامي لم تقتصر على الغزو العسكري بل تعدته إلى غزو سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي خطير.

ولعل نابليون لم يكن يلهو حين استقدم معه مطبعة وعلماء.

وهكذا فإن الاستعمار قد أدرك أن عليه أن يهز أركان العالم الإسلامي الثقافية ليتسنى له من بعدها التهامه عسكريا واقتصاديا.

وهكذا فإن الغزو الفكري قد بدأ منذ الوهلة الأولى للاستعمار كأحد أهم الأسلحة الاستعمارية وهكذا فإن الاستعمار بدأ يعد مدرسة كاملة من مثقفينا للقيام بهذه المهمة ولقد استهدف الغزو الفكري ضمن ما استهدف ما يلي:

- إزاحة الإسلام، بما أنه القوة الرئيسية التي تحافظ على تماسك الأمة وتمنحها استمراريتها وحيويتها.

- إزاحة كل القيم الإيجابية من ضمير الأمة ومحاولة إحلال قيم سلبية مكانها.

وهكذا وجدنا من يحاول طمس معالم الإسلام المجاهد بما أن الإسلام يمثل القيمة الكبرى في تراثنا الثقافي والسياسي والاجتماعي في محاولة إرساء إسلام مستأنس وتشجيع العزلة، والاتكال.. إلخ.

- محاولة استبدال الوحدة الإسلامية بأشكال أخرى ضيقة الأفق ومشبوهة مثل القومية العربية الجاهلية أو الإقليمية الضيقة.

- إرساء قوى سياسية تتبنى المنظور الغربي بشقيه الرأسمالي والاشتراكي بدلاً عن الإسلام السياسي وكبديل له خاضع للغرب بما أنه جزء منه.

- زرع مجموعة من الأمراض الاجتماعية مثل تحرير المرأة. إلى الانحلال وبناء أنماط مشوهة من السلوك الإسلامي.

- محاولة نزع الثقة دائمًا من الجماهير في قدرتها على النضال وأن هذا النضال نوع من العبث.

- لعل آخر رموز تلك المدرسة الاستعمارية هم لويس عوض - هيكل - مصطفى أمين.

- علينا هنا أن نحدد آخر مراحل الغزو الفكري في محاولة استعمارنا متخذين أمثلة من كتاب هيكل.

لقد جاء كتاب خريف الغضب على أثر محاولة ناجحة لجماهير الشعب في مصر لإزاحة حاكم مستبد مما أعطى تلك الجماهير ثقة أكبر في قدرتها على النضال في مواجهة الاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي.

هكذا كان على الاستعمار أن يطوق تلك الثقة التي امتلكتها الجماهير سريعًا قبل أن تصبح تلك الجماهير قادرة على الإطاحة بالمرحلة الاستعمارية، ولذلك كان كتاب خريف الغضب محاولة استعمارية لسحب رصيد الثقة والوعي لدى الجماهير في نجاحها في إزاحة السادات.

برغم أن أساليب الغزو الفكري متنوعة تبدأ من محاولة تحليل خاطئ للظواهر التي نعيشها - أو محاولة تطويق وعي الجماهير أو إثارة قضايا جانبية - أو إشاعة

روح الهزيمة واليأس في صفوف الجماهير فإن هيكل قد استخدم أسلوبين رئيسيين في محاولاته:

(أ) التحليل الخاطئ للظواهر.

(ب) محاولة تطويق وعي الجماهير ونضالها.

وهما أسلوبان قد برع في اللعب بها محمد حسنين هيكل.

نذكر بها الصدد مقالات هيكل عن عدم جدوى المقاومة الفلسطينية في مواجهة إسرائيل عقب معركة الكرامة في الأردن والتي بدت المقاومة الفلسطينية على أثرها قادرة على تعبئة الجماهير حولها للدخول في حرب إسلامية شعبية ضد الكيان الصهيوني.

(راجع مقالات الجمعة - الأهرام ٦٨)

كما نذكر مقالاته عن حالة اللاسلم واللاحرب في عام ١٩٧٢ والآن علينا أن نضبط هيكل مرة أخرى متلبسًا.



التحليل الخاطئ للظواهر

حينما نواجه ظاهرة معينة، فإن المواجهة الصحيحة لتلك الظاهرة تقتضي منا أولاً وبشكل أساسي أن نحدد هذه الظاهرة تحديدًا جيدًا. طبيعتها، شكلها، أسبابها، مظاهرها، نتائجها، علاقتها بالظواهر الأخرى إلخ.

وإن أي خطأ في تحديد ذلك. معناه ببساطة شديدة الفشل التام في مواجهتها. ومعناه أيضًا استمرارها حتى ولو كان في أشكال أخرى.

وهكذا فإن هيكل يتعمد تحليل ظاهرة السادات تحليلاً مغرقًا في التزييف.

يقول هيكل إن سياسات السادات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كان مبعثها أن السادات مريض نفسيا.

يقول هيكل إن دوافع تلك السياسات لدى السادات كانت عقدة النجومية..

- الطفولة المعقدة - الفقر - تكدس الأسرة في منزل مزدحم.
- سواد لون الأم لأنها كانت زنجية الأصل.
- ميل إلى الخيال نتيجة تراكم الشعور بالكبت.

والآن نبدأ نحن في تحليل نظام السادات ليتسنى لنا معرفة إلى أي متاهة يقودنا هيكل.

- في الحقيقة لا نستطيع معرفة طبيعة نظام السادات دون أن نعرف جذور النظام - أهدافه - توجهاته.

ونظام السادات في رأينا هو امتداد لنظام عبد الناصر الذي كان السادات جزءا منه، ورئيس مجلس أمة - عضو مجلس قيادة ثورة - نائب رئيس جمهورية.

والآن نعود إلى الوراء قليلاً..

منذ الوهلة الأولى. فإن الصراع في المنطقة يتحدد وفق قوتين:

- جماهير مسلمة في تناقض رئيسي مع الاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي.

- مدرسة استعمارية (حكام، أحزاب، علمانية، استعمار، صهيونية).

وهناك مجموعة من التناقضات الثانوية داخل المدرسة الاستعمارية ذاتها ولكن تلك التناقضات في النهاية تتحدد وتستمد شكلها من قوانين التناقض الرئيسي.

- وصل نضال الجماهير المسلمة ضد الاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي إلى أوجه في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات.

- كفاح مسلح ضد الإنجليز - معركة التل الكبير - استشهاد عمر المليسي - أحمد شاهين.. إلخ (الإخوان المسلمين).

- كفاح مسلح ضد الصهيونية (معارك ٤٨ الإخوان المسلمين).

- نضال ضد المؤسسة المستبدة (الملك وأحزاب الأقلية - إضرابات الطلاب - المظاهرات إلخ).

- انتفاضات مستمرة في الريف المصري ضد الإقطاع بقيادة أعضاء جماعة الإخوان المسلمين.

(كنوز نجم والشهيد عناني عواد - بهوت وميت فضالة).

- إضرابات عمالية واسعة ضد الرأسمالية المستغلة.

وفي النهاية فإن أوصال النظام وقتها كانت قد تفككت وبات النظام بكل المعايير غير قادر على الاستمرار - والجماهير المسلمة في الوقت نفسه باتت تمتلك الثقة والرصيد القتالي والوعي - والتنظيمات القادرة والمسلحة مثل الإخوان المسلمين.

وهكذا فالنتيجة المنطقية قيام نظام إسلامي مجاهدي يكتسح في طريقه الاستعمار. الصهيونية. والاستبداد السياسي.

وكان لا بد أن تتحرك المؤسسة الاستعمارية لتطويق ذلك المد - إما بالمواجهة وإما بالالتفاف.

وكانت تلك المؤسسة غير قادرة على المواجهة لا عبر عسكرها ولا عبر الملك ولا عبر الأحزاب العلمانية فكان الالتفاف. وكانت ٢٣ يوليو.

وهكذا جاء عبد الناصر ليؤدي مهمة محددة.

- إذا كانت الجماهير تطالب بجلاء الاستعمار فلا مانع وليعد من الشباك بعد أن خرج من الباب.

- إذا كانت الجماهير تريد التصدي الجماهيري المسلم للصهيونية عبر العقيدة الإسلامية وحرب التحرير الشعبية فلا مانع من خوض معارك إذاعية ومزيفة مع الصهيونية ولكن بعيدًا عن الإسلام وبعيدًا عن الجماهير.

- إذا كانت الجماهير تريد بناء نظام اقتصادي لا طبقي يستمد من الإسلام. إذًا يكون البديل المزيف هو الاشتراكية العربية.

ولكن كل هذا بشرط واحد. هو أن تعود الجماهير إلى منازلها. ليست مطالبة بالاشتراك في شيء وليتم تفريغ الشارع السياسي من الجماهير.

وفي الحقيقة فإن عبد الناصر وطبقًا لدوره المرسوم قد قام منذ الوهلة الأولى بـ:

- ضرب واسع للجماهير - إلغاء كافة أشكال الحريات السياسية.

نذكر هنا إعدام خميس وبقري بتهمة الشيوعية.

- مهادنة الإقطاع والتعامل معه برفق.

- ضرب كل القوى السياسية.

- ضرب بشع للحركة الإسلامية في ٥٤، ٥٧، ٥٩، ٦٥.
- ضرب أي شكل من أشكال المنظمات الجماهيرية.

وهكذا فإن عبد الناصر وبواسطة التلويح ببعض الإصلاحات قد قام بمهمته لصالح الاستعمار وهو ضرب الجماهير - إخراجها من ساحة الصراع.

- الارتباط بالاستعمار والاشتراكية العربية تتطور إلى انفتاح.
- الصلح مع اليهود (نكسة ٦٧ ثم مبادرة روجرز - ثم كامب ديفيد).

وفي الحقيقة فإن عبد الناصر لم يواجه إسرائيل إطلاقًا ولم يسمح للجيش بمواجهتها ولكن في كل مرة يتم سحب الجيش قبل المواجهة.

كما أن عبد الناصر ومن خلال خطبه وتصريحاته كان يوافق على مقررات الأمم المتحدة وقرار التقسيم.

- عودة الاستقلال الاقتصادي - أخذ الإقطاعيون في عهد عبد الناصر شكلاً آخر فكانوا المهيمنين على الاتحاد الاشتراكي ومواقع الإنتاج رغم كونها قطاعا عاما وتم نهب ثروات الشعب المصري بشكل بشع. كما ظهروا أخيرًا خلف مؤسسات الاستيراد والتصدير الانفتاحية.

وهكذا كان السادات امتدادًا عضويا لنظام عبد الناصر ولا مانع من وجود اختلافات شكلية بينهما.

انظر على سبيل المثال نفس التجربة على يد شخص واحد في الصومال وهو محمد سياد بري الذي بدأ يساريا وانتهى أمريكيا وهو في كل الحالات استعماري.

وهكذا فإن التطور الطبيعي لنظام عبد الناصر هو نظام السادات.

- فالانفتاح هو الامتداد للاشتراكية العربية.

- الأحزاب بقيود هو الامتداد للاتحاد الاشتراكي.
- كامب ديفيد هي الامتداد الطبيعي لمبادرة روجرز.

وهذا يعني ببساطة شديدة أننا أمام مؤسسة تتبنى سياسات اقتصادية وسياسية واجتماعية محددة ولسنا أمام شخص السادات.

ولكن هيكل يريد لنا الوقوع في المتاهة.

- مؤسسة وليس شخصا مع إدراكنا أن الشخص يؤثر ولكن دون الخروج عن الإطار المؤسس المرسوم.

*** ملاحظة**

ينبغي هنا التنبيه إلى أن الإسلام وقيم مجتمعنا يرفضان فكرة التمييز العنصري، وإن السود والبيض على حد سواء لا يجدون أي شكل من أشكال التمايز في العالم الإسلامي ولا يمس أي شخص أسود بأي شكل من أشكال التمييز في العالم الإسلامي.

كما أن الفقر أو سواد الأم أو سواد الوجه ليس مدعاة للعقد النفسية فيمكن أن يكون الفقر مدخلاً للعقد النفسية كما يمكن للغنى أن يكون مدخلاً لتلك العقد.

كما أن سواد اللون يمكن أن يؤدي إلى العقد النفسية بنفس القدر الذي يؤدي إليه بياض اللون.

واستمرارا في التحليل الخاطئ للظواهر فإن هيكل يقارن بين نمط السادات في التنمية ونمط عبد الناصر يدين الأول ويؤيد الثاني مدعيا أن القروض الأمريكية مخربة والديون السوفيتية بناءة.

ونود أن نشير إلى حقيقة أن نمط السادات هو نمط عبد الناصر مع اختلاف في

الدرجة لا يمس الجوهر، وأن النمطين مدانان وغير صالحين لمجتمعنا.

وأن كافة أشكال القروض سواء كانت أمريكية أو سوفيتية فإنها موجهة وتشل إرادتنا وتجعلنا خاضعين للابتزاز الأمريكي أو السوفيتي.

إن تكييف القضية بهذا الشكل هو استمرار لعملية التحليل الخاطئ للظواهر التي عرفنا أغراضها.

إنها محاولة لطمس معالم رسخت في وجدان شعبنا عبر نضاله الطويل. معالم تنمية إسلامية غير طبقية وعادلة.

إننا ندرك أن التنمية مسألة إرادة في المقام الأول وتعتمد على قدراتنا الذاتية ونشترط لها لكي تنجح أن تكون نابعة من قيمنا.

إننا ندرك أن العيب لم يكن في شكل عملية التنمية وظروفها ولكن العيب كان في شكل نظام الحكم في عهد عبد الناصر والسادات.

وإن محاولة بناء اقتصادنا بمعزل عن الإسلام هي محاولة فاشلة حتمًا ومشبوهة أيضًا.

وإن نجاح أي تنمية يعتمد على ارتباطها بالقيم لدى شعب معين وعلى إنهاء الحكم المطلق بمعنى أن يكون الشعب وفق إرادته هو الحارس على التنمية فضلاً عن أن يكون هو أساسها.

إن التنمية ترتبط ارتباطًا مباشرًا بتوجهات الحكم فالذي لا يواجه الاستعمار بل يهادنه سواء بروجرز أو بكامب ديفيد هو ذاته الذي يفتح المعتقلات، وهو الذي يظلم الفلاح والعامل وإن ذلك كله مرتبط أشد الارتباط وأوثقه ببعضه بعضًا.



محاولة تطويق وعي الجماهير ونضالها

من أخطر ما تواجهه المدرسة الاستعمارية. هو أن الجماهير المسلمة في نضالها الدءوب من أجل الحرية والعدالة والمساواة تكتسب رصيدًا من الوعي وتدرك حقائق الصراع وقوانينه وتصبح أكثر ثقة في نفسها.

ولعل أحد هذه القوانين هو أنه بمقدار حركة الجماهير من أجل الحرية والعدالة والمساواة في مواجهة الاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي. بمقدار قدرة تلك الجماهير في تقليل هامش المناورة والتنازل لدى أنظمة الحكم بل إن تلك الأنظمة قد تخضع لضغط الجماهير وتصبح أكثر صلابة في مواجهة أعداء الجماهير.

إن كل حركة صغيرة في نضال الجماهير تترك تراكمًا مهما في إيقاف نظام حكم ما عند حده وتضييق هامش تنازلاته وقمعه.

المدرسة الاستعمارية تحاول دائمًا ضرب هذه الحقيقة في وجدان الجماهير، وتحاول أن تفصل بين نضال تلك الجماهير وطبيعة تصرفات أنظمة الحكم. حتى تدفع الجماهير إلى الإحساس بعدم جدوى نضالها.

ولقد لعب هذا الدور دائمًا أطراف المدرسة الاستعمارية من يمين ويسار ووسط.. إلخ.

هكذا فإننا نجد هيكل يمارس تلك اللعبة وسوف نضرب مثلاً على ذلك مكتفين به.

يقول هيكل : إن هناك صلة مباشرة بين أحداث انتفاض ١٩٧٧ وبين زيارة

السادات للقدس ومبادرة السلام.

والآن نبدأ في مناقشة الموضوع:

الحدث الأول:

هو قيام الجماهير بالانتفاض في كل مصر يومي ١٧، ١٨ يناير على أثر قيام النظام برفع الأسعار ولقد نجحت تلك الجماهير في فرض إرادتها على النظام وتراجع النظام عن رفع الأسعار وتم إلغاء القرارات الخاصة بذلك.

الحدث الثاني:

هو قيام السادات بزيارة القدس والتي انتهت أحداثها بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد.

أي أن النظام قد وقع صلحًا معينًا مع عدو الأمة التاريخي ضربًا بتاريخ الأمة ودينها ووجدانها عرض الحائط.

وطبقًا لقوانين النضال البدهية. فإنه لا يمكن أن تكون هناك علاقة سببية بين نجاح الجماهير في فرض إرادتها في مظاهرات الطعام وبين خيانة النظام لتاريخ الأمة وتوقيع معاهدة كامب ديفيد.

فالعكس هو الصحيح تمامًا.

أي أن حركة الجماهير في ٧٧، وقبلها جهاد الشيخ حافظ سلامة بطل معركة السويس.

قد أسهما إلى كبير في تأخير الحقبة الإسرائيلية.

فلولا ذلك النضال لكان النظام قد وقع في الاستسلام بشكل أكثر درامية وخزيا مما تم.

بل إن ذلك النضال قد حجم ذلك الصلح ووضع أمامه كثيرًا من العراقيل، وجعله لا يدور كما يهوى النظام، وجدير بنا في هذا الشأن أن نشير إلى المعارضة الواسعة التي مارستها جماعة الإخوان المسلمين ونقابة المحامين والمشايخ الشجعان من أمثال الشيخ أحمد المحلاوي لمبادرة كامب ديفيد.

إذن فهيكل وبنجاح منقطع النظير يعكس الحقائق تمامًا.

كأن هيكل يريد أن يقول:

- إن الضغط على النظام والقتال ضده لا يؤدي إلى تقليل حجم تنازلاته وقمعه ولكن يؤدي إلى زيادتها. إذن فلا داعي للنضال ما دام يؤدي إلى عكس ما ترجوه الجماهير.

- وهكذا فإن هيكل يحاول سحب رصيد الوعي والثقة المتراكمة لدى الجماهير على أثر انتفاضة ٧٧.

أي أنه يريد تطويق نضال الجماهير وضرب وعيها ومحاولة التشكيك في قوانين النضال البديهية.



الحركة الإسلامية



لعل أكثر ما يهمنا من كتاب خريف الغضب هو هذا الجزء الذي أعطاه هيكل اسم «الإسلام السياسي».

ولعل هيكل حينما يكتب عن الإسلام السياسي فإنه يخضع لمجموعة من العوامل المتداخلة.

١- إن هيكل كمثقف علماني - فإنه يخضع التجربة الإسلامية للمعيار الغربي - وبالتالي فهو لا يملك القدرة على فهمها.

٢- إن هيكل كمفكر مرتبط بالمدرسة الاستعمارية فإنه بالطبع يعادي الاتجاه الإسلامي.

٣- إن هيكل وبما أنه ضحل الثقافة في إطار الفكر العلماني فإنه فضلاً عن علمانيته وارتباطه بالاستعمار الثقافي فإنه جاهل.

٤- إن هيكل قد ارتبط في الستينيات بالتبرير للتجربة الناصرية. وبالتالي فهو مسؤول عما عانته الحركة الإسلامية في الخمسينيات والستينيات.

وبالتالي فهو ليس خصمًا ثقافيا أو سياسيا للحركة الإسلامية فحسب، ولكنه يرتبط بعداء شخصي مع الحركة الإسلامية أيضًا.

وهكذا فإننا أمام مثقف علماني استعماري جاهل وحاقد.

وهكذا فإن هيكل وبحكم هذا كله لا يملك أن يقدم رؤية جيدة للحركة الإسلامية.

على أن هناك فكرتين رئيسيتين ينبغي الوقوف عندهما.

يقول هيكل: «في مناخ مثقل بالمتناقضات وأسباب الشك والحيرة والقلق، وتضارب في القيم الاجتماعية والثقافية، وتخبط في السياسات الاقتصادية والاجتماعية. كانت العودة إلى الدين طلبًا لليقين حركة طبيعية».

وهكذا يقول هيكل إن تنامي المد الإسلامي في مصر كان رد فعل لظروف معينة.

وهذه مقولة شديدة الخطورة تروج لها المدرسة الاستعمارية دائمًا في محاولة مستمرة لتطويق الحركة الإسلامية باتهامها بأنها رد فعل.

وفي الحقيقة فإن المدرسة الاستعمارية حين ترفع هذه المقولة. فإنها تضع نفسها في مأزق وتصبح مكشوفة وتثير السخرية.

فإن أي مثقف أو حتى نصف مثقف يستطيع أن يدرك مدى أصالة الحركة الإسلامية فهي حركة تضرب بجذور عميقة في تاريخ وجغرافيا مصر والعالم العربي والإسلامي بل والعالم كله.

وهكذا فإن هيكل حينما يردد هذه المقولة فإنه يثير سخريتنا وضحكنا أكثر مما يثير استياءنا.

إن الحركة الإسلامية هي الحركة السياسية الوحيدة في العالم العربي التي لم تنقطع يومًا منذ بعثة الرسول الكريم ﷺ، ولقد خاضت معاركها دائمًا وعبر مراحل تاريخية طويلة من أجل الحرية والعدل والمساواة وإزالة كافة أشكال الطغيان السياسي والاقتصادي والاجتماعي من فوق الأرض.

وخاضت معاركها حديثًا ضد الاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي ممثلاً في الرأسمالية والإقطاع.

ولقد كانت هذه الحركة دائمًا هي ضمير الأمة، وهي طليعتها وهي أملها.

تصدت تلك الحركة ولأن هذا هو قدرها الذي لا مناص منه فضلاً عن أن دينها هو المستهدف وأمتها هي الضحية.

خاضت تلك الحركة معاركها ضد الحملة الفرنسية (محمد كريم -عمر مكرم).

وضد الإنجليز من حملة فريزر (عمر مكرم)..

وضد الاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي متمثلاً في نظام حكم محمد علي وما رافقه من إقطاع زراعي بشع (جمال الدين الأفغاني - عبد الله النديم - عرابي - مصطفى كامل - محمد فريد - عبد العزيز جاويش ثم حسن البنا).

وضد الصهيونية (الإخوان المسلمون - سيد قطب - أحمد المحلاوي - حافظ سلامة).

وضد استبداد عبد الناصر والسادات:

سيد قطب - أحمد المحلاوي - حافظ سلامة - صالح سرية - محمد عبد السلام.

- يلاحظ في هذا الصدد:

- معارك الإخوان ضد إسرائيل في ١٩٤٨.

- معارك الإخوان ضد الإنجليز ١٩٥١ (أحمد المثيسي - عمر شاهين).

- معركة السويس الشعبية بقيادة الشيخ حافظ سلامة وجمعية الهداية الإسلامية.

وهكذا كانت الحركة الإسلامية هي الأصل دائمًا ولم تنقطع يومًا.

وانقسمت القوى السياسية دائمًا في المنطقة إلى معسكرين:

١- المعسكر الإسلامي، وهو يملك تناقضًا جوهريا مع الاستعمار والصهيونيه ويطرح الكفاح الشعبي المسلح كشعار. ويمارس ذلك الكفاح كما سبق أن وضحنا.

ويناضل ضد الاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي والاجتماعي.

لاحظ الانتفاضات الفلاحية بقيادة عناصر الإخوان ضد الإقطاع في الريف المصري ١٩٥١.

(عناني عواد شهيد كفور نجم - انتفاضة بهوت - ميت فضالة).

لاحظ دراسات العناصر الإسلامية والخاصة بالتصدي للاستبداد السياسي.

محمد فتحي عثمان - حقوق الإنسان في الإسلام.

محمد الغزالي - الإسلام والاستبداد السياسي.

لاحظ أيضًا الدراسات الخاصة بالظلم الاقتصادي:

سيد قطب - معركة الإسلام مع الرأسمالية.

محمد مورو - دور الحركة الإسلامية في تصفية الإقطاع.

٢- المعسكر الاستعماري. ويضم كل المؤسسات الاستعمارية «قوى اليسار واليمين بكل اتجاهاتها»...

وهذا المعسكر يتميز ب-:

- وجود بعض التناقضات الثانوية داخلة.
- يطرح التفاوض كأسلوب لحل القضايا الوطنية وإسقاط شعار الكفاح المسلح ضد الاستعمار والصهيونية.
- ممارسة قمع الجماهير بأساليب متنوعة.
- ممارسة الغزو الفكري.
- مع ملاحظة أن هذا المعسكر يتصرف دائمًا كرد فعل لحركة الاتجاه الإسلامي.
- وأنه دوائر صغيرة بين المثقفين بعكس الاتجاه الإسلامي الذي يضم الأمة كلها تقريبًا.
- إن كل تراث الجهاد والنضال بلا استثناء قد قام به الاتجاه الإسلامي في طول تاريخنا القديم والمعاصر، وأتحدى من يأتيني باستثناء واحد.

وكل تراث الخيانة والمهادنة كان من الاتجاهات الأخرى والأمثلة أكثر

من أن تحصى.

***

يقول هيكل أيضًا:

إن نظام السادات قد استخدم الدين لتبرير سياساته.

إن نظام السادات قد شجع أو على الأقل أغضى الطرف عن الاتجاه الإسلامي ليقوم ذلك الاتجاه بتصفية الناصريين والشيوعيين.

والآن لنبدأ بمناقشة أفكار هيكل.

- استخدام الدين لتبرير سياسات النظام.

يتعمد هيكل أن يخلط بين مؤسسات الدولة الدينية مثل الأزهر والأوقاف وبين الحركة الإسلامية ليدفع القارئ دفعًا إلى اتهام الاتجاه الإسلامي بمهادنة النظام أو التبرير له.

وفي الحقيقة فإن محاولة السادات استخدام المؤسسات الدينية الخاصة للدولة، ليس بأمر جديد فقد استعمل عبد الناصر نفس المؤسسات في ضرب الإخوان المسلمين في الخمسينيات والستينيات، كما استخدمها الملك أيضًا لنفس الهدف.

وهكذا فإن استخدام السادات لها ليس شيئًا جديدًا يستدعي أن يركز عليه هيكل.

بل علينا أن نلاحظ أن السادات ذاته استخدمها في ضرب الاتجاه الإسلامي باعتباره الاتجاه الوحيد القادر تاريخيا وجغرافيا على مضايقة النظام والنضال ضده.

ولقد تم ذلك في كل حكم السادات وعلى سبيل المثال:

- ترويج مؤسسات الدولة الدينية والأزهر والأوقاف لفكره من الاتجاه الإسلامي اتجاه متطرف.

- محاولة طمس جوانب الإسلام الخاصة بحقوق الرعية في الحرية والعدل المساواة والتركيز على فكرة طاعة ولي الأمر.

- قيام تلك المؤسسات ذاتها باغتيال قانون الأحوال الشخصية السابق والإتيان بقانون جديد غريب ومشبوه...

وفي هذا الصدد فإننا نذكر المعارك التي خاضها كل من:

- الشيخ محمد الغزالي (مظاهرة جامع الفسطاط والتي اتجهت إلى مجلس الشعب المصري) وكان لها الفضل في إجهاض المحاولة الأولى لذلك القانون المشبوه.

- تنديد الشيخ: عبد الحميد كشك - عبد الرشيد صقر أحمد المحلاوي.. بذلك القانون ودخولهم في معارك مع مشايخ السلطة بسببه.

* * *

- تشجيع الاتجاه الإسلامي - محاولة التحالف معه - استخدامه في ضرب القوى السياسية الأخرى.

وهذه المقولات تثير ضحكنا وسخريتنا أكثر من أن تثير ضيقنا فضلاً عن غضبنا لأننا ندرك منذ الوهلة الأولى أن ترويج مثل هذه المقولات هي محاولة مفضوحة ومكشوفة ولا تجد صدى لها بحكم مجافاتها للواقع الملموس.

- كما أن تلك التهمة ملتصقة تمامًا بالقوى السياسية الأخرى وخاصة اليسار ولا يمكن لأي مثقف أن يفصلها عن تلك القوى وعلى رأسها اليسار.

ولكن ينبغي لنا أن نضيف هنا مجموعة من الحقائق.

- فكيف يقوم السادات ونظامه بتشجيع الاتجاه الإسلامي وهو يدرك أنه الاتجاه الوحيد القادر تاريخيا وجغرافيا على النضال ضد النظام وهز أركانه.

- كيف يقوم السادات بتشجيع الاتجاه الإسلامي أو التحالف معه، مع العلم

بأن السادات شخصيا كان أحد أعضاء محكمة الثورة التي أصدرت أحكام الإعدام والمؤبدات وغيرها من الأحكام القاسية في عام ١٩٥٤ ضد الإخوان المسلمين.

يمكن لهيكل أن يقول إن ذلك كان من أجل ضرب الناصريين والشيوعيين.

ونكرر مرة أخرى أنه من غير المعقول أن يستخدم نظام ما أخطر قوة تعاديه وأكبر قوة تمتلك رصيدًا تاريخيا وتنظيميا لتصفية قوة أخرى لا تملك أي رصيد تاريخي أو جماهيري.

فالناصرية مجرد اتجاه عاطفي. والشيوعيون مجرد حلقات شديدة الضيق بين المثقفين.

كما أن مراكز القوى لم تكن تملك إلا رصيدا من القرف لدى الجماهير التي عانت منها طويلاً، ولم تكن ذات أثر إطلاقًا في الشارع السياسي. إلا أثر الشماتة فيها والعداء لها.

يبقى هنا سؤال. هل حدث صدام سياسي بين القوى السياسية في الجامعة مثلاً؟

والإجابة نعم.. وهذا أمر طبيعي مع إضافة شديدة في البساطة والوضوح وهو أن الاتجاه الإسلامي اصطدم هو في الجامعة بحكم أنه الاتجاه الجوهري للنضال في الجامعة اصطدم مع الناصريين والشيوعيين والساداتيين والغربيين بلا استثناء.

إن خطورة المسألة تأتي من أن هيكل ومعه كل أقطاب المدرسة الاستعمارية يروجون لتلك المقولة لهدفين:

- تضخيم حجم اليسار. والادعاء بأنه حركة جماهيرية مما يستدعي استخدام قوة سياسية أخرى ضدها.
- التغطية على كل الخيانات التي عانت منها الجماهير طويلاً.
- بدءًا من تحالف الشيوعيين مع الإنجليز في الحرب العالمية الثانية.

- ومرورًا بالاعتراف بإسرائيل وإدانة كفاح الإخوان ضدها.
- ومرورًا أيضًا بإدانة كفاح الإخوان ضد الإنجليز في القناة ١٩٥١ بدعوى أن القضية الاجتماعية والصراع الطبقي هما الأساس.
- ومرورًا أيضًا بخيانة اليسار لقضية الفلاحين ضد الإقطاع بدعوى أن الاستعمار هو الأصل (لاحظ التناقض بين النقطتين السابقتين في كلام الشيوعيين وانظر صحف الشيوعيين في نهاية الأربعينيات).
- ومرورًا أيضًا بحل الأحزاب الشيوعية واندماجها في الاتحاد الاشتراكي سيئ السمعة في الستينيات.
- ومرورًا أيضًا بالتطبيل لعبد الناصر في ضرب الإخوان.
- ومرورًا أيضًا بالترويج لسياسة السادات في بداية حكمه (لطفي الخولي - الطليعة - مدرسة السادات السياسية).

وفي النهاية فإن الاستعمار قد استخدم اليسار وكذلك عبد الناصر وبعده السادات.

- يلاحظ هنا أن السادات سمح لليسار بحزب علني هو (حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي) الذي يضم ضمن ما يضم الناصريين والشيوعيين في حين لم يسمح للاتجاه الإسلامي بأي شكل علني.
- كما سمح السادات لليساريين بالانتشار في المؤسسات الصحفية والثقافية كما استوزر عددا منهم نذكر منهم على سبيل المثال: محمد صبري عبد الله، وفؤاد مرسي.
- والآن فإن المسألة تتضح فهيكل يقلب الأمور على رأسها تمامًا ويقرر عكس الحقائق على طول الخط.

* * *

وتبقى نقطتان أوردهما هيكل وينبغي لنا الرد عليه:

الأولى: أن الاتجاه الإسلامي اكتسح الانتخابات سنة ١٩٧٨ بدعم من النظام.

وفي الحقيقة فإننا ننبه هيكل إلى أن الاتجاه الإسلامي يكتسح الانتخابات دائمًا برغم أنف النظام سواء كانت انتخابات نظيفة أو نصف نظيفة أو حتى ربع نظيفة.

- اكتسح الاتجاه الإسلامي الانتخابات في الأعوام: ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩. وليس ٧٨ فقط كما يدعي برغم التدخل من الإدارة وأمن الجامعة وبرغم الشطب والاعتقالات والمضايقات كما أن الاتجاه الإسلامي اكتسح انتخابات عام ١٩٥١ (حسن دوح).

وعلى هذا فالاتجاه الإسلامي اكتسح الانتخابات برغم أنف النظام.

الثانية: مسألة أن حوالي ٤٠٠,٠٠٠ قاموا بالصلاة في ميدان عابدين. وهيكل يقول لا يعقل أن يتم تجمع مثل هذا العدد بغير رضا النظام.

والحقيقة التي تنبه لها هيكل أن العدد وصل إلى المليون وقد قاموا بالصلاة إحياء لسنة رسول الله ﷺ. ولم يكن النظام قادرًا على منعها.

كما أنه كيف لنا - كمثقفين - ألا نستطيع التمييز بين مكسب تحققه حركة نتيجة نضالها وكيف نقلب الأمور فجأة فيصبح إغضاء طرف من النظام. أو تشجيعًا منه.

* ملاحظة أخيرة:

إن الصدام بين السادات والاتجاه الإسلامي كان مستمرًا ولم ينقطع: حادث الفنية ٧٤ - التكفير والهجرة ٧٥، ٧٦، ٧٧. قضية الجهاد الأولى ٧٦ والثانية ٧٨، غير آلاف أخرى من المعتقلين دائمًا من الاتجاه الإسلامي.



مفاهيم إسلامية

(٤)



حرية الرأي



مقدمة

سؤال الإنسانية الدائم : ما هو النظام الذي يصلح للإنسانية وتسعد به، ويحقق لها حياة مستقرة هانئة ؟... وبديهي أن إجابة السؤال بالنسبة للمؤمنين بالله ... هو أن الله هو الذي خلق الإنسان، ويعلم ما يصلحه وما يفسده، ومن ثم فإن القواعد التي وضحها الله تعالى وأرشد بها الإنسان، هي التي تحقق ذلك الهدف. وبما أن الإسلام هو دين الله الحق، وبما أن الرسول صلى الله علية وسلم هو النبي الخاتم، فإن النظام الإسلامي وحده هو الذي يحقق ذلك، ولكن هذا في حد ذاته ليس حلا نهائيا، فالنظام الإسلامي يطبقه بشر، ومن ثم فإنه مستوي ارتفاع هذا البشر إلى مستوي النظرية هو شرط تحقيق ذلك، وهذا الشرط بدوره موجودة في كل النظم، فالنظم كلها يطبقها بشر، ومن ثم فإن من الممكن أن يحسنوا التطبيق أو لا يحسنونه، سواء كان النظام المطبق ربانيًا أو وضعيًا ونخلص من هذا أن النظام الوضعي والنظام الرباني يتساويان في شرط التطبيق، ولكن للنظام الرباني فضل لا شك فيه بالنسبة للنظرية .

من زاوية أخري فإن الخبرات البشرية ذاتها ومن خلال تجارب وقعت في التاريخ القديم والحديث والمعاصر تقول أن النظم الوضعية فشلت في الأمرين معاً، في النظرية والتطبيق على حد سواء، بل لقد عانت البشرية معاناة هائلة بسبب تطبيق النظم الكسروية والهرقلية، بل والديمقراطية والاشتراكية والفاشية والنازية والشيوعية، بل إن مستوي المعاناة كان بشعا، ففي ظل تلك الأنظمة وبالذات الديمقراطية منها حدثت إبادة لشعوب الأمريكتين وأستراليا وحدثت مذابح في معظم أرجاء العالم نفذها الرجل الأبيض، ونشأت الصهيونية ثم دوله إسرائيل،

وهى حاله تجسيم للظلم على مستوي اغتصاب حقوق شعب وأرض وعلى مستوي انتهاك حقوق الإنسان بصورة يومية وعلى مدار الساعة لعشرات السنين تحت سمع العالم وبصره، والديمقراطية هي التي استخدمت القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية وهي التي مارست نهب العالم ، ولا تزال قوات الدول الديمقراطية تنتهك سيادة الشعوب في العراق وأفغانستان وفلسطين ....الخ أضف إلى ذلك إفساد البيئة واستنزاف ثروات الأرض....الخ

والمحصلة أن هناك شقاء لا شك فيه ترتب على تطبيق تلك النظم، شقاء جماعي ... أما في التطبيق الإسلامي فإن المسألة مختلفة، صحيح أنه هناك تجاوزات، ولكنها تجاوزات فردية لا ترقي إلى تشكيل ظاهرة، وهي مرفوضة طبعاً، أي أننا لو قارنا بين مستوي السعادة في ظل الحضارة الإسلامية ومستواها في الحضارات الأخرى وخاصة الغربية نجد أنه لصالح الحضارة الإسلامية بامتياز، ونحن هنا نتكلم عن الظاهرة في مجراها الرئيسي، أو في المحصلة النهائية، ونكرر أن هناك استثناءات ولكنها لا تخرق القاعدة، هناك استثناءات إيجابية في الحضارات الأخرى، وهناك استثناءات سلبية في التطبيق الحضاري الإسلامي ولكن تظل القاعدة هي نفسها وبديهي أن النظام الإسلامي به من الاتساع والمرونة ما يسمح بالاستفادة أيضا من الخبرات الإيجابية للتجارب الأخرى، وهذا لا يخالف الشرع الحنيف، بل هو فريضة أوجبتها الشريعة الإسلامية ذاتها، فالحكمة ضالة المؤمن أني وجدها فهو أحق بها.

الحديث عن الحرية في الإسلام، وحرية التعبير، ليس حديثاً عن النظام السياسي الإسلامي فقط، بل هو حديث يتصل بمنهج الإسلام ذاته؛ لأن الحرية في المنهج الإسلامي غاية ووسيلة في نفس الوقت، فلا إيمان بدون حرية، ولا إكراه على الإيمان ولا إكراه أيضا على الكفر، وبالنسبة لنا نحن المسلمين، فإننا نؤمن أن

الإسلام في فطرة الناس، إذن لو تنافس الناس بحرية، لو لم يكن هناك قهر ولا عسف، لو لم يكن هناك تعصب مسبق لأي شيء لأصبح الإيمان سهل جدا، ولعل هذا واجب أمة الإسلام واجبها القضاء على الاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي والتعصب، وإعطاء الناس حرية الاختيار، وفي تلك الحالة فإن الناس تختار الإسلام لأنه دين الفطرة، وحتى لو لم يختاروه فهم أحرار إذ لا إكراه في الدين، المهم أن أحد مهام الأمة الإسلامية هو تحقيق حرية الاختيار وإزالة كل العوائق التي تحول دون ذلك، ومن نافلة القول أن الجهاد في الإسلام في أحد أهدافه هو إزالة الأنظمة الاستبدادية التي تقهر الناس على الكفر، وتحقيق حرية الدعوة، فإذا تحققت حرية الدعوة بدون عقبات فلا داعي أصلاً للقتال.

وهكذا فالحرية هي في صميم المنهج الإسلامي من ناحية إقامة الحجة على الناس بتحقيق حرية الاختيار حتى يختار الناس الإسلام أو الكفر بحرية وحتى يتناقشوا ويتحاوروا بدون ضغوط.

الحرية أيضا ومن ثم حرية التعبير والتفكير تظهر في تصور الإسلام للإنسان، استخلافه في الأرض، ودوره فيها، حمله للأمانة ثم وجود نوازع للخير وللشر في نفسه، وهكذا فإن ذلك لا يتسق مع بعضه البعض بدون أن يكون ذلك الإنسان حرا. فلا معني لأن يكون الإنسان خليفة مسئولًا بدون هذه الحرية بكل أنواعها على أن من المهم هنا أن نحدد أن الإنسان يتكون من كيان مادي وروح وعقل، والروح خارج إطار فهمنا، والكيان المادي خاضع لقوانين وسنن المادة التي جعلها الله عليها، ويبقي أن الحرية منوطة بالعقل الذي يتميز به الإنسان على سائر المخلوقات، فالإنسان مسير فيما يخص الجزء المادي من تكوينه ولكنه مخير فيما هو متاح له من خير أو شر «ضمن مشيئة الله الكلية طبعا»، ويختار بين الخير والشر

بعقلة ومن ثم فلا مسئولية على المجنون أو الصغير أو المكره وهو مسؤول عن اختياره ويحاسب عليه يوم القيامة فضلا عن وجود الجزاء الدنيوي.

وهكذا فالحرية هنا شرط لازم لتكليف الإنسان وحمله للأمانة ومسؤولة عن أعماله وأقواله.

وإذا كان ذلك شأن الإنسان حسب التصور الإسلامي، فإن النظام الإسلامي ككل يؤكد ويساعد ويحقق تلك الحرية، فنظام الشورى في الإسلام يحقق أوسع مناطق تلك الحرية، وكذا فإن النظام الاجتماعي الإسلامي يحقق الإشباع المادي لكل إنسان حتى لا تكون الحاجة حائلا دون حرية التفكير والتدبير، والنظام الاجتماعي الإسلامي بما فيه من تحقيق للعدل، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، النقد والنقد الذاتي، طلب العلم.. كلها لتحقيق تلك الحرية فالعلم مثلا يزيد مساحة الوعي ومن ثم القدرة على حرية التعبير، والعدل يجعل الإنسان آمنا إذا عبر عن رأيه، والنقد والنقد الذاتي هو في صميمه نوع من حرية الرأي واعتبار ذلك واجبًا على المسلم تجاه الأمة وتجاه المجتمع وتجاه أخيه المسلم والنظام الأخلاقي الإسلامي الذي يمنع شرب الخمر والزنا والشذوذ ولعب الميسر ....إلخ كلها تقوي الإنسان والمجتمع على أداء واجب حرية التعبير، بل حتى العبادات المباشرة كالصلاة هي نوع من الطاعة لله أولا ثم لتحقيق أهداف قوة النفس والبدن وعدم الخوف إلا من الله ومن ثم القدرة على إبداء الرأي دون خوف، وشهادة أن لا إله إلا الله ومن ثم الشجاعة في قول الحق ، والصيام، فمن لم يدع قول الزور والعمل به أي في المقابل أن يصر على قول الحق والعمل به، فلا حاجة لله في أن يدع طعامه وشرابه، والحج مثلا هو اجتماع لتبادل الرأي بين المسلمين كل عام، والزكاة هي نظام اجتماعي تحقق رفع الفقر والبطالة عن المجتمع ومن ثم يصبح غير خاضع في رأيه

إلا للحق وليس لصاحب المال أو السلطان.....الخ

هناك أيضا محطات ومواقف كلها تدل على الحرية عموما وحرية التعبير خصوصا، وهناك وثائق تاريخية مثل وثيقة المدينة، أو خطب الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وغيرها تشكل علامات مضيئة في تاريخ الحضارة الإسلامية وكلها تؤكد على حرية الرأي.

على أننا يجب أن نعترف بأن أحوال المسلمين ليست على ما يرام، وأنه غاب عنهم الكثير من تلك القيم وأن من الواجب عليهم استعادتها ليس من أجل أنفسهم فقط، فلن يتقدموا إلا بها، ولكن أيضا من أجل تقديم نموذج حي للشعوب الأخرى، وتقديم بديل حضاري رائع للنظم السائدة حاليا في العالم، والتي جلبت الشقاء للإنسان، وإذا استمرت يمكن أن تقود البشرية إلى كارثة ومن ثم فإن التقدم بالمشروع الإسلامي واجب وضرورة لإنقاذ البشرية وهذا واجب كل الأمة عموما، والعلماء منها خصوصا ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٤٣].



الإنسان في التصور الإسلامي

للحرية في الإسلام، ومن ثم كافة أشكالها بما فيها حرية التعبير أصل منهجي، يرجع إلى التصور الإسلامي عن الإنسان، ودوره في هذا الكون ومسئولياته التي أسندها إليه تعالي.

فالله تعالي خلق الكون كله، وخلق الإنسان أيضاً، وأفضل صور الإنسان هي في عبوديته لله تعالي، وهذا جوهر الحرية، لأن العبودية لله تعالى تحرر تجاه كل ما هو سوي الله تعالي. وقد سخر الله تعالى الكون لخدمة الإنسان:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَّ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهَّ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]، وجعل الله الإنسان خليفة له في الأرض، وهذا تكريم ما بعده تكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَّ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، وقد اختار الإنسان أن يحمل الأمانة وهذه الأمانة هي حرية الاختيار، أو المسؤولية، أو الإيمان أو العقل على اختلاف التفسيرات ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢] وبداية فحمل الأمانة، واستخلاف الإنسان في الأرض، وتسخير الكون له تقابله مسؤولية، فالإنسان مسؤول أمام الله، فإذا أحسن وعمل فاز فوزا عظيما وإذا أساء وعمل عملاً سيئا خسر خسرانا مبينا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور:٢١]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] والمسئولية حسب الطاقة طبعا ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٨٦]وهو أيضا ليس مسئولًا عن تصرفات غيره ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:١٣٤].

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام:١٦٤] هكذا فالإنسان في التصور الإسلامي كائن عاقل مسئول مكلف، ويتحمل مسؤولية اختياره وعمله، ومن ثم لا يمكن إسناد هذه المسؤولية الخطيرة إليه دون أن يتاح له عقل يستطيع أن يميز به بين الخير والشر، وأن تكون له حرية الاختيار بين مختلف المناهج والأعمال، وهكذا فالحرية تأتي في صميم المنهج الإسلامي، والإنسان ليس حرا في كل شيء طبعا بل هو حر فيما هو مسئول عنه ومكلف به، وهذا كله بالطبع في إطار مشيئة الله تعالى، ويمكن القول أن الله تعالى أراد أن يكون للإنسان إرادة. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٧-١٠] .

في إطار المشيئة الإلهية أيضا، جعل الله التفكير فريضة إسلامية أي جعل المعرفة بالنسبة للإنسان تكون عن طريق استخدام العقل أو يكون استخدام العقل أحد طرق الوصول إليها، وبدية فإن هناك طرق أخري للوصول إلى الهدية والحق،

الطريق الوجداني وهو لا يقل أهمية، وطريق الفطرة، وهذه تحتاج إلى إلغاء كل القيود والحواجز على الإنسان لتعمل فطرته بصورة سليمة ، إنها أشبه بالسير في الطريق الصحيح، ولكن القوي الشيطانية تضع علامات مزيفة لتفسد على الإنسان فطرته وتقوده إلى الطريق الخطأ، وهذه العلامات المزيفة مثل الاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي الأعلام الفاسد ....الخ

ويجب إزالتها لتحقيق حرية الاختيار عن طريق العقل، أو عن طريق الفطرة والوجدان....

المهم أن التفكير فريضة إسلامية فرضها الله على الإنسان وأعطاه العقل الملائم ليقوم بها، ومن ثم يصل إلى المعرفة عن طريق العقل، وصمم الكون بطريقة معينة بحيث أن فيه من الآيات والتدبير ما يقود الإنسان إلى الحق ، والنصوص التي تدعو إلى إعمال العقل في القرآن الكريم كثيرة جدا، ويستخدم الله لفظ العقل ومرادفاته الكثيرة في تلك الآيات وكثير أيضا من الآيات تنتهي بمثل «أفلا يعقلون؟ أفلا يتفكرون؟ أفلا يتدبرون؟ أليس منكم رجل رشيد؟ أفلا تتذكرون؟».

وهناك دعوة أيضا للسير في الأرض والاتعاظ بما حدث في التاريخ ومعرفة السنن الكونية في مختلف العلوم [1]: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد:١٩] .



(١) تحدث القرآن الكريم عن الحكمة في ١٩ آية، وعن العقل في ٤٩ آية وعن اللب أحد مرادفات كلمة العقل. في ١٦ آية وعن النهي – أحد مرادفات العقل أيضا – في آيتين، وكذا عن التفكير والتدبير والعقل أو عن الآيات التي ترشد الإنسان والآيات التي تتحدث عن النظر قد تكررت أكثر من ٥٠ مرة في القرآن الكريم.

التوحيد

التوحيد هو الحقيقة الكبرى في هذا الكون، وهو المقوم الأول للعقيدة الإسلامية، والتوحيد هو الرسالة الجوهرية التي جاء من أجلها جميع الأنبياء من لدن آدم وحتى محمد صلي الله عليه وسلم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]

وقد تعرضت عقيدة التوحيد- في حياة الأمم السابقة من أهل الكتاب- إلى الكثير من التحريف والخلط، إلا أن الله تعالى حفظ للإسلام والمسلمين باعتباره خاتم الأديان، وباعتبار محمد صلي الله عليه وسلم آخر الأنبياء، وباعتبار القرآن الكريم آخر الكتب السماوية ـ حفظ له القرآن من التحريف، وأصول العقيدة من التشويش ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩]

وهكذا فإن التوحيد هو أهم ما يميز أمة الإسلام عن غيرها من الأمم.

والتوحيد بالطبع شرط لصحة العقيدة والنجاة في الآخرة وهو أيضاً دافع مهم من دوافع الإبداع الحضاري وتحقيق العمران في الأرض،وكذا لتحقيق كل أشكال الحرية ، وللتوحيد آثار مهمة على الصعيد الحضاري، ذلك أن انفراد الله تعالى بالألوهية والربوبية، وإدراك أن جميع البشر عباد لله يعني بالتالي ضرب مفاهيم الطبقية والعرفية الاقتصادية والسياسية والجنسية واللونية، وليس هناك فرد أو طبقة أو جماعة بشرية أفضل من غيرها أو أحق بالثروة أو السلطة، والتفاضل لا يكون إلا بالتقوى.

والتوحيد أيضاً يمنع احتكار الدين لطبقة، أو المتاجرة به من قبل رجال الدين

المنحرفين، أو ممارسة الاستبداد السياسي أو الاستئثار بالثروة، بدعوى أن هذا أو ذاك هو ظل الله على الأرض، أو المتحدث باسمه أو شعب الله المختار، فالله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وجميع الناس عباد لله.

ولقد حرص الإسلام على إدماج التشريع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، حتى يكون الله وحده مصدر التشريع وبالتالي لا يستغل فرد أو طبقة أو مجموعة سلطتها في سن التشريعات التي تكرس سلطتها السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ومهمة أمة الإسلام الأولى هي إخراج العباد من عبادة العباد بأي صورة من الصور إلى عبادة الله الواحد القهار.

وللتوحيد أهمية خاصة في المشروع الحضاري الإسلامي ذلك أن العمران البشري، كالعبادة، مرتبط بغاية هي إرضاء الله تعالى، ومرتبط بأسلوب هو الأسلوب الذي وصفه الله تعالى في تشريعه المحكم، وهذا أولاً يحقق أوسع الحريات، وأسلم وسائل العلاقات الإنسانية، بين الإنسان والكائنات والطبيعة في تناغم وتناسق يحفظ للأرض وللكون أمانه في الحاضر والمستقبل، وفضلاً عن هذا فإن مقتضى التوحيد يعني الخضوع لله تعالى في ممارسة العمران البشري كوسائل وغايات، أي الخضوع لشريعة الله في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والعلاقات الدولية.. إلخ، وهذا بالطبع يحقق أفضل الفرص للإبداع الحضاري وأكثرها أمانا وعدلا وجدوى، ذلك أنه مهما أوتي فرد أو جماعة بشرية من العلم فإنها لا تحيط بأسرار الإنسان والكون وبالتالي لا تستطيع أن تضع التشريعات الصالحة للعلاقات بين البشر أو بين البشر والكون والكائنات فضلاً عن حرص هذا الفرد أو الجماعة البشرية على تحقيق مصالحها الخاصة دون الباقين، أما الله تعالى إله الناس جميعاً رب الناس جميعاً وخالق كل شيء، العالم بكل شيء فهو وحده

القادر على وضع التشريع المناسب لكل البشر والكائنات والكون بدون تحيز وبعلم وشمول وإدراك مطلق.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]

وللتوحيد أيضاً أهميته في إطلاق طاقات الإنسان التي أودعها الله فيه، لأن الإنسان الموحد يسير في اتجاه الفطرة، وبالتالي يوفر الوقت والجهد المترتب على الصراع مع الفطرة، والأمر أشبه بسرعة سفينة ذات كفاءة ميكانيكية معينة تسير في اتجاه التيار أو في عكس هذا الاتجاه، وبالطبع فإنها في الحالة الأولى تحقق سرعة أكبر وإنجازاً أكثر.

والإنسان الموحد يؤمن بأن الله هو أقوى الأقوياء، فلا يخاف غيره، وهو الرازق فلا يلتمس الرزق من غيره وهو المعز المذل وبيده مقاليد كل شيء وبالتالي يستطيع أن يواجه أعتى القوى معتمداً على الله تعالى، وهذا يجعل الأمة الموحدة أكثر إنجازاً وأقدر على خوض كل التحديات وبالتالي يكون للتوحيد الأثر الجبار في التقدم الحضاري والعمران البشري، وهكذا فالتوحيد هو العنصر الأهم في المشروع الحضاري الإسلامي، إذ لو قارنا بين جماعة بشرية تدرك أن عملها الحضاري مرتبط بالله في الغايات والوسائل ووجدت أمامها تحدياً أكبر من طاقتها، فإنها لا تفر أمامه بل تأخذ بالأسباب وتشحذ طاقاتها ثم تتقدم معتمدة على مدد الله وبالتالي تستطيع أن تصنع المستحيل، أما الجماعة البشرية التي لا تؤمن بمدد الله، أي تؤمن بالأسباب وحدها فإن الحسابات المادية المجردة قد تجعلها تفر من أمام التحديات التي تراها بالحسابات المادية أكبر من طاقتها المادية.



كرامة الإنسان /الحرية

تمثل الحرية القيمة الأعظم- بعد التوحيد- بالنسبة للمشروع الإسلامي في مستواه العام والخاص، وتمثل القيمة الأعظم على الإطلاق بالنسبة للمشروع الحضاري العام، أي فيما يخص المسلمين وغير المسلمين.

ذلك أن رسالة الإسلام تستهدف تحرير الإنسان في كل زمان ومكان، وتستهدف تحقيق الحرية للبشر كل البشر، وحتى الجهاد في الإسلام موجه أساساً لرفع الظلم والإكراه ووضع البشر كل البشر على قاعدة الاختيار الحر بلا إكراه ولا تعصب ولا ظلم، ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٥٦] .

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً﴾ [الكهف:٢٩] .

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩] .

فالإكراه مرفوض إسلامياً، حتى ولو كان إكراه على الإسلام لأنه في هذه الحالة يكون حراماً ولا يرضى به الله ويحاسب من يقترفه، والفرق بين الإسلام والوثنية في أحد صوره هو الفرق بين الحرية والإكراه، ذلك أن الوثنية والكفر لا تتحقق إلا بالإكراه والخداع، والإسلام لا يتحقق إلا بالحرية والاختيار الحر.

الإسلام يحرص على حرية التفكير، حرية الاختيار «اختيار العقيدة والمذهب

والتصور»- حرية اختيار شكل النظام السياسي وحرية اختيار الحكام بكافة درجاتهم وحرية تغيير الحاكم، حرية التنقل، حرية إقامة الشعائر، حرية الحوار، وحرية تبادل الرأي، ويرفض التعصب والاستبداد السياسي والقهر الطائفي والديني والقومي والعرقي.

أما الكفر فيحرص على القهر والنهب والظلم والاستبداد والقوى الشيطانية تحرص على الحيلولة دون حرية الاختيار وتحرص على وضع علامات إرشادية مزيفة على الطريق وتحرص على نشر التعصب، وتحرص على إلغاء حرية التفكير بكل صورة ووسيلة، وتحرص على نشر الجهل والخرافة والتعصب للآباء والأجداد والأسرة والقبيلة والوطن والقومية.. إلخ. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

والقرآن الكريم يطلق على هذا السلوك الشيطاني كلمة «المكر وكلمة المكر تعني أصلاً الخداع والقهر واستخدام الوسائل المختلفة لإكراه الناس على العقيدة والتصور الذي تريده القوى الشيطانية ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٢٣] ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:١٢٣] وهذه الآية على لسان فرعون.

وصحيح أن الناس تصل إلى الإسلام وتعتنقه بمجرد تحقيق حرية التفكير والحوار والاختيار الحر، لأن الإسلام دين الفطرة، والعقل والكون والوجدان، والقلب يقود إليه، ولكن حتى بصرف النظر عن هذا فإن أمة الإسلام مطالبة

بتحقيق الحرية للبشر كل البشر بصرف النظر عن النتيجة، إذ إن تحقيق الحرية غاية في ذاتها ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[الأنفال:٣٩] أي فقاتلوهم حتى يكفوا عن إكراه الناس على الكفر فإن كفوا عن هذا فلا مشكلة، فقاتلوهم حتى يكفوا عن فتنة الناس بالقهر والظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي فإن كفوا فلا عدوان إلا على الظالمين.

المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة مأمورون بالجهاد لتحقيق حرية الاختيار ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾، ولتحقيق حرية التنقل ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ إذ كيف يسير الناس في الأرض بدون حرية التنقل وبالجهاد ضد التعصب وضد الجهل والخرافة، ضد الاستبداد السياسي أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» صحيح حققه الألباني والتفكير فريضة إسلامية، والله تعالى يدعو الناس إلى التفكير في عشرات الآيات القرآنية ﴿ أَفَلاَ يَتَفَكَّرُونَ..﴾ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ ، ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ .. إلخ.

الدفاع عن الحرية فريضة إسلامية، وتحقيق الحرية بكل صورها وأشكالها مهمة المسلم والجماعة الإسلامية والأمة الإسلامية، بل إن المهمة الأولى لنا هي الدفاع عن حرية الشعوب والطوائف والأقليات والأفراد على حد سواء، حرية الناس في الاختيار على مستوى العقيدة، وعلى مستوى النظام السياسي والاجتماعي وعلى حقهم في اختيار طريقة وأسلوب الحكم وحق اختيار وعزل الحكام وعمر بن الخطاب يقول : «**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً**».

وأبو بكر هو القائل : «**إن وجدتموني على حق فأعينوني وإن وجدتموني على باطل فقوموني**» والتقويم يعني حرية النقد وحرية خلع الحاكم أيضاً.



كرامة الإنسان

ومن مهام المشروع الحضاري الإسلامي تحقيق الكرامة للإنسان أي إنسان في أي زمان ومكان فلا قهر ولا تعذيب ولا تمثيل ولا انتهاك لهذه الكرامة بأي صورة من الصور، والأصل الإسلامي لحقوق الإنسان هو أفضل أشكال هذه الحقوق، لأنه ينطلق من أن كل البشر عبيد لله تعالى ومتساوون أمامه، فلا حق لبشر أن ينتهك كرامة بشر آخر ولا حق لجماعة بشرية ولا طائفة ولا دولة أن تنتهك حقوق الآخرين. وقد حرص الإسلام أيما حرص على صيانة حرمات الناس ولا يؤخذ الناس بالشبهات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات:١٢] ، «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ......**» صحيح تخريج السيوطي حققه الألباني، «**لا تضايقوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عوراتهم يتبع الله عورته..**» «**إذا ابتغى الأمير الريبة في الناس أفسدهم**».

والشريعة الإسلامية تجيز فقء عين من يطلع على إلى أسرار الناس : «**لو أن امرءًا اطلع عليك بغير إذن فقذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح**» والقرآن الكريم يؤكد حرمة البيوت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور:٢٧].

وحتى احترام طمأنينة الآخرين هي فريضة إسلامية «**لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً**».

الله تعالى كرم الإنسان، وجعله خليفة له في الأرض ونفخ فيه من روحه، وهذا المستوى العظيم الذي وضع الله الإنسان فيه- باعتباره خليفة له في الأرض وباعتباره كائناً فيه من روح الله، وباعتباره أكرم الكائنات تضع الأساس النظري والعملي لأفضل وأوسع الحقوق لصيانة كرامة الإنسان وحقوقه في نفسه وأهله وبيته وخصوصياته لأن الذي يعتدي على شيء من ذلك، أو ينتهك حقوق الإنسان فإنما هو يعتدي على أكرم المخلوقات أي على خليفة الله في الأرض، على كائن فيه من روح الله، والله تعالى جعل الملائكة تسجد للإنسان « ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف:١١]﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[الإسراء:٧٠]﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٣٠]



الانتصار للمظلومين فريضة إسلامية

- الإسلام يحض المظلومين على عدم السكوت عن الظلم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[النساء: ٩٧].

ويحض المظلومين على الدفاع عن أنفسهم:

« ما من مسلم يظلم مظلمة فيقاتل فيقتل إلا قتل شهيدا».حديث صحيح تخريج السيوطي .

ويحض على التصدي للظالمين:

« من رأى سلطانًا جائرًا مستحلاً لحُرَم الله ناكثًا لعهد الله مخالفًا لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل أو بقول كان على الله أن يدخله مدخله ».

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة إسلامية وهل يوجد منكر أكبر من الظلم الإسلام يأمر بالانتصار للمظلومين والدفاع عنهم:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ. وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. [الشورى: ٣٩].

وقال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يخذل مسلمًا في موضع تهتك فيه حرمته

وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته ».

كما قال :

« لا يقفن أحدكم موقفًا يقتل فيه رجل ظلمًا فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفن أحدكم موقفًا يضرب فيه رجل ظلمًا فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه ».

الدفاع عن المظلومين فريضة إسلامية، المظلومين سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً، فرداً أو جماعة أو أمة أو طائفة وفي عالم يسوده الاستكبار وتمارس دولاً وحكومات وجماعات بشرية وأفراداً الظلم على الآخرين، فإن الدفاع عن المظلومين يصبح رقماً مهماً في معادلة المشروع الحضاري الإسلامي

والله تعالى شرع الجهاد وفرضه على المسلمين للدفاع عن المظلومين مسلمين أو غير مسلمين، في كل زمان ومكان ورفع الظلم عن البشر أياً كان دينهم أو جنسهم أو لونه ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة:١٩٣]

﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً ﴾ [النساء:٧٥] .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى:٣٩]

وفيما يرويه الرسول ﷺ عن رب العزة : **«وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله أو آجله، وأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم يفعل».**

ويقول : «ما من مسلم يخذل مسلماً في موضع تهتك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يجب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته».

ويقول : «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل أو بقول كان على الله أن يدخله مدخله».

ويقول : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه».



حرية التعبير: الفريضة والآداب

حرية التعبير فريضة على الحاكم والمحكوم معاً، فالحاكم مطالب بتنفيذها عن طريق الشورى، وعن طريق تحقيق العدل والنظام القضائي المستقل، ونشر التعليم، وتحقيق الاكتفاء الاقتصادي وغيرها من الوسائل التي تجعلها ممكنة بحيث لا تخاف الرعية من ظلم أو فقر أو تهميش إذا مارستها، والمحكوم مطالب بها فردا وجماعات في كل المجالات تجاه الحاكم وتجاه الآخرين، وبدون حرية التعبير وكل ما يؤدي إليها يحدث خلل في المجتمع الإسلامي، فالمسلم مطالب بعدم كتمان الشهادة السياسية والاجتماعية والقضائية على حد سوء ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٨٣]

والنصيحة فريضة إسلامية لله ورسوله وللإمام ولعامة المسلمين وخاصتهم، والتواصي بالحق مثلا فريضة إسلامية لا بد أن يقوم بها الفرد والجماعات تجاه بعضها بعضا، ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر:١-٣] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد:١٢-١٧] ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[المائدة:٢]، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران:١٠٤].

بل إن خيرية هذه الأمة ترتبط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا لا يتحقق في جزء كبير منه ألا بحرية التفكير ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[آل عمران:١١٠]، ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨، ٧٩] .

بل إن الله تعالى فرض قيام مجموعة من الناس ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ ﴾ وهذه بداية لا تتحقق إلا بالتعليم وبحرية التعليم معاً ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢].

ومن الواجب الاستماع إلى الحكمة أو الموقف الصحيح وفي الحديث الشريف: « **إن الناس إذا رأوا المنكر ولا بغيرونه أوشك الله أن يعمهم بعقابه** » تخريج السبوطي في الجامع الصغير حققه الألباني وقال حديث صحيح . وعمر بن الخطاب القائل : «**رحم الله امرءًا أهدي إليَّ عيوبي**» وهو الذي يحمد الله تعالي أن يكون في أمة الإسلام من يقوم الخليفة إذا رأي منه اعوجاجا، ويستمع إلى امرأة تُخَطِّيءُ رأيه في المهور مسترجعا قائلاً : «**كل الناس أفقه منك يا عمر**» وعمر بن الخطاب نفسه أستمع إلي نقد الرجل وهو على المنبر أي أمام جمع من الناس عندما قال لهم : أسمعوا وأطيعوا ، فقال له الرجل : إنك وزعت القماش علينا وأخذت منه نصيبا أكبر، لأنك رجل طويل لا يكفي نصيبك من القماش لعمل هذا الثوب الذي

ترتدي، فطلب عمر من ابنه أن يقوم ويشهد أنه أعطي أباه نصيبه فضم النصيبين على بعضهما بعضا فكان هذا الثوب ، عندئذ جلس الرجل وقال الآن نسمع ونطيع، وكان عمر رضي الله عنه يستشير حتى الكفار في الأمور التي هم خبراء فيها فقد استشار الهرمزان في الحرب الفارسية وكان عمر أيضا لا يقصر مشورته على الشيوخ بل يلجأ إلى الشباب ويستشيرهم كما روي يوسف بن الماجشون . «فكان إذا أعياه الأمر دعاهم فاستشارهم لحدة عقولهم» وكان أسلوبه حين يريد اختيار أحد الولاة أن يذكر الشرط ويترك للسامعين الاختيار.

وهكذا فإن حرية التعبير فريضة إسلامية على الحاكم والمحكوم معاً ولكن لها آدابها التي لا تصلح بغيرها، وفي الحقيقة فإن كل الفرائض الإسلامية أيضا لها آدابها، وليس هذا انفراد بتلك الآداب بالنسبة لحرية التعبير، ومن تلك الآداب أن تكون حرية التعبير والنصيحة تستهدف صالح المجتمع وإلا تكون لأغراض مريبة، وألا تحدث فتنة حتى ولو كانت نصيحة صحيحة، فالمحافظة على الاستقرار ووحدة الجماعة فريضة أكبر، وهنا لا بد من الموازنة وحساب المصالح والمفاسد، ولا بد أن تكون طريقة النصح وممارسة حرية التعبير فيها سماحة، وألا تكشف عورة لفرد أو جماعة، وألا تنتهك حقوق الآخرين، وعلى أن تكون في إطار التراحم، تراحم الكبير بالصغير وتوقير الصغير الكبير، وألا تكون حقا يراد به باطل ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:١٨]، ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ

الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[الحجرات:١١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات:١٢] .

فإذا أراد إنسان أن ينهي إنسان آخر عن عمل حرام فلا يحق له أن يدخل بيته مثلا دون استئذانه ليقوم بذلك ولا ينظر داخل البيت أو يسترق السمع عليه فيعرف أنه يشرب خمرا مثلا، فيأمره وينهاه، ولعل في قصة عمر بن الخطاب عندما استرق السمع ونظر ودخل بيت أحد الرعية دون استئذانه، وأراد أن يعاقبه على شرب الخمر، فقال الرجل إنني فعلت حراما واحد، وأنت ارتكبت عدة محرمات، فتراجع عمر وأقر الرجل على صحة كلامه.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[الأعراف:١٩٩] .

﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء:١١٤] .

ولعل من أهم آداب حرية التعبير، ألا يشتد الإنسان على الآخرين في غير فريضة واجبة، وألا يعتقد نفسه على صواب دائما، فيلزم الآخرين بإتباع رأيه أو اجتهاد اجتهده سواء كان صوابا أم خطأ، طالما أنه ليس معلوما من الدين بالضرورة، ومن الآداب أيضا : ألا يفتي الإنسان بغير علم ولا تخصص دقيق، أو يجعل من نفسه معيارا للصواب أو الخطأ.



المنظومة الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية

المنظومة الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية منظومة كلها خير، ذلك أنها من عند الله تعالى الذي يعلم ما يصلح الإنسان والجماعة الإنسانية وما يفسرهما ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] ، وهي تحتوي على مساحات محددة فيها تشريع واضح ومحدد ومساحات أخرى متروكة تلاحقها والبشرى في إطار المنهج الإسلامي ومن خلال النصوص ذاتها والتصورات الإسلامية ومن خلال التطبيق ثبت أنها أفضل منظومة عرفتها البشرية في كل تاريخها الاجتماعي، وهي صالحة إن شاء الله للتطبيق في كل زمان ومكان، وهي القادرة في عالمنا المعاصر على إنقاذ البشرية من التخبط والتيه والشقاء والمعاناة .



المنظومة الاجتماعية الإسلامية

وهذه المنظومة شديدة الاتساع، ولا يمكن الإحاطة بها، وكلها تؤدي إلى حرية الرأي وتجعله فريضة على الجميع، على الحكام ألا يعطلوها، وعلى الرعية أن تؤديها مع الحاكم ومع الأمراء ومع بعضهم البعض، وبديهي أن هذه المنظومة تشمل النظام الأخلاقي الذي يؤدي بالضرورة إلى رقي الفرد ومسئوليته ومن ثم قدرته على الإدلاء برأيه، وتشمل العدل ونظام القضاء، فبدون العدل ونظام قضائي مستقل يكون من الصعب ممارسة حرية الرأي وفي هذا الصدد فإن كتمان الشهادة إثم كبير ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٣]، والشهادة هنا تشمل كل الأنواع ، الشهادة على الشئون العامة وعلى الشئون الخاصة، في السياسية والاجتماع والقضاء وكل شيء وتحذير الرسول صلي الله عليه وسلم من شهادة الزور، هي دعوة لقول الحق، والشجاعة في إبداء ذلك الحق،وفي خطبة الصديق بعد توليته الخلافة ما يدل دلالة قاطعة على ضرورة حرية الرأي وعلى فرضيتها « **إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، فإن استقمت فاتبعوني، وإن زغت فقوموني**»، المنظومة الاجتماعية تشمل أيضا الدعوة إلى العلم، والمسئولية عن المستقبل وحماية الأقليات ....الخ ... وكلها تقود إلى فرد ومجتمع قادرين على أداء أمانة حرية التعبير.

العدل:

العدل قيمة كبرى من قيم المشروع الإسلامي في مستواه العام، أي فيما يخص

المسلمين وغير المسلمين، وعلينا أن نبشر بالعدل ونأمر به ونأخذ به أنفسنا ونأخذ به الآخرين ونجاهد من أجل فرض العدل وتحقيقه في كل مكان ونصرة المظلوم أياً كان وفي أي مكان كان.

يجب أن نكون عادلين مع أنفسنا ومع الآخرين، عادلين في كل شيء في الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية على حد سواء، ويجب توخى العدالة في المنازعات القانونية المحلية والدولية، بين الأفراد وبين الجماعات وبين الأمم على حد سواء، يجب توخي العدالة وذلك بعدم ازدواج المعايير القانونية، فما يطبق على الشريف يطبق على الضعيف وما يطبق على الحاكم يطبق على المحكوم، وما يطبق على الأصدقاء والأحباء يطبق على الأعداء والمكروهين، وما يطبق على الغني يطبق على الفقير.

يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [النساء:٥٨]. ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النحل:٧٦]﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل:٩٠]﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[الحجرات:٩] .

والله تعالى يتوعد الظالمين ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[الشورى:٤٢] ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[آل عمران:٥٧]
﴿كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[آل عمران:٨٦]

وفي الحديث القدسي : «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما...**» حديث صحيح.

«**إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة...**» حديث صحيح.

ومن الأقوال المأثورة : «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة».

«الظلم يجلب النقم ويسلب النعم».

«لا يكون العمران حيث يجور السلطان».

عدم ازدواج المعايير :

ومن أهم مقومات العدل في الإسلام وجود معايير واحدة تنطبق على الجميع بدون استثناء، على من نحب ومن نكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[المائدة:٨]

على الأقربين والأبعدين بل على أنفسنا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾[النساء:١٣٥].

على الشريف والضعيف : «**إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف قطعوه، وايم الله لو أن فاطمة بنتي سرقت لقطعت**

يدها».

على القوي والضعيف فأبو بكر الصديق رضي الله عنه هو القائل: «**القوي منكم ضعيف حتى آخذ الحق منه والضعيف قوي حتى آخذ الحق له**».

ويروي التاريخ الإسلامي أن أميراً من أمراء الغساسنة كان يطوف بالبيت في عهد عمر بن الخطاب فوطئ إزاره شاب من قراره فلطمه الغساني لطمة جدعت أنفه، فذهب الشاب إلى الخليفة عمر بن الخطاب وشكا إليه، فقال عمر: للغساني له القصاص أو يعفو عنك، قال: كيف وأنا أمير وهو سوقه؟ فقال عمر: لقد سوى الإسلام بينكما فلا تفاضل إلا بالتقوى فأخذ الأمير يسترضي الشاب الأعرابي، فلم يرض إلا أن يلطمه كما لطمه، وعلم الأمير أن الخليفة عمر سيمكن هذا الأعرابي من القصاص لا محالة ففر إلى الروم مرتداً عن الإسلام، فما اهتم عمر بذلك، فإنه خير للإسلام أن يخرج منه أمير على أن يمارس ازدواج المعايير.

وعندما ضرب ابن حاكم مصر أي ابن «عمرو بن العاص» عندما ضرب القبطي المصري، أمر عمر بن الخطاب خليفة المسلمين عندما وصل إليه الأمر- أن يضرب القبطي المصري ابن حاكم مصر بنفس الطريقة قصاصاً له وقال قولته المشهورة: «**اضربه كما ضربك اضرب ابن الأكرمين**».

والرسول ﷺ لم يستنكف أن يضع نفسه موضع القصاص وعرض نفسه للناس ليأخذوا حقوقهم منه حيث صعد المنبر قبيل وفاته قائلاً ما معناه: «أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري.. ومن كنت أخذت منه مالاً فهذا.. ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي..» الحديث.

وعمر بن الخطاب يعطي الدرة للرجل ليضربه كما ضربه عندما اكتشف عمر بن الخطاب أنه ضربه بغير حق، ولكن الرجل يمتنع فيقول له: اعف عني فيقول

الأعرابي : ولا أعفو حتى أن عمر بات ليلته مغتماً، فلما رآه الأعرابي في اليوم التالي وجد أثر الألم والهم على وجهه، فقال الأعرابي لعمر بن الخطاب : لعل هذا لما كان بالأمس، فقال عمر الخليفة العادل : نعم فقال الأعرابي : الآن عفوت عنك.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر قضاته بالتسوية بين الخصوم في المجلس والنظر والإشارة والإقبال وقال في كتابه إلى أبي موسى الأشعري : «سو بين **الخصمين في مجلسك وإشارتك وإقبالك، حتى لا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يطمع قوي في ضعفك**».

ويروى أن أبا موسى الأشعري ضرب بعض رعيته أسواطاً وعلم ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرسل عمر إلى أبي موسى الأشعري، يقول له : لقد عزمت عليك إن كنت ضربته في ملأ من الناس فليضربك بينهم، فلما حضر الرجل، وضع أبو موسى الأشعري نفسه في موضع الاستعداد لتلقي الضرب بالسوط، فعفا الرجل عنه.

ويروى أيضاً أن عمرو بن العاص قال لأحد الرجال : يا منافق وكان ذلك في المسجد، فذهب الرجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له : «لقد نفقني الأمير- وكان عمرو بن العاص أميراً- وما نافقت منذ أن أسلمت، فأرسل عمر إلى «عمرو» وقال له : إن كنت نفقته في ملأ، فليضربك كذا سوط، فذهب الرجل إلى المسجد وقال : من منكم سمع الأمير ينفقني، قالوا : كلنا سمعه، فقرأ عليهم الكتاب فقال البعض : «أو تضرب الأمير؟! وصاحوا فيه مستنكرين ذلك، فقال الرجل : ليس لأمير المؤمنين هنا طاعة، فقدم عمرو بن العاص نفسه إلى الرجل ليضربه، فقال الرجل : الآن عفوت.

ووصل أمر العدل وعدم ازدواج المعايير «أن المسلمين كانوا قد دخلوا بلداً

يدعي صفد في إقليم سمرقند واشتكى أهل البلد إلى عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين أن القائد الإسلامي قتيبة بن مسلم قد دخل ديارهم من غير أن يتبع معهم سنة الإسلام في تخييرهم بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، بل قاتلهم قبل أن يعرض عليهم هذه الخيارات، وحول الخليفة هذه الشكوى إلى القاضي، فدرس القاضي الموضوع وتبين صدق الشكوى، فأمر الجند بالخروج من الديار التي دخلوها، ونفذ الجند الأمر، وتركوا مدينة صفد امتثالاً للعدالة الإسلامية التي لا تعرف ازدواج المعايير.

وهكذا تعكس نصوص الإسلام العدل وعدم ازدواج المعايير كأروع ما يكون، وتعكسها أيضاً ممارسات الإسلام وحضارة الإسلام، ولا شك أن التركيز على هذه القيمة يعطي دفعة قوية للمشروع الحضاري الإسلامي أمام البشر جميعاً وهم الذين يعانون الآن وقبل الآن من غياب العدل ومن ازدواج المعايير في ظل الحضارة الغربية. كما يحقق أروع معاني الحرية.

اللا عنصرية :

عانت البشرية طويلاً، ومازالت تعاني حتى هذه اللحظة، من الممارسات العنصرية للحضارة الغربية، ومنذ تفوق الحضارة الغربية وقهرها للعالم وسيطرتها عليه، وهي تمارس أشكالاً متعددة من العنصرية من إبادة أجناس كاملة «الهنود الحمر» والتطهير العرقي للشعوب كالبوسنة والهرسك، أو استرقاق السود وإقامة أنظمة الفصل العنصري - ، ومازال الوجدان العنصري والممارسات العنصرية موجودة في أمريكا وأوروبا، لأن العنصرية جزء أصيل من القيم الحضارية الغربية.

ولا شك أن إبراز المساواة الإنسانية واللاعنصرية وهي من السمات الأساسية في الإسلام، لا شك أن إبراز هذه النقطة تشكل نقطة إضاءة كبيرة للمشروع الإسلامي في مستواه العام ويعكس الإسلام- وتعكس الحضارة الإسلامية على

المستوى النظري والتطبيقي أروع صور المساواة واللاعنصرية فـ«الناس سواسية كأسنان المشط» و«إن أكرمكم عند الله أتقاكم» و«**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**» ، «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» ، «**إن الله أذهب عنكم عصبية الجاهلية وتفاخرها بالآباء والأجداد، الناس لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى**».

ولم تكن مصادفة أن التجربة الإسلامية الأولى قامت على أكتاف رجال كان منهم الكثيرون من العبيد والموالي أمثال بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وزيد بن حارثة.. وغيرهم، وكان من هؤلاء العبيد والموالي الكثير من قادة الإسلا العظام في كل مجال عسكري أو سياسي أو ثقافي، وكان منهم العلماء في العلوم الدينية والدنيوية على حد سواء وأسهم هؤلاء إسهاماً كبيراً في بناء وازدهار الحضارة الإسلامية، التي شارك فيها الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، التركي والفارسي والعربي على حد سواء.

ولعل إحدى السمات التي عاشت حتى الآن مع المسلمين ولم تتعرض للضعف في وجدانهم وسلوكهم برغم حالة الانحطاط التي يعيشونها هي روح المساواة الإنسانية واللاعنصرية، حيث إن المسلمين حتى الآن لا يعطون لاختلاف اللون أو الجنس أي اهتمام ويمارسون اللاعنصرية كسلوك عادي.

العناية بالضعيف:

العناية بالضعيف محور مهم من محاور المشروع الإسلامي ولعل الإسلام دون المذاهب والفلسفات الاجتماعية والسياسية جعل للضعفاء حقوقاً نظرية وعملية، وجعل هذه الحقوق واجبة وجزءاً من العقيدة والإيمان[1]، فالعطف على الصغير

(١) من الناحية النظرية مثلاً فإن الماركسية لا تعترف بتلبية حاجات غير القادرين على العمل «الكل حسب طاقته».

والكبير والآباء واجب شرعي[1]، ورعاية الأبناء الصغار وتربيتهم وتلبية حاجاتهم البدنية والنفسية وتهذيبهم وتعليمهم واجب شرعي على الآباء فإن غاب الآباء فعلى الأقارب وإلا أثموا ويمكن للتقاضي الشرعي أن يلزمهم بذلك.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾[الأحزاب:٦]وكذلك فللفقراء والمساكين والعاجزين عن العمل حق معلوم لدى الدولة الإسلامية ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:١٩] والأيتام كذلك يحرص الإسلام على رعايتهم أيما رعاية و﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[الضحى: ٩]

وقال رسول الله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى**». صحيح تخريج السيوطي حققه الألباني

والضعفاء عموماً من أيتام ومساكين وفقراء وصغار وكبار سن وغرباء ومرضى وعاجزين ومعوقين لهم حقوق- نكرر حقوقاً- معلومة في أبواب الفقه الإسلامي: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون:١-٣] وللرحمة بعد الحقوق باب كبير من أبواب الإسلام، والله تعالى وصف نفسه بالرحمة، وجعلها من أفضل الأخلاق والممارسات التي يتقرب بها العبد إلى ربه.

والعناية بالضعفاء يكملها العناية بكل الكائنات غير البشرية والمسلم رحيم بكل

---

(١) وكذلك البر بالأباء ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء ٢٣-٢٤].

مخلوقات الله تعالى «فإذا ذبحنا علينا أن نحسن الذبح» وتعذيب الحيوانات والطيور محرم شرعاً و«امرأة دخلت النار في قطة حبستها» والرحمة بالحيوان طريق إلى الجنة و«رجل دخل الجنة في كلب عطشان سقاه» و«إن في كل كبد رطبة لأجر والإنسان مسؤول أمام الله عن إطعام الحيوانات والمواشي التي يستخدمها ويقتنيها، ومسؤول» أيضاً عن عدم إرهاقها بالعمل- ومسؤول حتى عن نظافتها، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يخاف أن يحاسبه الله تعالى عن دابة تتعثر في الطريق لأنه لم يسو لها الطريق وهذه الحقوق التي يتمتع بها الضعفاء في المجتمع الإسلامي لا تنصفهم فقط بل تفتح أمامهم الطريق إلي حرية التعبير.

النقد والنقد الذاتي:

النقد والنقد الذاتي أحد مكونات المشروع الإسلامي، والنقد والنقد الذاتي يبدأ هنا بالاعتراف بالحالة التي وصلت إليها أمتنا، والبحث عن أسباب هذه الحالة، وطرق التخلص منها وتجاوزها وبناء نهضتنا وسيادتنا الحضارية من جديد.

والاعتراف بما وصلنا إليه يقتضي بالطبع الاعتراف بأننا الآن في حالة هزيمة حضارية، أمام الحضارة الغربية بالتحديد، وأن بلادنا مغتصبة ومخترقة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً، وخاضعة بصورة أو بأخرى للهيمنة الغربية، وأننا وصلنا إلى هذه الحالة من التفكك والانحطاط والخضوع نتيجة عوامل كثيرة ترجع إلى التآمر العالمي على أمة الإسلام وترجع أيضاً إلى تخلينا عن قيم إسلامية كثيرة وضرورية، وإلى سلبيتنا وقصر نظرنا، وترجع إلى الحكام والمحكومين على السواء، وبكلمة أخرى فإن لها أسبابها الخارجية والداخلية معاً، والنقد والنقد الذاتي كفيل بتحديد هذه الأسباب وكفيل أيضاً بوضع الحلول الصحيحة لمواجهة التحديات والسلبيات الخارجية والداخلية على حد سواء.

وللنقد والنقد الذاتي في قيمنا ومبادئنا وتراثنا الحضاري مساحة كبيرة، وأهمية خاصة، وهي من الفرائض الإسلامية والممارسات اليومية على مستوى الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة على حد سواء.

التوبة الفردية التي يمارسها المسلم في كل يوم عشرات المرات هي نوع من النقد الذاتي، والتوبة الجماعية التي يمارسها المسلمون في صلاة الجماعة أو في الحج أو غيرها من المناسك هي أيضاً نوع من النقد الذاتي، والتوبة هنا ليست مجرد توبة عن الخطايا أو الذنوب الأخلاقية فقط، بل هي أيضاً التوبة من الأخطاء الاجتماعية والسياسية، والآيات القرآنية التي نزلت بعد غزوة أحد مثلاً تؤكد ضرورة التوبة أو النقد، ألم تكن تلك الآيات تنتقد مواقف وسلوك المسلمين. وتحلل أسباب الهزيمة؟ وهي درس لنا لنتعلم النقد وتحليل الأخطاء الجماعية، والمرأة المسلمة التي خطأت عمر بن الخطاب خليفة المسلمين وهو فوق المنبر كانت تمارس النقد، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما استمع إلى هذا النقد واعترف بخطئه جهاراً وعلناً وأمام حشد من المسلمين كان يمارس النقد الذاتي ويقبل النقد في نفس الوقت ويرسي معالم النقد والنقد الذاتي وهو القائل «أصابت امرأة وأخطأ عمر». •

والمسلم مرآة أخيه- أليست هذه دعوة من الرسول ﷺ إلى النقد بل إلى وجوب النقد؟ «ورحم الله امرأ أهدى إلى عيوبي» تأتي أيضاً في هذا السياق؟

والآيات القرآنية الداعية إلى التوبة الفردية والجماعية كثيرة جداً، بل إن الله يخص بحبه التوابين ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة:٢٢٢].

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

أي : أن النقد الذاتي صفة من صفات الأنبياء، والله تعالى يجعل هذه الصفة من الصفات التي يستحق بها العبد أن يمدحه ربه قائلاً : ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ .

وهكذا فالنقد والنقد الذاتي فريضة وواجب على مستوى الفرد والجماعة والأمة، سراً وعلناً.

العلم :

لا شك أن تحصيل العلم يوسع مدارك الإنسان ومن ثم يزيد قدرته علي ممارسة حرية التعبير

ويشكل العلم- بصورته الشاملة- عنصراً هاماً من عناصر المشروع الإسلامي، وتأتي العلوم التجريبية والتقنية على رأس أولويات النهضة الإسلامية المرجوة ذلك أن أحد أسباب هزيمتنا وانحطاطنا الحضاري يرجع إلى إهمال الأخذ بأسباب العلم عموماً والعلوم التجريبية خصوصاً، والتفوق الأوروبي الهائل علينا هو في جوهرة تفوق علم وتكنولوجيا، وصحيح أن العلم في المشروع الإسلامي يستخدم لصالح الإنسان ولتحقيق أكبر قدر من السعادة لكل البشر، ولا يكون على حساب البيئة أو الكائنات الأخرى أو موجهاً لتحقيق أكبر قدر من المنفعة اللاأخلاقية على حساب الإنسان، أو لحساب مجموعة من البشر على حساب باقي البشر بعكس الحضارة الغربية التي تسببت في شقاء البشرية منذ صعودها

ولا تناقض هناك بين الإسلام والعلم، بل إن الإسلام يحض على العلم، وقد شهدت العلوم جميعاً وخاصة التجريبية منها ازدهاراً واسعاً في ظل الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها، وكانت هذه العلوم هي الأساس التي قامت عليه النهضة العلمية في أوروبا.

ولا شك أن نشر العلم والحصول على أحدث الحقائق العلمية والوسائل التقنية واجب شرعي، أياً كان مصدر ومكان هذا العلم «.. ومن سلك طريقاً يلتمس فيه

علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة..»(رواه مسلم)، «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها»، وفي هذا الصدد فإننا ندرك أن الحضارة الأوروبية لن تقدم لنا العلم بسهولة لأنها تريد باستمرار أن نظل متخلفين وخاضعين، علينا أن ننتزع هذه العلوم انتزاعاً، لاحظ أن أمريكا حاكمت المهندس المصري عبد القادر حلمي بتهمة سرقة التقنية الأمريكية!

وعلى كل مسلم أن يفعل ما يستطيع للحصول على العلم، ويعمل على تعليم الآخرين، لأن من يحجب العلم آثم شرعاً وبالتالي فإن التعليم هنا يصبح واجباً شرعياً وغاية لترقية الأمة والإنسانية وليس مجرد الحصول على خبرات علمية تحقق لصاحبها الكسب الشخصي والرقي الفردي أو الحصول على مركز اجتماعي أو مكاسب مادية. وتعليم الآخرين واجب شرعي كذلك، وعلينا أن نستفيد بخبرات العديد من العلماء البارزين في مختلف الأقطار الإسلامية، وكذلك ذلك الجيش الجرار من العلماء المسلمين المغتربين في أوروبا وأمريكا وغيرهما ووضع خطة طموحة للاستفادة من خبرات هؤلاء العلماء.

ويجب أيضاً أن يكون محو الأمية أولوية لدى المسلمين لأنه من العار علينا ونحن أمة «اقرأ» أن يكون بيننا من لا يعرف القراءة والكتابة، ورسولنا الكريم يقول : «**إنما بعثت معلما**».

ورسول الإسلام يقرر أن ساعة من دروس العلم خير من سبعين ساعة عبادة، ومداد العلماء يوزن يوم القيامة بدماء الشهداء، أي أن العلم والتعليم هو وحدة الذي يعادل مقام الجهاد والاستشهاد وهو مقام رفيع كما نعرف، ولعلنا نلتفت إلى المعنى المتضمن في كون أول آية نزلت من القرآن الكريم هي : «اقرأ» وهي دعوة مباشرة لتقديم العلم والتعليم على ما عداه.

والآيات التي تحض على العلم في القرآن الكريم تزيد على ٧٥٠ آية في حين أن تلك المتعلقة بالفقه حوالي ١٥٠ فقط، وكذلك هناك الآيات التي تحض على السير في الأرض والنظر في علومها المختلفة كالأحياء والجيولوجيا والجغرافيا وغيرها ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾.

إنصاف المحرومين:

في عالم يستأثر فيه ٢٠٪ من السكان بكل أو معظم الثروات على حساب ٨٠٪، في عالم يجوع فيه الناس بل يموتون جوعاً «يموت في إفريقيا وحدها ٥٠ مليون من الجوع سنوياً منهم ١٥ مليون طفل»، في عالم فيه اختلال مروع في توزيع الثروة سواء على مستوى القارات، حيث تستأثر قارات على حساب قارات أخرى، أو على مستوى الدول.

حيث تستأثر بالثروات دول على حساب دول أخرى، أو حتى داخل الدولة الواحدة حيث تستأثر طبقة على حساب طبقة، فإن إبراز اهتمام المشروع الحضاري الإسلامي بإنصاف المحرومين اقتصادياً والدعوة إلى عدالة توزيع الثروة أمر له أهميته في إقناع العالم بالمشروع الحضاري الإسلامي، وهو أيضاً فرض شرعي علينا تجاه الأمم والشعوب والأفراد المحرومين.

ونحن مطالبون بالدعوة إلى إعادة توزيع الثروة في العالم على مستوى العلاقات الدولية وقوانين التجارة وأسعار الخامات ونقل الخبرات العلمية والاهتمام بالتدريب والتعليم لتحقيق أكبر قدر ممكن من الثروة والنهضة للدول المختلفة والقارات المختلفة.

ومطالبون أيضاً داخل كل دولة على حدة بالانحياز للفقراء والمحرومين، والعمل على استعادة حقوقهم الاقتصادية والقضاء على التفاوت الطبقي ومنع

استئثار طبقة بالخيرات على حساب طبقة أو طبقات أخرى وننطلق في هذا الأمر من إدراكنا بأن الثروات المتاحة في العالم تكفي جميع سكان العالم آلاف المرات وليس في هذا مبالغة. وأن الحرمان والفقر الموجود في هذا المكان أو ذاك يرجع إلى سوء توزيع الثروة أو عدم استغلالها أصلاً ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١٨] وبالتالي فإنه من غير المعقول ولا من الطبيعي أن يستمر الجوع والفقر في العالم برغم كل هذه الثروات وعلينا أن نجاهد لرفع الظلم عن المحرومين أفراداً وشعوباً واستعادة حقوق هؤلاء المحرومين.

ولا شك أن الدعوة إلى إشباع حاجات الناس جميعاً أصل إسلامي واضح ﴿مَّا أَفَاء اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر:٧] وفي الحديث : « **ليس المؤمن بالذي يشبع و جاره جائع إلى جنبه** » .

التخريج : صحيح.

المرجع : صحيح الجامع الصغير.

تخريج السيوطي : (خد طب ك هق) عن ابن عباس.

تحقيق الألباني : (صحيح) انظر : حديث رقم: ٥٣٨٢ في صحيح الجامع.

والجار هنا قد يكون فرداً أو أسرة أو مدينة أو دولة أو قارة.. وهكذا» «**إذا جاع الناس فلا مال لأحد**» .

«**من كان عنده فضل ظهر فليجد به على من لا ظهر له..**» وعدد جميع أنواع النعم. حديث شريف.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن

نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[البقرة: ٢١٩]أي على الإنسان أن ينفق على المحرومين كل ما زاد عن حاجته. «لأخذت أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء» قول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

«ما حرم فقير إلا بما متع به غني» قول لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أي الحرمان يأتي من الظلم وسوء توزيع الثروة.

حماية الأقليات:

من العناصر المهمة في المشروع الإسلامي في مستواه العام مسألة حماية الأقليات، وفضلاً عن أنها فريضة شرعية، فإنها أيضاً تعكس القيم العظيمة لحضارة الإسلام بحيث تصبح هذه المسألة نقطة جذب حضاري لدخول العالم في المشروع الحضاري الإسلامي ولاشك أن الكثير من الأقليات الدينية والعرقية والقومية في العالم تعاني من الاضطهاد منذ أن سادت وهيمنت الحضارة الغربية على مقدرات العالم.

والأصول النظرية، والممارسات العملية في حضارة الإسلام تمثل أروع وأعظم ما عرفته البشرية في هذا الإطار فبداية فإن الإسلام يخدم خصوصية الأقليات ويحرص على تأكيدها : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٥٦] ويدعو إلى احترام الجماعات البشرية بعضها بعضًا : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الحجرات:١٣] ويجعل المعيار القانوني واحداً بالنسبة للأقلية والأغلبية فلا ازدواج معايير هناك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً

وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[المائدة:٢]﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِّ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[المائدة:٨] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء للهِّ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾[النساء:١٣٥] .

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[الممتحنة:٨]ويقول الرسول ﷺ: «**عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به**».

ويقول «**من ظلم معاهداً أو ذمياً أو كلفه قومه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة**».

وفي هذا الصدد ننقل عن المفكر الإسلامي إسماعيل الفار وفي قوله «لقد بلغ المجتمع الإسلامي حدوداً تفوق التصور في توفير حرية الاعتقاد للآخرين، وقد حدد المسلمون تلك الميزَة- حرية الاعتقاد- التي منحها الله لليهود والمسيحيين والصابئين في القرآن الكريم- حتى شملت الزرادشتيين والهندوس والبوذيين والمجوس والموالين للديانات الأخرى عندما اتصلوا بها».

ويقول الكاتب الإسلامي فهمي هويدي : «لم يقتصر الأمر على مجرد حماية الأقليات وتحقيق حرية الاعتقاد للآخرين، بل تعدي إلى قيام المسلمين بحفظ التراث الحضاري للديانات الاخرى».

ويروي شكيب أرسلان في مقال له بعنوان : التعصب الأوروبي أم التعصب

الإسلامي «أن أحد الوزراء العثمانيين كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال الدولة الأوروبيين فيما يتعلق بهذا الموضوع، فقال لهم الوزير العثماني: إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة أعدائنا ولو كنا قادرين على استئصالهم- ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على ألا نبقي بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام فما هجس في ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلاً.

وكان إذا خطر هذا ببال أحد ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة ويواجهه أمثال زنبيلي أفندي على شيخ الإسلام ويقول له بلا محاباة: ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية وليس لك أن تزيحهم عن أوطانهم فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً لشرع الله الحنيف، فيبقى بين أظهرنا حتى أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وكلهم كانوا- وآخرون- لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، أما أنتم معاشر الأوروبيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد، واشترطتم على من أراد البقاء بينكم أن يتنصر، ولقد كان في أسبانيا ملايين وملايين من المسلمين، وكان في جنوب فرنسا وشمالي إيطاليا وجنوبها مئات الألوف منهم، ولبثوا في هذه الأراضي أعصرًا مديدة، وما زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق في هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام، ولقد طفت بلاد أسبانيا كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم».

وفي إطار الحضارة الإسلامية، عاشت الأقليات ومارست عقيدتها وحريتها، بل شاركت في الممارسات الحضارية الإسلامية، وقد بلغ التسامح الإسلامي الديني في تجربة الحضارة الإسلامية في الأندلس مبلغاً عظيماً، ولدت أسماء مسيحية ويهودية في إطار الحضارة الإسلامية ولعل ابن ميمون الأندلسي خير شاهد على ذلك فبرغم

كونه يهودياً يعيش في مجتمع مسلم، إلا أن ذلك لم يعفه من أن يصبح مفكراً أو فيلسوفاً بارزاً.

وفي الحقيقة فإنه إذا كانت الأقليات قد مارست حريتها في ظل الحضارة الإسلامية، وإذا كانت هذه الأقليات في الشرق بالذات وفي حالة أقباط مصر على وجه الخصوص قد اندمجوا في الحضارة الإسلامية وساهموا في صنعها وازدهارها، وأصبحوا بالتالي جزءاً منها بحيث إنهم أصبحوا ينتمون إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن وإن اختلفوا في الدين والعقيدة، فإن هذا يعني أن المشروع الحضاري الإسلامي يضم المسلمين ويضم مسيحيي الشرق عموماً وأقباط مصر خصوصاً، وأن هؤلاء كالمسلمين سواء بسواء سوف يحملون قيم المشروع الحضاري الإسلامي إلى العالم أجمع. وهكذا فإن هناك مساحة واسعة لحرية التعبير للفرد والجماعة للمسلم وغير المسلم.

استقلال القضاء:

لا يكون عدل، ولا تكون حرية، ألا بقضاء مستقل نزيه، ولعل كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري تمثل وثيقة هامة في هذا الصدد،[1] فمنذ ما ولي عبد الله بن قيس «أبو موسى الأشعري» القضاء في خلافة عمر بن الخطاب كتب إليه عمر كتابا بعدد من المحددات لتحقيق عدالة القضاء ونزاهته وقد جاء فيه:

- أن التشريعات العادلة وحدها لا تكفي، بل لابد من قاض يحكم بها ولابد من أن يضعها موضع التنفيذ «أنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له».

(١) النويري. نهاية الأرب في فنون الأدب – طبعة القاهرة – جزء ١٩ .

- أن الحق لا يبطله شيء، فإذا اجتهد القاضي وأخطأ، فإن عليه التراجع عن ذلك، مهما تقادم الزمن، وهذا التوجيه يفتح الباب لإمكانية استئناف حكم القاضي أمامه هو نفسه أو أمام غيره «لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق لا يبطله شيء، واعلم أن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل».

- أن الصلح متاح بشرط ألا يكون على حساب الحق، فالحق هو المعيار عند الصلح وعند النزاع على حد السواء «والصلح جائز بين الناس إلا ما أحل حراما أو حرم حلالا».

- أنه يجب المساواة بين المتخاصمين في مجلس القضاء، مهما كان الفرق بينهما في المنزلة العلمية أو الدينية أو السياسية أو المالية، وكذا يجب علي القاضي أن يعاملهما بحياد تام «آس بين الناس في مجلسك ووجهك»

- أن جميع المسلمين سواسية في الشهادة بصرف النظر عن مراكزهم الاجتماعية إلا في بعض الأمور التي تقدح في شهادتهم مثل شهادة أحدهم بالزور من قبل، أو كان قريبا لأحد الخصوم أو معروف بالولاء له «والمسلمون عدول في الشهادة، إلا مجلودا في حد، أو مجربا علية شهادة زور، أو ظنينا في ولاء أو قرابة»

- استخدام الفهم والعقل فيما لم يرد فيه قرآن أو سنه «الفهم – الفهم» فيما ليس فيه قرآن أو سنة.

- استخدام القياس كوسيلة من وسائل الفهم في القضاء «واعرف الأشباه والأمثال» ثم قس الأمور بعد ذلك.

- أن القضاء فريضة محكمة وسنة وثيقة.

والقضاء في الإسلام مستقل، لا يتدخل فيه السلطان، بل هو نفسه يخضع لهذا

القضاء ويكون على قدم المساواة مع الخصم أمام القاضي فقد سأل عمر بن الخطاب رجلا له قضية : «ماذا صنعت فقال الرجل قضي على بكذا، قال عمر لو كنت أنا لقضيت بكذا قال صاحب القضية فما يمنعك والأمر إليك؟ فقال عمر : لو كنت أردك إلى كتاب الله أو إلى سنة نبيه لفعلته، ولكني أردك إلى رأيي، والرأي مشترك»[1].

وأخذ النظام الإسلامي بمبدأ فصل السلطات، فجعل للقاضي وظيفة غير وظيفة التنفيذ ما لم ينص على ولاية خاصة في أمر ولايته قال أحمد بن إدريس القرافي في الذخيرة[2] : «ولاية القضاء متبادلة لحكم لا يتدرج فيها غيره، وليس للقاضي السياسة العامة لا سيما الحاكم الذي لا قدرة له على التنفيذ، وأما قوة التنفيذ فأمر زائد على كونه حاكما، فقد يفوض إليه التنفيذ وقد لا يندرج في ولايته، وليس للقاضي قسمة الغنائم وتفريق أموال بيت المال على المصالح وإقامة الحدود وترتيب الجيوش وقتال البغاة».

وكان الخلفاء يقترون على أنفسهم ويوسعون في أرزاق القضاة، فكان رزق سليمان بن ربيعة الباهلي في عهد عمر خمسمائة درهم مشاهرة وكذلك كان رزق شريح في عهد علي ، وجرت سنة الخلفاء بعدهم على التوسعة في أرزاق القضاة وترجيهم على الولاة.

ومن الآداب المطلوبة للقاضي : «ألا يشتري بنفسه ولا بوكيل معلوم حتى لا يسامح في البيع» وكان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز يقول : «تجارة الولاة مفسدة وللرعية مهلكة، فكان يغني القضاة بسعة الرزق عن التكسب والاتجار»[3] .

(١) ابن الأثير « أسد الغابة في معرفة الصحابة» – طبعة دار الشعب القاهرة.

(٢) نقلا عن عباس محمود العقاد – الديمقراطية في الإسلام – نهضة مصر القاهرة – ط ٢٠٠٥.

(٣) نقلا عن عباس محمود العقاد – نفس المرجع السابق .

١- خطبة أبي بكر الصديق بعد توليته الخلافة

«أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي منكم ضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم....

أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله صل الله علية وسلم يطيق ، إن الله اصطفي محمدًا على العالمين، وعصمه من الآفات. فإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فاتبعوني، وإن زغت فقوموني. وإن رسول الله ﷺ قبض، وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمطلب، ضربة سوط فما دونها، ألا وإنما لي شيطان يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني، لا أؤثر في إشعاركم وأبشاركم ، وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه، فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله. فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإن قومًا نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فأنها كم أن تكونوا أمثالهم؛ الجد الجد، والوحي الوحي ، والنجاة النجاة، وإن وراءكم طالبا حثيثًا، أجلا مره سريع، واحذروا الموت، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبط به الأموات.

إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، واعلموا

أن ما أخلصتم لله من أعمالكم ، فطاعة أتيتموها، وحظ ظفرتم به، وضرائب أديتموها، وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية، لحين فقركم وحاجتكم، واعتبروا يا عباد الله بمن مات منكم، وفكروا فيمن كان قبلكم.

أين كانوا أمس؟ وأين هم اليوم؟! أين الجبارون الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة ومواطن الحروب؟ قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميما، قد تركت عليهم القالات، الخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات. وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها، قد بعدوا، ونسى ذكرهم، وصاروا كلا شيء. ألا إن الله قد أبقى عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم، والدنيا دنيا غيرهم، وبقينا خلفًا بعدهم، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا. أين الوضاء الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم؟ صاروا ترابا، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم.

أين الذين بنوا المدائن، وحصنوها بالحوائط، وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور، هل تحس منهم من أحد، أو تسمع لهم ركزا ؟!.. أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم؟ قد انتهت بهم آجالهم، فوردوا على ما قدموا، فحلوا عليه، وأقاموا للشقوة أو السعادة فيما بعد الموت، ألا إن الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرًا، ولا يصرف به عنه شرًا إلا بطاعته واتباع أمره. واعلموا أنكم عبيد مذنبون، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته.

ألا وإنه لا خير بخير بعده النار، ولا شر بشر بعده الجنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.



٢-خطاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري

«بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن قيس. سلام عليك. أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

آس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييئس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعي، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين الناس، إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق لا يبطله شيء. واعلم أن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة. واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور بعد ذلك، ثم اعمد لأحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما تري.

اجعل لمن ادعي حقا غائبا أمدا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلا استحللت عليه القضاء. والمسلمون عدول في الشهادة، إلا مجلود في حد، أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا في ولاء أو قرابة. إن الله تولي منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات. وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن الذخر، فإنه من صلحت سريرته فيما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للدنيا بغير ما يعلم الله منه شنأه الله. والسلام.



النظام الاقتصادي في الإسلام

لا تتحقق حرية تعبير ما لم يكن الناس في مأمن من الفقر والحاجة، وألا تكون هناك بطالة وتعطل، وإذا كان البعض يري أن الحرية مستحيلة مع بقاء تحكم الأغنياء في الفقراء فإن هذا صحيح، ولكن من الصحة أيضا أن نختار الطريق الأفضل لتحقيق الحد الأدنى من الرزق والعمل لكل الناس دون أن تسوي بين النشطاء والكسالى. وهذا يحققه النظام الاقتصادي في الإسلام، بل أن هذا النظام أيضا يرتب حقوقا للعاجزين وغير القادرين على العمل، على عكس الاشتراكية العلمانية مثلا التي ليس فيها من الناحية النظرية وناحية المذهب الاقتصادي أي حقوق للعاجزين «فكل حسب عمله» بل ويحدث أن تظهر حركات مثل النازية تطلب إعدام غير القادرين على العمل والمسنين لأنهم عاله على المجتمع، ولكن الإسلام يكرم هؤلاء أيما تكريم، ويجعل إعطائهم حقهم في الحياة والرزق واجباً لا يتم الإيمان إلا به .

ومن القواعد العامة في الإسلام، أن المال مال الله والناس مستخلفون فيه، وألا تكون الأموال دولة بين الأغنياء ﴿مَّا أَفَاء اللهُّ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[الحشر:٧]، ويحرم الإسلام كنز المال وعدم إنفاقه على الفقراء والمحتاجين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهّ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهّ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة:٣٤]، ويكره طغيان الغني

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق:٦، ٧]، ويحرم الإسلام الربا أي الكسب بدون عمل أو مخاطر ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[البقرة:٢٧٥]، ويدعو إلى العمل، وتوفير العمل لكل قادر «إن أفضل الكسب، كسب الرجل من يده، وإن الله يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال » وكذا حرم الله الرشوة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء:٢٩]

النظام الاقتصادي الإسلامي :

نتحدث عن النظام الاقتصادي في الإسلام بالشكل الذي يظهر:

١- رفض الإسلام لكافة أشكال الاستغلال الاقتصادي،.

٢- أننا لسنا مجتهدين بالقدر الذي يسمح لنا باستنباط المذهب الاقتصادي من النصوص أو الواقع الإسلامي مباشرة؛ وبالتالي فلم يكن أمامنا إلا أن نأخذ باجتهاد من بحثوا في هذا الشأن الأستاذ المودودي في مؤلفاته المختلفة وكذلك مقالاته المترجمة إلى العربية تحت عنوان « مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة ».

والأستاذ سيد قطب (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، (معركة الإسلام مع الرأسمالية).

الأستاذ محمد الغزالي (الإسلام والمناهج الاشتراكية)، (الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية)، (الإسلام والاستبداد السياسي).

الدكتور مصطفى كمال وصفي (مقالات في مجلة المسلم المعاصر، ومجلة الدعوة).

الدكتور مصطفى السباعي (في كتابه اشتراكية الإسلام).

الدكتور محمود أبو السعود (كتابه خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي، ومقالات في مجلة المسلم المعاصر).

وفي محاولتنا لدراسة الاقتصاد الإسلامي يجب أن نلاحظ ما يأتي:

أولاً: إن الاقتصاد الإسلامي جزء من كل: بمعنى ارتباط الاقتصاد الإسلامي بمفاهيم وعقائد ونظم الإسلام، وعدم إمكان دراسته وتطبيقه بمعزل عنها.

ثانيًا: الاقتصاد الإسلامي اقتصاد أخلاقي وواقعي في غاياته وفي طرقه كذلك.

ثالثًا: الاقتصاد الإسلامي اقتصاد متميز عن المذاهب الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية وهو مخالف لها في أساسها النظري، مخالف لها في أساليبه، مخالف لها في غاياته وإن تشابهت بعض التفصيلات بين النظام الإسلامي وإحدى هذه النظم ليس إلا من قبيل تشابه عيون شخصين مثلاً دون أن تربطهما رابطة دم أو جنس.

رابعًا: إن الاقتصاد الإسلامي لا يسمح بأي شكل من أشكال الاستغلال.

خامسًا: إنه اقتصاد يحقق الحد المتوازن من الحياة الكريمة لكل فرد دون أن يضع عائقًا دون الارتفاع إلى آفاق عليا دون ظلم أو استغلال.

سادسًا: إنه اقتصاد يضع على عاتق أولي الأمر إتاحة فرص العمل لكل قادر والحاجة لكل محتاج حتى لا يبقى فقير أو عاطل في المجتمع الإسلامي دون النظر إلى دينه أو جنسيته.

سابعًا: إنه اقتصاد مخطط بمعنى أنه يجعل للدولة الإشراف المركزي على الإنتاج والتوزيع.

الهيكل العام للاقتصاد الإسلامي:

١- مبدأ الحرية الاقتصادية في نطاق محدود.

٢- مبدأ الملكية ذات الأشكال المتنوعة.

٣- مبدأ العدالة الاجتماعية.

مبدأ الملكية ذات الأشكال المتنوعة:

* في الرأسمالية: الملكية الخاصة هي المبدأ العام، والملكية العامة استثناء لظروف قاهرة.

* في الاشتراكية: الملكية العامة هي المبدأ العام، والملكية الخاصة استثناء لظروف قاهرة.

* أمّا الإسلام: فإنه يسمح بملكيات ذات أشكال متنوعة وليس لإحداها صفة المبدأ العام والأخريات استثناء بل بوصفها تعبر عن تصميم مذهبي أصيل قائم على أسس مذهبية ثابتة وموضوعة داخل إطارها.

* الملكية العامة: وهي عامة لمجموع المسلمين مثل الأراضي العامرة بشريًا حال الفتح الإسلامي (الأراضي الخراجية).

* ملكية الدولة: مثل الأنفال (كل الثروات الطبيعية من غابات ومعادن).

* ملكية خاصة: تكتسب فقط عن طريق العمل الاستثماري بما لا يهدد التوازن العام.مع ملاحظة أن الملكية الخاصة ذات مجال ضيق ويترتب عليها واجبات محددة تجاه الله وتجاه الجماعة، والملكية الخاصة وكالة عن الله الذي استخلف الجماعة في الثروة؛ الملكية الخاصة أداة وليست غاية في ذاتها وليست معيارًا للكرامة أو الفضل في المجتمع..

مبدأ الحرية الاقتصادية في نطاق محدد:

الإسلام لا يصادر الحرية الاقتصادية تمامًا كما تفعل الاشتراكية، كما أنه لا يتركها بدون حدود كما يملي النظام الرأسمالي.

ولكن الإسلام لا يعترف بالحرية الاقتصادية إلا في نطاق محدود ويجعل لها حدودًا تتمثل في:

١ - تحديد ذاتي - نابع من أعماق النفس بناءً على التربية الإسلامية، وانتشار المفاهيم الإسلامية في المجتمع. يلاحظ أن التحديد الذاتي دون التحديد الموضوعي ظل هو الضمان الوحيد لأعمال البر والخير بين المسلمين بعد انتهاء تطبيق الشريعة الإسلامية وخسارة الإسلام لتجربته في الحياة، وفقدانه للقيادة السياسية والاجتماعية للحياة ...

٢- تحديد موضوعي:

أ- تشريعات محددة تمنع أعمالاً محددة مثل: الغش، والميسر، والربا، وغيرها.

ب- إشراف ولي الأمر على الممارسة الاقتصادية وإعطائها التوجيه الصحيح لصالح المجتمع وبما لا يهدد التوازن؛ فيمكن أن يؤمم أو يمنع من ممارسة اقتصادية معينة حتى ولو كانت في أصلها مباحة والمعيار في هذا الأمر هو مصلحة الأمة الإسلامية.



المشكلة الاقتصادية في الإسلام وحلولها

تتمثل المشكلة الاقتصادية في نظر الرأسمالية في الندرة بمعنى عدم قدرة الموارد الطبيعية على تلبية احتياجات الإنسان المتجددة.

وتتمثل في الماركسية في التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات التوزيع.

أمَّا في الإسلام:

فيقول الله تعالى: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وتلك الآيات الكريمة تقرر في وضوح:

١ – أن الله تعالى قد خلق للبشرية من الثروات الطبيعية ما يلبي احتياجاتها جميعًا دون قصور ونفاد.

٢ – أن المشكلة تكمن في الإنسان ذاته بسبب أنه ظلوم كفار:

أ- كفار بعدم استخدامه الثروات الطبيعية، وعدم استثمارها بشكل علمي.

ب- ظلوم بعدم ممارسته عدالة التوزيع.

ولكن كيف عالج الإسلام هاتين القضيتين الأساسيتين وهي الإنتاج والتوزيع؟

أ- الإنتاج:

يدعو الإسلام إلى التنمية الاقتصادية بالتحريض على ذلك عقائديًا وفكريًا

وتشريعيًا.

- الإنتاج في الإسلام يخضع لمبدأ الإشراف المركزي.
- للدولة دور قيادي في التنمية الاقتصادية.
- الإنتاج يهدف إلى إشباع جميع حاجات الأفراد.
- يرفض الإسلام إنتاج الموارد الكمالية أو نصف الضرورية إلا بعد استكمال إنتاج الموارد الضرورية تمامًا.
- يرفض المجتمع الإسلامي إنتاج أدوات الترف والمجون رفضًا تامًا.

ب- التوزيع:

العمل والحاجة هما أساسا التوزيع في الإسلام، ولقد نظَّم الإسلام التوزيع بشكل يضمن منع وقوع الظلم والاستغلال ولم يسمح بالتملك إلا بالعمل الاستثماري غير الاحتكاري، ومنع الإسلام التملك عن طريق الحيازة في الثروات الطبيعية

يلاحظ أن الحاجة تدخل في التوزيع لعدم قدرة بعض البشر أصلاً على العمل كالعاجزين مثلاً، كما أن بعض الناس ينتجون أقل مما يحتاجون بسبب ضعفهم، وقد جعل الإسلام لهؤلاء وأولئك الحق في إشباع حاجاتهم. وضمن لهم نصيبًا من الثروة.



حقوق الفرد في المجتمع الإسلامي

١- حق الحياة.

٢- حق الكرامة.

٣- حق الحرية (حرية العقيدة – حرية إبداء الرأي – حق النشر).

٤- حق العمل لكل قادر.

٥- حق التعليم والعلاج المجاني.

٦- حق كل مواطن (ذميًا كان أو مسلمًا) في المأكل والمسكن والمواصلات.

٧- حق كل مواطن في الزواج وتكوين أسرة.

والسؤال الآن كيف تستطيع الحكومة الإسلامية تحقيق ذلك؟؟

إذا قررنا أن المجتمعات البشرية لم تشهد الفقر والظلم الاجتماعي بسبب قلة الموارد ولكن بسبب سوء توزيعها فإن الأمر يبدو واضحًا أن الفقر المدقع لا يوجد إلا بسبب الغنى المترف.



كيف قضى الإسلام على الفقر والاستغلال؟

مقولة إن الفقر ينشأ من قلة الموارد مرفوضة إسلاميًا بسبب كثرة الموارد التي أتاحها الله سبحانه للبشر.

والفقر ينشأ إمّا من عدم الاهتمام بالتنمية أو عن سوء التوزيع، وبالنسبة للأمر الأول فالإسلام يحث على التنمية كما تقدم شرحه وعلى هذا يبقى أمر واحد وهو استئثار قلة بالموارد وحرمان الأغلبية الساحقة، أو ما يعبر عنه رجال الاقتصاد بالاستغلال الاقتصادي والذي ينشئه:

أ- ممارسة البعض لأمور غير منتجة مما يشكل عبئًا على المجتمع كممارسة (الدعارة – والقمار) وغيرهما مما حرّمه الإسلام.

ب- ممارسة البعض لعمليات التهريب والرشوة والاتجار بقوت الشعب واحتكار المواد الضرورية وهي أمور يعاقب عليها الإسلام ويتوعد من يفعلها.

جـ- إثراء البعض عن طريق الربا وهو محرم إسلاميًا.

د- احتكار البعض للثروات الطبيعية وهو محرم شرعًا فإن هذه الثروات الطبيعية إمَّا مملوكة ملكية عامة، أو مملوكة للدولة، أو مباحة إباحة عامة للجماهير ولا يصح فيها أخذ الفرد لأكثر من حاجته الشخصية فقط.

إن للإمام صلاحيات ضخمة بشأن اتباع الأسلوب الأمثل لاستغلال تلك الثروات بما يحقق مصالح الأمة

هـ- ممارسة البعض لأساليب الإنتاج الرأسمالي وبالتالي امتصاص فائض قيمة العمل المأجور لصالحهم.

والإسلام يرفض تملك الثروات الطبيعية عن طريق الاحتكار.

ويرفض الوكالة والاستئجار في استغلال الغابات مثلاً.

ومن هنا لم يترك الإسلام أمام الفرد إلا العمل المباشر كشرط للتملك

و- لم يبق أمام الفرد لممارسة الملكية الخاصة إلا العمل المباشر الذي يقوم به بنفسه — وهذا بالطبع محدود بالنسبة لأثره على التوازن الاجتماعي ومع هذا رتَّب الإسلام على ذلك ظروفًا وشروطًا تمنع من خروجه عن الحدود المرسومة له بل وخوَّل الإمام حق تأميم أي ملكية إذا بدأت تمارس إخلالاً بالتوازن الاجتماعي.

من هذا يتضح أن الإسلام قطع الطريق تمامًا على الاستغلال؛ وبالتالي لن يوجد فقر (لكثرة الموارد، وعدم وجود استغلال) أضف إلى ذلك تشريعات العدالة الاجتماعية تحصل على منهج فذ في تحقيق الحقوق المشار إليها سابقًا، وخروج المجتمع السعيد إلى عالم الوجود.



العدالة الاجتماعية في الإسلام

الحديث عن العدالة الاجتماعية في الإسلام يعني أساسًا ممارسة الدولة الإسلامية لدورها في تحقيق الرخاء لكل مواطن، وإعطاءه الحق كما سبق في التعليم المجاني والعلاج المجاني، وأن تكفل له الدولة المأكل والملبس والمواصلات كما سبق توضيحه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ممارسة صلاحيتها بشأن منع الاستغلال وتحقيق التوازن الاجتماعي. وعلى هذا فإنه وبالإضافة إلى ما تقدّم فإننا بصدد بحث:

١. التوازن الاجتماعي.

٢. الضمان الاجتماعي.

التوازن الاجتماعي:

في مفهوم الإسلام (ألا يكون المال دولة بين الأغنياء) وهو عدالة توزيع الثروة – وهو تضييق الفوارق بين طبقات الناس – هو أن نجعل الفرق بين أكثر الناس غني وأقلهم غنى (وليس أفقرهم فليس في المجتمع المسلم فقير) فرقًا في الدرجة وليس تفاوتًا رهيبًا كما نرى ونلمس في سائر الأنظمة الاقتصادية المعاصرة. والدولة تحقق ذلك عن طريق:

أ- فرض ضرائب ثابتة تؤخذ بصورة مستمرة وينفق منها لتحقيق ورعاية التوازن العام.

ب- إيجاد قطاع لملكية الدولة وتوجيه الدولة لاستثمارها لأغراض التوازن.

جـ- طبيعة التشريع الإسلامي الذي ينظم الحياة الاقتصادية في مختلف الأحوال.

والحكومة الإسلامية ملتزمة في هذا الإطار بضغط مستوى المعيشة من أعلى بتحريم الإسراف، وبضغط مستوى المعيشة من أسفل بالارتفاع بمستوى الأفراد، على أن مفهوم الإسلام للغنى ليس تلبية للحاجات الضرورية فقط بل أن يملك الإنسان ما يأكل ويلبس ويسكن ويتزوج ويحج ويتصدق أيضًا. فالفقير في نظر الإسلام هو من لم يظفر بمستوى من المعيشة يمكِّنه من إشباع حاجاته الضرورية والكمالية بالقدر الذي تسمح به حدود الثروة في البلاد، وبقدر ما يتسع مستوى المعيشة يتسع المدلول الواقعي للفقر فإذا اعتاد الناس مثلاً استقلال كل عائلة بدار أصبح حرمان عائلة من دار مستقلة مملوكة لهم لونًا من الفقر (أي إن الإسلام لم يعط مفهومًا ثابتًا للفقر) وعلى هذا فالتوازن يعني إغناء كل فرد (مسلمًا كان أم ذميًا) بالقدر الذي يتناسب وإمكانيات المجتمع في ذلك الوقت.

الضمان الاجتماعي:

هو ضمان الأمة لتلبية حاجات جميع أفرادها حتى تشيع بينهم الطمأنينة فيندفعوا إلى الإنتاج غير عابئين بالنتائج ما دامت حاجاتهم مكفولة أصلاً من قبل المجتمع، ويعتمد ذلك الضمان على:

أ- التكافل العام – فالمسلم أخو المسلم وكفالته واجبة عليه وعلى الإمام إجبار المسلمين على ذلك إذا لم يحققوها بأنفسهم؛ ومن هنا فإن على المسلمين ألا يظهر بينهم محتاج وإلا أثموا جميعًا وأصبح على الإمام إرغامهم على دفع غائلة الحاجة عن ذلك المحتاج.

ب- حق الجماعة في موارد الثروة وحيث إن الثروة أصلاً استخلاف من الله للجماعة فإن حق كل فرد في الجماعة في كفالة حاجته مصونة إسلاميًا وعلى الإمام:

١ – أن يوفر العمل لكل قادر.

٢- أن يكفل المحتاج بالشكل الذي يغنيه وطبقًا لمفهوم الإسلام عن الغنى.

والسؤال الآن – فرضًا – إذا لم تكف تلك النظم لدفع الحاجة بسبب القحط أو المجاعة أو غيرها من الأسباب..؟؟

الجواب يتمثل في دراسة نموذج عمر بن الخطاب في مواجهة عام الرمادة وهو ما يلخصه القول: (إذا جاع المسلمون فلا مال لأحد).

المنظومة السياسية:

يقوم النظام السياسي الإسلامي على عدد من المحاور كالتالي:

(١)- المسؤولية الفردية:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام:١٤٦] .

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨]

وكل إنسان مسؤول في إطار معين **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن راعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**
«حديث صحيح – تحقيق الألباني تخريج السيوطي في الجامع الصغير»

(٢)- تساوي الناس في الحقوق وعموم تلك الحقوق:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحجرات:١٣] ، وفي الحديث الشريف : **«لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى»، «يا معشر قريش اشتروا**

أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني مناف اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية بنت عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا» حديث صحيح – صحيح الجامع الصغير للسيوطي – تحقيق الألباني.

والدعوة الإسلامية ذاتها مقدمة لكل الناس القوي والضعيف، الغني والفقير السيد والعبد، العربي والعجمي والرومي والحبشي: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨].

(٣)- التضامن بين الرعية والتعاون على البر والتقوى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

(٤)- الشورى:

وإذا كان النظام الإسلامي في كل تفصيلاته يقود إلى حرية التعبير فإن الشورى تحديدا أكثر التصاقا بتلك المهمة، ذلك أنها تجعل حرية التعبير فريضة على الإمام أن يطلبها من الرعية، وعلى الرعية أن تؤديها إلى الإمام، وإلى غير الإمام، فالنصيحة لله وللرسول وللإمام وللعامة والخاصة على حد سواء، والدين النصيحة كما هو معروف ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ

يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران:١٥٩] .

وهذا يعني أن الشورى فريضة بنص القرآن الكريم، وكذلك في الآية إرشاد إلى النبي وإلى من بعده ألا يكونوا غليظي القلوب أو مخيفين مرعبين، وذلك حتى يستطيع الرعية أداء النصيحة إليهم بدون خوف، وفي القرطبي «الجامع لا حكام القرآن» «أن الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب وهذا لا خلاف فيه ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[البقرة:٢٣٣] .

والله تعالى هنا يزكي الشورى بين الأزواج حتى في أشد حالات الخلاف، ومن ثم فالشورى سياسة عامة بين الراعي والرعية، وسياسية خاصة بين الإنسان وزوجته، والفرد وأسرته والآخرين والأصدقاء على حد سواء، والأثر الإسلامي يقول : «ما خاب من استشار بل إذا استشارك أحد ولم تحسن له المشورة كنت خائنا للأمانة كما قرر الشرع في الإسلام وهناك سورة كاملة من القرآن الكريم تسمي الشورى وجاءت فيها الآية ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى:٣٧-٣٩]، وهذه الآية تجعل الشورى من صفات المؤمنين وتقرنها بالصلاة وترك الآثام وغيرهما من صفات الإيمان.

وفي إطار المدح فإن الله تعالي ذكر في القرآن في إطار سرده لقصة بلقيس ملكة سبأ

أنها قالت ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]

وفي الحديث الشريف:

يقول الرسول لكل من أبي بكر وعمر: «**لو اجتمعتا في شورة ما خالفتكما**» رواه ابن حنبل، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله». رواه الترمذي.

وقول الرسول ﷺ: «**إذا استشار أحدكم المسلم فأشار عليه بغير رشد فقد خانه**». رواه البخاري وأبن حنبل.

وفي الأحداث التي حدثت في حياه الرسول الكثير الذي يؤكد على وجوب الشورى فقبل معركة بدر عند الرسول مجلسا استشاريا لتبادل الرأي مع المسلمين، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ثم قال عمر بن الخطاب فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال «يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسي فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوا الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال رسول الله خيرا ودعا له، ولم تقتصر استشارة الرسول في هذا الأمر علي هؤلاء الصحابة الذين هم من المهاجرين، بل أحب أن يستشير الأنصار أيضا فقال: «**أشيروا عليَّ أيها الناس**» وكان يقصد الأنصار وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ، فقال والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «**أجل**». قال: «فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوا الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل

واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك فسر بنا على بركة الله».

فسر رسول الله بقول سعد، ثم قال: «**سيروا وأبشروا،فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أري مصارع القوم**»[١].

وسار الجيش المسلم إلى بدر، وهناك نزل في مكان معين فاعترض على ذلك الصحابي الحباب بن المنذر، وسأل الرسول: هل هذا المنزل بأمر من الله أم أنه الرأي والمشورة، فأفهمه الرسول أنه الرأي والمشورة، فأشار الحباب بن المنذر أن ينزل الجيش المسلم على البئر فيمنع الكفار من الماء ويستفيد به وحده، فقبل الرسول تلك المشورة وأمر بتنفيذها[٢].

وهكذا فإن الشورى كانت سلوكا نبويا منهجيا، في كل الحالات بل في حالات الحرب والطوارئ.

وفي غزوة أحد، تم عقد مجلس استشاري لتبادل الرأي بين المسلمين وكان من رأي الرسول ألا يخرج المسلمون من المدينة وأن يتحصنوا بها، وأشار آخرون بالخروج من المدينة ألحوا في ذلك، وتنازل الرسول عن رأيه واستجاب لمشورة هؤلاء[٣]،ورغم أن رأيه كان الصحيح .

ولم يكن أمر الشورى بالنسبة للرسول قاصرا على أمور السياسية والحرب فقط، بل كان يستشير في شئونه الأسرية أيضا، فقبل أن ينزل الوحي ببراءة السيدة عائشة من حديث الإفك دعا الرسول كل من على بن أبي طالب، وأسامة بن زيد

---

(١) صفي الرحمن المبار كفوري – الرحيق المختوم – دار النشر والتوزيع الإسلامية القاهرة – ط ٢٠٠٥.

(٢) ابن عبد البر – »الدرر في اختصار المغازي والسير – طبعة القاهرة ١٩٦٦ .

(٣) صفي الرحمن المبار كفوري – مرجع سبق ذكره .

يستشيرهما في فراق أهله.

وفي طريقة التنبيه إلى وقت الصلاة، أستشار الرسول المسلمين في ذلك فأشار البعض إلى استخدام البوق وآخرون باستخدام الناقوس، فأشار عليه عبد الله بن زيد «من الأنصار»، وعمر بن الخطاب «من المهاجرين» بالأذان المعروف الآن فأمر رسول الله بلالا به فأذن . رواه ابن ماجة.

وفي دولة الخلفاء الراشدين كان الأمر على نفس الطريقة، فكل خليفة من الخلفاء الراشدين كانت له مجموعة من كبار الصحابة يستشرهم ولا يقطع أمرا دونهم، سواء في أمور الحرب والسياسية، أو أمور الاجتهاد في الفقه أو القضايا والمنازعات أو حتى في شئون الصحة والمرض، فالخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه استشار في أمور كثيرة منها المواريث، والقضاء، وكان دائم السؤال عن الأمور التي تواجهه، فإذا وجد إجابة في كتاب الله أو سنة النبي أخذ بها، وإن لم يجد خرج فسأل المسلمين، أما عمر بن الخطاب فقد استشار في أمور منها تعزير شارب الخمر، والأخذ بنظام الدواوين. وتطوير جهاز الدولة وإنشاء جيش نظامي، وكذلك في الموقف من الوباء الذي وقع في الشام.

ومن مأثورات عمر بن الخطاب في هذا الصدد «من بايع أميرا عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له، ولا بيعة للذي بايعه» رواه البخاري وابن حنبل.

وكان الصحابة أيضا يفعلون ذلك يروي عياض الأشعري فيقول : «شهدت اليرموك، وعلينا خمسة أمراء، فأصبنا أموالا فتشاوروا» رواه ابن حنبل.



في نقد الديمقراطية

الحضارة الغربية حضارة إغريقية وثنية ذات مسحة أو قشرة مسيحية مزيفة، وهي حضارة تقوم على القهر والعنف والنهب والعنصرية وبديهي أنها تختلف عن الحضارة الإسلامية التي تقوم على التوحيد والعدالة والحرية وعدم العنصرية [١] ..... ومن ثم فإن كل ما تفرزه الحضارة الغربية من إفرازات أو نظم سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية سوف يحمل بالضرورة السمات الثابتة لتلك الحضارة وإذا نظرنا إلى إفرازات الحضارة الغربية نجد أنها كلها عنصرية بلا استثناء مثل الفاشية والنازية والشيوعية والاشتراكية والصهيونية والرأسمالية والديمقراطية واللبرالية ... الخ [٢] وكذا فإن كل تلك المنظومات أو الحكومات والدول التي قامت على أساسها سواء كانت ملكية أو جمهورية، يسارية أو يمينية كلها مارست الاستعمار والنهب والمذابح ..... بل إن ما كان منها يساريا كان أشد قسوة، فأكبر المذابح التي مارستها فرنسا في الجزائر تمت على يد حكومات الاشتراكية.

ومن المفيد هنا آن نقرر حقيقة أخرى، أنه ربما تكون هناك مناطق تتشابه فيها بعض المنظومات الغربية مع المنظومات الإسلامية ولكن هذا لا يعني أن هناك تطابقا أو هناك صلة عضوية بين الطرفين[٣] فهي على غرار تقاطع دائرتين في قوس

---

(١) المواجهة بين الإسلام والغرب. د/ محمد مورو – الدار المصرية للنشر والتوزيع – القاهرة – ١٩٩٣م.

(٢) ليس هنا محل تقصي مظاهر العنصرية في تلك لإفرازات في هذا البحث، وذلك موضوع طويل يمكن تتبعه في مصادر أخرى للمؤلف نفسه أو لغيره.

(٣) الإسلام بين الشرق والغرب – علي عزت بيجوفيتش – ترجمة محمد يوسف عدس – مؤسسة بافاريا – ١٩٩٧م.

ولكن لكل دائرة مركز مختلف وقطر مختلف ومن ثم محيط ومساحة مختلفين ، وهكذا فإن هؤلاء الذين يتحدثون عما يسمي باشتراكية الإسلام أو ديمقراطية الإسلام[1] أو غيرهما يقعون في خطأ منهجي كبير، ونحن نرفض هذا بالطبع، من باب أنه خطأ علمي، ومن باب ضرورة تحرير المصطلح وعدم الوقوع في إرهاب هذا المصطلح، ولأننا ندرك أن هناك خلافًا جوهريًا في المناهج والغايات، وفي الوسائل والأهداف بين المنظومة الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها من المنظومات.

من البديهي الآن. وبعد خبرات طويلة تراكمت سياسياًوثقافياً أن أحدا في الشرق أو الغرب لم يعد يتحدث عن إمكانية وجود حرية في المنظومة الفاشية أو النازية، أو الشيوعية، رغم وجود تنظير فلسفي حول مزاعم وجود تلك الحرية في تلك المشروعات، ولكن النقد النظري والتجربة الحية أطاحت بذلك الآن... لم يعد هناك إذن إدعاء وجود حرية من أي نوع كان إلا في الديمقراطية والليبرالية، ومن ناحيتنا وناحية كل مفكر منصف فهي موجودة في النظام الإسلامي أيضا ، على أننا أمام محاولة لحسم المعركة قبل أن تبدأ بنوع من المغالطة، فالبعض يحاول أن يتحدث عن الحضارة الغربية وكأنها هي وحدها الحضارة، ومن ثم فأما أن تقبل قيم الحضارة الغربية وإما فأنت معادي للحضارة والتقدم وبربري وأحيانا إرهابي، وكذا فإن الحديث نفسه يدور حول أن الديمقراطية تعني الحرية،وهذا غير صحيح بالمرة، نحن نؤمن أن الحضارة الغربية حضارة فاسدة وقيمها فاسدة ولا يمنع هذا أن يكون فيها بعض الإيجابيات ولا يمنع أن تتشابه في بعض دعواتها مع النظام

(١) الأستاذ/ محمود عباس العقاد – وهو مفكر كبير جدًا ومدافع عن الإسلام دفاعًا مجيدًا، وقع في هذا الخطأ واستخدم مصطلح ديمقراطية الإسلام في أكثر من كتاب، بل إن له كتابًا بعنوان «الديمقراطية في الإسلام» صدر في طبعات كثيرة آخرها عن دار نهضة مصر – القاهرة ٢٠٠٥م.

الإسلامي ولكن هذا على طريقة اتفاق شجرتين في لون الورق ولكن البذور مختلفة والثمار مختلفة وأشياء أخرى كثيرة مختلفة، ربما كالاختلاف بين شجرتي الزقوم والزيتون. وكذلك لا يمنع وجود أفراد وجماعات داخل المجتمع الغربي ربما تكون أكثرية أو أقلية تتصف بالاتصاف والعدل. ولكن هذا شذوذا يؤكد القاعدة، وهم أنفسهم يرفضون بشكل ما المنظومة الغربية والمهم أنهم ليسوا أصحاب القرار، الغربي، أو ما يسمي الظاهرة في مجراها الرئيسي كلها تقود إلى العنصرية القهر والعنف، فدعم الصهيونية مثلا مستمر منذ قرن على الأقل بعد وقبل إنشاء إسرائيل برغم ممارسات علنية يومية فيها قمع هائل للإنسان الفلسطيني والعربي، وكذا العدوان على العراق وأفغانستان...الخ.

استخدام مصطلح الديمقراطية الإسلامية خطأ علمي وسياسي أيضا وهو نوع من الاستلاب الحضاري، ونحن نري أنه لا حرية إلا في الإسلام لأنه فطرة الله الناس عليها وبديهي أن الله يصنع للإنسان ما يصلحه لأنه الذي خلقه ويعلمه حقيقته وما يصلحه وما يفسده ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ وأن الديمقراطية لم ولن تحقق الحرية، ربما تكون أفضل أو أسوأ من الشيوعية أو الفاشية أو النازية ولكنها في النهاية تظل إفرازا غريبا يحمل نفس مساوئ الأرضية الحضارية التي أفرزتها، الحضارة الغربية في صورتها الديمقراطية أو تحت حكومات ديمقراطية مارست الاستعمار، وهو نوع من قهر حرية الآخرين، ومن ثم فهي ديمقراطية مزيفة، وهي نفسها التي مارست نهب المستعمرات ومن ثم فهي ديمقراطية ناهبه، وهي نفسها التي أنشأت إسرائيل وسلحتها ومولتها وإسرائيل تمارس الديكتاتورية والقهر على مدار اليوم والساعة منذ أكثر من ستين عاما ومن ثم فهي ديمقراطية عنصرية وأصولية، لأنها تدعم دولة يقوم قانون الجنسية فيها على

أساس الدين اليهودي، فكل يهودي متي وطأت قدمه أرض إسرائيل فهو يحصل على الجنسية فورا، وهي ديمقراطية مارست إبادة الهنود الحمر في الأمريكتين، والأبورجيين في أستراليا «بعشرات الملايين»فهي ديمقراطية عنصرية بامتياز وهي فوق هذا وذاك مستمرة في تلك الأمور منذ أكثر من قرنين على الأقل ولم ولن تكف عن ذلك لأنها سمة أصلية في تلك الحضارة، آخرها «العدوان على العراق وأفغانستان».

الديمقراطية مشتقة من كلمة يونانية [١]، ومن ثم فإن تعريبها صعب شديد الصعوبة، لأنها تعبر عن سياق اجتماعي وحضارة معينة مختلفة عن السياق الحضاري العربي، وفي الحقيقة فإن تلك الصعوبة تظهر في شيوع مجموعة من الأخطاء العلمية، فالذي يقومون بتطبيق قواعد علم الاجتماع الغربي الذي ظهر في سياق حضاري وثقافي واجتماعي معين على ظواهر عربية وإسلامية نشأت في سياق اجتماعي آخر يقعون في أخطار فادحة، فالأصولية مثلا، والدين والدولة وغيرها من المصطلحات تعني هناك غير ما تعني في المشروع الإسلامي تماما، ويجب التعامل مع أي ظاهرة بقواعد علم الاجتماع الذي ينبع من نفس الأرضية الحضارية، ولا يعني هذا أن علم الاجتماع العربي أو الإسلامي أفضل من علم الاجتماع الغربي، ولكن من العلمية والموضوعية استخدام كل علم فيما يصلح له من ظواهر ليقوم بتفسيرها وهذا معروف في العلوم الطبيعية ذاتها، فقانون نيوتن مثلا يصلح لتفسير الحركة في السرعات العادية، أما السرعات التي تصل إلى سرعة الضوء مثلا فلا يصلح معها قوانين نيوتن، بل قانون النسبية لأينشتين مثلا ...... المهم أن الديمقراطية نظام يوناني أخذته أوروبا في إطار بعث الثقافة الإغريقية والرومانية في بداية عصر

(١) هي كلمة ديموس.

النهضة، نظام الديمقراطية اليوناني نشأ في القرن الثامن قبل الميلاد على يد ليكرغ، وكان يقوم على انتخاب عدد من الزعماء عن طريق وضع الناس في مكان معين، ويوضع عدد من المراقبين في مكان قريب بحيث يسمعون الصوت ولا يرون المنظر، ثم يتقدم المرشحون واحدا واحدا ، فكلما تقدم واحد منهم سجل المراقبون نصيبه من جلبة الأصوات الخارجية، ولعل هذا نفسه ما تطور في نظام التصويت فيما بعد ... ونلاحظ هنا أن الذين كان يسمح لهم بالتصويت هم الناس الذين يملكون سلاحا، ثم بعد ذلك من كان له نصاب مالي معين، مع حرمان الآخرين من التصويت، وفي روما القديمة كان يتم التصويت بواسطة الوجهاء فقط مالا أو سلاحا أما السكان غير الرومان عموما فلا حقوق سياسية لهم، أي أنها ديمقراطية عنصرية في أصلها، وحتى بعد أن أخذت أوروبا هذا النظام فإن الجوهر لم يتغير كثيرا، فالعمال في إنجلترا لم يأخذوا حق الانتخاب إلا في سنة ١٨٦٧، وذلك لأنهم أصبحوا قوة لازمة للدولة في المصانع، ولم يحصل عمال الريف على هذا الحق إلا بعد ١٨ سنة من هذا التاريخ، والمرأة الإنجليزية لم تحصل على حق التصويت إلا بعد الحرب العالمية الأولي لأنها اشتغلت بأعمال المصانع أثناء غياب الجند في ميادين القتال.

ويلاحظ الأستاذ العقاد أن الحكومة الديمقراطية نشأت بين الاسبرطيين أصحاب النظم والإجراءات الإدارية ولم تنشأ بين الأثينيين أصحاب الفلسفات والبحوث النظرية، ويعلق الأستاذ عباس محمود العقاد على ذلك بقوله: «فمن الواضح أن الديمقراطية قديمها وحديثها لم تقم على الحق الإنساني المعترف به لكل إنسان وأنها كانت إلى الضرورة العملية أقرب منها إلى المبادئ الفكرية والأصول الخلقية.

وهكذا فإن هناك فارقًا جوهريًا بين الحرية في المنظومة الإسلامية، القائمة على الحق الذي أعطاه الله للإنسان، وعلى وجوب ذلك في كل الظروف وليس استجابة

لظروف وتوازنات.

الحرية في الإسلام غير الحرية في الديمقراطية، فالحرية بغير إيمان هي حركة آلية حيوانية أقرب إلى الفوضى والهياج فيها إلى الجهد الصالح ولأن الحرية في الديمقراطية لا تستند إلى قواعد أخلاقية إنسانية أو ذات طابع إيماني ديني، فإنها لا تحرم مثلا لعب القمار أو شرب الخمر أو الزنا أو الشذوذ، بل تعتبر هذه حريات شخصية وبديهي أن فيها من الفساد والإفساد وضياع الوقت والجهد، وغيبوبة العقل ماله أثر سلبي على المجتمع واستقراره ورخائه، ربما تؤدي إلى انهياره في النهاية.

يقوم النظام الديمقراطي، كما يقدم له فلاسفته على الإيمان بالفرد إيمانًا لا حد له، وأنه إذا تركت له الحرية الكاملة، فإنه ينحو بصورة طبيعية إلى مصلحة المجتمع .... وبديهي أن هذا كلام نظري غير صحيح وهو أقرب إلى الميتافيزيقا الذي يدعي فلاسفة النظام ذاته أنهم يرفضونها، أنه ينطلق من فكرة مسبقه هي فكرة أن الإنسان سيتصرف بصورة صحيحة دائما، وأنه مجبول على ذلك، وبديهي أن التجارب البشرية لا تقول بهذا، فالإنسان فيه خير وشر، وهو يختار الخير والشر، وبديهي أن البعض يختار الخير والآخر يختار الشر، والفرد نفسه لا يكون خيرا بالكامل أو شريرا بالكامل :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٧-١٠] .

وبديهي أيضا أن وضع عقوبات على السلوك ليس وحدة كافيا لمنع تجاوز الإنسان، والذي يحدث عادة أن الأفراد لا يتصرفون بطريقة صحيحة، ومن ثم فإن المحصلة حدوث تفاوت طبقي رهيب، بل واستغلال الأغنياء أموالهم للاستبداد

بالفقراء، والأقوياء بالضعفاء، ويصبح المجتمع جحيما كما حدث في التجربة الليبرالية الغربية، بل هذه المجتمعات ذاتها تذهب لتنهب الآخرين «الاستعمار» والمحصلة ضياع الحرية الحقيقية على مستوي الأفراد وعلى مستوى الدول بعضها ببعض بل القارات بعضها ببعض، وقد لجأت الكثير من تلك الدول إلي وضع ضوابط كثيرة ألغت بها مفهوم الحرية المطلقة للفرد، وأعطت للحكومات الكثير من السلطات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومن ثم نسفت الأساس النظري للديمقراطية والليبرالية ..... وبديهي أن نظام الحرية في الإسلام ينطلق من أنها حق أعطاه الله للإنسان، وأن هذه الحرية لا تتحقق بإطلاق حرية الفرد وفق ضوابط سياسية وأخلاقية معينة ومن ثم فإن التجربة الإنسانية أثبتت حتى الآن أن المفهوم النظري والتطبيقي للحرية في الإسلام هي الوحيدة الصالحة حتى الآن.

النظام الليبرالي إذن يقوم على الحريات الأربع، وهي الحرية السياسية، والحرية الاقتصادية، والحرية الفكرية، والحرية الشخصية، وهذه الحريات ثبت في الواقع التطبيقي الأوروبي ذاته أنها مجرد أوهام، فالحرية السياسية يتم مصادرتها على طريق الأعلام والتوجيه والضغط على الناخبين، وشراء الأصوات والخداع ، وفي المحصلة فإن المجمع الصناعي العسكري في الدول الديمقراطية هو الذي يوجه السياسية ويحقق ما يريد في النهاية من فوز هذا أو ذاك من الأفراد أو الأحزاب في الانتخابات، ويعترف كبار منظري العلمانية والليبرالية والمؤمنين بالحضارة الغربية بذلك، فالدكتور فؤاد زكريا يقول في كتابة الصحوة الإسلامية في ميزان العقل «إن النظام الديمقراطي مبني أساساً على قيم فردية على الرغم من المظهر البراق الذي يتخذه هذا النظام حين يؤكد أنه المدافع عن الحرية الفردية، وحقوق التعبير والكلام إلى آخر هذه الحريات الليبرالية المعروفة التي يتخذها الموافقون علي هذا النظام محورا

لدعايتهم، وعلى الرغم من هذا كله فإن الحرية التي يدافع عنها هـذا النظـام هـي في واقع الأمر حرية استغلال للضعيف، وكل ما عدا ذلك من حريات تظل ذات طابع شكلي»[1].

والحرية الاقتصادية تؤدي في النهاية إلى وجود تفاوت طبقي رهيب وتؤدي إلى شقاء الفقراء وزيادة اكتناز الثروة ،وأن ذلك يستمر بمتوالية هندسية، والمحصلة النهائية : هو أن يصبح نسبة قليلة من سكان العالم في رخاء ٢٠٪ يحتكرون ٨٠٪ من الثروة في حين أن هناك آلاف الملايين من البشر تحت خط الفقر، وهذه النسبة مرشحة للاتساع طبعا، بل وحتى داخل مجتمعات الـ٢٠٪ تلك هناك نسبة ١٠٪ تسيطر على ٩٠٪ من الثروة، وباستمرار المتوالية ستصبح الثروة في الدنيا عموما ، وفي كل بلد خصوصا مملوكة لـ ١٪ والباقي فقراء، وبديهي أن ذلك أدي إلى الاستعمار أولا، ثم أدي إلى الشقاء الاجتماعي ثانياً، ويمكن أن يؤدي إلى انفجارات هائلة اجتماعية، بل وبيئية لأن الحرية الاقتصادية والتنافس تؤدي إلى استنزاف البيئة، والإنتاج علي حساب التوازن البيولوجي والمناخي ومن ثم حدوث كوارث من التلوث وغيرها والحرية الشخصية تؤدي إلى انتشار الدعارة والشذوذ والخمر والميسر، وكلها أمور تقود إلى تفكك المجتمعات وهكذا فإن الديمقراطية فاسدة في أصلها النظري، وفاسدة في تطبيقاتها الواقعية على حد سواء.



(١) الصحوة الإسلامية في ميزان العقل – د/ فؤاد زكريا – دار الثقافة الجديدة – القاهرة ١٩٩٠م.

العولمة – الليبرالية الجديدة

بعد سقوط الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية، ظهرت أفكار من أمثال نهاية التاريخ، والانتصار النهائي للديمقراطية والرأسمالية، وبدأ نشر فكرة تقول : إن النظام الصحيح، وإن الحضارة هي الديمقراطية والرأسمالية، وأنه يجب عدم الاعتراف بالحدود القومية والوطنية وإلغاء كل القيود الجمركية، واعتبار العالم قرية صغيرة وأن يصبح الإنتاج ذا طابع عالمي، وبعيدا عن الشعارات فإن المطلوب هو تحويل العالم إلى حلبة مصارعة بين قزم اقتصادي وعسكري وعملاق اقتصادي وعسكري وأن النتيجة معروفة سلفًا وهي جعل النهب والظلم والاستعمار أمرًا مشروعًا ومعترفًا به عالميًا.

والغريب هنا أن الدعوة إلى حرية المرور والتجارة وإلغاء الحواجز الجمركية واعتبار العالم قرية صغيرة اقتصرت على حرية رأس المال والبضائع فقط، في حين أن المفروض طالما أن العالم أصبح واحدًا ولا داعي للحديث عن السيادة الوطنية أن يفتح الباب أمام مرور الإنسان من هذا البلد إلى ذاك، ولكن الذي حدث مزيد من القيود على هجرة الإنسان وتنقله، بل ورصد ميزانيات وعمل شرطة وجيوش لمنع ما يسمى بالهجرة غير الشرعية، وكأن الإنسان في هذا النظام العالمي الجديد أقل قيمة من السلع المسموح بمرورها دون قيد أو شرط.

تزامن مع ذلك ظهور ما يسمى في بلادنا بالليبراليين الجدد [١] وهم من بقايا الماركسيين السابقين، أو المطبعين مع الكيان الصهيوني، وهم لا علاقة موضوعية

(١) مجلة البيان – العدد ٢١٩ – ذو القعدة ١٤٢٦هـ - ديسمبر ٢٠٠٥م.

بينهم وبين الليبرالية، فهم يفتقدون لأبسط قواعد الليبرالية وهي الاعتراف بالآخر فهم يرون حرمان الاتجاه الإسلامي من حق العمل العلني والقانوني، ويدعون إلى إلغاء فكرة السيادة الوطنية – مع أن الليبرالية ارتبطت في أوروبا بفكرة السيادة الوطنية وظهور الدول القومية – ويدعون إلى نبذ فكرة الانتماء الديني والقومي والوطني ومن ثم التعايش مع الإسرائيليين والتعامل معهم، وهؤلاء مجرد طابور خامس تستخدمه الولايات المتحدة للضغط على الحكومات وعلى كل حال فإن التبشير بالديمقراطية المزعومة الذي قامت به الولايات المتحدة – رغم إدراكنا منذ البداية أنه نوع من الكذب لا أكثر ولا أقل – إلا أن الولايات المتحدة ذاتها اتجهت في النهاية إلى تسوية الأمور مع أنظمة الحكم التي كانت تطالبها بالديمقراطية، وباعت من ثم ما يسمى بالليبراليين الجدد في سوق السياسة بثمن بخس.



مفاهيم إسلامية

(٥)



لاهوت التحرير



الإسلام وأيديولوجية الفقراء

مقدمة فى (لاهوت) التحرير الإسلامى

د. محمد مورو

آلة شيطانية ضخمة ، تروسها بشر ، تقتل الأطفال ، تمتص دماء البشر ، تعذب المرأة وتظلمها ، تجتث جذور الثقافات ، تنشر المذابح والتطهير العرقى ، وحروب الإبادة ، والطائفية والعنصرية ، الاستعمار ، النازية ، الفاشية ، العنف ، القهر ، تدمير القيم ، نهب ثروات الشعوب والأفراد بلا رحمة وبلا هوادة ، وفى كل يوم جديد يزداد جشع تلك الآلة الشيطانية حتى إنها بدأت تأكل نفسها وتنفصل حتى عن إطارها الاجتماعى لتصبح هى ذاتها مستقلة عمن صنعوها وخطر عليهم أيضاً .

هذه الآلة الشيطانية هى بالتحديد النتيجة الحتمية للصعود الغربى بدءاً من الكشوف الجغرافية والاستعمار وسباق الإعلام وانتهاء بالبورصات العالمية التى تعمل ٢٤ ساعة فى الـ ٢٤ ساعة والخبراء والحاسبات الضخمة والأقمار الصناعية والبث المباشر ، البنك الدولى والجات وصندوق النقد الدولى ومجلس الأمن وقوات حفظ السلام الدولية ! وأخيراً الشركات العابرة للقوميات والتى أصبحت ميزانية واحدة منها أكبر من ميزانية دول ، وهى مجتمعة ميزانيتها أكبر من ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، أنه عصر الفوضى واللاثقافة واللاحضارة .

وضحايا هذه الآلة بالملايين ، بل ألوف الملايين ، شعوب كاملة ، أطفال ، نساء ، رجال ، حضارات ، ثقافات ، فقر ، جهل ، مرض ، مدن الصفيح وإنسان بلا جذور ، تخريب بحت للهياكل الاقتصادية والاجتماعية ؛ ليحل محلها كومة ضخمة من الخردة وأناس بلا مستقبل ، بل بلا حاضر أيضاً .

هل نقول : إن هذه الآلة الشيطانية هى المنظومة الحضارية الغربية باعتبار أن تلك المنظومة الحضارية الغربية هى التى أفرزت تلك الآلة الشيطانية .. نعم .. ولكن أيضاً لا ؛ لأن تلك الآلة أصبحت نفسها أكبر من تلك المنظومة واستقلت عنها .

وليس هناك من حل بالطبع سوى تدمير هذه الآلة الشيطانية – الثورة – ثورة المحرومين والفقراء والمهمشين والمقهورين فى كل مكان ، ثورة تضم كل ضحايا هذه الآلة ، الأفارقة ، السود ، الشعوب المطحونة فى آسيا وأمريكا اللاتينية ، ضحايا تلك الآلة داخل الغرب نفسه كالمرأة مثلاً ، المرأة الغربية التى دفعت ثمن الشذوذ والإباحية وتعانى آلاماً مبرحة من مجتمع بلا قيم ولا ضمير .

وعلينا الآن أن نحدد طبيعة هذه الآلة الشيطانية وكذا جذورها والمنظومة الاجتماعية التى أفرزتها ، وكذلك تطوراتها حتى وصلت إلى حالتها الراهنة البشعة .

وإذا كان من المفيد أن نبدأ بشىء ، فهو المنظومة الاجتماعية والحضارية التى أفرزت تلك الآلة الشيطانية ، وهى المنظومة الحضارية الغربية التى أعطت تلك الآلة سماتها الثابتة والمتغيرة أيضاً ، والحضارة الغربية حضارة تقوم على الوثنية والعنف والقهر ، ولا يمكن فهم هذه الحضارة ولا ميكانيزمات عملها بعيد عن سمات العنف والقهر والوثنية ، الحضارة الغربية هى حضارة إغريقية هيلينية فى جوهرها ، أما المسيحية فلم تكن إلا قشرة خارجية لتلك الحضارة ، ذلك أن المسيحية تحولت إلى دين إغريقى وثنى داخل الغرب ولم يتحول هذا الغرب الى المسيحية ، وعلينا أن ندرك فى هذا الصدد أن المسيحية دخلت إلى الغرب عن طريق إمبراطور آمن بها وفهمها على طريقته الإغريقية ثم فرضها على شعبه فرضا ، ثم تبنت ممالك هذه الديانة وأكرهت الآخرين على اعتناقها وإلا تعرضوا للذبح ، وليس التنصير الوحشى للساكسونيين على يد القديس يونيفاس إلا مجرد نموذج

ينطبق على كل الحالات تقريباً، وهكذا تحولت المسيحية إلى ديانة إغريقية ، وبدلاً من التسامح المسيحى ، أصبح العنف جزء أصيلًا من المسيحية الغربية .

وحتى اليوم يتم تنصيب بابا روما وفقاً لقواعد البروتوكول الخاص بتنصيب كهنة المعابد الإغريقية ، أضف إلى هذا أو قل نتيجة لهذا فإن الكاثوليكية لعبت دوراً هاماً فى عملية الاستعمار الغربى للعالم ، وكانت دائماً طليعة للاستعمار وباركت دائماً أو شاركت فى عملية قهر ونهب الشعوب الأخرى على يد الغرب فى المرحلة الاستعمارية حتى أن الاستعمار فى رموز كان عبارة عن عسكريين وتجار ومبشرين !

والبروتستانتينية ، لم تكن إلا تطوراً فى المسيحية الإغريقية واكب مرحلة أخرى من مراحل تطور آلة العنف والقهر الغربى ولم تكن إصلاحاً دينياً بل كانت وصفة عالمية للنجاح فى الأعمال التجارية ، ولم تكن عقلانيتها المزعومة إلا نفعية حقيقية وباختصار كان الاقتصاد السياسى هو الديانة البروتستانتينية الجديدة ولا ننسى أن المسيحية الغربية التى أصبح العنف سمتها الرئيسية ارتبطت بالمذابح الدينية والحروب الطائفية ومحاكم التفتيش !

مع الصعود الغربى إبان ما يسمى بعهد النهضة الأوروبية ، تم بعث الثقافة الاغريقية والهيلينية ، وتم بعث الدول والفكرة القومية وظهرت البروتستانتينية لتلائم قيم العقلانية والتنوير والنفعية وأصبحت ديانة جوهرها الاقتصاد السياسى وبدأت مرحلة الاستعمار ، أو ما يسمى بسباق الإعلام حيث تسابقت الدول الأوروبية على استعمار العالم ، من خلال إبادة شعوب أمريكا وأستراليا ، ومن خلال نهب ثروات تلك القارات المكتشفة وكذا نهب ثروات الشعوب فى آسيا وأفريقيا ، ثم استرقاق سواعد السود لبناء القاعدة الإنتاجية للغرب ، ومن هذا التراكم للثروات المنهوبة واستخدم الرقيق تراكمت الأموال ، وظهرت بنوك

لتمويل عمليات الاسترقاق أو التجارة خلف البحار وظهرت الثورة الصناعية أو التقدم الصناعى الغربى والرأسمالية التى أصبحت منذ تلك اللحظة سمة رئيسية من سمات الآلة الشيطانية ، من سمات الغرب والحضارة الغربية ، ويجب أيضاً أن نضع فى اعتبارنا أن الرأسمالية أيضاً أصبحت أداة قاسية واحدة فى المزيد من الاستعمار وفتح الأسواق والنهب والقهر وتطوير الأداة العسكرية للغرب ومع عام ١٩١٤ كان معظم العالم خاضعاً للاستعمار الأوروبى ، ولكن كان من الطبيعى أن الآلة الشيطانية لا تكف عن العنف فبعد أن مارست هذا العنف والنهب على العالم بأسره مارسته أيضاً مع نفسها ، فكانت الحرب العالمية الأولى والثانية .

واستطاعت الآلة الغربية الشيطانية أن تطور نفسها ، فكانت مرحلة ما يسمى بتصفية الاستعمار ، أو قل مهزلة تصفية الاستعمار ذلك أنه لم يكن أكثر من تطوير للوسائل فى عملية النهب والقهر الغربية المستمرة .

ويعبر المفكر الفرنسى .ك. موريل عن ذلك قائلاً : « إن أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار ، لقد انتقل الرجل الأبيض إلى الكواليس ، لكنه لا يزال مخرج العرض المسرحى » .

وبدلاً من العسكر والتجار والمبشرين ، أصبحت هناك حكومات وطنية تقوم بمهمة القهر نيابة عن عسكر الغرب وتقوم أيضاً بالوكالة فى تسهيل عملية النهب ، أصبح هناك جيش وطنى وشرطة وطنية مهمتها الوحيدة القمع والقهر ، وأصبح هناك وكلاء تجاريون يمررون عملية النهب ، وأصبح هناك مثقفون مغتربون يساهمون فى اجتثاث جذور الثقافة الوطنية وترويض الإنسان المحلي وتنويمه دائماً .

تطورت آلة النهب والقهر ، فأصبحت عبارة عن خبراء وبورصات عالمية تعمل ليلاً ونهاراً، أقمار صناعية ومحطات بث مستمرة لاجتثاث الثقافات ، مجلس أمن

وقبعات زرقاء شركات عابرة للجنسيات ، شعارات ومبادىء تسهل عملية النهب وتزيده قوة مثل حرية التجارة ، حقوق الإنسان ، التنمية ، التصنيع ، التنوير .. إلخ .

والأمر الآن أشبه بمركز كبير للنهب تمتد منه شبكة ضخمة من الأنابيب إلى كل مكان على وجه الأرض ، إنه وحش مفترس يمد خراطيمه فى كل اتجاه يمتص دماء الآخرين ويتغذى على خلاياهم العصبية ويحولهم إلى حالة غير مسبوقة من البؤس ، وهناك آلات رفع ضخمة تساهم فى سرعة تدفق الثروات المنهوبة مثل البنك الدولى ، صندوق النقد الدولى ، البورصات ، حرية التجارة ، المؤتمرات العالمية فى مجلس الأمن .. الخ ، وحتى القروض والمنح التى تمنح للمنهوبين من وقت لآخر ليست إلا وسيلة لتنظيف أنابيب النهب وزيادة كفاءتها والمزيد من بناء وتشييد محطات لرفع الثروات المنهوبة والقضاء على أية نتوءات اقتصادية أو ثقافية أو هياكل اجتماعية تعرقل أو تبطىء عملية النهب .

وفى كل يوم يزداد الوحش جشعاً ويزيد جوعًا ، وفى كل يوم تتطور الآلة - آلة النهب والقهر الوحشية وتزداد شراهة ويزداد الضحايا كما ونوعا بالتالى ، وآخر التطورات فى هذا الصدد هو الشركات العابرة للجنسيات ، وبدلاً من أن تقوم بالمهمة دول قومية - هولندا ثم انجلترا ثم الولايات المتحدة مثلاً - أصبحت الفكرة القومية وسيادة الدول ذاتها فى مهب الريح ، وإذا كانت تلك الشركات العابرة للجنسية اليوم يمثل رأس مال إحداها أكبر من ميزانية دولة ، وتمثل ميزانيتها مجتمعة أكبر من ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها فإن الأمر مرشح للاتساع فى هذا الاتجاه ، وهكذا فنحن أمام تطور جديد لشكل وطبيعة النهب سيؤدى بالضرورة إلى قيام علاقات جديدة واقتصاد سياسى جديد ، ومزيد من الضحايا الذى لن يفلت منه هذه المرة حتى الغرب ذاته ، فالأمر أصبح أكبر من الدول

القومية وحتى من قارة بأكملها.. إن الوحش أصبح غير خاضع لأحد ولم يعد له مروضون أو مسيطرون .. إنه المزيد من البؤس .. والفوضى والجنون أيضاً .

إن أحد علامات هذه الفوضى هو تنميط الإنسان وفقاً لثقافة واحدة ، وإذا كان الغزو الثقافى والبث المباشر وغير المباشر وسيطرة الغرب على وسائل مهيمنة لنشر ثقافة معينة كان بهدف اجتثاث جذور الثقافات الاخرى وتحويل الإنسان من خاضع بالقوة للنهب إلى مدمن لهذا النهب بمعنى أن يسعى هو نفسه إلى الوحش مصاص الدماء ويطلب منه ويلح أن يمص دمه فإن الأمر حتى سوف يفوق هذا التصور إلى عالم بلا ثقافة ولا حضارة على الإطلاق أو نهاية العالم .. ولكن ينبغى أن يكون نهاية الغرب وحده وليس نهاية العالم وهذا يقتضى الثورة لتحطيم الآلة الشيطانية .

على أى حال يجب أن نفكر فى معنى العالمية - الثقافة العالمية - وأن نفكر فيما يروجون له من قيم حضارية واحدة وغيرها ، وأن نديم التأمل فى معنى أن مراكز البث الإعلام الغربى تسيطر على صناعة الأخبار والمعلومات والفنون وبالتالى المشاهد والأذواق والأوامر فى إطار انه تغريب للعالم بالقوة بهدف قتل واقتلاع جذور الثقافات الأخرى ، وأيضاً هو فى النهاية معاداة لكل ثقافة ؛ لأنه فى عالم ذي ثقافة واحدة فإنه لا ثقافة على الإطلاق ! إنه عصر القرود والكائنات المنحطة .

سنبحث الآن عن الضحايا من جهة .. والمستفيدين من جهة أخري من آلة القهر والنهب الشيطانية مع الأخذ فى الاعتبار أن الضحايا يزدادون دائماً كماً ونوعاً ، وأن المستفيدين يقلون باستمرار ؛ لأن الآلة الشيطانية تزداد شراهة بمتوالية هندسية ، وسنبحث عن الحل أيضاً ..سنبحث عن العدل المفقود وهو بحث الإنسان الدائم .

وسنبدأ بسؤال ساذج وهو : هل يمكن إقناع المستفيدين بالكف عن النهب

والقهر ، هل يمكن إيقاف عمل الآلة الشيطانية عن طريق الإقناع ، أى هل يمكن تحقيق عدل شامل أو حتى جزئى عن الطريق السلمى ؟ والاجابة الوحيدة هى : لا ..لأن طبيعة الآلة وجوهرها عدوانى ، قهرى ، نهبى ، ومن العبث طبعاً إقناع الوحش بالكف عن امتصاص الدماء .

إذن لا طريق إلا الثورة ، ولكن ما هى أيديولوجية تلك الثورة والى أى جذر اجتماعي وثقافى تستند ، ومن هم جنودها ؟! وهذا سؤال سوف نجيب عليه بعد فرز المعسكرين ، معسكر الاستكبار ، وكهنة الآلة الشيطانية ومعسكر الضحايا وبالتالى جنود الثورة .

وسنبدأ فى دراسة معسكر الاستكبار والمستفيدين ، وسوف نستطرد قليلاً باتجاه الماضى .. فى بداية الاستعمار كان من الممكن أن نجد فى المستفيدين دولًا قومية ، أو حتى طبقات اجتماعية فقط داخل هذه الدول الاستعمارية التجار ، البرجوازية الصناعية ، العسكر ، المبشرين .. أما الآن ومع التطور الهائل للآلة الشيطانية مع الشركات العابرة للجنسيات ومع ازدياد شراهة آلة النهب والقهر لم يعد هناك سوى كبار رجال المال وأصحاب الشركات العابرة للجنسيات والجنرالات الكبار وأصحاب البنوك الكبرى وشبكات البث ، وعلى مستوى أقل الخبراء ، المثقفين المغتربين الذين يبيعون كلماتهم لقاء شىء من دماء الفريسة والمرتبطين بالترويج للآلة الشيطانية ، الوكلاء التجاريين والحكام المحليين فى العالم المستضعف الذين يشاركون فى ذبح شعوبهم ونهبهم لقاء ثمن كبير أو صغير .

أما معسكر الضحايا فهم كل الشعوب المقهورة والمنهوبة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهم أيضاً المرأة فى الغرب التى حولتها الآلة إلى سلعة تجارية والتى اتعسها السياق الاجتماعى الغربى الذى يسمح بالشذوذ ، فمثلاً لو كان هناك

٣٠٪ من هذه المجتمعات شواذ وهؤلاء يستهلكون مثلهم فى إشباع شذوذهم ، فماذا يبقى للمرأة الغربية سوى العنوسة والحرمان ، ثم لماذا تتحمل المرأة مثلاً عبء الجنين غير الشرعى وحدها وحتى لو كان هناك حديث عن إجهاض آمن .. ليس هناك طبعاً إجهاض آمن لأنها عملية جراحية فى النهاية لها آثارها الصحية مهما كانت الوسائل الصحية متقدمة ، أليس هذا دليلًا على الظلم الواقع على المرأة ، لماذا لا تحتفظ بجنينها ويتحمل الرجل معها أعباء ولادته وتربيته بدلاً من إجهاضه وقتله ، المرأة إذن فى الغرب ضمن معسكر الضحايا وضمن جنود الثورة بالتالى والطبقة العاملة الغربية وصغار الموظفين والعاطلين أيضاً والأطفال اللقطاء كل هؤلاء جنود فى الثورة لأنهم ضحايا واذا كان الغرب فى مرحلة تاريخية من تطور آلة النهب والقهر قد نجح فى رشوة البروليتاريا وتحييدها بالتالى عن طريق شيء من المكاسب الاقتصادية والاجتماعية فإن استمرار تطور الآلة وبالتالى زيادة جشعها ونهمها اللانهائى سيجعل من المستحيل استمرار تقديم هذه الرشوة وبالتالى فإن هؤلاء الآن أو غداً سيجدون أنفسهم فى معسكر الثورة ويجب الأخذ فى الاعتبار هنا تزايد معدلات البطالة والتخلص من العمالة باستمرار فى الغرب ، وهذا أمر مرشح للاتساع والتفاقم .

بقى علينا أن نبحث فى أيديولوجية تلك الثورة ، وينبغى فى البدء أن نقرر حقيقة لا يمكن الشك فيها من منظور فلسفى ومن منظور واقعى وتجريبى أيضاً ، ذلك أن أيديولوجية أى ثورة لا يمكن أن تكون مستمدة من نفس الأرضية الاجتماعية والفلسفية بل والمعرفية التى أنشأت الأوضاع التى سوف نثور عليها ، ولعل هذا بالتحديد كان السبب فى فشل تجربتين ثوريتين : هما الثورة الاشتراكية الماركسية ، ولاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا اللاتينية، ولاشك الآن ومن منطلق تجريبى

ومعرفى أن ثورة تستند فى أساسها الأيديولوجى والثقافى على ثقافة أفرزت الحالة التى ينبغى الثورة عليها هى ثورة زائفة ، بل هى تكريس وتقوية للأوضاع التى يجب الثورة عليها ، لابد إذن أن تكون الأيديولوجية الثورية نابعة من سياق ثقافى مخالف بل وعدائى للأرضية الفلسفية والثقافية التى أفرزت الحالة والظاهرة التى تستهدف الثورة الإطاحة بها .

فالماركسية مثلاً نشأت من قلب الفلسفة الأوروبية ، وبالتحديد الألمانية ، واستندت فى تحليلها الاقتصادى والتاريخى على علوم الاقتصاد السياسى وعلم التاريخ الغربى والأوروبى بالتحديد ، ولذلك فشلت وما كان لها إلا أن تفشل بل إن فشلها الطبيعى كان دليلاً جديداً على فساد المنظومة الحضارية الغربية برمتها .

يقول المفكر الفرنسى سيرج لاتوش فى كتابه تغريب العالم : « ان الاشتراكية كما تحققت فى الواقع ليست سوى شكل خاص مختلف من النظم الرأسمالية والمجتمعات الغربية ، فنحن نلقى بكل تأكيد التصنيع مع التمدين وتحويل الجماهير إلى بروليتاريا لكن بوجه خاص عبادة الآلة والتقنية والعلم والتقدم واستئناف مشروع الحداثة المتمثل فى قهر الطبيعة .. إنها نفس ميكانيزمات الرأسمالية ».

ويقول : « الرأسمالية مجرد آلية – طبيعية عند الليبراليين ، اصطناعية عند الاشتراكيين ، وبالتالى فالرأسمالية هى الليبرالية والاشتراكية معاً وهى مظهر من مظاهر الخصوصية الغربية للغرب » ويضيف « إن النموذج السوفيتى مثل شكلٌ مختلفٌ للمشروع الغربى أكثر مما مثل بديلاً حقيقياً له » .

ويقول المفكر الإنجليزى أرنولد توينبى : « إن المنافسة بين الاتحاد السوفيتى – السابق – والولايات المتحدة الأمريكية على زعامة العالم وبين الشيوعية والمذهب الحر بالتالى على اجتذاب ولاء البشرية هو موضوع نزاع عائلى داخل أسرة المجتمع

الغربى » .

ولنفس الأسباب كان من الطبيعى ان تفشل أيضاً مسألة لاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا اللاتينية وأن تكون ثورة زائفة أيضاً ، لأن جذرها الثورى نبع أيضاً من نفس المنظومة الحضارية الغربية ومن نفس الوضع الاجتماعى الذى كان ينبغى الثورة عليه ، فلاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا اللاتينية ينبع من الكاثوليكية وهى مسيحية غربية وجزء من المكون الثقافى والحضارى الغربى تحمل نفس سماته وعيوبه أيضاً ، بل أكثر من هذا فإن الكاثوليكية بالتحديد تتحمل جزءًا كبيرًا من جريمة استعمار أمريكا اللاتينية وما حدث فيها من إبادة للسكان الأصليين ثم نهب مستمر فيما بعد لثرواتها وشعوبها ، وفى هذا الصدد يقول سمير مرقص فى مقال له فى مجلة القاهرة عدد يناير ١٩٩٤ تحت عنوان « تجربة لاهوت التحرير » « كانت الكنيسة الكاثوليكية جزءاً من المشروع الكلى لغزو و استعمار شعوب القارة الجديدة وقد ساهمت الكنيسة بفاعلية فى فرض القانون الاستعمارى على المواطنين الأصليين للقارة اللاتينية ، ومن المعروف تاريخياً أن البابا الكسندروس السادس هو الذى قضى بتقسيم القارة الجديدة بين الأسبان والبرتغال » .

كانت الدودة إذن داخل الثمرة فى كل من الثورة الاشتراكية ولاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا اللاتينية لأنها نتجت من نفس الشجرة التى كان ينبغى أصلاً قطعها وحرقها ، وكان من الطبيعى ان تفسد الثمرة .

وعلينا إذن أن نبحث عن جذر ايديولوجى للثورة العالمية على الآلة الشيطانية آلة النهب والقهر الغربية خارج شجرة الحضارة الغربية .

ينبغى إذن أن تنتمي إلى ثقافة مغايرة ، وذات جذر حضارى مختلف ، وبما أن جنود الثورة هم كل شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بل والمرأة والعمال ،

والعاطلين وصغار الموظفين فى أوروبا وأمريكا فإن أيديولوجية الثورة ينبغى أن تستند إلى حضارة ذات قيم عالمية .

ولاشك أن الإسلام هو وحده الذى يمتلك كل هذه الخصائص التى ترشحه لأن يكون جذراً ثقافياً لتلك الثورة ، فالحضارة الإسلامية حضارة عالمية بكل المقاييس ، فمن ناحية فالخطاب الإسلامى لم يوجه الى منطقة جغرافية أو عرق بشرى معين بل للعالم كله ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، ومن ناحية أخرى فإن الحضارة الإسلامية ساهم فيها الأسود ، الأصفر والأبيض والأحمر ، الإفريقى والآسيوى والأوروبى ، التركى والهندى والعربى والفارسى .. إلخ ، وإذا كانت التجربة قد أثبتت أن تلك الحضارة استوعبت مساهمات الجميع فكانت عالمية بالتجربة ، وأن خطابها عالمى فى أصله فإنها وحدها القادرة مرة أخرى على احتضان الثورة العالمية الجديدة وأن تكون جذراً أيديولوجياً لها .

وكذلك فإن الحضارة الإسلامية – وانطلاقاً من الإسلام – لم تحاول إكراه أحد على اعتناق الدين الإسلامى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ .. ومن هنا نجد أنه مازال فى العالم الإسلامى أقليات مسيحية ويهودية .. الخ بل نجد أن تلك الأقليات ومن خلال جو التسامح اندمجت فى الحضارة الإسلامية دون أن تدخل الإسلام ، مما يدل على أن الإسلام وهو دين ربانى – يمكن أن تكون حضارته وثقافته أيديولوجية لغير المسلمين .

نلاحظ أن الحضارة الأوروبية غير عالمية رغم زعمها وترويجها لهذا المصطلح ، لأن العالمية تقتضى معايير عالمية ، ولا يمكن لحضارة أفرزت العنصرية ونهب الآخر أن تكون عالمية ، ولا يمكن لحضارة قامت على استلاب الآخر وقهره أن تكون عالمية .

وبالإضافة إلى ما سبق فإن الإسلام لم يعرف العنصرية « كلكم لآدم وآدم من تراب لا فرق بين عربى ولا أعجمى ولا أسود ولا أبيض » وكذلك دعا إلى استثمار

البيئة وليس قهرها ، ودعا الى العدل والإنصاف والحرية فالجهاد الإسلامى مثلاً كفريضة على المسلمين يتوجه لإزالة القهر والنهب وإزالة الاستكبار والاستبداد ومحكوم أيضاً باعتبارات وقيم رفيعة بحيث لا يكون هناك عدوان الا على الظالمين ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ فتنة الظلم والكفر والنهب ، والقهر ، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ، فغايات الثورة الإسلامية وبالتالى العالمية هى القضاء على النهب والقهر والعنصرية والتغريب وتدمير الآلة الشيطانية الغربية وتحقيق العدل والمساواة واللاعنصرية بل والمجتمع اللاطبقى واحترام كرامة الإنسان أليست نفسها نفس المبادىء الاسلامية ؟!

وكراهية الظلم – بل وجعل الثورة عليه فريضة إسلامية هى من الأمور المعلومة من الاسلام تماماً ، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ وفى الحديث القدسى .. «لأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر ان ينصره فلم يفعل » أى أن رؤية الظلم ولو على الآخرين وعدم الثورة على الظالم إنصافاً للمظلوم أمر يستوجب انتقام الله تعالى وغضبه .

ويقول الرسول ﷺ : « **لا يقفن أحدكم موقفاً يقتل فيه رجل ظلما فإن اللعنة تتنزل على من حضر حين لم يرفعوا عنه ، ولا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تتنزل على من حضره حين لم يرفعوا عنه** » .

وفى إطار الآداب والقيم المعروفة للثورة والجهاد الإسلامى ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

والتراث الإسلامى نصوصياً وحضارياً غنى بالدعوة إلى الثورة على الظالمين وفق قيم وآداب رفيعة تحول بين الخلط بين الثورة والفتنة والبغى ، وتحدد هدف الثورة

« الظالمين » ولاشك أن آلة النهب والقهر الغربى وهؤلاء المستفيدون بها ظالمون جائرون لهم ضحايا ومظلومين بالملايين والأمر يستحق الثورة وحتى فى إطار إنصاف الفقراء والمحرومين وتحقيق العدل الاجتماعى فإن التراث الإسلامى غنى بالنصوص والمواقف والرؤى والمناهج التى تجعل منه جذراً ثقافياً لأيديولوجية الثورة العالمية ثورة الفقراء والمطحونين والمحرومين « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » والجار هنا قد يكون فردًا أو أسرة أو دولة أو قارة أو حتى كوكب « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، من كان عنده فضل مال .. أو فضل زاد أو ملبس .. الخ فليعد به على من لا مال له له .. الخ » وهى دعوة لتحقيق المجتمع اللاطبقى ، ودعوة أيضاً للثورة على هؤلاء الذين يمنعون ما زاد عن حاجتهم فى حين يحتاج إليها الآخرون .

وعلى بن أبى طالب يقول : « ما متع غنى الا بما حرم منه فقير » أى أن تراكم المتعة والغنى والمال يأتى من سرقة حقوق الفقراء سواء بسواء توزيع الثروة المتاحة – السرقة من المنبع – أو بأكل فائض قيمة عمل هؤلاء الفقراء بإعطائهم أقل من حقهم فى عملهم وكدحهم ، أو بتعطيلهم عن العمل أو الفساد أو الرشوة .. الخ .

وأخيراً قول أبى ذر الغفارى رضى الله عنه : « عجبت لمن لا يجد قوت يومه ثم لا يخرج على الناس بسيفه » وهو يؤكد هنا وجوب ومشروعية ثورة الفقراء والمحرومين وهكذا فالإسلام من حيث عالميته ، ومن حيث كونه ثقافة مغايرة ومعادية للثقافة والحضارة الغربية ، وبحكم نصوصه وتراثه الثورى عموماً والدعوة إلى ثورة الفقراء والمحرومين خصوصاً يصلح كجذر أيديولوجى للثورة العالمية المنشودة .

ويبقى هنا أن يضطلع المسلمون بعبء الثورة العالمية كجنود لها ، وكطليعة أيضاً

لباقى المطحونين والمحرومين فى العالم وأن يضطلع علماء الإسلام بتقديم الإسلام كأيديولوجية للثورة العالمية والأمر هنا ليس تفضيلاً بلا مبرر للإسلام على غيره ، بل لأن الثقافات الأخرى التى نحترمها ولا نريد القضاء عليها هى ثقافات إما غير ثورية أصلاً ، أو أنها غير عالمية ، أو أنها غير قادرة من الناحية الفلسفية على مواجهة ناجحة مع الحضارة الغربية وبالتالى مع آلة النهب والقهر الغربى .

إن الأمر ليس أكثر من قراءة علمية محايدة ، قراءة تقول بأن عدة قرون من الظلم والقهر والفقر والنهب والبؤس على يد الحضارة الغربية وآلتها الشيطانية ينبغى أن تنتهى ولن يكون ذلك إلا بالثورة التى يشارك فيها كل الضحايا وهذه الثورة تحتاج إلى جذر ثقافى وأيديولوجى لابد أن يكون عالمياً ومعادياً للحضارة الغربية فى نفس الوقت ويحمل تراثاً ثورياً واضحاً، وليس هناك إلا الإسلام كدين وكحضارة وكأيديولوجية للثورة الذى يمكنه أن يكون هذا الجذر الثقافى للثورة العالمية المنشودة.



المنهج الحركى من خلال تجربتى

النبى عيسى ابن مريم والنبى يحيى بن زكريا عليهما السلام

د- محمد مورو

لا شك أن سيرة الأنبياء والرسل تمثل ذخيرة حية ونابضة ومفعمة بالتجارب لكل حركة دعوة أو إصلاح أو تغيير منشود ، وهكذا لم يكن حرص القرآن الكريم على إثبات وتحليل هذه التجارب وغيرها إلا دعوة للتأمل فى تلك التجارب بهدف الاستفادة منها ، والتأمل كذلك فى الأمراض والأعراض التى تلحق بالأمم والجماعات فتقودها إلى طريق الهلاك حتى نتجنبها.

ولا شك أيضاً أن المساحة الواسعة فى القرآن الكريم التى تناولت بنى إسرائيل – من حيث فسادهم الدينى والأخلاقى – ومن حيث تجارب الأنبياء معهم ، وبهم مع غيرهم من الأمم ، لم تكن عبثاً ، ذلك أنها مقصودة بالطبع لأن من الممكن أن تلحق بنا كأمة إسلامية ورثت الكتاب والنبوة والرسالة ، وورثت دور الشاهد على الناس الى يوم القيامة ، يمكن أن تلحق بنا هذه الأمراض ، وبالتالى فيجب معرفتها لتجنبها وكذا بالنسبة لطليعة الأمة « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » أن يفهموا مسيرة الأنبياء للاستفادة منها فى مجال الدعوة والإصلاح والتغيير .

ولاشك كذلك ، فى أن للتجارب خصوصيتها زماناً ومكاناً ، وأنه من غير الصحيح التقليد الهندسى للتجارب السابقة ، ولكن الاستفادة منها كمنهج متكامل تتغير طريقة تركيبه على الواقع فى كل مرحلة ومهما كانت درجة التشابه بين حالة نمر بها وبين تجربة سابقة لأمة أو نبى فإن من الضرورى إدراك استحالة الانطباق

الهندسى بين حالتين مهما بلغت درجة التشابه وهذا لا يمنع بالطبع من الاستفادة من تلك التجارب ، بل يؤكد على ضرورة هذه الاستفادة مع إدراك أهمية الإبداع والتجديد فى الفهم والممارسة ومواجهة المستجدات .

وتمثل حياة الأنبياء وأحوال الأمم التى ظهروا فيها – كل – أنواع وأشكال طرق الإصلاح الدينى والاجتماعي والأخلاقي والسياسي والاقتصادي .. وكذا تمثل أوضاع الأمم التى ظهروا فيها مختلف أنواع الفساد والأعراف والزيغ والأمراض الاجتماعية والدينية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية .

فهناك من الأنبياء من بدأ مع مجتمع مسلم ، أى كان المطلوب فقط المحافظة على حالته الصحيحة ثم حدث انحراف فى فرد أو أفراد مثل آدم وأولاده الأوائل .. وهناك من واجه مجتمعاً كافراً أخذ يدعوه دون جدوى – اللهم إلا القليل الذى آمن معه ـ مثل نوح وغيره ، ومنهم من واجه إلى جانب الكفر انحرافًا أخلاقيًا مثل لوط ، ومنهم من بدأ تأسيس أمة – تكون شاهدة على الناس – مثل إبراهيم ، ومنهم من واجه إلى جانب الكفر الظلم الاقتصادى مثل شعيب ، ومنهم من واجه أمة لديها الدين الصحيح والرسالة والكتاب ولكنهم انحرفوا قليلاً أو كثيراً مثل أنبياء بنى إسرائيل أو واجهت عدوا يريد البطش بها مثل أنبياء بنى إسرائيل أيضاً – داود مثلاً . ومنهم من وجد نفسه فى مجتمع لا ينتسب إليه ، وكان مطلوباً منه أن يعايشه ويصلحه من داخله فاستخدم أساليب شتى ووصل إلى وظائف عليا فى ذلك المجتمع دون أن يتخلى عن رسالته مثل يوسف ، الذى تصلح تجربته نموذجاً للمسلم الذى يعيش فى إحدى الدول الأوروبية مثلاً فى هذا العصر – مع الفوارق طبعاً ، من الرسل من انتصر ومنهم من انهزم ، من مات ومن قتل ، وهكذا يتشكل لنا فى النهاية أوسع تجربة نستفيد بها فى كل حالة وأى حالة .

ومن الرسل من كان مثل محمد صلى الله عليه وسلم الذى أكمل الله به الدين ونقل إليه والى أمته من بعده – بعد أن فقدت بنى إسرائيل مقومات استمرارها بسبب فسادها وعنادها – نقل إليه وإلى أمته من بعده واجب الرسالة إلى الناس جميعاً ، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ﴾ وبالطبع فإن العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح والإسلام الكامل شريعة وعقيدة وممارسة تم على يد محمد صلى الله عليه وسلم لأنه خاتم الرسل ، والاستفادة من تجربة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم واجب بالطبع ، خاصة أنها تجربة ممتدة من دعوة للكافرين ، إلى إقامة مجتمع للمسلمين فى المدينة مع وجود أقليات تعايش معها فى البداية مثل المشركين واليهود فى المدينة ، إلى الصراعات بين دولة الرسول والقوى المشركة فى الجزيرة العربية ، إنها تجربة تجمع بين تجارب دعوة الكافرين إلى تجارب إقامة مجتمع للمسلمين ، إلى تجارب مواجهة المنافقين ، إلى تجارب معايشة المشركين واليهود – وثيقة المدينة نظمت تلك العلاقات – إلى تجارب صراع الدولة المسلمة مع غيرها من القوى .. الخ.

وهناك تجارب الرجال الصالحين ، مثل الخضر عليه السلام ، الذى خرق السفينة ليبيعها – فعلمنا أن نخفى علامات قوتنا عن أعين الظالمين ولعل هذه التجربة لازمة لنا فى أحوالنا المعاصرة ، حيث كلما ظهرت قوة حركات الإصلاح وحدث نوع من استعراض هذه القوة فى نقابة أو انتخابات أو موقع اجتماعى أو خدمى كان هذا دعوة للظالمين للبطش بها وتصفيتها ومصادرتها .

***

وسوف نختار فى هذه الدراسة ، تجربة هى أقرب التجارب شبها بنا – دون إغفال المتغيرات الطبيعية بالضرورة ، وهى تجربة دعوة المسيح عيسى ابن مريم عليه

السلام فى بنى إسرائيل وكذا تجربة نبى معاصر له هو النبى يحيى عليه السلام .

وأوجه الشبه كبيرة جداً بين حالتنا المعاصرة وحالة نبى الله عيسى ابن مريم فى بنى إسرائيل. أو قل هى أكثر التجارب شبهاً لأحوالنا المعاصرة .. فوجب الاهتمام بها ودراستها والاستفادة منها .

وأول أوجه الشبه تلك هى أن نبى الله عيسى جاء إلى بنى إسرائيل لإصلاحها من داخلها ولم يكن صاحب دعوة إلى غيرها من الأمم أساساً وهو لم يأت لنقض شريعة موسى ، أو تغيير دين اليهود ، بل جاء ليكمل الناموس ويؤكد على المعانى الصحيحة والفهم الصحيح والممارسة الصحيحة .

يقول المسيح عن نفسه فى الاصحاح الخامس : « لا تظنوا أننى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لا نقص بل لأكمل .. » وقوله : « على كرسى موسى جلس ا لكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون » .

أى أنه يقر النص والوصايا والمرجعية النظرية .. ولكنه جاء لإعادة روح الممارسة وروح الفهم الصحيح للنص والمرجعية والمنهج ، وكونه فقط مرسل لإصلاح بنى إسرائيل مثل قوله : « إلى طريق أمم لا تمضوا إلى مدينة السامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بني إسرائيل الضآلة » الإصحاح العاشر . وقوله : « لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة » الإصحاح الخامس عشر .

نحن إذن أمام أمة مكلفة برسالة .. ولم تفقد مرجعيتها النظرية مثل حالتنا الآن ، ولكنها افتقدت روح المنهج والفهم والممارسة ، وفقدت الكثير من الشروط التى تكفل لها الاستمرار على هذه المهمة ، فكان المطلوب استعادة المضامين والشروط وروح المنهج والممارسة لدى هذه الأمة حتى لا تفقد مبررات وشروط استمرارها

كأمة رسالية ، وهذا ما هو مطلوب منا الآن وعلى علمائنا - الذين هم كأنبياء بنى إسرائيل - القيام به .

ولا شك أن الرسالة لا تورث بالجنسية أو العصبية أو القومية بل بامتلاك شروط معينة والعمل شكلاً ومضموناً بمقتضاها ، وإذا كانت أمة بنى إسرائيل قد فقدت هذا الشرف بعد أن فقدت شروطه وآل الأمر إلى أمة الإسلام فنرجوا ألا نفتقده بدورنا لافتقادنا شروطه !

***

ومن أوجه التشابه أيضاً : وجود الظروف الموضوعية والذاتية شديدة التشابه بيننا وبين تلك التجربة ، فالأمة اليهودية فى ذلك الوقت كانت أمة محكومة بالأجانب .. أى خاضعة لسيادة خارجية هى الدولة الرومانية .. ونحن بدورنا خاضعين للنفوذ الغربى ، والدولة الرومانية فى ذلك العصر كانت قد بلغت أوج قوتها ودخل فى حوزتها العالم المعمور كله ما عدا الشرق الأقصى ، مثل أمريكا الآن التى تهيمن على العالم فيما يعرف بعصر القطب الواحد أو النظام العالمى الجديد .

وكانت الفلسفات والأفكار ذات طابع عالمى وكذلك العقائد والمذاهب بمعنى أن الحياة الفكرية من الهند إلى الأطلسى مروراً بالاسكندرية ونابلس وروما كانت شديدة الترابط والاتصال . وهذا هو حالنا الآن مع إدراك الفارق الكمى - وليس النوعى - فى سرعة الاتصال حالياً . بل حتى قبل ظهور المسيح بقليل ، إبان الصراع بين الفرس والروم ، الذى يشبه الصراع بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا ، والذى انتهى أيامها لصالح الرومان وانتهى حالياً لصالح أمريكا، ويمكن أيضاً أن نشبهه بالصراع بين أمريكا وأوروبا أو أمريكا وفرنسا ، أو أمريكا والصين .. الخ ، كان هذا الصراع يجد له أنصاراً داخل أمة اليهود ، فهناك من ينحاز إلى الرومان وهناك

من ينحاز إلى الفرس !! مثل حالتنا بالضبط .

إذن فهناك أشياع وأتباع سياسيون لهذه القوة أو تلك داخل أمة اليهود فى ذلك الوقت ، وكذلك هناك الكثيرين ممن تأثروا بالفلسفات المختلفة ، من خارج إطار أمة اليهود – فهناك من تأثر بالفلسفة الفيثاغورثية أو الفلسفة الأبيقورية أو الفلسفة الرواقية ، كحالتنا فى التأثر بالمذاهب السياسية أو الفلسفية المختلفة من رأسمالية واشتراكية ديمقراطية ، وماركسية أو من تأثر بالبراجماتية ، أو المادية المثالية ، أو الوصفية المنطقية ، أو البنائية أو فلسفة الحداثة وما بعد الحداثة .. الخ .

وبالطبع انتشرت بين اليهود خاصة الطبقة الأرستقراطية المرتبطة بالنفوذ الرومانى ، أنماط وأذواق الملبس والمأكل والآداب الرومانية وطرق الحياة والثقافة والألعاب وغيرها ، وهكذا فنحن أمام حالة أمة خاضعة لنفوذ سياسى وعسكرى أجنبى ، مخترقة ثقافية مستلبة حضارياً تجاه الأجنبى ، أليست هذه هي حالتنا بالضبط ؟!

***

وحتى على المستوى العام اقليمياً وعالمياً ، فإن الحالة كانت شبيهة بما نعيشه الآن ، فقد كان معظم العالم المعروف فى ذلك الوقت خاضعًا سياسياً وعسكرياً ومنهوب اقتصادياً للدولة الرومانية ، وكان هناك سوء توزيع مروع للثروة ، فكان هناك ثروة وترف وطغيان من ناحية وفقر وضنك وهوان من ناحية أخرى ، كان هناك بذخ وترف ولهو من جانب السادة ونقمة من جانب العبيد والمسخرين ويصف المسيح نفسه أحوال العالم فى تلك الفترة ، التى ضاعت فيها المعايير والقيم والعدالة والحرية وتسلط فيها السادة الرومان على الناس بقوله : « إن للثعالب جحور وللطيور أوكاراً ، أما ابن الإنسان فليس له شيء يسند رأسه » ، أليس هذا هو حال عالمنا المعاصر

بالضبط الذى تستبد به القوى الكبرى وتنهبه ، وبحيث ضاعت فيه الحقوق تماماً وظهر فيه ازدواج المعايير بحيث لم يعد لابن الإنسان قوة تسنده ، أليس الفقر والجوع والموت والحروب الأهلية وغيرها مما نعيشه الآن تحت ظل الهيمنة الأمريكية ، هو نفسه ما كان يحدث فى العالم أيام المسيح ؟!

وفى فلسطين ذاتها ، ألا تخبرنا الأناجيل ، عن آلاف الجوعى والمرضى والعجزة والمجانين والصم والعمى والخرس الذين جاءوا للمسيح طلباً للشفاء .. ألا يدل هذا على الحالة المتردية للناس أيامها مثل الصور التي نراها حالياً للجوعي يتدافعون للحصول على شيء من معونات الأمم المتحدة ؟!

بل حتى على مستوى تمزيق الدول وإثارة الحروب الطائفية والعرقية والصراعات بين الكيانات السياسية المختلفة كان الأمر متشابهاً ففى فلسطين مثلاً كانت هناك ثلاث دويلات متصارعة فيما بينها ، ويعلق العقاد فى كتابه حياة المسيح على ذلك قائلاً فى ص٤٤ : «وقصدت روما بهذا التمزيق أن تخيف كل ولاية وتلجئهم إلى التنافس بينهم فى مرضاتها وتتخذهم جميعاً درعا تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين» .

***

وبالإضافة إلى تلك الحالة المماثلة لنا إقليمياً ودولياً ، فإنه من ناحية الفساد والانحراف والأمراض الاجتماعية التى تفشت فى اليهود فى ذلك الوقت من حب للجدل بلا طائل ، والتمسك بالشكل على حساب الجوهر ، واستخدام بعض رجال الدين لتبرير تصرفات الحاكم الأجنبى ، وإعطاء غطاء شرعى لكل الممارسات الفاسدة أخلاقياً واقتصادياً والتخلى عن شروط الأمة المختارة ، فإننا نتشابه فى ذلك معهم فى كثير من الأمور ، ويصف المسيح هذه الحالة بقوله : « إنهم

حولوا الهيكل من مكان صلاة وطهارة إلى مغارة لصوص » .

***

إذن فنحن أمام تجربة ، هى أقرب التجارب إلى حالتنا الراهنة ، من حيث التشابه فى وجود أمة منوط بها رسالة فقدت شروط رسالتها وضربت فيها الأمراض والانحرافات ، والى خضوع هذه الأمة للنفوذ الأجنبى ، وإلى وجود أحوال إقليمية وعالمية متشابهة ، وبالطبع فإن التشابه لا يصل إلى حد الانطباق الهندسى من ناحية ، فهناك فروق وملاحظات يجب إدراكها وكذلك من البديهى ان الاستفادة من كل التجارب النبوية وغير النبوية وارد بالطبع ، ومن الملاحظات والفروق مثلاً :

- إن فساد وانحراف بنى إسرائيل وصل إلى حد كبير بحيث تعدوا شروط الأمة المختارة ، وهذا لا يمنع بالطبع وجود عدد قليل منهم كان لايزال يتمسك فكرا وممارسة بالدين الصحيح ويدل على هذا قول القرآن الكريم ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ ﴾ وقوله ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ فهناك داخل أمة اليهود المنحرفة – فى تيارها العام والرئيسى – الصالحين من أمثال آل عمران وعيسى نفسه ، ولكن هؤلاء الصالحين ليسوا إلا قلة تؤكد القاعدة ، أما حالتنا الإسلامية الراهنة فنرى أن هناك انحرافات كبيرة ، إلا أن المجرى الرئيسى لا يزال صحيحاً وليس قلة من الأفراد فقط ، وهذا معناه أن فقدان بنى إسرائيل لصفة الأمة المختارة لفقدانها شروطها ، لم يحدث لنا – ونسأل الله ألا يحدث لنا فمازلنا – رغم الانحرافات والأمراض الخطيرة . نحمل فى التوجه العام الشروط أو معظمها التى تؤهلنا لصفة الشاهد على الناس والقيام بواجبات الأمة المختارة ورسالتها ، ويجب ألا تخدعنا هذه الحقيقة أيضاً عن ضرورة المسارعة فى الإصلاح .

- إنه كان فى بنى إسرائيل جماعات فكرية وعقيدية مثل الصدوقيين والفريسيين والسامريين وخليط من اليهود والآشوريين والغلاة وغيرهم وبالطبع كانت هذه الجماعات أو الطوائف تحمل أفكاراً فيها الصحيح و الخاطىء ، وكذلك لدينا الآن أمثال هذه الطوائف والجماعات ، وبالطبع ليس هنا مجال تقييم أو دراسة هذه أو تلك بل يهمنا دراسة الظاهرة فى مجراها الرئيسى .

- إنه فى حالة أمة اليهود ، فإنها كانت محدودة من حيث العدد ، والاتساع الجغرافى ، فى حين أن الأمة الإسلامية كثيرة العدد الآن « حوالى ١٥٠٠ مليون نسمة » وممتدة من طنجة حتى جاكرتا ومن سراييفوا حتى جنوب أفريقيا ، بل موجودة فى كل مكان على وجه الأرض ، وهذا فارق نوعى هام ينبغي أخذه فى الاعتبار .

***

لدينا فى عصر النبى عيسى ابن مريم تجارب هامة فى مواجهة هذا كله ينبغى دراستها والاستفادة منها ؛ لأنه كرسول مبلغ عن الله تعالى استخدم أسلوباً مشروعا يمكن القياس عليه من ناحية ويمكن فهمه مجملاً كمنهج ربانى فى مواجهة مثل هذه الحالة التى واجهها أو شبيها بها أو الاستفادة من جزئيات هذه التجارب وملامحها التفصيلية .

ولكن قبل البدء فى الاقتراب من تجربة وخطاب وأسلوب نبى الله عيسى ابن مريم ، لدينا تجربة معاصرة لها ، أى أنها واجهت نفس الظروف .. إنها تجربة يوحنا المعمدان أو النبى يحيى عليه السلام ، وهو ابنة خالة المسيح وفى نفس سنه تقريباً وعاش فى نفس الفترة وواجه نفس الأوضاع والقوى ، ركز يحيى عليه السلام على جانب الحب .. حب الإنسان أى إنسان تقياً أو عاصياً صالحاً أو طالحاً ، حتى ولو كان يملأ الأرض بذنوبه وضعفه الإنسانى ، ولكنه كان يرفض مسايرة الظلم ، أى

ظلم من أى نوع ، كان يحيى شديد الحنان بوالديه وبالناس والمخلوقات والطيور والحيوانات والأشجار ، أى أنه استخدم الأسلوب « الإنسانى » فى دعوته ، وهذه الجوانب الإنسانية – للأسف غائبة فى الحركة الإسلامية المعاصرة وبخاصة المتشددين المشهورين بالقسوة الشديدة !! ظناً منهم أن هذا تمسكا بالشريعة ، والصحيح أنه على العكس تماماً ؛ لأن يحيى كان من أكثر الأنبياء والرسل تمسكاً بالشريعة وبالكتاب والله تعالى يقول عنه ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ ، ولكن أهم ما نتعلمه من يحيى هو أنه كان رقيق الحاشية ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ ، كان يخاطب الجانب الإنسانى فى الناس ، كان إذا تكلم أبكى الناس من الحب والخشوع وأثر فى قلوبهم قبل عقولهم وهذا بالطبع كان لازماً لمواجهة المادية التى طغت على كل شىء ، والقسوة التى صبغت كل شىء فى ذلك الوقت .

أما موقفه من المؤسسة الحاكمة ، أى من الحاكم التابع للدولة الرومانية فهو موقف تعليمى لكل داعية ، لم يكن هذا الحاكم – كأى حاكم – مجرد فرد حاكم طاغية بل هو ممثل لمؤسسة الفساد ، الفساد الاقتصادى والسياسى والأخلاقى .. وبديهى أن الفساد الأخلاقى هو نتيجة طبيعية للفساد السياسى والاقتصادى ، كان هذا الحاكم يريد أن يتزوج ابنة أخته ، وهو محرم فى الشريعة بالطبع وكان هذا السلوك وتلك الرغبة تعبير عن فساد أخلاقى طال كل شىء ، كان تعبيرًا كاملًا عن فساد المؤسسة الحاكمة سياسياً واقتصادياً وأخلاقياً ، وطلب هذا الحاكم من النبى يحيى أن يبحث له فى الشريعة عن طريقة تحل له هذا الزواج ، إنه يريد أن يأخذ غطاءاً شرعياً لممارسات المؤسسة ، مؤسسة الفساد ولكن نبى الله يحيى رفض بالطبع ، ليس رغبة فى الصدام ، فلم يكن ينتهج أسلوب الصدام ، ولكنه رفض أن يتحول إلى غطاء شرعى لممارسات مؤسسة الفساد ، وهذا يعنى أن إعطاء مؤسسة الفساد

الاقتصادى والسياسى والأخلاقى شرعية من أى نوع أو أن نصبح جزءا من هذه المؤسسة بطريقة أو أخرى أمر مرفوض تماماً ، وهكذا كان رفض النبى يحيى ، الذى دفع ثمنه غالياً ولكنه كان راضياً بهذا الثمن ، كان هذا الثمن هو قتل النبى يحيى وتقديم رأسه الشريف على طبق لتلك العشيقة الماجنة !

***

تجربة المسيح عيسى ابن مريم فى مواجهة الظرف الذاتى والموضوعى الذى واجهه تجربة ثرية بلا شك ، وهى أقرب التجارب شبهاً لما نعايشه الآن كما قلنا من قبل ..

فالمسيح كان وديعاً متواضعاً رحيماً بالخاطئين والعاثرين متجرداً من أواصر المنافع والشهوات ، أى غير مرتبط بالمؤسسة الحاكمة ولا بحلفائها ، يوجه خطابه للجماهير الفقيرة والمطحونة والمريضة والعاجزة والبؤساء من كل نوع ، والمستضعفون هم الحلفاء الطبيعيون لأية دعوة تغيير أو إصلاح ؛ لأنهم ليس لهم مصلحة من استمرار الأوضاع التى ظلمتهم وهمشتهم ، لم يوجه المسيح خطابه للمؤسسة الحاكمة ، بل إلى الجماهير ، لم يأت بجديد فى الشريعة ، بل أكد على الشريعة الموسوية وناضل ضد فهمها النفعى « البراجماتى » والتجارة بها أو الجمود على شكلها الخارجى فقط ، وهذا يعنينا بالطبع فيجب أن نتوجه الى الجماهير أيضاً ، ويجب ألا نكون جزءًا من مؤسسة الفساد شكلاً ومضموناً ، ويجب أن ننحاز الى الفقراء والمستضعفين وأن نوجه خطابنا لجميع هؤلاء ، ونحن أيضاً لسنا ديناً جديداً ، ولا نأتى بنص جديد أو حتى فهم جديد للشرائع والعقائد المستقرة ، بل ممارسة جديدة ، والدخول إلى روح النص ، كما فعل المسيح عليه السلام ، ونكرر لسنا ديناً جديداً ، ولا فرقة دينية جديدة ، بل محاولة للنهوض وإصلاح الأمة والقضاء على

أمراضها الاجتماعية والتصدى لمؤسسة الفساد وإعادة صياغة الإنسان روحياً فى مواجهة المادية الطاغية والتأكيد على المرجعية الربانية بدلاً من مرجعية المادة والحوسلة والحداثة وما بعد الحداثة !!

كان المسيح يدرك أنه عندما يخلص الجماهير من العبودية للمادية وهى إله ذلك العصر ، وإله عصرنا أيضاً فإنه كان يضرب مؤسسة الفساد فى مقتل ، كان يدرك حين ينحاز إلى الفقراء والمستضعفين أنه يشعل الثورة على مؤسسة الفساد ، يقول المسيح « جئت لألقى على الأرض ناراً فحبذا لو تضطرم » ويقول لتلاميذه : « اتحسبوننى أتيت لأمنح الأرض سلاماً .. كلا وإنما هو الصدام والانقسام » .

كان المسيح حين يدعو إلى خلاص الضمير ونقاء الروح ، يدعو بالضرورة الى مقاطعة مؤسسة الفساد وإلهها المادى ، بل يدعو للثورة عليها أو على الأقل رفض الخضوع لها وخدمتها .

واجه المسيح تحجر الأشكال والأوضاع فى الدين والاجتماع ، وتحجر نظام المجتمع الذى أصبح أشكالاً ومراسم خلت من المعانى والغاية بل وتحجر الشرائع والقوانين ، وأن التقوى أصبحت اجترارٌ النصوص والبحث عن مراسم الشريعة وغلبة المظهر ، وانتشر الخلاف على النصوص والحروف وخلاف التأويل والتحليل .

كان النبى عيسى مثل : النبى يحيى يحب البسطاء والخاطئين وكان أعداؤه يعيبون عليه ذلك فقالوا عنه : « إنه محب للعشارين والخطاة » وكان يوحنا المعمدان « النبى يحيى » يقول لهم : «يا أولاد الأفاعى لا يهجس بأخلادكم أنكم تنتسبون إلى إبراهيم إنى أقول لكم إن الله قادر على أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم » .

ويعلق الأستاذ عباس محمود العقاد على ذلك قائلاً فى كتابه حياة المسيح : «إنه يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول فى

زمرة التائبين وطلاب الخلاص ولو لم يكن لهم نسب فى آل يعقوب وإبراهيم » .

ولأن دعوة المسيح ويوحنا المعمدان اتجهت إلى الجماهير ، ورفضت المؤسسة الحاكمة أو المتحالفين معها ، فقد تنكر لها الكهان والفقهاء ومحترفوا الدين ، وأحبها الجماهير ، فكان الناس يحبون كلًا من المسيح ويوحنا المعمدان حباً جماً ، يقول العقاد فى نفس الكتاب ص٩٦ : « لم تذهب دعوة يوحنا سدى بين الدهماء وبقى اسم يوحنا مقدسا محبوباً لديهم لدرجة أن الأدعياء خافوا أن يجترئوا عليه حتى لا ينقموا أغلبية الشعب » .

وبديهى أن الانحياز للفقراء والمرضى والمستضعفين والدهماء ورفض المؤسسة الفاسدة كان يعنى بالضرورة أن يمارس كل من المسيح ويوحنا المعمدان حياة الزهد والبساطة ، وأن يرفضا الانتفاع بأى شكل من أشكال الصلة بتلك المؤسسة بل أن يرفضا تقاليدها فى الترف والغنى ، فكان قوتهما من الجراد والعسل البرى ، ولا يعقل طبعاً أن يكون المناضلين ضد مؤسسة جزءً منها أو يقبضون منها أول النهار ثم يلعنونها آخر النهار أو توجه دعوتهم للجماهير ثم يعيشون حياة الترف التى يعيشها مصاصو دماء الجماهير حتى ولو كان ذلك نتيجة عمل مشروع أو جهد مأجور – وهو أمر صعب أصلاً – ولكن حتى لو فرض إمكانية تحقيقه فإنه يفقد المناضل مصداقيته .

كانت المؤسسة تدرك خطر دعوة المسيح عليها وكذا من قبله دعوة يوحنا المعمدان ، وكان محترفوا الدين كذلك والمرتبطون بالمؤسسة ، كل هؤلاء تآمروا لقتل المسيح وقتل النبى يحيى «يوحنا المعمدان» .

كانت المؤسسة هى سبب الفساد ورأسه ، أما المذنبون والخاطؤون الصغار فهم ضحايا تلك المؤسسة قبل أن يكونوا مذنبين وخاطئين وعصاة ، كان المسيح يفهم هذا ويدركه ، ولذا فهم أن التطبيق الحرفى للشريعة ، فى ظل مؤسسة ظالمة مستبدة فاسدة هو أكبر الظلم وأكبر خروج على الشريعة ، ولذلك عندما جاؤوا للمسيح

وهو فى الهيكل بامرأة زانية وقالوا له : إن شريعة موسى تقول : ارجموا الزانية فما زاد على أن قال : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » .

كان الظرف لا يستدعى قاضياً أو حسيباً على الناس بل قلب كبير يجذب إليه الضحايا والمظلومين ، ولذلك عندما طلب منه أحدهم أن يقسم الميراث بينه وبين أخيه قال له « من أقامني عليكم قاضياً أو حسيباً ؟» .

كان المسيح يضع الفأس على رأس المؤسسة حين يلفت نظر الناس إلى الدخول إلى لب المسائل وليس قشرتها ، إلى اليد التى تقف وراء القفاز وليس القفاز نفسه ، إلى رأس الفساد وليس ضحاياه ، وكذلك حين ينادى الجماهير « طوبى للحزانى ، طوبى للمساكين ، طوبى للجياع والظماء ، طوبى للمطرودين فى سبيل البحر ، طوبى للودعاء والرحماء ، تعالوا لى يا جميع المتعبين والمثقلين » إنه هنا لا يدعوهم إلى الجوع بل إلى الثورة على ناهبيهم وغاصبى قوتهم ومضطهديهم .

لم تكن الشريعة يوماً لاقتناص واصطياد الناس ، ولم تكن الشريعة يوماً معنى مجردا عن الزمان والمكان والظروف ، ولم تكن الشريعة يوماً إلا لإصلاح حال الإنسان ولها غاياتها العليا دائماً وهكذا فإن المسيح عندما عالج المرضى يوم السبت وقال له محترفو الدين أن العمل يوم السبت محرم فى شريعة موسى قال لهم المسيح : « خلق السبت للإنسان ولم يخلق الإنسان للسبت » ، وبعده عفا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن السارق ولم يقم عليه الحد، بل هدد بعقاب سيده الذى أجاعه فدفعه إلى السرقة ، هكذا يفهم المخلصون وكبار العقول والقلوب الشريعة على حقيقتها .

على أن أهم ما نتعلمه من تجربة المسيح : هو عدم الوقوف على كلماته بحروفها ، بل بمضامينها وغاياتها.

من عبيد إلى أمراء

دراسة فى صعود المستضعفين فى صدر الإسلام

د- محمد مورو

تشكل تجربة صعود المستضعفين فى صدر الإسلام، نموذجاً فذاً لعملية ثورية كبرى وحراك اجتماعى لا نظير له، منغم برنين صاخب ولكنه عذب رغم أنه يبدو للوهلة الأولى صامتاً، وربما كان هذا الصمت الملحوظ علامة على عبقرية الممارسة، التى حولت هذه التجربة الفذة إلى شىء طبيعى حتى لا تكاد تحسه أو تسمعه حتى كان الأمر لا يبدو ملفتاً للنظر من شدة كونه بديهية لا تلفت نظر الرجال الذين مارسوه.

ولا شك أن تجربة الإسلام الثرية فى هذا الصدد على مستوى النص والتطبيق يمكن أن تصبح جذراً ثقافياً ومعرفياً لكل ثورة تحريرية ترفع راية المستضعفين فى مواجهة مؤسسات الاستكبار.

أى تجربة عظيمة تلك التى ترفع سلمان الفارسى الذى كان عبداً عند أحد يهود المدينة فيصبح أميراً على الكوفة – أهم إمارات الدولة الإسلامية فى ذلك الوقت من خلافة عمر بن الخطاب؟!

هذا العبد الذى يتسابق المهاجرون والأنصار بل ورسول الله صلى الله عليه وسلم لينسبه كل إلى نفسه، ففى يوم الخندق وقف الأنصار يقولون سلمان منا ووقف المهاجرون يقولون بل سلمان منا، فيسمعهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول: « سلمان منا آل البيت ».

والذى يصبح للمسلمين معلماً ومرشداً وحكيماً فيقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « لقد أشبع سلمان علماً » .

ويلقبه على بن أبى طالب كرم الله وجهه بلقمان الحكيم ، فقد سئل على عنه بعد موته فقال : «ذاك امرؤ منا وإلينا أهل البيت من لكم بمثل لقمان الحكيم » . وهكذا فعلى يفخر بانتساب سلمان إلى أهل البيت النبوى ، بل ويباهى به سائليه .

إنه سلمان الفارسى ، الذى كان ذات يوم عبداً ، فأصبح بالإسلام رجلاً يخرج الخليفة بنفسه لاستقباله فقد جاء سلمان إلى المدينة زائراً فى خلافة عمر بن عبد الخطاب فجمع عمر أصحابه وقال لهم : هيا بنا نخرج لاستقبال سلمان ..

***

وأى تجربة تصنع من عبد الله بن مسعود ، ذلك العبد الذى يرعى الغنم فى مكة لعقبة بن أبى معيط ، ذلك الرجل الضعيف الجسم النحيف ، القصير القامة ، الفقير الأجير .. تصنع منه هذا الرجل الذى يكون أول من يجرؤ على إسماع قريش بكل وجهائها وزعمائها آيات القرآن علناً وبصوت مرتفع .. فيتفوق بذلك على كل المسلمين الذين أسلموا فى تلك الفترة من حياة الدعوة الاسلامية فى بواكيرها ، والذين كان منهم القوى والشريف والغنى ؟!. هذا الرجل – عبد الله بن مسعود – يصبح يوماً وزيراً فى الكوفة مع أميرها فى ذلك الوقت سلمان الفارسى فى خلافة عمر بن الخطاب .

ويصبح بعد الإسلام من أفقه المسلمين وأكثرهم علماً ، بل وأحسنهم تلاوة للقرآن الكريم ، فيتعلم منه كبار الصحابة كيف يتلون القرآن ، ويتعلمون منه أيضاً فقه الدين ويصبح مرجعاً لهم فى أمور الدين .

يقول عنه الرسول ﷺ : « من أحب أن يقرأ القرآن .... كما أنزل ، فليقرأه على

قراءة ابن أم عبد » أى عبد الله بن مسعود ، والذى يطيب للرسول صلى الله عليه وسلم أن يستمع الى القرآن من فمه .. وهو الذى عليه أنزل ، ويقول عمر بن الخطاب : «لقد ملئ فقها» . ويقول عنه أبو موسى الأشعرى : « لا تسألونا عن شىء مادام هذا الحبر فيكم » .

اجتمع نفر من الصحابة يوماً عند على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقالوا له : «يا أمير المؤمنين ، ما رأينا رجلاً كان أحسن خُلقاً ولا أرفق تعليماً ولا أحسن مجالسة ، ولا أشد ورعاً من عبد الله بن مسعود » ، فيقول على : « نشدتكم الله أهو صدق من قلوبكم؟ قالوا : نعم » قال : « اللهم إنى أشهدك ، اللهم إنى أقول فيه مثلما قالوا وأفضل » « لقد قرأ القرآن فأحل حلاله ، وحرم حرامه، فقيه فى الدين ، عالم بالسنة » .

وهو دون غيره من المسلمين يلقب بصاحب السواد أى موضع سر الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحب نجواه .

ثم هو الذى يقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « لو كنت مؤمّراً أحداً دون شورى المسلمين ، لأمرت ابن أم عبد » ، بل ويجعله إماماً للهدى لكل الصحابة فيقول عنه : «تمسكوا بعهد ابن أم عبد .. » أى تجربة تلك التى صنعت من هذا العبد كل هذا الذى ذكرناه بل ويعرف الجميع له الفضل ؟! ويعرف أيضاً عن نفسه – بلا عقد أو حساسيات ، فيقول هو عن نفسه : « والله ما نزل من القرآن شىء ، إلا وأنا أعلم فى أى شىء نزل ، وما أحد أعلم بكتاب الله منى ، ولو أعلم أحداً تمتطى إليه الإبل أعلم منى بكتاب الله لأتيته وما أنا بخيركم » .

من عبد إلى وزير ..

من عبد إلى معلم ومدرسة فى الفقه ومنارة هداية للمسلمين .

من عبد إلى صاحب السواد .

من عبد إلى أعلم الناس بكتاب الله قراءة وتفسيراً وأسباب نزول ، فقيه فى الدين عالم بالسنة. من عبد إلى إمام لأجيال بعد أجيال الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

***

أى تجربة تلك التى صنعت من سالم مولى أبى حذيفة .. الذى لا يعرف أحد اسم أبيه ولا هو نفسه صنعت منه إماماً للمسلمين المهاجرين من مكة إلى المدينة طوال صلاتهم فى مسجد قباء وفيهم من فيهم من الأشراف والأغنياء .. هذا الذى كان عبداً ذات يوم عند أبى حذيفة فيسلما معاً ويعتقه أبو حذيفة ثم يزوجه بنت أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة .

بل ويتحول إلى مصدر فخر للرسول صلى الله عليه وسلم ، وفخر بالتالى لكل مسلم إلى يوم القيامة أن يكون من نفس الأمة التى منها سالم مولى أبى حذيفة الذى لا يعرف أحد اسم أبيه فيقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « **الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثلك** » .

هذا الذى كان عبداً يوماً فى مكة ، وكان فيها خالد بن الوليد سيداً ابن سيد هو نفسه الذى يقف أمامه خالد بن الوليد متهماً يسمع قائمة أخطائه من سالم أثناء الخروج معه فى سرية توجهت إلى بعض القبائل العربية بالقرب من مكة بعد الفتح وارتكب خالد فيها بعض الأخطاء ، وكان قائداً لها فإذا بسالم يواجهه بتلك الأخطاء دون خجل أو حساسية .

***

أى تجربة فريدة تلك التى صنعت من صهيب الرومى ، الذى كان عبداً فى مكة ذات يوم، هو نفسه الذى يوصى عمر بن الخطاب قبيل موته بعد طعنه بالخنجر على يد أبى لؤلؤة المجوسى، يوصى بأن يكون صهيب هو من يؤم المسلمين فى الصلاة حتى يتم

اختيار خليفة جديد ، ويظل صهيب يفعل ذلك ثلاثة أيام حتى تم اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين . بل ويوصى عمر بأن يكون صهيب مراقباً لأعمال الستة الذين أوكل إليهم أمر اختيار الخليفة من بينهم ، وبينهم أكبر زعماء المسلمين فى ذلك الوقت .

وهو الذى ينزل فيه الآية الكريمة ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ فيخلد ذكره إلى الأبد ، وهو الذى يباهى المسلمين بأعماله دون خجل أو حساسية قائلاً : « لم يشهد رسول الله ﷺ مشهداً قط ، إلا كنت حاضره ولم يبايع بيعة قط إلا كنت حاضرها ، ولا غزا غزوة قط أول الزمان أو آخره ، إلا كنت فيها عن يمينه أو شماله ، وما خاف المسلمون – أمامهم قط إلا كنت أمامهم ولا خافوا وراءهم إلا كنت وراءهم ، وما جعلت رسول الله ﷺ بينى وبين العدو أبداً حتى لقى ربه » .

***

وأى تجربة متميزة تلك التى تجعل بلالاً العبد الحبشى الأسود هو الذى يؤذن للصلاة ، وهو شرف كان يتمناه كل الصحابة الكبار والصغار ، بل وهو من يمسك به الرسول من ناحية ، وبأسامة بن زيد بن حارثة من ناحية أخرى ويدخل بهما الكعبة يوم فتح مكة ، وكأنه ﷺ يريد أن يؤكد تجربة الإسلام العظيمة فى صعود المستضعفين ؛ لأنه يوم النصر الأكبر لا يدخل الكعبة وعن يمينه عمر بن الخطاب أو أبو بكر الصديق ، أو خالد بن الوليد أو عثمان بن عفان أو عبد الرحمن بن عوف أو حتى العباس بن عبد المطلب بل يمسك ببلال العبد الحبشى الأسود الذى كان يوماً عبداً عند أمية بن خلف من ناحية ، ومن الناحية الأخرى أسامة بن زيد بن حارثة أى ابن عبد آخر كان ذات يوم عبداً عند السيدة خديجة فوهبته لمحمد فأعتقه .

ولعل وجهاء مكة – وكل أهلها – قد فهموا هذا المعنى نفسه عندما أمر الرسول

ﷺ بلالاً بالصعود فوق أعلى مكان فى الكعبة وأن يؤذن ، فوقف ثلاثة من زعمائها هم أبو سفيان بن حرب - وكان قد أسلم منذ ساعات - وعتاب بن أسيد والحارث ابن هشام وكانا لم يسلما بعد يتحدثون فيقول عتاب بن أسيد وعينه على بلال وهو يرفع الآذان ويعلن انتصار الحق .. لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون حضر هذا فيسمع منه ما يغيظه .. وهكذا من عبد فى مكة إلى صاحب إعلان نهاية الكفر فيها وشروق فجر جديد .. ويا له من شرف عظيم . بلال بن رباح من عبد فى مكة إلى رجل يفخر به كل مسلم بل وأشهر من عُرف بين أجيال المسلمين ، بل وتقوم بأسمه حركات ومؤسسات ، بل ويندر أن تقابل مسلماً عربياً أو أعجمياً ، أفريقى أو آسيوى ، أوروبى أو أمريكى .. ولا يعرف بلالًا .. سواء كان هذا المسلم رجلاً كبيراً أو طفلاً صغيراً ، من الخواص أو من العوام .

***

هذه التجربة المنقطعة النظير - هى التى تصنع من زيد بن حارثة هذا العبد لدى السيدة خديجة فى مكة التى تهديه لزوجها محمد ﷺ فيحرره ويتبناه إلى أن ينزل قرآن ينهى عن عادة التبنى ، هذا العبد ينزل فيه قرآن من فوق سبع سماوات .. ويصبح هو نفسه قائداً لجيش المسلمين بما فيه من كبار الصحابة ووجهاء القوم - فى غزوة مؤتة ، ومن قبلها كان هو قائد أكثر من سرية وأميراً للقوات الزاحفة إلى معارك الجموح ، والطرف ، والفيصل ، وحسمى وغيرها .

هذا العبد القصير الأسمر ، أفطس الأنف هو نفسه « الذى لا يرسله الرسول ﷺ فى جيش إلا أمره عليه ولو بقى حياً بعد الرسول لاستخلفه » كما تقول السيدة عائشة . من عبد إلى أمير ، بل ولو عاش بعد رسول الله ﷺ لأوصى الرسول ﷺ به ليكون خليفة للمسلمين .

بل وابنه أسامة بن زيد بن حارثة ، التى كانت أمه أيضاً من العبيد « أم أيمن » وهو أيضاً الأسود الأفطس الأنف مثل أبيه ، هو وبلال من يدخلان بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة يوم الفتح .

وهو الذى يجعله الرسول ﷺ أميراً لجيش أسامة أى لذلك الجيش الذى حمل اسمه حتى اليوم ، هذا الجيش الذى كان فيه عمر وأبو بكر وغيرهما من كبار الصحابة جنوداً تحت إمرة القائد أسامة بن زيد الذى لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره فى ذلك الوقت .

***

هذه التجربة التى لا تستطيع الكلمات وصفها بما تستحق ، هى من تجعل من خباب بن الأرت عبد أم أنمار ، ذلك الحداد الذى كان يصنع السيوف فى مكة هو من يعلم إخوانه المسلمين الأوائل آيات القرآن ، وهو الذى كان يعلم فاطمة بن الخطاب وزوجها سعيد بن زيد القرآن عندما داهمهم عمر بن الخطاب فى القصة المعروفة لإسلام عمر .

***

ومن خلف تلك الممارسة الفذة .. كان النص قرآناً وسنة يؤكد هذه التجربة بل يصفها بقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى » .ويقول « **ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوي** » ويقول : « **كلكم لآدم وآدم من تراب** » . ومن خلف النص والممارسة كان المنهج الإسلامى بشموله وروعته مهيمناً .



التكتيك النبوى فى مواجهة اليهود

د- محمد مورو

لاشك أن دراسة سياسات الرسول ﷺ تجاه اليهود فى الجزيرة العربية فى المرحلة المدنية بالتحديد تكشف الكثير من المعطيات الضرورية لفهم مبادىء الإسلام العليا من ناحية ، وتكشف أيضاً عن جوانب من الأسلوب الصحيح لمواجهة اليهود عموماً ، وهو أمر لازم لنا فى إطار الصراع مع العدو الصهيونى الذى يمثل أكبر التحديات فى تاريخنا المعاصر.

ولكى نقف على طبيعة التكتيك النبوى تجاه اليهود فى تلك الحقبة ينبغى بالطبع أن نعرف شيئاً عن طبيعة الوجود اليهودى فى الجزيرة العربية فى ذلك الوقت .

تركز الوجود اليهودى فى الجزيرة العربية فى المدينة وشمالها من ناحية وفى بعض مناطق اليمن جنوباً من ناحية أخرى ، ويهمنا بالطبع هنا فى إطار دراسة التكتيك النبوى فى مواجهة اليهود ،التركيز علي تلك التجمعات اليهودية فى المدينة وشمالها ، وكان هؤلاء يتكونون من ثلاثة قوى وتجمعات يهودية داخل المدينة هى بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير ، وخارج المدينة فى خيبر وفدك وتيماء وغيرها على امتداد ٤٢ كيلو متر شمال المدينة حتى تخوم الجزيرة العربية الشمالية ، وذكر السمهودى فى وفاء الوفا ص ١١٦ أن عدد القبائل اليهودية فى تلك المناطق يزيد على عشرين .

وقد جاء هؤلاء اليهود مهاجرين إلى الجزيرة العربية نتيجة الضغط البابلى والآشورى عليهم فى فلسطين وتخريب هيكلهم وسبى أكثرهم على يد الملك بختنصر سنة ٥٨٧ ق.م فهاجر قسم منهم إلى الحجاز وتوطن فى ربوعها الشمالية ،

وكذلك عقب احتلال الرومان لفلسطين سنة ٧٠ ق.م ونشأ عن اضطهاد الرومان لليهود أن هاجر عدد منهم إلى الحجاز واستقر فى يثرب وخيبر وتيماء كما دخل بعض العرب عن طريق هؤلاء اليهود فى اليهودية ، إلا أن ذلك ظل أمراً محدوداً بالطبع ، ومن ناحية أخرى فإن تلك التجمعات اليهودية فى يثرب وخارجها ظلت متمسكة بعصبتها الجنسية والدينية رغم أنهم أخذوا الصبغة العربية فى اللغة والزى والأسماء وكانوا دائماً يفتخرون بجنسيتهم الإسرائيلية ولم يندمجوا فى العرب قط ، بل كانوا يحتقرونهم ويسمونهم أميين كعادة اليهود فى النظر إلى غيرهم من الأجناس ، وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم يأكلونها كيف شاؤوا ﴿قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ ولم يكن لهم تحمس فى نشر دينهم وإنما جل بضاعتهم هى الفأل والسحر والنفث والرؤية وغيرها » المباركفورى – الرحيق المختوم ص ٢١١ .

وسيطر اليهود على أعمال التجارة عموماً وتجارة الخمر والسلاح خصوصاً ، وكانوا بالطبع يمارسون الربا على نطاق واسع وأثاروا دائماً العدوان والبغضاء بين القبائل العربية ليحققوا مكاسبهم المعروفة من الحروب التى تقع بين القبائل العربية فتروج تجارة السلاح وتروج أعمال الربا واستطاع اليهود بهذه الوسائل أن يحققوا ثراء واسعاً ونفوذاً داخل تلك البلاد .

***

كان من الطبيعى أن يعرف اليهود أن النبى محمدًا ﷺ نبى صادق ، وأنه جاء بالحق وذلك بحكم معرفتهم بالكتب والبشريات التى بشرت بالرسول صلى الله عليه وسلم وبعلاماته الصادقة ، ولكنهم رفضوا بالطبع الانصياع إلى الحق ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ، وقد كان رفضهم الإيمان بمحمد يرجع إلى تكبرهم على الحق من ناحية ، وإلى خوفهم من ضياع نفوذهم

وثرائهم بسبب ما توقعوه من تغيير الخريطة الثقافية والاقتصادية والسياسية إذا انتصر الإسلام ، وهكذا أضمر اليهود الحقد والمؤامرات على الإسلام وعلى محمد ﷺ واستعداداً لحرب شرسة ضده ، ومع ذلك عاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتسامح وفقاً لقيم ومبادىء الإسلام العليا فى أول عهده بالمدينة ، ولم يبدأ الحرب عليهم إلا بعد أن قاموا بمؤامرات مادية ومعنوية ضد الكيان الإسلامى الوليد فى المدينة المنورة .

***

دستور المدينة :

بمجرد أن استقر الرسول ﷺ بالمدينة ، وأقام فيها المجتمع الإسلامى الوليد، قام الرسول صلى الله عليه وسلم بعقد ميثاق وعهد ووثيقة مكتوبة تنظم العلاقات بين مختلف القوى والطوائف والتجمعات والأفراد داخل هذا المجتمع ، وكان من الطبيعى – بفضل سماحة الإسلام وبفضل حرص الإسلام على حماية حقوق الأقليات الدينية والعرقية ـ أن يسمح الرسول ﷺ لليهود فى المدينة بالدخول فى هذا العقد ، الذى يمثل أرقى ما عرفت البشرية من عقود لحماية حقوق الأقليات الأمر الذى يعكس قيم الإسلام العليا – راجع نص وثيقة المدينة فى سيرة ابن هشام ، وفى الرحيق المختوم للمباركفورى ، وكذلك فى الدراسة الهامة التى كتبها الدكتور كمال السعيد حبيب فى مجلة منبر الشرق ، العدد (١) السنة الأولى مارس ١٩٩٢ ، صـ١١٥ تحت عنوان قراءة جديدة فى وثيقة المدينة وهى قراءة شديدة التميز والأهمية ،وكذا في الأعمال الكاملة للمفكر عصمت سيف الدولة.

وعلينا أن ندرك أن مجتمع المدينة فى ذلك الوقت كان يمثل كياناً سياسياً متميزاً ، يمثل الرسول ﷺ فيه القائد الأعلى ، ويمثل المسلمون من المهاجرين والأنصار

الأغلبية مع وجود أقليات من المشركين ومن اليهود كأفراد أو كجماعات .

كانت الوثيقة تنص على وجود حقوق لليهود – مثل المسلمين ، وكانت ترتب علاقات وواجبات ، وتسمح لليهود بالمشاركة فى المعارك التى يخوضها المسلمون – دون إلزامهم بذلك – فإذا شاركوا بأنفسهم أو أموالهم فى الحروب مع المسلمين حصلوا على نصيبهم فى الغنائم ، وبديهى أن الوثيقة نصت على وجوب عدم تعاون أهل الوثيقة مع القوى المعادية – قريش مثلاً – وعدم خيانة أهل المدينة أو إفشاء أسرار المجتمع أو مساعدة الأعداء على انتهاك الأمن الداخلى لهذا المجتمع ، واحترام حقوق الدماء والأموال وغيرها ، وأن أى نقض لذلك يترتب عليه خرق الوثيقة بما يترتب على ذلك من آثار .

دخل اليهود فى وثيقة المدينة إذن ، وكان عليهم الالتزام بها بالطبع والذين دخلوا فى تلك الوثيقة من اليهود هم يهود المدينة وما حولها مثل بنى قريظة وكانوا يعيشون فى ضاحية يثرب من جهة الجنوب الشرقى ، وبنى النضير وكانوا يعيشون فى ضاحية يثرب جهة الغرب، وبنى قينقاع وكانوا يقيمون داخل المدينة ذاتها مع قبائل بنى عوف وبنى النجار كان بنو قينقاع حلفاء للخزرج ، أما بنو النضير وبنو قريظة فكانوا حلفاء للأوس .

أما اليهود خارج المدينة مثل خيبر التى تقع على بعد ٨. ميلاً شمال المدينة وهى من أقوى الحصون والمواقع اليهودية فى الجزيرة العربية فى ذلك الوقت ، وكذلك يهود فدك وتيماء وكل هؤلاء لم يكونوا أطرافًا فى الحلف والميثاق المدون بوثيقة المدينة .

***

ولا شك أن تعامل الرسول ﷺ وسياساته تجاه اليهود تمثل العدل المطلق ،

وتعكس قيم الإسلام العليا ، فقد حرص على التعايش بين المسلمين واليهود وغيرهم بدون ظلم لأحد ، وهذه التجربة فى التعايش تمثل نموذجاً فذاً للتعايش بين الأكثرية والأقلية فى أى زمان ومكان ، وكذلك فى حرص الرسول ﷺ على كتابة نص يمثل الحقوق المتبادلة فى وثيقة مكتوبة وهو أمر يمثل سابقة هامة على مستوى السوابق الدستورية .

ولكن اليهود نقضوا العهود ، فكان من الطبيعى أن تتغير سياسة الرسول ﷺ تجاههم ، فيسقط المعاهدة مع المتعاهدين منهم ويتصرف مع الباقين على مستوى كل حدث . كان اليهود قد تحركوا على أكثر من مستوى للكيد للدعوة الإسلامية الوليدة وكذا لشن حملة دعائية وإعلامية ضد الدين الإسلامى الحنيف ، وضد الرسول ﷺ ، والتربص بنساء المؤمنين ، وإنفاق الأموال لدفع القبائل العربية لشن الحروب على دولة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة وتحريض قريش وغيرها وتمويل الحرب ضد المسلمين وكذا تخطيط أكثر من مؤامرة لاغتيال الرسول ﷺ ويمكننا أن نقسم سياسة المواجهة ضد اليهود التى خاضها الرسول ﷺ إلى قسمين ، قسم خاص بتنفيذ عدد من عمليات الاغتيال لمجرمى الحرب اليهود وزعماء المؤامرات ، والقسم الثانى خاص بالحروب والغزوات ضد تجمعات اليهود .

أما القسم الأول الخاص باغتيال زعماء المؤامرات ومجرمى الحرب اليهود مثل اغتيال كعب بن الأشرف ، وابن سنينة ، وسلام بن أبى الحقيق المعروف بأبى رافع اليهودى ، وهؤلاء كانوا من ممولى الحروب ضد دولة الرسول بالمدينة ، وكذلك قاموا بجهد كبير فى تحريض القبائل العربية على قتال المسلمين فى المدينة ، والتعريض بأعراض المسلمات فى المدينة عن طريق الشعر ، وكذلك الحرب الإعلامية والدعائية ضد المسلمين ، والمحاولات الخطيرة لشق المجتمع الإسلامى

فى المدينة وإحداث حرب أهلية داخلها عن طريق بث الأفكار والإشاعات والمواقف مستخدمين فى ذلك المنافقين. وهكذا فإن عمليات الاغتيال تلك كانت عقوبة على عمل مادى قام به هؤلاء ، وكذلك عملية إجهاضية لمؤامرات تم نسجها وبث الرعب فى نفوس باقى أطراف تلك المؤامرات .

أما القسم الثانى : وهو الغزو ضد التجمعات اليهودية ، فحدث أولاً مع بنى قينقاع ، فبرغم أن بنى قينقاع كانت داخلة فى وثيقة المدينة ، وبرغم احترام المسلمين لهذه الوثيقة تماماً ، إلا أن بنى قينقاع بدأوا خاصة بعد انتصار المسلمين فى بدر فى التحرش بالمسلمين واستفزازهم والتهديد بدخول معركة معهم يهزمون فيها المسلمين لأنهم على حد قولهم أقوى من قريش وأشجع ولن ينهزموا مثل قريش الذين لا يعرفون فن الحرب على حد قول بنى قينقاع ، وكذلك إيذاء المسلمين والتحرش بالنساء المسلمات ، ووصل الأمر إلى حد محاولة إحداث حرب أهلية بين الأوس والخزرج ، وهذا بالطبع أمر خطير جداً – يستحق أقصى العقوبة ، ذلك أن أحدهم وهو شاس بن قيس وكان شيخاً يهودياً شديد المكر أمر أحد الفتيان اليهود ، بالذهاب الى مجالس الأوس والخزرج حيث يجتمع شبابهم عادة ، ثم تذكيرهم بأيام الحروب والعداوات بينهم وتحريضهم على قتال بعضهم البعض ، وقد نفذ الفتى اليهودى ذلك الأمر ، وكادت تحدث معركة بين الأوس والخزرج ، فقد تشاجر بعض الأوس مع بعض الخزرج ، ثم تواعدوا على الحرب ، وتنادوا إلى السلاح ، ولولا أن الرسول ﷺ قد أدرك الموقف سريعاً وذهب إليهم وقال لهم : « **يا معشر المسلمين الله الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم؟!** » فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق

الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم وعدو الله شاس بن قيس ذلك اليهودى الملعون «المباركفورى – الرحيق المختوم – ص٢٧٧، ٢٧٨ » .

وكان الرسول ﷺ ، كلما فعل اليهود شيئاً من ذلك دعاهم ووعظهم وطلب منهم احترام الميثاق بين الطرفين دون جدوى .

وكان لابد أن يفكر الرسول صلى الله عليه وسلم فى حماية الأمن الاجتماعى للدولة الذى تهدده مؤامرات اليهود وإشاعاتهم وأقوالهم وأراجيفهم .

وحدث أن اعتدى اليهود على إحدى النساء المؤمنات التي كانت تشترى بعض الأشياء من السوق، وجلست إلى أحد الصاغة اليهود ، فأرادوا كشف وجهها فأبت المرأة ذلك ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهى غافلة ، فلما قامت اتكشفت سوأتها ، فضحكوا منها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع . (سيرة بن هشام ٢ / ٤٧ ، ٤٨) .

وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً فى نقض العهد والوثيقة بين المسلمين واليهود ، وقرر الرسول ﷺ أن يغزو بنى قينقاع بعد ذلك ، فسار إليهم الرسول ﷺ بجيشه فى شوال سنة ٢ هـ ، فتحصنوا فى حصونهم ، وحاصرهم الرسول ﷺ خمسة عشر يوماً وانتهى الأمر بتسليمهم ، فعفا الرسول ﷺ عنهم وأمر بخروجهم من المدينة فخرجوا منها ، ويجب أن نلاحظ هنا عددًا من الملاحظات :

– أن يهود بنى قينقاع هم الذين نقضوا العهد بما فعلوه مع المرأة المسلمة فى السوق ، وأن هذا لم يكن أول شكل من أشكال النقض ولكنه أكثرها مباشرة ووضوحاً ، وأنهم قبل ذلك قاموا بالكثير من الأمور الناقضة لذلك العهد مثل

الإيقاع بين الأوس والخزرج ، أو أذية المسلمين أو التهديد بحرب المسلمين ، والتهديد بحرب المسلمين له قصة معروفة فى السيرة ونزل بها القرآن الكريم ، ذلك أنهم قالوا بعد انتصار المسلمين فى بدر : « يا محمد لا يغرنك أنك قتلت نفراً من قريش ، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا » .. وكان هذا بالطبع تهديداً واضحاً بالحرب ضد المسلمين ، وكان بنو قينقاع مغترين بقوتهم فقد كان لديهم ٧٠٠ مقاتل وكانوا معروفين بالمهارة فى فن القتال .

– أن الرسول ﷺ كان يسير معهم بمقتضى العدل ، بل بالرحمة أيضاً فقد احترم الميثاق معهم تماماً ، وصبر على ممارساتهم المخالفة للميثاق عدة مرات ، ولكن عندما وصل الأمر الى تهديد الأمن الداخلى لمجتمع المدينة فإنه باعتباره قائداً عاماً لهذه الدولة كان عليه أن يجهض المؤامرات وأن يقضى على بؤرة الفتنة داخل المدينة فكان غزوهم ثم إجلاءهم، ونلاحظ أن الرسول لم يأمر بقتلهم رغم أنهم تحصنوا بحصونهم عند الغزو أى بدأوا فى معركة ولم يصمدوا حتى النهاية فاستسلموا بعد حصار خمسة عشر يوماً ، وكان من حق الرسول أن يأخذهم أسرى على الأقل ، ولكنه عفا عنهم وسمح لهم بالجلاء عن المدينة ، فحقق بذلك الأمن الاجتماعى داخل المدينة ، وعاقب اليهود عقاباً طفيفاً على مؤامراتهم من ناحية أخرى .

– إن الرسول ﷺ كان يسمح ويريد تعايش المسلمين مع اليهود فى المدينة بدون مشاكل وفقاً لقيم العدل الإسلامى بل وقيمة العدل المطلق بدليل أنه عندما نقضت بنو قينقاع الميثاق ، عاقبهم وحدهم دون باقى جماعات اليهود فى المدينة مثل بنى النضير وبنى قريظة واستمر محترما للميثاق معهم حتى نقضوه هم أنفسهم .

– أن التسوية لم تكن قاسية ولكنها حققت الهدف أيضاً ؛ لأن المطلوب كان حماية الجبهة الداخلية لمجتمع المدينة وهذا تحقق بجلاء يهود بنى قينقاع .

أما يهود بنى النضير ، فإنهم أيضاً هم الذين نقضوا الميثاق ، ومثل باقى اليهود كانوا يضمرون الحقد على الإسلام ، ويحرضون القبائل على حرب الرسول ويمولون ذلك ، ويقومون بدورهم فى الحرب الإعلامية ضد المسلمين ، ولكن وتيرة التآمر عندهم زادت بصورة كبيرة بعد غزوة أحد التى انهزم فيها المسلمون أمام قريش فقد تجرأ يهود بنى النضير بعد هزيمة المسلمين فى أحد فكاشفوا بالعداوة والبغضاء وأخذوا يتصلون بالمشركين والمنافقين ثم دبروا فى النهاية مؤامرة لقتل الرسول ﷺ عن طريق إلقاء رحى عليه عندما جلس عندهم للتفاوض حول مساهمتهم فى دية بعض القتلى من الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمرى وفقاً لشروط الوثيقة .

فلما انكشفت المؤامرة ، التى شاركوا فيها جميعاً ، بالتخطيط أو التنفيذ أو الموافقة ، ذلك أن محاولة القتل تلك لم تكن عملاً فردياً ، بل قراراً اتخذه زعماؤهم ووافقوا عليه جميعاً ، ثم تم تكليف بعضهم بتنفيذه ، إلا أن الله تعالى أخبر به الرسول، فقام قبل تنفيذ المؤامرة ونجا من المحاولة ، ثم قرر الرسول ﷺ أن يطلب منهم الرحيل عن المدينة جزاء ما فعلوا ، وأمهلهم عشرة أيام إلا أنهم رفضوا ذلك ، وكان هذا إعلانًا للحرب بالطبع ، فمن ناحية فإنهم لم ينكروا مؤامراتهم لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن اعترفوا بها وصمموا على رفض طلب خروجهم من المدينة ، فكانت الحرب لابد واقعة ، فسار إليهم الرسول ﷺ بجيشه ، وحاصرهم ستة أيام إلى أن استسلموا ، فسمح لهم الرسول بالخروج من المدينة ولهم أن يحملوا معهم ما شاءوا من الأموال والأمتعة ما عدا السلاح ، وكانت هذه عقوبة رحيمة أيضاً بالنظر إلى ما فعلوا وبالنظر إلى رفضهم قبول طلب الرسول إليهم بالرحيل فى خلال عشرة أيام وتمسكهم بالحرب وتحصنهم داخل الحصون ثم استسلامهم بعد حصار دام ستة أيام .

وأيضاً لم يؤثر نقض كل من بنى قينقاع وبنى النضير للميثاق مع الرسول ﷺ على موقف الجماعة اليهودية الوحيدة الباقية فى المدينة وهى بنى قريظة التى ظل المسلمون يحترمون الميثاق معها إلى أن نقضها بنو قريظة نقضاً فظيعاً أقل ما يقال فيه أنه الخيانة العظمى ذلك أن اليهود عموماً فى داخل المدينة وخارجها ، ومن بنى قريظة نفسها قاموا بالعمل على حشد عدد كبير من القبائل العربية فيما يسمى بغزوة الأحزاب وقاموا بتمويل تلك الحشود ، ليس هذا فحسب بل إن بنى قريظة اتفقت مع الأحزاب على دخول المدينة عن طريق بنى قريظة إلا أن تلك الخطة فشلت ، وعندما أرسل الرسول إليهم لكى يعرف حقيقة نواياهم – والمدينة محاصرة بجيوش الأحزاب – قالوا لوفد المسلمين إليهم وكان يتكون من سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ وعبد الله بن رواحه ، قالوا لهم أنه لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد وأخذوا يسبون الرسول صلى الله عليه وسلم ويتوعدون المسلمين وكذلك قامت بنو قريظة بأعمال الحرب المباشرة ، بمحاولة دخول أحد الحصون التى كانت نساء المسلمين تجمعن بها بعد خروج الرجال إلى المواجهة مع الأحزاب ويسمى حصن فارع أى محاولة ضرب المسلمين فى نسائهم من الخلف ، ولولا شجاعة صفية بنت عبد المطلب التى قتلت أحد اليهود الذى حاول تسلق الحصن ، فرجع الآخرون بعد أن ظنوا أن هناك حراسة قوية على الحصن لحدثت كارثة .

المهم أن الله أراد النصر للمسلمين وأرسل ريحا على الأحزاب فاضطروا للجلاء والرجوع إلى بلادهم ، وكان من الطبيعى أن ينال يهود بنى قريظة العقوبة الملائمة على الجرائم التى ارتكبوها فى ذلك الوقت العصيب فى حق المسلمين رغم وجود الميثاق بينهما وهذه الجرائم تمثل أبشع أنواع الخيانة العظمى .

فهى أولاً التعاون مع العدو أثناء حالة الحرب وثانياً ضرب مؤخرة المسلمين بل

ومحاولة الاعتداء على النساء ، الاعتراف جهراً بنقض العهد وسب الرسول ﷺ، الاتفاق مع الأحزاب على دخول المدينة من طريق بنى قريظة .

وهكذا كان من الطبيعى أن يعمد الرسول ﷺ إلى غزوهم بمجرد جلاء قوات الأحزاب ، وفى نفس اليوم الذى رجع فيه الرسول إلى المدينة أمر بعدم الراحة والزحف فوراً إلى بنى قريظة وقال : « **من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة** » وسار الجيش إلى بنى قريظة ، وحاصرهم فى حصونهم إلى أن استسلموا وكانت بنو قريظة من حلفاء الأوس ، فتم الاتفاق على أن يحكم فيهم سيد الأوس سعد بن معاذ ، وكان مريضاً فى ذلك الوقت ، فجيء به إلى المكان فقام بالحكم عليهم حكماً مناسباً يتلاءم مع جرائمهم ، رغم أنه كان حليفاً لهم من قبل ولا يعقل أن يظلمهم أو يقسوا عليهم – ولكن مقتضى العدل وحجم جرائمهم لم تكن تسمح إلا بهذا الحكم الذى حكمه عليهم سعد بن معاذ حيث حكم بقتل الرجال وسبى النساء وتقسيم الأموال .

***

وهكذا كانت تلك هى ممارسات الرسول صلى الله عليه وسلم مع يهود يثرب فهو أولاً أراد التعايش معهم وإعطاء كل حقوق المواطنة لهم فى إطار دولة المدينة ، لدرجة السماح لهم بالقتال معه ضد أعدائها مع إعطائهم حقهم فى الغنائم بناء على ذلك كمواطنين فى دولة المدينة ، أفراداً وجماعات إلا أنهم رفضوا التعايش ، وخانوا الميثاق والعهد المكتوب فاستحقوا العقوبة على جرائمهم ، ونلاحظ أن العقوبات دائماً كانت إما متكافئة مع جرائمهم أو أقل من تلك الجرائم مما يؤكد روح العدل والرحمة التى عاملهم بها الرسول ﷺ .

***

بقى بعد ذلك تجمعات يهودية خارج المدينة ، وهذه لم تكن داخلة بالطبع فى عهد وميثاق من أهل المدينة ، وبالتالى يخضعون لنفس المعايير التى خضعت لها معادلات الصراع بين المسلمين وبين مختلف القبائل العربية فى الجزيرة العربية ، كان هناك خيبر وتيماء وفدك ووادى القرى ، وتقع خيبر على بعد ٨٠ ميلاً شمال المدينة ، وكانت خيبر أهم وأغنى تجمعات اليهود فى الجزيرة العربية وأكثرها قوة ، كانت خيبر تدير منذ بدايات الدعوة الإسلامية الكثير من المؤامرات على الإسلام بالتنسيق والتعاون مع باقى يهود الجزيرة العربية، كانت خيبر هى وكر الدس والتآمر فهى التى قامت بالدور الأكبر فى تحريض القبائل وتمويل زحفها على المدينة فى غزو الأحزاب ، وكانت تتصل بالمنافقين فى المدينة وكانت قد أصبحت ملجأ لكل زعماء اليهود وجماعاتهم المتآمرة بعد ضياع كيانهم فى المدينة، وكانت خيبر قد أعدت خطة لاغتيال الرسول ﷺ، وكذلك كانت تستعد للزحف إلى المدينة مع عدد من الجيوش والقبائل للقضاء على المسلمين فيها بعد أن نجح المسلمون فى القضاء على الكثير من القوى المعادية لهم ، أى أنها كانت المحطة الأخيرة لتجميع كل فلول الشرك فى الجزيرة العربية وعمل المؤامرة الكبرى على الإسلام ، وكان من الطبيعى وفقاً للتكتيك النبوى من إجهاض تلك البؤرة ، وما أن فرغ المسلمون من تهدئة جبهة قريش بصلح الحديبية توجه مع جيشه سنة ٧ هـ إلى خيبر لغزوها ، وقد نجح المسلمون فى فتح خيبر بعد قتال صعب ومرير ، وقد تركهم الرسول بعد ذلك يعملون فى الأرض مقابل جزء من الثمار ، وهذا من رحمة النبى – إلا أنه صادر أموالهم وسلاحهم حتى لا يصبحون من جديد قادرين على حشد الجيوش أو تمويل الحروب ضد دولة المسلمين .

وحدث نفس الشىء مع يهود وادى القرى ، وصالح يهود فدك على نفس ما

صالح عليه أهل خيبر ، أما يهود تيماء فقد أرسلو من أنفسهم يطلبون الصلح فكتب لهم الرسول بذلك ما معناه «هذا كتاب محمد رسول الله ، إن لهم الذمة وعليهم الجزية ، ولا عداد ولا جلاء الليل مد والنهار شد » طبقات ابن سعد .

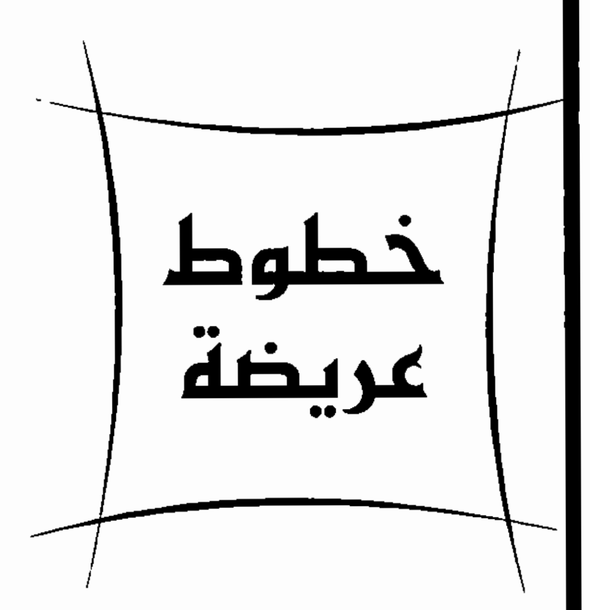
***

وهكذا كان التكتيك النبوى تجاه اليهود هو العدل والرغبة فى التعايش أولاً ، فإذا ما نقضوا العهد كانت هناك عمليات الإجهاض والحرب الهجومية والوقائية وعدم تركهم حتى تكتمل مؤامراتهم ، والمحافظة على أمن الدولة الإسلامية الوليدة ، وامتلاك زمام المبادرة دائماً .



مفاهيم إسلامية







مقدمة

الحاجة إلى المشروع الحضاري الإسلامي أصبحت حالة ملحة على الصعيدين العالمي والإسلامي، بل قل: إن مستقبل البشرية عموماً ومستقبل العالم الإسلامي خصوصاً أصبح مرتبطاً بهذا المشروع ارتباطاً شديداً بل حيوياً.

ففي عالم يسوده الظلم والعنصرية والنهب والقهر والعنف والتطهير العرقي، واضطهاد الأقليات، في عالم المنفعة اللاأخلاقية التي أدت إلى إفساد البيئة والحياة فوق بركان نووي وذري، في عالم يموت فيه سنوياً ٥٠ مليوناً بسبب الجوع منهم ١٥ مليون طفل، في عالم يستأثر فيه ٢٠٪ من السكان بخيراته على حساب ٨٠٪ من هؤلاء السكان، في عالم الاغتراب بسبب سيطرة الآلة وحالات الانتحار حتى في البلاد الغنية ذاتها عالم الاكتئاب واللامعقول والإسفاف وقهر الإنسان، في هذا العالم تبدو الحاجة إلى مشروع حضاري يؤكد على قيمة الإنسان، ويتعامل مع الكون والطبيعة من منطلق الصداقة والتناغم والانسجام وليس الصراع والسيطرة والمنفعة اللاأخلاقية، مشروع حضاري يؤكد على المحافظة على البيئة وربط الإنتاج بحاجة الإنسان دون إخلال بالتوازن البيولوجي أو الاجتماعي، مشروع حضاري يؤكد على اللاعنصرية والعدل والحرية والمساواة والمسؤولية الأخلاقية والاجتماعية عن الفقراء والمستضعفين، عالم بلا فقر ولا مجاعة ولا ازدواج معايير، عالم بلا اضطهاد للأقليات، أو ممارسة التطهير العرقي، عالم التعاون بين البشر وليس نهب بعضهم لحساب البعض الآخر، عالم بلا استبداد وبلا قهر وبلا عنف، وهذا كله لا يتوفر إلا في القيم الحضارية الإسلامية التي أثبتت سموها على المستوى النظري والمذهبي، وعلى المستوى التطبيقي، الأمر الذي تفتقده كل المنظومات الحضارية الأخرى،

وخاصة المنظومة الحضارية الغربية التي عانى العالم الكثير بسببها ومازال يعاني، وعلى المستوى الإسلامي فإن الحاجة إلى المشروع الحضاري الإسلامي أكثر حيوية، لأن العالم الإسلامي هو الذي سوف يحمل تلك القيم الحضارية إلى العالم، ولأن العالم الإسلامي في مجمله خاضع للقهر والنهب والاستبداد بسبب الحضارة الغربية، وبالتالي فإن المشروع الحضاري الإسلامي هو وحده الطريق لهذا العالم الإسلامي نحو التحرر والتنمية والانعتاق والنهضة، ولا شك أن فشل مشروعات النهضة التي استندت إلى القيم الغربية في العالم الإسلامي تؤكد بدورها على أن المشروع الحضاري الإسلامي هو وحده القادر على حشد الجماهير وانتزاع طريق السيادة الحضارية والنهضة والتنمية وحل كل المشكلات والتحديات التي يعاني منها أو يواجهها العالم الإسلامي.

وهكذا فإن المشروع الحضاري الإسلامي يأتي كل على مستويين: المستوى العالمي وهو المستوى الذي علينا أن نقدم من خلاله إلى العالم طريقاً جديداً مثيراً للخروج من مأزق العالم المعاصر ومآسيه وظلماته، وهو المستوى الذي يتضمن التأكيد على قيم الحرية، والعدل، واللاعنصرية، وعدم ازدواج المعايير والمحافظة على البيئة والتناغم معها، والمسئولية عن المستقبل ونصرة الفقراء والمستضعفين، وحماية الأقليات ووحدة المصير الإنساني وغيرها من القيم الحضارية الإسلامية.

والمستوى الإسلامي، وهو المستوى المرتبط باستنهاض همم المسلمين نحو التوحيد والوحدة والجهاد وبناء نمط من التنمية مستقل وغير تابع، الأمر الذي يشكل البداية على طريق التحرر من الاستعمار والهيمنة الغربية، وتحقيق النهضة والتقدم والانعتاق ومن ثم يأتي بعد ذلك حمل القيم الحضارية الإسلامية للعالم بأسره.

المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه الخاص

التوحيد

التوحيد هو الحقيقة الكبرى في هذا الكون، وهو المقوم الأول للعقيدة الإسلامية، والتوحيد هو الرسالة الجوهرية التي جاء من أجلها جميع الأنبياء من لدن آدم وحتى محمد ﷺ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ .

وقد تعرضت عقيدة التوحيد- في حياة الأمم السابقة من أهل الكتاب- إلى الكثير من التحريف والخلط، إلا أن الله تعالى حفظ للإسلام والمسلمين باعتباره خاتم الأديان، وباعتبار الرسول ﷺ آخر الأنبياء، وباعتبار القرآن الكريم آخر الكتب السماوية، حفظ له القرآن من التحريف، وأصول العقيدة من التشويش ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

وهكذا فإن التوحيد هو أهم ما يميز أمة الإسلام عن غيرها من الأمم.

والتوحيد بالطبع شرط لصحة العقيدة والنجاة في الآخرة وهو أيضاً دافع مهم من دوافع الإبداع الحضاري وتحقيق العمران في الأرض، فهو إذن أهم مقومات المشروع الحضاري الإسلامي، وللتوحيد أثار مهمة على الصعيد الحضاري، ذلك أن انفراد الله تعالى بالألوهية والربوبية، وإدراك أن جميع البشر عباد الله يعني بالتالي ضرب مفاهيم الطبقية والعرقية الاقتصادية والسياسية والجنسية واللونية، وليس هناك فرد أو طبقة أو جماعة بشرية أفضل من غيرها أو أحق بالثروة أو السلطة،

والتفاضل لا يكون إلا بالتقوى.

والتوحيد أيضاً يمنع احتكار الدين لطبقة، أو المتاجرة به من قبل رجال الدين المنحرفين، أو ممارسة الاستبداد السياسي أو الاستئثار بالثروة، بدعوى أن هذا أو ذاك هو ظل الله على الأرض، أو المتحدث باسمه أو شعب الله المختار، فالله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وجميع الناس عباد لله.

ولقد حرص الإسلام على إدماج التشريع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، حتى يكون الله وحده مصدر التشريع وبالتالي لا يستغل فرد أو طبقة أو مجموعة سلطتها في سن التشريعات التي تكرس سلطتها السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ومهمة أمة الإسلام الأولى هي إخراج العباد من عبادة العباد بأي صورة من الصور إلى عبادة الله الواحد القهار.

وللتوحيد أهمية خاصة في المشروع الحضاري الإسلامي ذلك أن العمران البشري، كالعبادة، مرتبط بغاية هي إرضاء الله تعالى، ومرتبط بأسلوب هو الأسلوب الذي وصفه الله تعالى في تشريعه المحكم، وهذا أولاً يحقق أوسع الحريات، وأسلم وسائل العلاقات الإنسانية، بين الإنسان والكائنات والطبيعة في تناغم وتناسق يحفظ للأرض وللكون أمانه في الحاضر والمستقبل، وفضلاً عن هذا فإن مقتضى التوحيد يعني الخضوع لله تعالى في ممارسة العمران البشري كوسائل وغايات، أي الخضوع لشريعة الله في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والعلاقات الدولية.. إلخ، وهذا بالطبع يحقق أفضل الفرص للإبداع الحضاري وأكثرها أمانا وعدلا وجدوى، ذلك أنه مهما أوتي فرد أو جماعة بشرية من العلم فإنها لا تحيط بأسرار الإنسان والكون وبالتالي لا تستطيع أن تضع التشريعات الصالحة للعلاقات بين البشر أو بين البشر والكون والكائنات فضلاً عن حرص

هذا الفرد أو الجماعة البشرية على تحقيق مصالحها الخاصة دون الباقين، أما الله تعالى إله الناس جميعاً رب الناس جميعاً وخالق كل شيء، العالم بكل شيء فهو وحده القادر على وضع التشريع المناسب لكل البشر والكائنات والكون بدون تحيز وبعلم وشمول وإدراك مطلق.

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

وللتوحيد أيضاً أهميته في إطلاق طاقات الإنسان التي أودعها الله فيه، لأن الإنسان الموحد يسير في اتجاه الفطرة، وبالتالي يوفر الوقت والجهد المترتب على الصراع مع الفطرة، والأمر أشبه بسرعة سفينة ذات كفاءة ميكانيكية معينة تسير في اتجاه التيار أو في عكس هذا الاتجاه، وبالطبع فإنها في الحالة الأولى تحقق سرعة أكبر وإنجازاً أكثر.

والإنسان الموحد يؤمن بأن الله هو أقوى الأقوياء، فلا يخاف غيره، وهو الرازق فلا يلتمس الرزق من غيره وهو المعز المذل وبيده مقاليد كل شيء وبالتالي يستطيع أن يواجه أعتى القوى معتمداً على الله تعالى، وهذا يجعل الأمة الموحدة أكثر إنجازاً وأقدر على خوض كل التحديات وبالتالي يكون للتوحيد الأثر الجبار في التقدم الحضاري والعمران البشري، وهكذا فالتوحيد هو العنصر الأهم في المشروع الحضاري الإسلامي، إذ لو قارنا بين جماعة بشرية تدرك أن عملها الحضاري مرتبط بالله في الغايات والوسائل ووجدت أمامها تحدياً أكبر من طاقتها، فإنها لا تفر أمامه بل تأخذ بالأسباب وتشحذ طاقاتها ثم تتقدم معتمدة على مدد الله وبالتالي تستطيع أن تصنع المستحيل، أما الجماعة البشرية التي لا تؤمن بمدد الله، أي تؤمن بالأسباب وحدها فإن الحسابات المادية المجردة قد تجعلها تفر من أمام التحديات التي تراها بالحسابات المادية أكبر من طاقتها المادية.

الوحدة

يمكننا أن نرصد بسهولة ذلك التلازم الحيوي بين كل من الوحدة والجهاد وبين الصعود الحضاري للأمة الإسلامية وبسقوط أو ضياع إحدى هاتين القيمتين، يهبط المنحنى الحضاري للأمة الإسلامية، وتتخلف عن مستوى العمران والأخلاق وتتعرض للتحديات الخارجية والداخلية.

فالوحدة إذن عنصر أساسي من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي، وهي أولاً فريضة شرعية، وهي ثانياً ضرورة للصعود الحضاري الإسلامي ولحماية الأمة من أعدائها وضرورة أيضاً لرقي الأخلاق والسلوك لدى أفراد هذه الأمة.

والأمة الإسلامية كلما كانت موحدة، كانت قوية قادرة على تحقيق رسالتها، وقادرة على حماية نفسها من الأعداء وقادرة على تحقيق العمران، وقادرة أيضاً على الرقي الأخلاقي والسلوكي والاجتماعي، وكلما كانت مفككة، كانت ضعيفة، غير قادرة على أداء رسالتها وغير قادرة على حماية نفسها من الأعداء، وغير قادرة على تقديم إنجاز عمراني ذي شأن، ومنحطة أخلاقياً وسلوكياً واجتماعياً.

والنصوص الشرعية التي تؤكد فرضية الوحدة كثيرة ومتنوعة يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] .

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون:٥٢] .

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٠١] .

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

ونلاحظ في الآية الأولى والثانية أن هناك ارتباطاً بين الوحدة والأمة الواحدة، وبين عبادة الله في الأولى وتقواه في الثانية، وفي الآية الثالثة وضع الوحدة والاعتصام كمقابل الكفر، وجعل الوحدة والاعتصام هما الطريق إلى الصراط المستقيم، وتستطيع أن تفسر الصراط المستقيم هنا بأنه طريق النجاة في الآخرة، والعزة والسيادة الحضارية في الدنيا.

وفي الآية الرابعة- نرى أن الله تعالى جعل الوحدة والاعتصام وعدم التفرق نوعاً من النعمة- وهي بلا شك نعمة عظيمة- وجعلها أيضاً طريقاً لتجنب الهلاك في الدنيا والآخرة وهي معلم من معالم الهداية وهي إحدى آيات الله، أي أن الوحدة آية من آيات الله تعالى وهي نعمة وهي طريق لتجنب البوار في الآخرة والدنيا على حد سواء.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[آل عمران:١٠٥] . أي أن الفرقة طريق إلى العذاب العظيم في الآخرة، والانحطاط الحضاري في الدنيا والسقوط في الذلة والهوان.

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٩] .

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الحجر:١٠] .

أي: أن الوحدة والأخوة هي إحدى علامات الرحمة لأنها تنجي في الآخرة وتصنع التقدم والعزة والسيادة في الدنيا.

ويقول الرسول ﷺ : «**من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**» أخرجه أبو داود.

أي أن مجرد الزحزحة عن الوحدة ولو بشبر واحد هو خروج عن ربقة الإسلام وخلع لهذه الربقة من العنق، بما يعطي الانطباع بمدى أهمية وخطورة فريضة الوحدة.

ويقول : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**» أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

ويقول : «يد الله مع الجماعة» أخرجه الترمذي.

ولاحظ في هذا الحديث الموجز، أن مدد الله يأتي مع الوحدة أو أن الوحدة شرط لنزول مدد الله تعالى، ومدد الله تعالى هائل، وأمة تستند إلى مدد الله تعالى- وهو أقوى الأقوياء- قادرة على النصر والسيادة والإنجاز الحضاري بصورة ضخمة جداً تتناسب مع المدد الذي يتنزل من الله العزيز القدير الحكيم العليم الذي يملك خزائن كل شيء.

أي أن الوحدة- فريضة شرعية، وطريق إلى النجاة في الآخرة وطريق أيضاً إلى العزة والسيادة والنصر وتحقيق أكبر المنجزات العمرانية في الدنيا.

الوحدة الإسلامية إذن شرط لازم لمواجهة التحديات التي تقابلها أمتنا اليوم، وطريق أكيد إلى العزة ومواجهة الأعداء والنهضة في كل المجالات، والأعداء يعرفون خطورة وأهمية هذه الوحدة، ولذا فإن مؤامراتهم على الوحدة الإسلامية لا تنقطع بل نكاد نجزم أن أي محاولة وحدوية على أساس إسلامي تجعل القوى الاستكبارية تتحرك لضربها سلماً أو حرباً، ومن الأشياء التي يحظرها علينا الأعداء محاولات التوحيد بأي صورة من الصور بين أبناء العالم الإسلامي، ونحن ندعو إلى

الوحدة، ندعو إلى قيام الخلافة الإسلامية باعتبارها فريضة غائبة ونسعى لتحقيق ذلك، وفي نفس الوقت ندعم ونرحب ونؤيد أي محاولات وحدوية بين هذا القطر أو ذاك، بين مصر والسودان مثلاً، أو الوحدة العربية، أو تحقيق نوع من التنسيق في أي مجال من المجالات بين الدول الإسلامية، أو حتى بين الشعوب والمنظمات الشعبية الإسلامية «كاتحاد المنظمات الهندسية في العالم الإسلامي» أو أي شكل من الأشكال الوحدوية بشرط واحد هو أن تكون طريقاً إلى الوحدة الإسلامية وليس بديلاً عنها أو تتعارض معها.

والأعداء سخروا أقلاماً عربية وإسلامية للأسف للشوشرة على فرضية الوحدة، بعدما نجحوا في إسقاط الخلافة الإسلامية (كعلي عبد الرازق مثلاً) وعلينا في مواجهة ذلك أن نؤكد على فرضية الوحدة ونسعى لنشر الفكر الوحدوي والسلوك الوحدوي والممارسات الوحدوية وكشف صلة دعاة الإقليمية بالمشروع الاستعماري وأنهم مجرد أبواق له.

إنه برغم سقوط الخلافة الإسلامية، كأسمى تعبير عن الوحدة الإسلامية، فإن المظاهر الوحدوية في وجدان الشعوب الإسلامية مازالت- والحمد لله- قوية. فنحن جميعاً نؤمن بإله واحد، وكتاب واحد، ورسول واحد، ونتجه جميعاً إلى مكان واحد في الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة «هو الكعبة»، ونحن جميعاً نحتفل بعيد الفطر وعيد الأضحى ونحج جميعاً في وقت واحد إلى مكان واحد كل عام مرة ونصوم معاً رمضان من كل عام، والإحساس بمشاكل المسلمين والتفاعل معهم موجود والحمد لله في كل مكان، ولولا الشعور الوحدوي القوي لدى الجماهير لما رأينا هذا التعاطف الشعبي الواسع مع القضية الفلسطينية في كل مكان من العالم الإسلامي من تركيا إلى جنوب إفريقيا ومن طنجة إلى جاكارتا، وكذلك ظهر هذا

الأمر جلياً في دعم الجهاد الأفغاني بالمال والسلاح وكذلك التعاطف مع مسلمي البوسنة والهرسك وغيرها من المظاهر الوحدوية التي تعبر عن وجدان وحدوي قوي لدى الجماهير المسلمة.

والمسلمون في الغربة في أمريكا واستراليا وأوروبا يتصرفون كجالية ذات سمات مشتركة- وتجدهم يتعاطفون مع قضايا العالم الإسلامي ويدافعون عنها ويمارسون شعائر الإسلام معاً لا فرق بين التركي والمغربي والباكستاني والهندي.

وعلينا أن نعمق هذا الشعور الوحدوي بكل وسيلة ممكنة، علينا أن نسعى لتوحيد التقويم على الأساس الهجري مثلاً في كل البلاد الإسلامية، وتوحيد بدء الصوم والأعياد في كل العالم الإسلامي وفي خارج العالم الإسلامي أيضاً، وعلينا الاهتمام بإنشاء مؤسسات إعلامية ذات طابع عالمي إسلامي ونشر تلك المواد الإعلامية التي تؤكد على قيمة الوحدة، وعلينا أن نحقق اتحادات للمنظمات المهنية في العالم الإسلامي، وكذا اتحادات للهيئات الشعبية والنقابات وغيرها، وعلينا أن ندعم أي تنسيق وتعاون في أي مجال بين الشعوب الإسلامية بل والحكومات الإسلامية إن أمكن، ويمكن اتخاذ القضية الفلسطينية مثالاً باعتبارها قضية مركزية للأمة الإسلامية كقاعدة للانطلاق الوحدوي والممارسات الوحدوية الإسلامية ونشر الفكر والسلوك الوحدويين من خلالها. والوسائل كثيرة، والمهم النية والجدية في العمل.

قضية الوحدة الإسلامية لم تعد تحتمل التأجيل، لأننا بالفعل كأمة مهددون في وجودنا، وهناك مؤامرة دولية واسعة تستهدف إلغاء وجودنا من العالم، أو على الأقل إلغاء وجودنا الحضاري والتحول إلى رقيق للقوى الاستكبارية ، والعالم كله يتجه إلى الكيانات الكبيرة، الوحدة الأوروبية، الوحدة الأمريكية، دول النمور

الأسيوية.. إلخ، وفي عصر الكيانات الكبرى لا بديل أمام المسلمين عن الوحدة إن أرادوا الحياة، والعالم الإسلامي يمتلك مقومات اقتصادية واستراتيجية هائلة وبشرية أيضاً، فهناك ١٤٠٠ مليون مسلم، وهناك رقعة جغرافية هائلة تقع في أهم مناطق العالم المتحكمة في أخطر طرق المواصلات والشرايين الاقتصادية الحيوية، وهناك البترول والفوسفات واليورانيوم وغيرها من المعادن التي يكاد العالم الإسلام يمتلك معظمها، وهناك الأقاليم المناخية المختلفة التي تحقق تنوعاً هائلاً في الإنتاج، وهناك الأراضي الخصبة وموارد المياه والطاقة ، وهناك الإنسان المسلم الذي يستطيع بالإيمان أن يكون أفضل النوعيات البشرية على الإطلاق، وبعد هذا فلا حجة لنا إن تقاعسنا عن إرادة الحياة، وإرادة الوحدة.

على خلاف كبير بين علماء الاجتماع في تحديد العناصر التي تشكل أمة من الأمم أو قومية من القوميات، فمنهم من يجعل تلك العناصر اللغة، الثقافة، التاريخ المشترك، التحديات المشتركة، الجغرافيا المشتركة، الجنس الواحد.. إلخ ومنهم من يرفض جعل هذه العوامل أو إحداها شرطاً لازماً لظهور الأمة بدليل أن هناك دولاً تتكلم الإنجليزية دون أن تشكل أمة واحدة والأمر نفسه بالنسبة للعناصر الأخرى.. وهكذا إلا أن هناك عدداً من الملاحظات التي ينبغي أن نسجلها هنا أولها أن هناك خلطاً بين مفهوم القومية بالمعنى الغربي وبين مفهوم الأمة، وجميع مدارس الفكر الاجتماعي تحدثت عن مفهوم القومية ولم تتحدث عن مفهوم الأمة، بسبب بسيط هو أن هذا الفكر نشأ نتيجة ظهور الدول القومية في أوروبا، وأن هؤلاء المفكرين لم يعرفوا معنى الأمة بالمفهوم الحضاري الإسلامي وثانيها أن جميع العناصر التي اعتبرت أساساً في تشكيل قومية ما ليست سوى تاريخ لتكوين هذه الدولة القومية أي أنها مجرد وصف للظاهرة وليست سبباً لها، وهي نتيجة لظهور

الدولة القومية وليست سبباً لها، بمعنى أن اللغة مثلاً والثقافة والتاريخ وغيرها نشأت بعد تكوين الأمة وكنتيجة لها وليس العكس. وثالثها أننا أمة ذات ملامح خاصة جداً- ربانية- وبالتالي فلا يمكن إخضاعنا للمعايير الغربية لاختلاف السياق الحضاري.

وعلى أي حال فإن القرآن الكريم يحدد لنا العناصر الأساسية لأمتنا وأسباب ظهورها ونتائجها فيقول الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

أي أن سبب نشأة الأمة، وعناصر تكوين هذه الأمة هو الرسالية، أو المهمة التي تقوم بها هذه الأمة، أو الرسالة الحضارية لتلك المجموعة من البشر هي التي جعلتهم يشكلون أمة.

فالإسلام بداية هو الذي صنع هذه الأمة، وهو الذي أعطاها المنظومة الثقافية الواحدة، ومن خلال مهمتها الموكولة إليها نشأ التاريخ المشترك والمصير المشترك.. وغيرها من العوامل التي تنتج عادة عن تكوين الأمم.

الأمة الإسلامية نشأت من خلال مهمتها ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي الاضطلاع بمسئولية القضاء على الظلم والفساد والطبقية والاستبداد والتعصب وغيرها من أنواع المنكر، وحماية الضعفاء والرحمة بهم ودعوة الناس لكل خير ومعروف، أي الدعوة إلى المعروف ونشره، ومنع المنكر والقضاء عليه سلماً أو حرباً، ومن خلال العمل لتحقيق ذلك نشأت الأمة الإسلامية، وهي أمة منفتحة لا تقوم على جنس أو لون أو قرابة دم أو غيرها بل هي تفتح ذراعيها لكل من يريد الدخول فيها من كل لون وجنس وأرض، والانخراط بالتالي في مهمتها في إزالة المنكر عن الأرض ونشر المعروف في ربوع العالم.

وهكذا نجد أن الأمة الإسلامية ترفض مفهوم العرقية والتفرقة العنصرية على أساس اللون أو الجنس «كلكم لآدم وآدم من تراب» ، «**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**»- ليس منا من دعا إلى عصبية، ليس منا من قاتل على عصبية، ليس منا من مات على عصبية.

ونجد أن الأسود والأبيض والأصفر والأحمر- الأوروبي والعربي والإفريقي، والتركي والهندي والإيراني، من يتكلم العربية ومن يتكلم غير العربية، كلهم جميعاً شاركوا في تشكيل هذه الأمة من خلال الاضطلاع بمهامها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.



الجهاد

الجهاد ركن ركين في المشروع الحضاري الإسلامي، ذلك أنه فريضة إسلامية. وهو طريق الصعود الحضاري وطريق أيضاً لتحقيق ونشر القيم الإسلامية وإزالة الاستكبار من الأرض، وهو في حالتنا الراهنة أكثر وجوباً حيث أرضنا مغتصبة في فلسطين والعراق وأفغانستان وأذربيجان والبوسنة وغيرها، وعرضنا منتهك في الهند وفلسطين والبوسنة والهرسك وغيرها، وأمتنا برمتها وحضارتها بكاملها مهددة بالضياع، وفي مثل هذه الأحوال يكون الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة.

وفي الحقيقة فإن تتبع مراحل المنحنى الإسلامي في صعوده وهبوطه نجد أن الجهاد شرط للصعود، والقعود مرتبط بالهبوط الحضاري، بل يكاد ينطبق منحنى الجهاد مع المنحنى الحضاري الإسلامي صعوداً وهبوطاً.

الجهاد إذن هو روح الأمة وحضارتها وسر وجودها، والجهاد طريق أصيل نحو الجنة ورضا الله تعالى، والنجاة في الآخرة وطريق واسع أيضاً للعزة والسيادة والنصر في الدنيا وهو وسيلة لترقية الأخلاق وتحقيق النهضة والعمران في الدنيا.

الجهاد جزء لا يتجزأ من التركيبة الوجدانية والنفسية للمسلم وللجماعة المسلمة وللأمة المسلمة، وبدون الجهاد يحدث خلل في تلك التركيبة، ويصبح الفرد والجماعة والأمة في حالة عجز بسبب هذا الخلل عن الأخذ بأسباب العلم والتمسك بالأخلاق والعمل الإيجابي عموماً في الدنيا، أي تصبح الأمة عاجزة عن النهوض الحضاري والعمراني والاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي والعلمي.. إلخ، بل

وتصاب عند غياب الجهاد بالكثير من الأمراض التي تصيبها بالشلل أو العجز أو اللامسئولية أو حتى التآمر والصراع مع بعضها البعض والتآكل من الداخل.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ أي أن الجهاد ليس فقط طريقاً إلى الاستشهاد أو النصر بل يفتح أمام المجاهد سبل الهداية إلى سبل الله العلمية والأخلاقية والعمرانية وتحقيق النهضة والتقدم في كل مجال، والراسخون في العلم يدركون أنه من أراد ترقية أخلاق المسلمين وتكثيف حسهم الإيماني وزيادة جرعة العبادة لديهم والتمسك بالفرائض والنوافل فعليه أن يدفعهم إلى طريق الجهاد، لأن الجهاد طريق التقوى، ومن أراد للمسلمين أن يحققوا نهضة علمية أو اقتصادية أو عمرانية أو ينزع من بينهم فتيل المشاحنة والصراع والتباغض فعليه أن يدفعهم إلى الجهاد، فالجهاد هو الأسلوب الصحيح للتربية الأخلاقية وهو الأسلوب الصحيح لنهضة الأمة في كل مجال وفي أي مجال.

ولأن الجهاد هو طريق النجاة في الآخرة، وهو طريق النصر والعزة والسيادة في الدنيا، ولأنه طريق إلى التقوى والأخلاق والإيجابية والنهضة العلمية والاقتصادية والحضارية عموماً فإن الله جعل للجهاد أجراً عظيماً.

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (١٧٠) ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١].

ويقول تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء:٩٥]. ويقول الرسول ﷺ، عندما سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور» أخرجه البخاري ومسلم.

ويقول : «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم نهاره والقائم ليله حتى يرجع» أخرجه أحمد والطبراني والبزار.

و«جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: علمني عملاً يعدل الجهاد؟ قال: «لا أجده هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجداً فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟ قال «لا أستطيع ذلك». رواه البخاري ومسلم.

«قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل- فقال رسول الله ﷺ عليه وسلم: «مؤمن مجاهد في سبيل الله بنفسه وماله» قالوا: ثم من؟ قال: «مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره». أخرجه البخاري ومسلم.

ويقول: «جهاد يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه» أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه.

ويقول: «مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل عند الله من عبادة رجل ستين سنة» أخرجه الحاكم وصححه.

ويقول: «الإسلام ثلاثة أبيات سفلى وعليا وغرفة فأما السفلى فالإسلام دخل فيه عامة المسلمين، فلا يسأل أحد منهم إلا قال أنا مسلم وأما العليا فتفاضل أعمالهم بعض المسلمين أفضل من بعض، وأما الغرفة العليا فالجهاد في سبيل الله لا يناله إلا أفضلهم» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير.

إذن فللجهاد ثواب كبير في الآخرة. وهو أيضاً طريق للعزة والسيادة والتقدم الحضاري والتوازن في الدنيا وبدونه يحدث انحطاط حضاري وأخلاقي وعمراني وفساد كبير يقول الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

وهذه الآية الكريمة تقرر أن الجهاد والقتال فريضة، وتقول أيضاً: إن هذا الجهاد خير، والخير هنا ينصرف إلى الفوز في الآخرة وتحقيق العزة والسيادة والعمران والتقدم في الدنيا؛ لأن كلمة الخير تجمع في داخلها جميع المصالح والمنافع والعكس صحيح ألا وهو أن القعود عن الجهاد طريق إلى الضياع والفساد والانحطاط الحضاري لأن كلمة الشر كلمة تجمع كل المفاسد والانحطاطات والمساوئ.

ويختم الله الآية الكريمة بقوله : ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، أي أن الله تعالى يعلم ما يصلح الدنيا والآخرة، وبالتالي فرض عليكم القتال لصلاح الدنيا والآخرة.

ويقول تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:٦] أي أن الجهاد هو لمصلحة الإنسان أساساً وطريق إلى التقوى والعلو والعزة في الدنيا.

ومما يؤكد المعنى السابق قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ أي أن الجهاد طريق إلى التقوى والأخلاق والعلم والتقدم والعمران وكل السبل التي يهدي الله الإنسان إليها وهي بالطبع سبل لإصلاح الدنيا والجماعة والفرد وتحقيق التقدم والنهضة والعمران والسيادة والصعود الحضاريين.

ويقول تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١] .

وهذه الآية تؤكد أن الجهاد خير للإنسان وللجماعة وللأمة وللبشرية وهو خير في التقوى والأخلاق والعمران والصعود الحضاري.

وفي الحديث الشريف: «**ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب**» أخرجه الطبراني في الأوسط.

فالقعود عن الجهاد طريق إلى العذاب في الدنيا والذل والخضوع للأعداء

والانحطاط الحضاري وكل الشرور وعموماً فإن الصعود الحضاري مرتبط بالجهاد والانحطاط الحضاري مرتبط القعود عن الجهاد، وعلى المستوى الجماعي فإن الجهاد شرط للنهضة والقعود سبيل إلى التردي وعلى المستوى الفردي فإن تارك الجهاد على شعبة من النفاق، ففي الحديث الشريف: «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق**» أخرجه مسلم.

و«**من لقى الله بغير أثر من جهاد، لقيه وفيه ثلمة**» أخرجه الحاكم.

بل والجهاد أيضاً طريق إلى الصحة النفسية، والقعود عن الجهاد طريق إلى الأمراض النفسية وعدم التوازن والاكتئاب ففي الحديث الشريف: «**جاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة، فينجي الله به من الهم والغم**».

لأمة الإسلام رسالة كبرى هي تحرير الناس من الظلم الاقتصادي والاستبداد السياسي والدفاع عن الضعفاء ومنع اضطهاد الأقليات بكل أشكالها وإزالة الاستكبار والعنصرية وتحقيق الحرية والعدالة في الأرض، وهذا بالطبع لا يأتي إلا بالجهاد، فالجهاد هو وسيلة الأمة إلى تحقيق رسالتها المنوطة بها.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٢].

وهذه الآية الكريمة تحدد أهداف الجهاد وهي إزالة الفتنة فتنة الإكراه على الدين، وفتنة الاستبداد السياسي، وفتنة الظلم الاقتصادي، وفتنة اضطهاد الأقليات، وفتنة العنصرية، وفتنة انتهاك حقوق الإنسان في أي مكان فإذا خضع الظالمون وانتهوا عن هذا وغيره من المظالم فلا عدوان إلا على الظالمين.

ونظراً لأن ظروف أمة الإسلام حالياً، لا تسمح لها بأداء هذا الدور- وإن ظل

واجباً عليها- فإن الجهاد ينبغي أن يوجه إلى تحرير ديار المسلمين ، وتحقيق العدالة والحرية في بلاد المسلمين ومواجهة التحديات الضخمة التي نواجهها الآن كأمة، وفي مثل الحالة التي نحن فيها فإن الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة. ويشكل الجهاد من أجل تحرير فلسطين المركز والجوهر في هذا الجهاد باعتبار التحدي الصهيوني أخطر التحديات التي نواجهها ويجب اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية إلى أن يتم تحريرها بالكامل بإذن الله تعالى.



النقد والنقد الذاتي

النقد والنقد الذاتي أحد مكونات المشروع الحضاري الإسلامي، والنقد والنقد الذاتي يبدأ هنا بالاعتراف بالحالة التي وصلت إليها أمتنا، والبحث عن أسباب هذه الحالة، وطرق التخلص منها وتجاوزها وبناء نهضتنا وسيادتنا الحضارية من جديد.

والاعتراف بما وصلنا إليه يقتضي بالطبع الاعتراف بأننا الآن في حالة هزيمة حضارية، أمام الحضارة الغربية بالتحديد، وأن بلادنا مغتصبة ومخترقة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً، وخاضعة بصورة أو بأخرى للهيمنة الغربية، وأننا وصلنا إلى هذه الحالة من التفكك والانحطاط والخضوع نتيجة عوامل كثيرة ترجع إلى التآمر العالمي على أمة الإسلام وترجع أيضاً إلى تخلينا عن قيم إسلامية كثيرة وضرورية، وإلى سلبيتنا وقصر نظرنا، وترجع إلى الحكام والمحكومين على السواء، وبكلمة أخرى فإن لها أسبابها الخارجية والداخلية معاً، والنقد والنقد الذاتي كفيل بتحديد هذه الأسباب وكفيل أيضاً بوضع الحلول الصحيحة لمواجهة التحديات والسلبيات الخارجية والداخلية على حد سواء.

وللنقد والنقد الذاتي في قيمنا ومبادئنا وتراثنا الحضاري مساحة كبيرة، وأهمية خاصة، وهي من الفرائض الإسلامية والممارسات اليومية على مستوى الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة على حد سواء.

التوبة الفردية التي يمارسها المسلم في كل يوم عشرات المرات هي نوع من النقد الذاتي، والتوبة الجماعية التي يمارسها المسلمون في صلاة الجماعة أو في الحج أو غيرها من المناسك هي أيضاً نوع من النقد الذاتي، والتوبة هنا ليست مجرد توبة عن الخطايا

أو الذنوب الأخلاقية فقط، بل هي أيضاً التوبة من الأخطاء الاجتماعية والسياسية، والآيات القرآنية التي نزلت بعد غزوة أحد مثلاً تؤكد ضرورة التوبة أو النقد، ألم تكن تلك الآيات تنتقد مواقف وسلوك المسلمين. وتحلل أسباب الهزيمة؟ وهي درس لنا لنتعلم النقد وتحليل الأخطاء الجماعية، والمرأة المسلمة التي خطأت عمر بن الخطاب خليفة المسلمين وهو فوق المنبر كانت تمارس النقد، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما استمع إلى هذا النقد واعترف بخطئه جهاراً وعلناً وأمام حشد من المسلمين كان يمارس النقد الذاتي ويقبل النقد في نفس الوقت ويرسي معالم النقد والنقد الذاتي وهو القائل «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

والمسلم مرآة أخيه- أليست هذه دعوة من الرسول ﷺ إلى النقد بل إلى وجوب النقد؟ «ورحم الله امرأ أهدى إلى عيوبي» تأتي أيضاً في هذا السياق؟

والآيات القرآنية الداعية إلى التوبة الفردية والجماعية كثيرة جداً، بل إن الله يخص بحبه التوابين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ .

ويقول تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠] .

أي أن النقد الذاتي صفة من صفات الأنبياء، والله تعالى يجعل هذه الصفة من الصفات التي يستحق بها العبد أن يمدحه ربه قائلاً : ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.

وهكذا فالنقد والنقد الذاتي فريضة وواجب على مستوى الفرد والجماعة والأمة، سراً وعلناً.



الحركة الإسلامية

أين تقع الحركة الإسلامية في المشروع الحضاري الإسلامي الأمر هنا يتوقف على رؤية الحركة الإسلامية لنفسها ورؤيتها لأهدافها ومهامها ومستوى سلوكها السياسي والاجتماعي وأطروحتها الفكرية.

لو تصورت الحركة الإسلامية نفسها مثلاً شعب الله المختار وأنها هي الطائفة الملتزمة وغيرها العاصي وغير الملتزم أو تصورت نفسها مثلاً المسلمة وغيرها كافراً أو مشكوكاً في إسلامه، لو تصورت نفسها بديلاً عن الأمة، تخوض المعارك والتحديات في غياب الأمة وبدلاً عنها، لو تصورت نفسها شيئاً خارج حركة الأمة عموماً، فإنها بذلك تكون قد أخطأت خطأ فادحاً، بل قل: إنها ستكون أحد أسباب استمرار هزيمة الأمة حضارياً، وستضيف تحدياً ومشكلة جديدة وسلبيات جديدة فوق التحديات والمشاكل والسلبيات التي تعاني منها الأمة، وهي في هذه الحالة تكون مجرد شكل من أشكال أزمة الأمة التي تعانيها حالياً، إفرازاً ناشئاً عن حالة الهزيمة الحضارية أي هي ليست حلاً للأزمة- بل هي نتيجة لتلك الأزمة الحضارية التي تعاني منها أمتنا في تاريخها المعاصر.

ولو تصورت الحركة الإسلامية نفسها، أنها مجرد طليعة للأمة وجزء لا يتجزأ منها، وأنها مجرد خميرة للنهضة وبالتالي فهي شديدة الالتحام بالأمة والجماهير لا تنفصل عنها، وهي دائماً وأبداً تدرك أن من شروط النهضة أن تنهض الأمة كلها وتخوض الأمة كلها معاركها وتتجاوز تحدياتها، وأن هدفها الرئيسي هو حشد كل قطاعات الأمة بكل مستوى فاعلياتها وتقواها في المعركة، وأنها ليست بديلاً عنها،

لو أدركت الحركة الإسلامية أنها ليست منوطة بالفصل في الخلافات أو ترجيح رأي على رأي- فهذا مكانه الجامعات والمعاهد العلمية، بل هي تتبنى إيقاظ الأمة والعمل كخميرة للنهضة وحشد كل الناس في المعركة وإدراك أن المعركة شرسة وتقتضي مشاركة كل الجماهير، وتلفت النظر إلى التحديات الجوهرية للأمة من تحرر من الاستعمار، إلى تنمية مستقلة وغير تابعة، إلى مواجهة التحدي الصهيوني، إلى دفع الجماهير إلى المشاركة والإيجابية، وتأكيد قيم الجهاد والوحدة والحرية، فإنها في هذه الحالة سوف تكون رأس السهم في المشروع الحضاري الإسلامي.

ويجب أن نؤكد هنا أن الفتوى واستنباط الأحكام وقضايا الحلال والحرام هي من اختصاص العلماء المؤهلين المتخصصين، وليست من اختصاص المفكرين الإسلاميين أو الكتاب والصحفيين أو حتى بعض الهواة كما يحدث أحياناً، وقد يؤدي هذا الخلط وعدم التفريق بين العالم و المفكر فضلاً عن دخول الهواة وغير المتخصصين إلى كوارث، لأن العلوم الشرعية- كأية علوم- تحتاج إلى التخصص الدقيق لكي يصبح الإنسان قادراً على الفتوى فيها، وللاجتهاد وإصدار الأحكام الشرعية شروط معروفة لا تتوفر بالطبع إلا في أهل الاختصاص أو قل: إن الشرط الأول فيها أن يكون المتصدي لها من العلماء المتخصصين الحاصلين على إجازات علمية تؤهلهم لذلك، وكذلك فإن الخلافات الفقهية مكانها معاهد العلم المتخصصة وتحسم من خلال العلماء المتخصصين وحدهم.



القضية الفلسطينية

تحتل القضية الفلسطينية مساحة مهمة في المشروع الحضاري الإسلامي، ويمكننا أن نقول: إن اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية أمر يدخل في صميم المشروع الحضاري الإسلامي.

وهذا الأمر يرجع بالطبع إلى أسباب تاريخية ومستقبلية في نفس الوقت، فمسيرة الإسلام الحضارية دخلت في الكثير من التحديات والصراعات ونجحت في عهد الرسول ﷺ وما بعده من الخلفاء الراشدين في حسم الصراع لصالحها ضد الكثير من القوى الاستكبارية، ولم يصمد أمام الزحف الإسلامي إلا الحضارة الغربية، ودخل الإسلام مع تلك الحضارة الغربية صراعاً مريراً بدءاً من عهد الرسول ﷺ وحتى اليوم، واستطاعت أمة الإسلام أن تحقق النصر في الكثير من المواقع والأزمنة على الحضارة الغربية، ولم تكن الحروب الصليبية في المشرق العربي إلا إحدى المحطات في هذا الصراع الغربي استمر في الزمان والمكان وبمساحة واسعة في شمال إفريقيا والمغرب العربي والأندلس وفي الشام وأوروبا ذاتها أيام مجد الخلافة العثمانية وفي البحر المتوسط كراً وفراً، ونحن الآن ومنذ أكثر من قرنين من الزمان تقريباً نتعرض لضغط وهزيمة أمام الحضارة الغربية، والتي استخدمت في نهاية المطاف اليهود كأداة لتحقيق الحلم الأوروبي بالقضاء على الحضارة الإسلامية.

وهكذا فإن إسرائيل تمثل هنا رأس الرمح الغربي ضدنا ويشكل التحالف اليهودي الغربي أحد أهم معطيات التاريخ المعاصر، فالغرب استخدم اليهود ضدنا للتخلص منهم من ناحية، وللكيد لنا من ناحية أخرى واليهود استغلوا الوجدان

الغربي الصليبي والمخططات الغربية المتآمرة ضدنا لتحقيق هدفهم في احتلال فلسطين وإقامة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات فيما بعد.

ومن ناحية أخرى فإن فلسطين أرض مباركة، وبها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وهي في القلب من العالم الإسلامي، والضربة التي تكون في القلب تمس الكيان كله.

ولهذه الأسباب فإن الصراع على أرض فلسطين يمثل المسألة الأهم في مستقبل الحضارة الإسلامية فإما النصر وبداية الصعود الإسلامي الثاني وإما الإبادة والنهاية لحضارتنا لا قدر الله.

وهكذا فإن اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية يشكل رقماً مهماً في المشروع الحضاري الإسلامي.



فقه الإقلاع

يمثل فقه الإقلاع معطى مهماً من معطيات المشروع الحضاري الإسلامي، وهذا المصطلح هنا ليس من قبيل الفذلكة اللفظية، ولا هي محاولة لاستخدام مصطلح جديد أو طريف بل هو يمثل حاجة ضرورية.

ومن الناحية العلمية- وفقاً لأصول الفقه- فإن الاجتهادات الإسلامية تستند أساساً على نصوص القرآن والسنة وهذه النصوص ثابتة، وكذلك تدرس الواقع الموضوعي فتقدم الاجتهاد المكافئ لهذا الواقع الموضوعي المتغير زماناً ومكاناً من خلال التعامل مع النصوص الثابتة، فالفقه لا يعمل في الفراغ.. وتغير الأحكام والاجتهادات بتغير الزمان والمكان حقيقة مقررة في علم أصول الفقه، فالإمام الشافعي مثلاً غير اجتهاداته في مصر عنها في العراق، وابن عمر رضي الله عنه أفتى في عام بغير ما أفتى في العام الذي سبقه في نفس المسألة.

وهكذا فإنه من الناحية العلمية- وفقاً لأصول الفقه- فإن الفتوى تختلف من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان، ونحن الآن في حالة مختلفة كماً ونوعاً عن سابقاتها، بل لم يسبق لها مثيل، فنحن الآن في حالة هزيمة حضارية، نحن في حالة خضوع واختراق سياسي وثقافي وعسكري واقتصادي أمام الغرب، نحن الآن لسنا في حالة سيادة حضارية أو حتى تعادل حضاري، والفقه الإسلامي المعروف والذي أنتجه اجتهاد العلماء تم كله إما في حالة الصعود الحضاري والسيادة الحضارية لأمتنا أو في حالة التعادل الحضاري والاستقلال الحضاري تجاه الآخرين، وكان هذا الفقه عظيماً ومناسباً ومستجيباً ومدركاً لظروف الاستقلال الحضاري التي ظهر في

إطارها، وهذه الحالة لم تعد موجودة كماً وكيفاً، نحن الآن في حالة هزيمة حضارية، أمام اختراق وهيمنة غربية، وأمام تحديات استعمارية وصهيونية ونعاني من الكثير من الأمراض الاجتماعية وفي حالة تفكك يخالف حالة الوحدة تحت راية الخلافة التي كنا عليها، وعلينا أن نراعي هذا كله في تقديم اجتهاد مكافئ لهذه الظروف وأخذ هذا كله في الاعتبار استجابة لدواعيها ونحن نطلق عليها «فقه الإقلاع».

نحن نريد إيقاف الانحدار في المنحنى الحضاري، ونريد إحداث انقلاب في هذا المنحنى باتجاه الصعود، ومن المعروف علمياً أن الطاقة اللازمة لإحداث انقلاب في أي منحنى أكبر كثيراً جداً من الطاقة اللازمة لرفع هذا المنحنى درجة أو درجات، وعلى ذلك فنحن نحتاج إلى اجتهادات تكافئ كماً ونوعاً هذه الحالة، اجتهادات تحقق الإقلاع الحضاري، فنحن في حالة جد مختلفة- حالة الهزيمة الحضارية- حالة لم تمر علينا من قبل لأنها تختلف عن حالة الصعود أو الثبات أو السيادة أو التعادل الحضاري، نحن في حالة إقلاع جديرة بفقه جديد هو فقه الإقلاع، ذلك الفقه الذي يأخذ في اعتباره هذه الحالة ويعمل على تجاوزها وإحداث انقلاب في المنحنى الحضاري.



المواجهة الحضارية الشاملة

الإسلام شكل لهذه الأمة حضارة متميزة، ومنظومة ثقافية محددة وشخصية حضارية محددة الملامح، وهي حضارة تقوم على التوحيد والعدل والحرية، وحضارتنا تدعو إلى التعاون والاستفادة من تجارب الآخرين، ولكنها بالطبع ترفض الذوبان والخضوع للمنظومات الحضارية الأخرى، والأمر أشبه بشجرة، إذا قطعتها مثلاً بدعوى تثبيت شجرة أخرى، فهذا ليس تعاوناً، وكذلك إذا طعمتها كما هو معروف في علم النبات، بشجرة أخرى ليست من عائلتها فإنها لا تستجيب ويصبح الأمر كله هراء وليس إلا من قبيل القضاء على شجرتنا الحضارية والصحيح أن نستفيد بتجارب الآخرين في طريق تنمية هذه الشجرة وتغذيتها والحصول على أحسن الثمار عن طريق تحويل هذه التجارب والأسمدة والمخصبات في داخل أنسجة شجرتنا إلى شيء جديد مرتبط بطبيعة وشخصية هذه الشجرة، أي هضمه وتحويله داخل النسيج الحي لشجرتنا الحضارية إلى جزء لا يتجزأ من شجرتنا الحضارية وليس تشويهاً خارجياً لها أو محاولة للصق قيم حضارية خارجية عنها ستلفظها بالطبع أو تسبب لها مشاكل تضعفها أو تؤدي حتى إلى موتها، إذن فنحن دعاة تعاون حضاري بهذا المفهوم، أما المفاهيم الأخرى فهي محاولة لخداعنا وإخضاعنا تحت شعار التعاون الحضاري.

ونحن الآن أمام حضارة غربية لها القوة والسيادة على العالم ولها منجزاتها العلمية والتقنية، ونحن لا نرفض بالطبع أن نستفيد من علومها ومنجزاتها التقنية بشرط أن يدخل ذلك في نسيجنا الحضاري ويتم هضمه وتحويله وفقاً لعملية داخلية بحتة.

ولكن هل تقبل الحضارة الغربية بهذا النمط من التعاون؟ إنها تقوم على القهر والنهب والعنف والعنصرية وحضارتنا تقوم على التوحيد والحرية والعدل واللاعنصرية، ولا يمكن بداهة أن يحدث تلقيح بين شجرتين حضاريتين مختلفتين إلى هذه الدرجة، والحضارة الغربية تريد الهيمنة والقضاء على الحضارة الإسلامية لأسباب كثيرة، فهل نقبل الخضوع لها والاندماج فيها؟! والحضارة الغربية ترفض حتى إعطاء الآخرين وخاصة المسلمين علومها التجريبية ووسائلها التقنية- برغم أن العلم تراث إنساني- والحضارة الغربية نفسها استفادت من علوم وتقنية الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها، ولعل محاكمة المهندس المصري عبد القادر حلمي في أمريكا بتهمة سرقة التكنولوجيا الأمريكية خير دليل على ذلك.

إذن ليس هناك من سبيل أمامنا سوى انتزاع العلم انتزاعاً، ليس هناك سبيل للتعاون، بل للمواجهة- ليس رفضاً من ناحيتنا للتعاون- بل لأن الحضارة الغربية لا تقبل بالتعاون الحر، بل تريد الهيمنة علينا وإخضاعنا بل وإبادتنا حضارياً وبشرياً، الموقف الصحيح هو المواجهة، والمواجهة تكون برفض الاندماج في حضارة الغرب- والتأكيد على الذات والهوية الحضارية لأمتنا وحشد الأمة كل الأمة لمناهضة الاستعمار والصهيونية وتحقيق النهضة وانتزاعها انتزاعاً.

والله تعالى قد رسم لنا هذا الطريق في القرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة:٥١، ٥٢].

هذه الآيات الكريمات تصف أحوالنا مع الغرب واليهود الآن، فالتحالف بين اليهود والنصارى لم يحدث إلا في السنوات الأخيرة، وكان العداء بينهما أمراً ثابتاً بل

وتعرض اليهود للاضطهاد دائماً على يد الغرب وآخرها أفران هتلر، إذن فالآية تصف الأحوال المعاصرة وترسم الطريق الملائم لهذه الأحوال، وهو رفض الاندماج في حضارتهم وعدم موالاتهم، والآيات تتحدث أيضاً عن هؤلاء الذين ينتشرون بيننا الآن ويقولون لنا إنه لا يمكن مواجهة الغرب وإسرائيل لأن هناك عدم تكافؤ كبير جداً في القوة بيننا وبينهم وبالتالي علينا أن نخضع ونندمج في الحضارة الغربية، ولكن الله تعالى يطمئننا إلى أن الصبر والصمود والمواجهة هم الطريق الصحيح لأن الله تعالى سوف يأتي بالفتح أو بأمر من عنده.

وفي كل الأحوال فإن الخضوع والاندماج يعني بالنسبة لنا الموت الحضاري، والمواجهة قد تعني الموت وقد تعني الكثير من الخسائر وقد تعني النصر أيضاً في النهاية، لأن الخضوع يعني القضاء على البذور الكامنة بالإضافة إلى الساق والفروع، أما الصبر والمواجهة فقد يعني دمار الفروع والسيقان، ولكن تظل البذور كامنة تحت التربة فتعطي مرة أخرى في ظروف أفضل ساقاً جديدة وفروعاً جديدة، وتنمو الشجرة من جديد.

وهكذا فإن المواجهة الحضارية الشاملة هي إحدى سمات المشروع الحضاري الإسلامي.

العلم:

يشكل العلم- بصورته الشاملة- عنصراً هاماً من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي، وتأتي العلوم التجريبية والتقنية على رأس أولويات النهضة الإسلامية المرجوة ذلك أن أحد أسباب هزيمتنا وانحطاطنا الحضاري يرجع إلى إهمال الأخذ بأسباب العلم عموماً والعلوم التجريبية خصوصاً، والتفوق الأوروبي الهائل علينا هو في جوهرة تفوق علم وتكنولوجيا، وصحيح أن العلم في المشروع الحضاري

الإسلامي يستخدم لصالح الإنسان ولتحقيق أكبر قدر من السعادة لكل البشر، ولا يكون على حساب البيئة أو الكائنات الأخرى أو موجهاً لتحقيق أكبر قدر من المنفعة اللاأخلاقية على حساب الإنسان، أو لحساب مجموعة من البشر على حساب باقي البشر.

ولا تناقض هناك بين الإسلام والعلم، بل إن الإسلام يحض على العلم، وقد شهدت العلوم جميعاً وخاصة التجريبية منها ازدهاراً واسعاً في ظل الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها، وكانت هذه العلوم هي الأساس التي قامت عليه النهضة العلمية في أوروبا.

ولا شك أن نشر العلم والحصول على أحدث الحقائق العلمية والوسائل التقنية واجب شرعي، أياً كان مصدر ومكان هذا العلم «.. **ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة..**» (رواه مسلم)، «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها»، وفي هذا الصدد فإننا ندرك أن الحضارة الأوروبية لن تقدم لنا العلم بسهولة لأنها تريد باستمرار أن نظل متخلفين وخاضعين، علينا أن ننتزع هذه العلوم انتزاعاً، لاحظ أن أمريكا حاكمت المهندس المصري عبد القادر حلمي بتهمة سرقة التقنية الأمريكية!

وعلى كل مسلم أن يفعل ما يستطيع للحصول على العلم، ويعمل على تعليم الآخرين، لأن من يحجب العلم آثم شرعاً وبالتالي فإن التعليم هنا يصبح واجباً شرعياً وغاية لترقية الأمة والإنسانية وليس مجرد الحصول على خبرات علمية تحقق لصاحبها الكسب الشخصي والرقي الفردي أو الحصول على مركز اجتماعي أو مكاسب مادية. وتعليم الآخرين واجب شرعي كذلك، وعلينا أن نستفيد بخبرات العديد من العلماء البارزين في مختلف الأقطار الإسلامية، وكذلك ذلك الجيش

الجرار من العلماء المسلمين المغتربين في أوروبا وأمريكا وغيرهما ووضع خطة طموحة للاستفادة من خبرات هؤلاء العلماء.

ويجب أيضاً أن يكون لمحو الأمية أولوية لدى المسلمين لأنه من العار علينا ونحن أمة «اقرأ» أن يكون بيننا من لا يعرف القراءة والكتابة، ورسولنا الكريم يقول: «**إنما بعثت معلما**».

رسول الإسلام يقرر أن ساعة من دروس العلم خير من سبعين ساعة عبادة، ومداد العلماء يوزن يوم القيامة بدماء الشهداء، أي أن العلم والتعليم هو وحدة الذي يعادل مقام الجهاد والاستشهاد وهو مقام رفيع كما نعرف، ولعلنا نلتفت إلى المعنى المتضمن في كون أول آية نزلت من القرآن الكريم هي «اقرأ» وهي دعوة مباشرة لتقديم العلم والتعليم على ما عداه.

والآيات التي تحض على العلم في القرآن الكريم تزيد على ٧٥٠ آية في حين أن تلك المتعلقة بالفقه حوالي ١٥٠ فقط، وكذلك هناك الآيات التي تحض على السير في الأرض والنظر في علومها المختلفة كالأحياء والجيولوجيا والجغرافيا وغيرها. ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].



التنمية المستقلة

لماذا نطرح التنمية المستقلة كعنصر مهم من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي، ومن المفروض أصلاً أن الكون كله لله وبالتالي فإن ثروات هذا الكون تكون لجميع عباد الله وعن طريق التعاون بينهم.

والإسلام أصلاً يحض على التعاون بين البشر لاستثمار الثروات ويجعل حبس وسائل هذا الاستثمار من علوم وتقنية جريمة وإثماً كبيرا، كما يؤكد على حقيقة عدالة التوزيع بمعنى أن تكون هذه الثروات لصالح جميع البشر وليس مجموعة منهم فقط.

والله تعالى وضع في الأرض والكون من الثروات ما يكفي لسد حاجة كل البشر بل وتكفي أضعافهم آلاف المرات بشرط بذل الجهد في الكشف عن الثروات وتوزيعها بعدالة يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

ظلوم بمعنى: لا يوزع الثروات بعدالة، وكفار بمعنى: لا يبذل الجهد الملائم في الكشف عنها، لأن الكفر لغوياً يعنى الستر وعدم الكشف والجحود.

نحن إذن نطالب ونحرص على التعاون بين البشر في كل مجال والمجالات الاقتصادية خصوصاً، ونريد أيضاً ترقية وتحسين وسائلنا الإنتاجية بأحدث وسائل العلم والتكنولوجيا ولكن هناك ظرفاً عالمياً خاصاً يعيشه العالم الآن يحتم علينا خيار التنمية المستقلة، ذلك أن أوروبا استخدمت تفوقها العلمي والعسكري في قهر العالم أجمع ونهبه وضاعت العلاقات الاقتصادية الدولية بحيث تصب في النهاية

لمصلحتها على حساب الشعوب الفقيرة، وأصبح الحديث عن حرية التجارة حديثاً عن حرية النهب أساساً بل وأصبحت مؤسسات مالية دولية كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي مجرد قفازات لتشويه البيئة الاقتصادية المحلية في الأقطار الضعيفة بحيث يسهل نهبها.

والاستعمار القديم والجديد وفي كل صوره عمل جاهداً بالقهر والعنف أو بالخداع عن طريق الجيوش أو عن طريق اتفاقيات التجارة الدولية والنظام النقدي الدولي، والمؤسسات المالية الدولية على صياغة البيئة الاقتصادية والاجتماعية في الدول الضعيفة بحيث تحقق للدول الاستكبارية أكبر قدر ممكن من النهب[١] وبالطبع فلا سبيل- طالما كان هناك هيمنة ونهب أوروبي واستكباري- إلا اتخاذ طريق التنمية المستقلة، وقطع كل خيوط التبعية بل وكل ما أمكن من العلاقات الاقتصادية مع الدول الاستكبارية، والاعتماد على نمط من التنمية يعتمد على الثروات والخبرات المحلية- مهما كانت مختلفة- إنتاجاً واستهلاكاً.

على سبيل المثال، فإن القوى الاستكبارية تحرص مثلاً على تشويه وتدمير البنية المحلية في قطاع البناء- بمعنى تشجيع ودعم بناء العمارات على النمط الأوروبي، فيتكدس الناس في شوارع ضيقة وعمارات عالية، وهذه تستلزم خامات وخبرات أجنبية في عملية البناء، وتحتاج بعد البناء إلى أجهزة تكييف نستوردها من الغرب، وتحتاج إلى مصاعد نستوردها أيضاً من الغرب، وفي النهاية يحدث تكدس وازدحام في الشوارع فنحتاج إلى بناء كباري علوية نعتمد في بنائها طبعاً على خامات وخبرات أجنبية ثم تحدث مشاكل رفع المياه التي تحتاج إلى ماكينات رفع من الغرب أيضاً،

(١) راجع في هذا الصدد د. محمد مورو- صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر- الزهراء للإعلام العربي.

ومشاكل في الصرف الصحي تهدد صحة أطفالنا.. وهكذا كل شيء يصب في النهاية في جيب الغرب على حساب مواردنا المحلية ولو أننا فهمنا اللعبة، ونفذنا نمطاً من العمارة يراعي الاعتماد على الخامات المحلية والخبرات المحلية ويلائم المناخ ويأخذ مختلف العوامل الاجتماعية والمناخية في اعتباره لكان الأمر مختلفاً- حيث يمكن استخدام خامات من التربة المحلية وهذه لا تحتاج مثل الأسمنت إلى أجهزة تكييف وكذلك في طريق تصميم المباني بحيث تكون ملائمة للتهوية ودرجة الحرارة، ولاحظ أن لدينا صحراوات واسعة فما الداعي إلى العمارات العالية وماكينات رفع المياه والمصاعد والشوارع المزدحمة، ألم يكن من الأفضل الاتساع أفقياً بدلاً من رأسياً؟ لتوفير أجهزة التكييف والماكينات والمصاعد بل وتوفير مصاريف الكباري العلوية.. وغيرها[1] وصناعات ومنتجات البلاستيك مثلاً- التي نهدر فيها الكثير بسبب الاعتماد على الخامات الأجنبية والخبرات الأجنبية التي يمكن الاستغناء عنها بصناعة الفخار المعروفة في الصعيد وهي صناعة قادرة على توفير أفضل أنواع الأواني فضلاً عن تحملها الشديد للحرارة بعكس البلاستيك بحيث يمكن أن تكون كل الأواني وأدوات الطعام من الفخار، وهذا الفخار يعتمد على خامات محلية وخبرات محلية وهو من الناحية الصحية أفضل من البلاستيك الذي له أضرار مؤكدة من الناحية الصحية[2].

وكذلك صناعة الحصير في الريف المصري المعتمدة على نبات ينبت على شواطئ الترع- أي مجاناً- هو نبات «السمار» ويمكن به الاستغناء عن السجاجيد الفخمة

(١) للمهندس حسن فتحي تجربة جديرة بالاهتمام في هذا الصدد وضعها في حيز التنفيذ في عدد من القرى التي صممها وبناها ويمكن مراجعة كتابه في هذا الصدد بعنوان «عمارة الفقراء» كتاب اليوم.

(٢) د. محمد مورو- دفاع عن الاقتصاد الريفي- مجلة العالم اللندنية ١٩٨٥.

والمفروشات البلاستيكية، وكذا صناعة الجريد من النخيل والتي يمكن بها صنع كل أنواع الأثاث المنزلي والمكتبي اعتماداً على خامة محلية وخبرة محلية، وكذلك الصناعات المنزلية المعتمدة على «الغاب» وهو نبات رخيص جداً يزرع على حواف الأراضي والترع والمصارف ويمكن صناعة أواني حفظ الخبز أو تخزين الطعام منه وكل هذه الصناعات خاماتها رخيصة وموجودة وخبراتها أيضاً موجودة، وكانت بالفعل ولفترة قصيرة سابقة منتشرة في الريف- إلا أنها بدأت تنهار بعد دخول صناعات البلاستيك وغيرها[1].

ونظرة واحدة إلى الريف المصري ترينا كيف تم ارتكاب جريمة بشعة، جريمة نهب- تحت شعار التحديث، فالبيت الريفي مثلاً كان يعتمد في بنائه على الطوب اللبن المصنوع من التربة المحلية، والسقف من الجريد والغاب، وفي هذا البيت يوجد فرن لصناعة الطعام ولصناعة منتجات الألبان ويستخدم أيضاً في التدفئة، وهذا الفرن يعتمد في وقوده على روث المواشي وعلى قش الأرز والذرة وحطب القطن، وكلها موجودة بكثرة في البيئة المحلية، وفي البيت الريفي توجد حظيرة للمواشي والطيور، أي هناك اكتفاء ذاتي من اللحوم والبيض ومنتجات الألبان، كما أن هذه المواشي كانت تقوم أيضاً بحمل المنتجات الزراعية من الحقل إلى المنزل وحمل السماد البلدي ولوازم الزراعة من المنزل إلى الحقل مثل الجمال والحمير والبغال، أو تقوم بإدارة ماكينات الري «الساقية والطمبوشة» وكذلك جر المحراث والقصابية وغيرها من آلات الزراعة وكان الفلاح يستفيد بكل هذا في تكامل شديد وبدون اعتماد على خامات أو خبرات من الخارج، أي نمط تنمية مستقل، أما الآن

(١) د. محمد مورو- دفاع عن الاقتصاد الريفي- مجلة العالم اللندنية ١٩٨٥، وكذلك د. محمد مورو- صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر- - الجزء الأول.

فالبيوت أصبحت من الأسمنت والحديد، ولا حظائر للمواشي، أي لا سماد بلدي، ولا لحوم ولا بيض ولا إدارة للآلات الزراعية ولا نقل عن طريق تلك المواشي، ولا فرن محلي، بل الاعتماد على الخبز المصنوع والطعام المصنوع على أفران البوتاجاز أو السولار، أي هناك حاجة مستمرة لعربات نقل، وسماد كميائي، ووقود غازي أو سائل للأفران والمواقد، ولا حظائر للتخلص من الزبالة والمخلفات، التي كانت تتحول إلى سماد بلدي بدلاً من شبكات صرف صحي، أي أن الإنتاج الريفي لم يصبح مستقلاً بل معتمداً على الخارج أي دخل في دائرة النهب العالمي المعروفة.

وفضلاً عن هذا فإن الفلاح المصري مثلاً كان يبدأ يومه عقب صلاة الفجر مباشرة حيث يصطحب المواشي ويذهب إلى الحقل فيعمل في ضوء الشمس طوال النهار، ويعود بعد أذان المغرب، لينام عقب صلاة العشاء، أي أنه كان يستخدم ضوء النهار كله، ولكن الآن تعود على السهر بعد أن اختل نظام الإنتاج، لأن نظام الإنتاج القديم كان يفرض عليه الاستيقاظ مبكراً والنوم مبكراً، أما الآن فيمكنه السهر إلى ساعة متأخرة من الليل بما يترتب عليه من استهلاك للوقود، فضلاً عن تشويه العلاقات الاجتماعية الريفية التقليدية[1].



(١) د. محمد مورو- دفاع عن الاقتصاد الريفي- العالم اللندنية ١٩٨٥.

تنمية التذوق الجمالي

قد يبدو للوهلة الأولى- أن مسألة تنمية التذوق الجمالي مقحمة على المشروع الحضاري الإسلامي، أو تأتي في مرتبة أقل من أن تدرج على قائمة المشروع الحضاري الإسلامي ولكن الحقيقة أنها بالفعل ذات أهمية وصلة حيوية وثيقة بهذا المشروع.

ذلك أن الفنون الجميلة مثلاً هي في حد ذاتها أرقى تعبير عن حضارة ما، وبعض المفكرين يعتبر أن الحضارة هي الفنون الجملية، وأن ما يميز حضارة على غيرها هي الفنون وأنه لا حضارة بغير فنون.

ومن ناحية أخرى فإن الفنون الجميلة تعكس قيم الحضارة وتؤكدها في نفس الوقت. ومن ناحية ثالثة فإن تنمية التذوق الجمالي يساعد في ترقية وتنمية الإبداع الحضاري كماً ونوعاً. ومن ناحية رابعة فإن الإحساس بالجمال طريق إلى الإيمان بالله تعالى.

وقبل ذلك وبعده فإن التراث الإسلامي حث بأكثر من وسيلة على تنمية التذوق الجمالي. ولا شك أن هناك نقطة في هذا الإطار ينبغي الالتفات إليها، وهي أن الغلو والتشدد والغلظة التي تظهر أحياناً في الواقع الإسلامي ترجع في جزء منها إلى غياب التذوق الجمالي، وبالتالي فإن تنمية التذوق الجمالي طريق إلى الوسطية والاعتدال والاتزان.

وبديهي أن قسوة القلوب التي يندد بها القرآن الكريم ترجع في جزء منها أيضاً إلى غياب التذوق الجمالي ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ .

والدعوة إلى التذوق الجمالي موجودة بكثرة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات:٦].

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت:١٢].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦].

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق:٦].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:٩٩].

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [الأنعام:٥، ٦].

ويقول الرسول ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**» رواه الترمذي.

ويقول: «**زينوا القرآن بأصواتكم**» رواه البخاري.

ويقول: «**إن الله جميل يحب الجمال**» رواه مسلم.

«وكان الرسول ﷺ يتفاءل ولا يتبطر ويعجبه الاسم الحسن» رواه الإمام أحمد.

وهكذا فإن الإسلام يحرص على الجمال ويدعو إلى التجمل في الصورة وفي المعنى ويدعو إلى التذوق الجمالي في الصورة والمعنى أيضاً وبهذه المناسبة فإن للتذوق الجمالي أثره المهم في المشروع الحضاري الإسلامي.



المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام

«العالمية» التعاون والتعارف بين الأمم

الإسلام دين عالمي، وهو دعوة الهداية والرشاد للناس جميعاً، والحضارة الإسلامية حضارة عالمية، بل هي الحضارة الوحيدة التي ظهرت على وجه الأرض وتحمل قيماً عالمية.

فالحضارة العالمية يجب مثلاً أن توجه دعوتها إلى العالم أجمع وأن تكون قادرة على تلبية حاجات الإنسان مهما كان لونه أو جنسه أو دينه، وأن تكون معاييرها واحدة بالنسبة لكل إنسان على الأرض.

والحضارة الإسلامية مثلاً لا تفرق بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، ولا تظلم أحداً بل تعدل بين المسلم وغير المسلم ومعاييرها واحدة بالنسبة لهذا أو ذاك بل إن الإبداع الحضاري الإسلامي ساهم فيه بصورة أو بأخرى الأحمر والأصفر والأبيض والأسود، الأوروبي والإفريقي والآسيوي، التركي والعربي والعجمي، المسلم وغير المسلم.

وأي حضارة لا تكون عالمية في معاييرها، ولا تكون قائمة على المساواة بين البشر وغير عنصرية فإنها لا يمكن اعتبارها حضارة عالمية، وبالتالي فإن الحضارة الغربية مثلاً والتي تقوم على سيادة الرجل الأبيض وعلى العنصرية وتقوم على نهب الآخرين وقهرهم لا يمكن أن تكون حضارة عالمية.

والإسلام إذن والحضارة الإسلامية دعوة للناس كافة وطريق للهداية والرشاد والعدل والحرية واللاعنصرية والمساواة والمحافظة على البيئة وتوزيع الثروات بصورة عادلة والدفاع عن المضطهدين عرقياً ودينياً واقتصادياً وسياسياً، والحضارة الإسلامية هي حضارة التعاون والتعارف بين البشر.

الإسلام دعوة للناس كافة

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١] .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ:٢٨] .

بل إن الأمر يصل بأن الإسلام يرتب على المسلم وعلى الجماعة المسلمة وعلى الأمة الإسلامية المسئولية عن كل إنسان في الأرض والدفاع عن هذا الإنسان إذا ما اضطهد دينياً أو اقتصادياً أو سياسياً أو عرقياً، بل وجعل الإسلام الرسول ومن بعده من المسلمين مسؤولين عن الدعوة إلى الهداية والرشاد لكل البشر.



التعاون والتعارف بين البشر

ومن القيم الحضارية للإسلام، وبالتالي من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام، التأكيد على التعاون بين البشر والتعارف بين مختلف الجماعات البشرية، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[الحجرات: ١٣].

ويقول تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

والإسلام يجعل ثروات الأرض لكل البشر فلا يستأثر بها جنس أو جماعة دون جنس أو جماعة أخرى، فعلى سبيل المثال، فإن ثروات البحار للناس جميعاً للانتفاع بها دون تمييز يقول تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾[البقرة: ١٦٤]. ويمكن قياس كل الثروات على تلك الآية الكريمة.

والحضارة الإسلامية في أيام ازدهارها كانت شديدة الانفتاح والتعاون مع غيرها والاستفادة المتبادلة ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ بل إن الإسلام يدعو المؤمنين إلى الأخذ بكل العلوم النافعة مهما كان مصدرها «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها» رواه الترمذي.

بل ويدعو المسلمين إلى نشر العلم والتعليم داخل بلادهم بل وخارجها أيضاً، ويجعل حبس العلم عن المسلمين وغير المسلمين جريمة يحاسب الله عليها الذين يحبسونها يوم القيامة ويطوقهم بالنار بسبب ذلك، وقد قدمت حضارة الإسلام طواعية بل كواجب شرعي الكثير من العلوم والمعارف إلى الأمم الأخرى وقد استفادت أوروبا في نهضتها الحديثة من العلوم التي ظهرت واكتشفت في إطار الحضارة الإسلامية.

النظافة- حماية البيئة- المسؤولة عن الضعفاء

والكائنات غير البشرية- المسؤولية عن المستقبل:

يتضمن المشروع الحضاري الإسلامي- الذي ينبغي تقديمه إلى العالم أجمع- أي المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام عناصر النظافة- حماية البيئة- المسؤولية عن الضعفاء وباقي الكائنات غير البشرية، وكذلك التفكير في المستقبل وعدم تدميره أو الافتئات عليه وأخذه في الاعتبار دائماً، لأن ثروات الأرض وما فيها ملك للأجيال البشرية القادمة أيضاً وليست ملك الأجيال الحاضرة فقط.



النظافة والمحافظة على البيئة

النظافة من الإيمان، ويجب أن يكون المسلم نظيفاً في طعامه وشرابه وملبسة وفي حياته كلها، ويجب دعوة الآخرين إلى النظافة، لأن القذارة مثلاً تؤدي إلى انتشار الأوبئة وهذا أمر يضر البشرية كلها والممارسات النظيفة والعادات النظيفة طريق إلى حماية البشر والكائنات من كل خطر وطريق إلى تحسين الصحة العامة، وتجميل الحياة والتمتع بها، انظر مثلاً إلى الممارسات الجنسية غير النظيفة ألم تؤد إلى انتشار الإيدز، وهو وباء يهدد البشرية كلها حالياً؟ وفي الحديث الشريف: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**» و«**إن الله جميل يحب الجمال**» و«**من سنن الفطرة- قص الشارب وقص الأظافر، وإعفاء اللحية، واستعمال السواك والاستنشاق، ونتف الإبط، وحلق العانة، وعدم الإسراف في الماء**».

وحتى الاهتمام بنظافة الأسنان لم يهمله الإسلام، بل إن الحديث الشريف يقرر «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة».

والمسلم يتوضأ خمس مرات في اليوم والليلة، والوضوء، والطهارة من الجنابة، وسنة الغسل قبل صلاة الجمعة كلها تؤدي إلى النظافة البدنية وتحسين الصحة العامة.

وفي الحديث الشريف ما معناه: «**من اغتسل وتطهر- فأحسن الطهور ولبس أحسن ثيابه، ثم أتى الجمعة، فلم يلغ ولم يفرق بين اثنين غفر الله له ما بين الجمعتين**».

والله تعالى يقول﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ ويقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ

مَسْجِدٍ ﴾ بل إن التعطر من السنة المحمدية المعروفة، والرسول ﷺ وهو النموذج والقدوة- كان شديد النظافة يحب التعطر والتطيب «**حبب إلي من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة**».

ولعل من دلالات الاهتمام غير العادي الذي أولاه الإسلام للنظافة والطهارة أن الأثر الإسلامي يجعل الطهور شطر الإيمان، والله تعالى يقول: ، وأن باب الطهارة هو الباب الافتتاحي لمعظم كتب الفقه الإسلامي.

◆ ◆ ◆

المحافظة على البيئة

والمحافظة على البيئة ركن مهم من أركان المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام، والله تعالى خلق البيئة نظيفة ومتوازنة، ولكن الإنسان الخارج على منهج الله وفطرته وهديه هو الذي يحدث الخلل والتلوث ويفسد هذه البيئة ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر:١٩] . هذا خلق الله الموزون فماذا فعل الإنسان الخارج على هدي الله ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ .

وهذا الفساد ظاهر الآن للعيان، فالحديث عن تلوث البيئة أصبح حديثاً متواتراً، يلوثها بالنفايات والكيماويات والمواد الذرية والنووية، في البر والبحر والجو على حد سواء حتى إن هناك خطراً ماحقاً على الكائنات الحية في البر والبحر والجو، وعلى الأمان الحياتي والبيولوجي، وعلى التوازن المناخي..إلخ، ويجب على البشرية أن تستجيب لمعطيات المشروع الحضاري الإسلامي في مسألة حماية البيئة، فلا يحدث إخلال للتوازن البيئي والبيولوجي، ولا يتم الإنتاج إلا للمصلحة ومراعاة النظافة التامة في هذا الإنتاج، والتعامل مع البيئة كصديق وليس كعدو وعدم استنزافها وإرهاقها وتدمير توازنها وهو الأمر الحادث الآن بسبب سيادة المنفعة اللاأخلاقية في وسائل الإنتاج الأوروبي والأمريكي الحديث وكذلك سيادة مفهوم الصراع مع البيئة وإخضاعها وهو مفهوم مستمد من قيم الحضارة الغربية.

والمشروع الحضاري الإسلامي يدعو البشر جميعاً، للتعاون والانسجام والتناغم مع البيئة والاستمتاع بثرواتها وجمالها واحترام توازنها، ومراعاة أقصى قدر من

نظافتها، وللحضارة الإسلامية في هذا المجال تراث كبير، ففضلاً عن الدعوة إلى النظافة الشخصية للإنسان، فهناك أيضاً دعوة واسعة للمحافظة على نظافة البيئة، فمن مظاهر الإيمان إماطة الأذى عن الطريق وفي الحديث الشريف: «**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه**» وقال العلماء: والتغوط في الماء كالبول فيه بل أقبح وكذلك إذا بال في إناء ثم صبه في الماء وكذا إذا بال بقرب النهر بحيث يجري إليه البول فكله مذموم قبيح منهي عنه، ويكره البول والتغوط بقرب الماء وإن لم يصل إليه لعموم نهي النبي ﷺ عن البراز في الموارد.

وقياساً على ذلك يمكن النهي عن تصريف المخلفات في البحار أو غيرها بطريقة تضر البيئة، ويمكن النهي عن إقامة صناعات تنتج مخلفات كيميائية غازية أو سائلة، ذرية أو نووية تشكل خطراً على البر أو البحر أو الجو، أو على الإنسان أو الحيوان أو الطير، في الحاضر أو المستقبل.

ومن المثير أن الإسلام نهى أيضاً عن التلوث الضوضائي، وهي مشكلة قفزت إلى السطح حديثاً، بعد أن اكتشف العلماء الآثار السلبية صحياً واجتماعياً المترتبة على الضوضاء، يقول الله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩].

والمحافظة على البيئة ليس فقط بعدم تلويثها- وإن كان هذا مهماً جداً، بل أيضاً بعدم استنزافها؛ لأن ثروات الأرض ملك للأجيال القادمة أيضاً من البشر وليست ملكاً لهذا الجيل من البشر وحده، فضلاً عن أن استنزاف البيئة عمل بشع في حد ذاته، والموقف الصحيح في المسألة هو الرؤية القرآنية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣٣].

العناية بالضعيف وبالكائنات غير البشرية

العناية بالضعيف محور مهم من محاور المشروع الإسلامي ولعل الإسلام دون المذاهب والفلسفات الاجتماعية والسياسية جعل للضعفاء حقوقاً نظرية وعملية، وجعل هذه الحقوق واجبة وجزءاً من العقيدة والإيمان[1]، فالعطف على الصغير والكبير والآباء واجب شرعي[2]، ورعاية الأبناء الصغار وتربيتهم وتلبية حاجاتهم البدنية والنفسية وتهذيبهم وتعليمهم واجب شرعي على الآباء فإن غاب الآباء فعلى الأقارب وإلا أثموا ويمكن للتقاضي الشرعي أن يلزمهم بذلك ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦]. وكذلك فللفقراء والمساكين والعاجزين عن العمل حق معلوم لدى الدولة الإسلامية ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ والأيتام كذلك يحرص الإسلام على رعايتهم أيما رعاية ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝﴾، وقال ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى**».

والضعفاء عموماً من أيتام ومساكين وفقراء وصغار وكبار سن وغرباء ومرضى وعاجزين ومعوقين لهم حقوق- نكرر حقوقاً- معلومة في أبواب الفقه الإسلامي

---

(١) من الناحية النظرية مثلاً فإن الماركسية لا تعترف بتلبية حاجات غير القادرين على العمل «لكل حسب طاقته».

(٢) وكذلك البر بالآباء: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ للرحمة بعد الحقوق باب كبير من أبواب الإسلام، والله تعالى وصف نفسه بالرحمة، وجعلها من أفضل الأخلاق والممارسات التي يتقرب بها العبد إلى ربه.

والعناية بالضعفاء يكملها العناية بكل الكائنات غير البشرية والمسلم رحيم بكل مخلوقات الله تعالى «فإذا ذبحنا علينا أن نحسن الذبح» وتعذيب الحيوانات والطيور محرم شرعاً «**وامرأة دخلت النار في قطة حبستها**» والرحمة بالحيوان طريق إلى الجنة «ورجل دخل الجنة في كلب عطشان سقاه» و«**إن في كل كبد رطبة لأجر** » والإنسان مسؤول أمام الله عن إطعام الحيوانات والمواشي التي يستخدمها ويقتنيها، ومسئول أيضاً عن عدم إرهاقها بالعمل- ومسئول حتى عن نظافتها، و«عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخاف أن يحاسبه الله تعالى عن دابة تتعثر في الطريق لأنه لم يسو لها الطريق».



المسؤولية عن المستقبل

والمسئولية عن المستقبل جزء لا يتجزأ من المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام، ذلك أن التفكير في الأجيال القادمة أمر حتمي وأخلاقي في نفس الوقت، ويجب أن تكون هذه القيمة منار اهتمام عالمي، لأنها مرتبطة بكل البشر وليست خاصة بجماعة بشرية وحدها، فالمحافظة على البيئة وعلى التوازن البيولوجي والمناخي أمر يمس الحاضر ويمس المستقبل أيضاً، ويهم الجيل الحالي ويهم الأجيال القادمة، والأرض وثرواتها ليست ملك هذا الجيل وحده بل هي ملك البشرية كلها من خلق منها ومن لم يخلق بعد، والتخطيط والاهتمام بالأجيال اللاحقة خلق إسلامي أصيل، فلا ينبغي إهمال مصير الأجيال التالية، ولا ينبغي التفكير بمنطق المنفعة الآنية فقط، وهذا يكون في كل المجالات بدون استثناء ومن أفضل الصدقات في الإسلام الصدقة الجارية وهي الصدقة التي تفيد الأجيال التالية، وكذلك فإنه يموت المرء وينقطع عمله إلا بثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له، وكلها أعمال تنظر إلى المستقبل وليس الحاضر، أي أنها أعمال راعي القائم بها أن تفيد الأجيال التالية سواء في الصدقة الجارية كإنشاء مدرسة أو شق ترعة أو مورد ماء.. إلخ أو اختراع أو علم ينفع الأجيال اللاحقة، أو تربية وتهذيب الأبناء وهم بالطبع جزء من المستقبل، «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» رواه مسلم وأحمد.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ [الطور:٢١] . ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [النساء:٩] .

العدل:

العدل قيمة كبرى من قيم المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام، أي فيما يخص المسلمين وغير المسلمين، وعلينا أن نبشر بالعدل ونأمر به ونأخذ به أنفسنا ونأخذ به الآخرين ونجاهد من أجل فرض العدل وتحقيقه في كل مكان ونصرة المظلوم أياً كان وفي أي مكان كان.

يجب أن نكون عادلين مع أنفسنا ومع الآخرين، عادلين في كل شيء في الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية على حد سواء، ويجب توخي العدالة في المنازعات القانونية المحلية والدولية، بين الأفراد وبين الجماعات وبين الأمم على حد سواء، يجب توخي العدالة وذلك بعدم ازدواج المعايير القانونية، فما يطبق على الشريف يطبق على الضعيف وما يطبق على الحاكم يطبق على المحكوم، وما يطبق على الأصدقاء والأحباء يطبق على الأعداء والمكروهين، وما يطبق على الغني يطبق على الفقير.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

والله تعالى يتوعد الظالمين ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورة:٤٢] ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما...**» حديث صحيح.

«**إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة...**» حديث صحيح.

ومن الأقوال المأثورة: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة».

«الظلم يجلب النقم ويسلب النعم».

«لا يكون العمران حيث يجور السلطان».

عدم ازدواج المعايير:

من أهم مقومات العدل في الإسلام وجود معايير واحدة تنطبق على الجميع بدون استثناء، على من نحب ومن نكره ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٨] .

على الأقربين والأبعدين بل على أنفسنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ .

على الشريف والضعيف «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف قطعوه، وأيم الله لو أن فاطمة بنتي سرقت لقطعت يدها».

على القوي والضعيف فأبو بكر الصديق رضي الله عنه هو القائل : «القوي منكم ضعيف حتى آخذ الحق منه والضعيف قوي حتى آخذ الحق له».

ويروي التاريخ الإسلامي أن أميراً من أمراء الغساسنة كان يطوف بالبيت في عهد عمر بن الخطاب فوطئ إزاره شاب من قراره فلطمه الغساني لطمة جدعت أنفه، فذهب الشاب إلى الخليفة عمر بن الخطاب وشكا إليه، فقال عمر للغساني : له القصاص أو يعفو عنك، قال : كيف وأنا أمير وهو سوقه؟ فقال عمر : لقد سوى الإسلام بينكما فلا تفاضل إلا بالتقوى ، فأخذ الأمير يسترضي الشاب الأعرابي، فلم يرض إلا أن يلطمه كما لطمه، وعلم الأمير أن الخليفة عمر سيمكن هذا الأعرابي من القصاص لا محالة ففر إلى الروم مرتداً عن الإسلام، فما اهتم عمر

بذلك، فإنه خير للإسلام أن يخرج منه أمير على أن يمارس ازدواج المعايير.

وعندما ضرب ابن حاكم مصر أي ابن «عمرو بن العاص» عندما ضرب القبطي المصري، أمر عمر بن الخطاب خليفة المسلمين عندما وصل إليه الأمر - أن يضرب القبطي المصري ابن حاكم مصر بنفس الطريقة قصاصاً له وقال قولته المشهورة : «اضربه كما ضربك اضرب ابن الأكرمين».

والرسول ﷺ لم يستنكف أن يضع نفسه موضع القصاص وعرض نفسه للناس ليأخذوا حقوقهم منه حيث صعد المنبر قبيل وفاته قائلاً ما معناه : «أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري.. ومن كنت أخذت منه مالاً فهذا.. ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي..»الحديث.

وعمر بن الخطاب يعطي الدرة للرجل ليضربه كما ضربه عندما اكتشف عمر بن الخطاب أنه ضربه بغير حق، ولكن الرجل يمتنع فيقول له : اعف عنى فيقول الأعرابي : ولا أعفو حتى أن عمر بات ليلة مغتماً، فلما رآه الأعرابي في اليوم التالي وجد أثر الألم والهم على وجهه، فقال الأعرابي لعمر بن الخطاب : لعل هذا لما كان بالأمس، فقال عمر الخليفة العادل : نعم فقال الأعرابي : الآن عفوت عنك.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر قضاته بالتسوية بين الخصوم في المجلس والنظر والإشارة والإقبال وقال في كتابه إلى أبي موسى الأشعري «سو بين الخصمين في مجلسك وإشارتك وإقبالك، حتى لا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يطمع قوي في ضعفك».

ويروى أن أبا موسى الأشعري ضرب بعض رعيته أسواطاً وعلم ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرسل عمر إلى أبي موسى الأشعري، يقول له : لقد عزمت عليك إن كنت ضربته في ملأ من الناس فليضربك بينهم، فلما حضر الرجل، وضع

أبو موسى الأشعري نفسه في موضع الاستعداد لتلقي الضرب بالسوط، فعفا الرجل عنه.

ويروى أيضاً أن عمرو بن العاص قال لأحد الرجال : يا منافق وكان ذلك في المسجد، فذهب الرجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له : «لقد نفقني الأمير- وكان عمرو بن العاص أميراً- وما نافقت منذ أن أسلمت، فأرسل عمر إلى «عمرو» وقال له : إن كنت نفقته في ملأ، فليضربك كذا سوط، فذهب الرجل إلى المسجد وقال من منكم سمع الأمير ينفقني، قالوا : كلنا سمعه، فقرأ عليهم الكتاب فقال بعض المدهنون »أو تضرب الأمير؟! وصاحوا فيه مستنكرين ذلك، فقال الرجل : ليس لأمير المؤمنين هنا طاعة، فقدم عمرو بن العاص نفسه إلى الرجل ليضربه، فقال الرجل : الآن عفوت.

ووصل أمر العدل وعدم ازدواج المعايير : «أن المسلمين كانوا قد دخلوا بلداً يدعي صفد في إقليم سمرقند واشتكى أهل البلد إلى عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين أن القائد الإسلامي قتيبة بن مسلم قد دخل ديارهم من غير أن يتبع معهم سنة الإسلام في تخييرهم بين الإسلام أو العهد والجزية أو الحرب، بل قاتلهم قبل أن يعرض عليهم هذه الخيارات، وحول الخليفة هذه الشكوى إلى القاضي، فدرس القاضي الموضوع وتبين صدق الشكوى، فأمر الجند بالخروج من الديار التي دخلوها، ونفذ الجند الأمر، وتركوا مدينة صفد امتثالاً للعدالة الإسلامية التي لا تعرف ازدواج المعايير.

وهكذا تعكس نصوص الإسلام العدل وعدم ازدواج المعايير كأروع ما يكون، وتعكسها أيضاً ممارسات الإسلام وحضارة الإسلام، ولا شك أن التركيز على هذه القيمة يعطي دفعة قوية للمشروع الحضاري الإسلامي أمام البشر جميعاً وهم الذين

يعانون الآن وقبل الآن من غياب العدل ومن ازدواج المعايير في ظل الحضارة الغربية.

اللاعنصرية :

عانت البشرية طويلاً، ومازالت تعاني حتى هذه اللحظة، من الممارسات العنصرية للحضارة الغربية، ومنذ تفوق الحضارة الغربية وقهرها للعالم وسيطرتها عليه، وهي تمارس أشكالاً متعددة من العنصرية من إبادة أجناس كاملة «الهنود الحمر» والتطهير العرقي للشعوب كالبوسنة والهرسك، أو استرقاق السود وإقامة أنظمة الفصل العنصري في إفريقيا- ، وما زال الوجدان العنصري والممارسات العنصرية موجودة في أمريكا وأوروبا؛ لأن العنصرية جزء أصيل من القيم الحضارية الغربية.

ولا شك أن إبراز المساواة الإنسانية- واللاعنصرية وهي من السمات الأساسية في الإسلام، لا شك أن إبراز هذه النقطة تشكل نقطة إضاءة كبيرة للمشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام ويعكس الإسلام- وتعكس الحضارة الإسلامية على المستوى النظري والتطبيقي أروع صور المساواة واللاعنصرية **«فالناس سواسية كأسنان المشط»** و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ و**«لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»** **«كلكم لآدم وآدم من تراب»** **«إن الله أذهب عنكم عصبية الجاهلية وتفاخرها بالآباء والأجداد، الناس لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»**.

ولم تكن مصادفة أن التجربة الإسلامية الأولى قامت على أكتاف رجال كان منهم الكثيرون من العبيد والموالي أمثال بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وزيد بن حارثة.. وغيرهم، وكان من هؤلاء العبيد والموالي الكثير من قادة الإسلام

العظام في كل مجال عسكري أو سياسي أو ثقافي، وكان منهم العلماء في العلوم الدينية والدنيوية على حد سواء وأسهم هؤلاء إسهاماً كبيراً في بناء وازدهار الحضارة الإسلامية، التي شارك فيها الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، التركي والفارسي والعربي على حد سواء.

ولعل إحدى السمات التي عاشت حتى الآن مع المسلمين ولم تتعرض للضعف في وجدانهم وسلوكهم برغم حالة الانحطاط التي يعيشونها هي روح المساواة الإنسانية واللاعنصرية، حيث إن المسلمين حتى الآن لا يعطون لاختلاف اللون أو الجنس أي اهتمام ويمارسون اللاعنصرية كسلوك عادي، حتى إن أحداً من المسلمين لم يهتم ولم يلتفت- وقطعاً لم يرفض- أن يكون الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي هو الأستاذ حامد الغابد الإفريقي الأسود.

الحرية كرامة الإنسان /الحرية:

تمثل الحرية القيمة الأعظم- بعد التوحيد- بالنسبة للمشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام والخاص، وتمثل القيمة الأعظم على الإطلاق بالنسبة للمشروع الحضاري العام، أي فيما يخص المسلمين وغير المسلمين.

ذلك أن رسالة الإسلام تستهدف تحرير الإنسان في كل زمان ومكان، وتستهدف تحقيق الحرية للبشر كل البشر، وحتى الجهاد في الإسلام موجه أساساً لرفع الظلم والإكراه ووضع البشر كل البشر على قاعدة الاختيار الحر بلا إكراه ولا تعصب ولا ظلم، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ بالبقرة:٢٥٦] .

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ .

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩] .

فالإكراه مرفوض إسلامياً، حتى ولو كان إكراه على الإسلام لأنـه في هـذه الحالـة يكون حراماً ولا يرضى به الله ويحاسب من يقترفه، والفرق بين الإسلام والوثنيـة في أحد صوره هو الفرق بين الحرية والإكراه، ذلك أن الوثنيـة والكفر لا تتحقـق إلا بالإكراه والخداع، والإسلام لا يتحقق إلا بالحرية والاختيار الحر.

الإسلام يحرص على حريـة التفكير، حريـة الاختيار «اختيار العقيدة والمذهب والتصـور»- حريـة اختيـار شـكل النظـام السـياسي وحريـة اختيـار الحكـام بكافـة درجاتهم وحرية تغيير الحاكم، حرية التنقـل، حريـة إقامـة الشـعائر، حريـة الحـوار، وحريـة تبـادل الـرأي، ويـرفض التعصـب والاسـتبداد السـياسي والقهـر الطـائفي والديني والقومي والعرقي.

أما الكفر فيحرص على القهر والنهـب والظلـم والاسـتبداد والقـوى الشـيطانية تحرص على الحيلولـة دون حريـة الاختيـار وتحـرص عـلى وضـع علامـات إرشـادية مزيفة على الطريق وتحرص على نشر التعصب، وتحـرص عـلى إلغـاء حريـة التفكـير بكل صورة ووسيلة، وتحرص على نشر الجهل والخرافة والتعصب للآباء والأجـداد والأسرة والقبيلة والوطن والقومية.. إلخ.

والقرآن الكريم يطلق على هذا السلوك الشيطاني كلمة «المكر» ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ وكلمة المكر تعني أصلاً الخداع والقهر واستخدام الوسائل المختلفة لإكراه الناس على العقيدة والتصور الذي تريده القوى الشيطانية ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾[الأعراف:١٢٣] . ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:٢٩] . هذه الآية على لسان فرعون.

وصـحيح أن النـاس تصـل إلى الإسـلام وتعتنقـه بمجـرد تحقيـق حريـة التفكـير

والحوار والاختيار الحر، لأن الإسلام دين الفطرة، والعقل والكون والوجدان، والقلب يقود إليه، ولكن حتى بصرف النظر عن هذا فإن أمة الإسلام مطالبة بتحقيق الحرية للبشر كل البشر بصرف النظر عن النتيجة، إذ أن تحقيق الحرية غاية في ذاتها﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي فقاتلوهم حتى يكفوا عن إكراه الناس على الكفر فإن كفوا عن هذا فلا مشكلة، فقاتلوهم حتى يكفوا عن فتنة الناس بالقهر والظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي فإن كفوا فلا عدوان إلا على الظالمين.

المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة مأمورون بالجهاد لتحقيق حرية الاختيار ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ ، ولتحقيق حرية التنقل ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ ﴾ إذ كيف يسير الناس في الأرض بدون حرية التنقل وبالجهاد ضد التعصب «ليس منا من دعا إلى عصبية» وضد الجهل والخرافة، ضد الاستبداد السياسي «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**» والتفكير فريضة إسلامية، والله تعالى يدعو الناس إلى التفكير في عشرات الآيات القرآنية ﴿ أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ.. ﴾ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .. إلخ.

الدفاع عن الحرية فريضة إسلامية، وتحقيق الحرية بكل صورها وأشكالها مهمة المسلم والجماعة الإسلامية والأمة الإسلامية، بل إن المهمة الأولى لنا هي الدفاع عن حرية الشعوب والطوائف والأقليات والأفراد على حد سواء، حرية الناس في الاختيار على مستوى العقيدة، وعلى مستوى النظام السياسي والاجتماعي وعلى حقهم في اختيار طريقة وأسلوب الحكم وحق اختيار وعزل الحكام وعمر بن الخطاب يقول «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

وأبو بكر هو القائل : «إن وجدتموني على حق فأعينوني وإن وجدتموني على باطل فقوموني» والتقويم يعني حرية النقد وحرية خلع الحاكم أيضاً.

كرامة الإنسان:

ومن مهام المشروع الحضاري الإسلامي تحقيق الكرامة للإنسان أي إنسان في أي زمان ومكان فلا قهر ولا تعذيب ولا تمثيل ولا انتهاك لهذه الكرامة بأي صورة من الصور، والأصل الإسلامي لحقوق الإنسان هو أفضل أشكال هذه الحقوق، لأنه ينطلق من أن كل البشر عبيد لله تعالى ومتساوون أمامه، فلا حق لبشر أن ينتهك كرامة بشر آخر ولا حق لجماعة بشرية ولا طائفة ولا دولة أن تنتهك حقوق الآخرين. وقد حرص الإسلامي أيما حرص على صيانة حرمات الناس ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ ولا يؤخذ الناس بالشبهات «ادرأوا الحدود بالشبهات» ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تناجشوا» «لا تضايقوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عوراتهم يتبع الله عورته..» «إذا ابتغى الأمير الريبة في الناس أفسدهم».**

والشريعة الإسلامية تجيز فقوء عين من يطلع على إلى أسرار الناس **«لو أن امرءا اطلع عليك بغير إذن فقذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح»** والقرآن الكريم يؤكد حرمة البيوت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢٧، ٢٨].

وحتى احترام طمأنينة الآخرين هي فريضة إسلامية **«فلا يحل لمسلم أن يروع مسلماً»** و**«لا تروعوا المسلم فإن ترويع المسلم ظلم عظيم»**.

الله تعالى كرم الإنسان، وجعله خليفة له في الأرض ونفخ فيه من روحه، وهذا المستوى العظيم الذي وضع الله الإنسان فيه- باعتباره خليفة له في الأرض

وباعتباره كائناً فيه من روح الله، وباعتباره أكرم الكائنات تضع الأساس النظري والعملي لأفضل وأوسع الحقوق لصيانة كرامة الإنسان وحقوقه في نفسه وأهله وبيته وخصوصياته لأن الذي يعتدي على شيء من ذلك، أو ينتهك حقوق الإنسان فإنما هو يعتدي على أكرم المخلوقات أي على خليفة الله في الأرض، على كائن فيه من روح الله، والله تعالى جعل الملائكة تسجد للإنسان ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص:٧٢] . ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء:٧٠] . ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة:٣٠] .

الدفاع عن المظلومين:

الدفاع عن المظلومين فريضة إسلامية، المظلومين سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً، فرداً أو جماعة أو أمة أو طائفة وفي عالم يسوده الاستكبار وتمارس دولاً وحكومات وجماعات بشرية وأفراداً الظلم على الآخرين، فإن الدفاع عن المظلومين يصبح رقماً مهماً في معادلة المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام.

والله تعالى شرع الجهاد وفرضه على المسلمين للدفاع عن المظلومين مسلمين أو غير مسلمين، في كل زمان ومكان ورفع الظلم عن البشر أياً كان دينهم أو جنسهم أو لونهم.﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٩٣] .

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ .

وفيما يرويه الرسول ﷺ عن رب العزة : «**وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في**

عاجلة أو آجله، وأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم يفعل».

ويقول الرسول ﷺ: «لا يقفن أحدكم موقفاً يقتل فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تتنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه».

ويقول: «ما من مسلم يخذل مسلماً في موضع تهتك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يجب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في مواطن يجب فيها نصرته».

ويقول: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل أو بقول كان على الله أن يدخله مدخله».

ويقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه».

إنصاف المحرومين:

في عالم يستأثر فيه ٢٠٪ من السكان بكل أو معظم الثروات على حساب ٨٠٪، في عالم يجوع فيه الناس بل يموتون جوعاً «يموت في إفريقيا وحدها ٥٠ مليونًا من الجوع سنوياً منهم ١٥ مليون طفل»، في عالم فيه اختلال مروع في توزيع الثروة سواء على مستوى القارات، حيث تستأثر قارات على حساب قارات أخرى، أو على مستوى الدول.

حيث تستأثر بالثروات دول على حساب دول أخرى، أو حتى داخل الدولة الواحدة حيث تستأثر طبقة على حساب طبقة، فإن إبراز اهتمام المشروع الحضاري

الإسلامي بإنصاف المحرومين اقتصادياً والدعوة إلى عدالة توزيع الثروة أمر له أهميته في إقناع العالم بالمشروع الحضاري الإسلامي، وهو أيضاً فرض شرعي علينا تجاه الأمم والشعوب والأفراد المحرومين.

ونحن مطالبون بالدعوة إلى إعادة توزيع الثروة في العالم على مستوى العلاقات الدولية وقوانين التجارة وأسعار الخامات ونقل الخبرات العلمية والاهتمام بالتدريب والتعليم لتحقيق أكبر قدر ممكن من الثروة والنهضة للدول المختلفة والقارات المختلفة.

ومطالبون أيضاً داخل كل دولة على حدة بالانحياز للفقراء والمحرومين، والعمل على استعادة حقوقهم الاقتصادية والقضاء على التفاوت الطبقي ومنع استئثار طبقة بالخيرات على حساب طبقة أو طبقات أخرى وننطلق في هذا الأمر من إدراكنا بأن الثروات المتاحة في العالم تكفي جميع سكان العالم آلاف المرات وليس في هذا مبالغة. وأن الحرمان والفقر الموجود في هذا المكان أو ذاك يرجع إلى سوء توزيع الثروة أو عدم استقلالها أصلاً ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ بمعنى يظلم في توزيع الثروة، وكفار بمعنى لا يحس استغلالها وبالتالي فإنه من غير المعقول ولا من الطبيعي أن يستمر الجوع والفقر في العالم برغم كل هذه الثروات وعلينا أن نجاهد لرفع الظلم عن المحرومين أفراداً وشعوباً واستعادة حقوق هؤلاء المحرومين.

ولا شك أن الدعوة إلى إشباع حاجات الناس جميعاً أصل إسلامي واضح ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾ [الحشر:٧] . «**ليس منا من بات شبعاناً وجاره جائع**» حديث شريف والجار هنا قد يكون فرداً أو أسرة أو مدينة أو دولة أو قارة.. وهكذا، «**إذا جاع الناس فلا مال لأحد**» حديث شريف.

«من كان عنده فضل ظهر فليجد به على من لا ظهر له..» وعدد جميع أنواع النعم. حديث شريف.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي على الإنسان أن ينفق على المحرومين كل ما زاد عن حاجته. «لأخذت أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء» قول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

«ما حرم فقير إلا بما متع به غني» قول لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أي الحرمان يأتي من الظلم وسوء توزيع الثروة.

حماية الأقليات:

من العناصر المهمة في المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام مسألة حماية الأقليات، وفضلاً عن أنها فريضة شرعية، فإنها أيضاً تعكس القيم العظيمة لحضارة الإسلام بحيث تصبح هذه المسألة نقطة جذب حضاري لدخول العالم في المشروع الحضاري الإسلامي ولاشك أن الكثير من الأقليات الدينية والعرقية والقومية في العالم تعاني من الاضطهاد منذ أن سادت وهيمنت الحضارة الغربية على مقدرات العالم.

والأصول النظرية، والممارسات العملية في حضارة الإسلام تمثل أروع وأعظم ما عرفته البشرية في هذا الإطار فبداية فإن الإسلام يخدم خصوصية الأقليات ويحرص على تأكيدها ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ويدعو إلى احترام الجماعات البشرية بعضها بعضاً ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ ويجعل المعيار القانوني واحداً بالنسبة للأقلية والأغلبية فلا ازدواج معايير هناك ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٨]. ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[النساء:١٣٥].

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ . ويقول الرسول ﷺ : «**عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به**».

ويقول : «**من ظلم معاهداً أو ذمياً أو كلفه قومه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة**».

وفي هذا الصدد ننقل عن المفكر الإسلامي إسماعيل الفار قوله : «لقد بلغ المجتمع الإسلامي حدوداً تفوق التصور في توفير حرية الاعتقاد للآخرين، وقد حدد المسلمون تلك الميزه- حرية الاعتقاد- التي منحها الله لليهود والمسيحيين والصابئين في القرآن الكريم- حتى شملت الزرادشتيين والهندوس والبوذيين والمجوس والموالين للديانات الأخرى عندما اتصلوا بها».

ويقول الكاتب الإسلامي فهمي هويدي «لم يقتصر الأمر على مجرد حماية الأقليات وتحقيق حرية الاعتقاد للآخرين، بل تعدي إلى قيام المسلمين بحفظ التراث الحضاري للديانات الأخرى».

ويروي شكيب أرسلان في مقال له بعنوان التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي : «أن أحد الوزراء العثمانيين كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال الدولة الأوروبيين فيما يتعلق بهذا الموضوع، فقال لهم الوزير العثماني: إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة أعدائنا ولو كنا قادرين على استئصالهم- ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على ألا نبقي بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام فما هجس في ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلاً.

وكان إذا خطر هذا ببال أحد ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة ويواجهه أمثال زنبيلي أفندي على شيخ الإسلام ويقول له بلا محاباة

ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية وليس لك أن تزيحهم عن أوطانهم فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً لشرع الله الحنيف، فيبقى بين أظهرنا حتى أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وكلهم كانوا- وآخرون- لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، أما أنتم معاشر الأوروبيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد، واشترطتم على من أراد البقاء بينكم أن يتنصر، ولقد كان في أسبانيا ملايين وملايين من المسلمين، وكان في جنوب فرنسا وشمالي إيطاليا وجنوبها مئات الألوف منهم، ولبثوا في هذه الأراضي أعصراً مديدة، وما زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق في هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام، ولقد طفت بلاد أسبانيا كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم».

وفي إطار الحضارة الإسلامية، عاشت الأقليات ومارست عقيدتها وحريتها، بل شاركت في الممارسات الحضارية الإسلامية، وقد بلغ التسامح الإسلامي الديني في تجربة الحضارة الإسلامية في الأندلس مبلغاً عظيماً، ولدت أسماء مسيحية ويهودية في إطار الحضارة الإسلامية ولعل ابن ميمون الأندلسي خير شاهد على ذلك فبرغم كونه يهودياً يعيش في مجتمع مسلم، إلا أن ذلك لم يعفه من أن يصبح مفكراً أو فيلسوفاً بارزاً.

وفي الحقيقة فإنه إذا كانت الأقليات قد مارست حريتها في ظل الحضارة الإسلامية، وإذا كانت هذه الأقليات في الشرق بالذات وفي حالة أقباط مصر على وجه الخصوص قد اندمجوا في الحضارة الإسلامية وساهموا في صنعها وازدهارها، وأصبحوا بالتالي جزءاً منها بحيث إنهم أصبحوا ينتمون إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن وإن اختلفوا في الدين والعقيدة، فإن هذا يعني أن المشروع الحضاري الإسلامي يضم المسلمين ويضم مسيحي الشرق عموماً وأقباط مصر خصوصاً، وأن هؤلاء كالمسلمين سواء بسواء سوف يحملون قيم المشروع الحضاري الإسلامي إلى العالم أجمع.

خاتمة

كما حمل الرسول ﷺ الإسلام وقيمه الحضارية إلى المسلمين فأصبح بذلك شهيداً عليهم،فإن المسلمين مطالبون بحمل قيم المشروع الحضاري الإسلامي إلى العالم أجمع امتثالاً لأمر الله تعالى.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾. صدق الله العظيم.



مفاهيم إسلامية

(٧)



مشاكل المرأة المسلمة





﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

[سورة التوبة: ٧١]



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا الكتاب ليس دفاعًا عن المرأة المسلمة، أو عن حقوقها أو دورها في المجتمع الإسلامي، كما أنه ليس دفاعًا عن الإسلام وإظهار أنه دين أنصف المرأة أو أعطاها حقوقها، ولكنه دعوة للمرأة المسلمة سيدة كانت أم فتاة للاضطلاع بدورها الطبيعي والحتمي في النضال والجهاد من أجل استعادة السيادة الحضارية لأمتنا، لأننا اليوم في حالة هزيمة حضارية وبالتالي فإن استعادة هذه السيادة الحضارية يحتاج لجهد وجهاد ونضال كل مسلم رجلاً كان أم امرأة، نعم نحتاج لجهد الجميع من أجل الإقلاع الحضاري وكسر منحنى الهبوط والتصدي لكافة التحديات الداخلية والخارجية التي تواجه أمتنا.

إن أمتنا اليوم تعيش في حالة هزيمة حضارية وتخلف على مستوى ضياع الكثير من أراضي المسلمين، واستهداف بلادهم للاستعمار والتجزئة والاستبداد، ونهب ثرواتهم، واختراقهم سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا وإعلاميًا وثقافيًا وبالتالي فإن كل مسلم رجلاً كان أم امرأة مطالب بالاضطلاع بواجبه للخروج من هذه الحالة والانتصار على التحديات وتجاوزها.

ومن المفروض أن أقول مثلاً : إن المرأة المسلمة مطالبة بالجهاد والنضال والمشاركة في معارك الأمة بشرط أن يكون ذلك في إطار الضوابط الشرعية، ولكنني أضيف هنا أن تلك الضوابط الشرعية ليست مطلوبة في حالة المرأة فقط ولكنها مطلوبة في حالة المرأة والرجل وفي كل موضوع وفي كل قضية.

إن عملية النهوض الإسلامي التي نحن بصددها تتعرض لكثير من التشويش

والتطويق والتزييف في محاولة لوأدها أو تطويقها، وهؤلاء الذين يريدون القضاء على النهوض الإسلامي من الأعداء في الداخل والخارج لم ولن يتركوا قضية إلا وأثاروا حولها الشبهات، وكلما كثرت أراجيفهم وشبهاتهم في قضية أدركنا أهميتها وخطورتها، لأنه لولا تلك الأهمية والخطورة لما اهتموا بها، فهم مثلاً يثيرون الشبهات حول قضية الجهاد لأنه الطريق الطبيعي والوحيد أمام أمتنا لانتزاع حقوقها واستعادة مكانتها الحضارية وتجاوز التحديات، وهم يثيرون الشبهات حول قضية المرأة في الإسلام، لأنهم يدركون أن المرأة المسلمة حين تشارك في الجهاد والنضال الإسلامي العام سوف تكون عاملاً مهمًا في ترجيح كفة الإسلام على أعدائه في الداخل والخارج وبالتالي تشكل خطرًا هائلاً على المشروع الاستعماري المعادي للأمة، ورصيدًا ضخمًا للمشروع الإسلامي الذي يستهدف إنهاض الأمة وتجاوز تحدياتها واستعادة سيادتها الحضارية.

وفي هذا الصدد فإننا بإزاء تيار رئيسي في الأمة الإسلامية المعاصرة يستلهم موقفه الأصيل من الإسلام من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وكافة مصادر ووسائل التشريع الصحيحة والمعمول بها، وهذا التيار يعرف للمرأة حقوقها ويدفعها إلى المشاركة الواسعة في معارك الأمة في كل مجال، وعلى جانبي هذا التيار الرئيسي هناك تياران هامشيان؛ أحدهما يتمثل في تيار متزمت انفرادي يخلط بين ما هو شريعة وما هو تقاليد أو عادات ويريد إخضاع المرأة المسلمة لحالة من العزلة وحبسها في التقاليد بحسبانها من الإسلام، والثاني يتمثل في تيار تغريبي مرتبط بالاستعمار يريد أن يحول المرأة إلى سلعة تجارية ويجردها من إنسانيتها ويدفعها في طريق الانحلال والتغريب ومعاداة ثقافتها ودينها، ويزعم هذا التيار أنه يريد تحرير المرأة في حين أنه يريد تبعية المرأة والرجل والمجتمع بأسره للاستعمار والخضوع له.

ومن العجيب أن لهذا التيار الذي يزعم تحرير المرأة، موقفًا مشينًا من تحرر المجتمع كله من الاستعمار والتبعية، بل إن كل رموز هذا التيار بلا استثناء معروفون بعمالتهم للاستعمار والدعوة للخضوع له بدءًا من قاسم أمين وانتهاء بلويس عوض ونوال السعداوي، والأكثر عجبًا أن هذا التيار يرفع المومسات والمشبوهات والبغايا اللائي تهتكن مع جنود الاحتلال فيجعل منهن رموزًا لتحرير المرأة، ولا ندري كيف يكون تحرير المرأة من خلال الدعارة مع جنود الاحتلال أو الدعوة للخضوع لثقافة المحتل وعسكره.

إن الرموز الحقيقية لتحرر المرأة هن اللاتي خُضْنَ المعارك من أجل استقلال بلادهن والدفاع عن الأرض والثقافة والهوية من أمثال لالا فاطمة التي قادت انتفاضًا مسلحًا ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر في أوائل الاحتلال الفرنسي للجزائر، أو شهيدات ثورة التحرير الجزائري ١٩٥٤ – ١٩٦٢ أمثال الشهيدة فضيلة سعدان أو أم محمد أو زوجة الملازم سيد الأخضر أو تلك المرأة الفلسطينية التي تشارك في الانتفاضة، أو عواطف عليان وهي شابة فلسطينية تنتمي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، وكانت قد استعدت لقيادة شاحنة ملغومة لنسف مجلس الوزراء الفلسطيني سنة ١٩٨٨ لولا أن اكتشفت هذه العملية، أو تلك المرأة الإيرانية التي شاركت في الجهاد ضد الشاه أو تطوعت للقتال في صفوف جيش الثورة، أو المرأة السودانية التي تخرج في المظاهرات أو تمارس الجهاد ضد التمرد في الجنوب أو المرأة الأفغانية التي شاركت في تحرير بلادها من الاستعمار الروسي أو المرأة المصرية التي شاركت في الكفاح المسلح ضد الحملة الفرنسية أو شاركت في ثورة ١٩١٩ أو تلك التي دخلت السجن دفاعًا عن عقيدتها مثل زينب الغزالي أو حميدة قطب أو تلك التي وقفت بجانب ابنها وافتخرت به بل وحققت أقصى

استثمار سياسي قام به ابنها وهي أم خالد الإسلامبولي التي لولا موقفها في التضامن مع ابنها والافتخار به أثناء المحاكمة أو بعد إعدامه لضاع الأثر السياسي لحادث المنصة.

وفي الحقيقة فإن جهدنا الرئيس في هذا الكتاب سينصب على المواقف الجهادية والنضالية للمرأة المسلمة في مصر على أساس أنه من المفروض أن يقوم بإجلاء دور المرأة المسلمة في البلدان الأخرى عناصر من تلك البلاد أو على صلة مباشرة بتاريخها وحاضرها وعلى علم ودراسة بأبعاد تلك المشاركة، وهي مشاركة كبيرة وخاصة في بلدان مثل لبنان وفلسطين وأفغانستان والجزائر وإيران وغيرها.

والحديث عن الدور الجهادي والنضالي للمرأة المسلمة في مصر في العصر الحديث ما هو إلا امتداد لجهاد ونضال المرأة المسلمة في فجر الإسلام، من المعروف أن أول من أسلم كانت امرأة هي السيدة خديجة، وأول من استشهد في الإسلام كانت امرأة هي السيدة سمية أم عمار بن ياسر رضي الله عنهم جميعًا، وكذلك هناك النساء المسلمات في عصر النبوة ممن شاركن في القتال مثل أم عمارة أو من تصدى للنضال السياسي مثل أسماء بنت أبي بكر وغيرهن، وعلينا أن ندرك أن الشريعة الإسلامية لا تمنع المرأة المسلمة من الجهاد والنضال في كل الأحوال وتجعل هذا الجهاد والنضال فريضة في بعض الأحوال.

على أي حال فإن للدكتور حسن الترابي رأيًا في غاية الأهمية بصدد اضطلاع الإسلاميين بدورهم الطبيعي في تحرير المرأة المسلمة، يقول حسن الترابي في كتابه الهام «المرأة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع ص ٤٨ إن الثورة على الأوضاع النسوية التقليدية آتية لا محالة، ولئن كان للإسلاميين داع من دينهم لإصلاح القديم ولطي البعد القائم بين مقتضي الدين الأمثل في شأن المرأة وواقع المسلمين الحاضر

فإن اتجاهات التحول في ذلك الحاضر تدعو بوجه ملح إلى المبادرة والتعجيل في الإصلاح الإسلامي قبل أن ينفلت الأمر وتتفاقم الاتجاهات الجاهلية الحديثة وليحذر الإسلاميون من أن يوقعهم الفزع من الغزو الحضاري الغربي والتفسخ الجنسي المقتحم في خطأ المحاولة لحفظ القديم وترميمه بحسبانه أخف ضررًا أو شرًا، لأن المحافظة كما قدمنا جهد يائس لا يجدي والأوفق بالإسلاميين أن يقودوا هم النهضة بالمرأة من وحل الأوضاع التقليدية لئلا يتركوا المجتمع نهبًا لكل داعية غربي النزعة يصل به عن سواء السبيل، ومستظهرًا بتبرم الناس من جنوح أوضاع المرأة وباتجاهات الحياة الحديثة، ذلك فضلاً عن أن الدين يقتضيهم ابتداء أن يكونوا أئمة هدي ينقذون الناس من كل ضلال قديم ألفوا عليهم آباءهم الأولين ويعدلون بهم عن كل بدعة محدثة».

د.محمد مورو

الفصل الأول

المرأة في التطور الإسلامي



«المرأة في الدين كائن إنساني قائم بذاته، فهي موضع للتكليف موجه إليها الخطاب بالدين مباشرة لا يتوسط إليها بولي من الرجال، وتحق عليها المسؤولية متى استوت عندها أهلية الرشد وبلغتها كلمة التذكير، ولا تصدق من المرأة استجابة لدعوة الله إلا إذا كانت أصيلة مستقلة، فالدخول في دين الله عمل عيني لا تصح فيه الوكالة ولا يؤخذ بالإضافة إلى أب أو زوج أو قريب»[١].

«والشريعة الإسلامية باعتبارها تعبيرًا عمليًا عن مقتضى العقيدة تجعل النساء شقائق الرجال ولا يتميز من دونهم بشريعة خاصة إلا أحكامًا فرعية محدودة ميزت بين الرجل والمرأة لتمكين كل منهما من التعبير الأصيل عن تدينه انطلاقًا من طبيعته البشرية، لكن الأصل هو اتحاد الشريعة وعموم الخطاب ولا يثبت تخصيص أو تمييز إلا بدليل، فعلى المرأة مثل الذي على الرجل من تكليف عيني في الشعائر الشخصية أو المسنونة «الذكر والصلاة والصيام والحج ...» وفي الأخلاق والمعاملات «الصدق والعدل والبر والإحسان والتقوى والأدب ...» وفي الحياة العامة «الصبر والهجرة إزاء الكافرين والموالاة والطاعة إزاء جماعة المؤمنين»[٢].

«وعلى المرأة نصيبها من التكليف الكفائي الذي يحرس الكيان العام للدين كما أنه يتصدى للوفاء بواجباتها وعليها الوزر إذا عطله سائر المسلمين، وقد خفف الله عنها أمر الوجوب الأولى في بعض الشؤون العامة، كالنفقة على الأسرة وإقامة صلاة الجماعة والنفير إلى القتال، كما عليها أن لا تفعل شيئًا من ذلك إذا كفاها الرجل، ولكن لها أن تشارك في كل ذلك ولو توافر الرجال وعليها ذلك وجوبًا إذا لم يف الرجال، وليس لأحد أن يسد في وجهها أبواب العمل الصالح في الحياة العامة»[٣].

---

(١) د. حسن الترابي – المرأة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع – الدار السعودية للنشر والتوزيع – ١٩٨٤.
(٢) د. حسن الترابي – المرجع السابق.
(٣) د. حسن الترابي – المرجع سابق.

المرأة المسلمة في حياة الرسول ﷺ

ووفقًا لذلك فإن المرأة المسلمة في حياة الرسول ﷺ قد بايعت الرسول بنفسه كما فعل الرجل، كما أنها أسلمت قبل الرجال فأول من أسلم من الرجال والنساء جميعًا هي السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، بل أسلمت برغم كفر أخيها أو زوجها أو أبيها ففاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها قد أسلمت قبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بل كانت هي السبب في إسلامه، والسيدة أم حبيبة أسلمت قبل أبيها أبي سفيان بفترة طويلة جدًا، وزينب بنت الرسول ﷺ أسلمت قبل زوجها وكذلك أم سليم بن ملحان وأم هانئ بنت أبي طالب، كما أسلمت المرأة دون أهلها وهاجرت مثل أم كلثوم بنت عقبة، أو أسلمت رغم أنف سيدها لو كانت مولاة مثل حارثة بنت الموثل، بل وتعرضت للتعذيب بسبب ذلك، وكذلك سمية بنت خياط والدة عمار بن ياسر رضي الله عنهم أجمعين، وقد كانت سمية أول شهيدة في الإسلام، بل ثبتت المرأة على إسلامها برغم ردة زوجها مثل أم حبيبة بنت أبي سفيان [1] أثناء هجرته إلى الحبشة وقد تزوجها الرسول ﷺ بعد ذلك.



(١) راجع تاريخ الطبري – طبقات ابن سعد، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر.

استقلال المرأة في أمور العقيدة والتكليف

وكل ذلك يدل على استقلال المرأة في أمور العقيدة والتكليف بلا ارتباط مع أب أو زوج أو أخ أو عشيرة، فهي كائن مستقل بذاته، وهي موضع للتكليف موجه إليها الخطاب بالدين ومسؤولة أمام الله تعالى.

يقول الأستاذ عبد الحليم أبو شقة [1] : «الأصل في خطاب الشارع قرآن وسنة أنه موجه للرجال والنساء سواء بدءًا من تقرير الكرامة الإنسانية إلى تقرير المسؤولية الجنائية، على أن هناك فوارق محدودة قررها الشارع من الأصل، وأنه لخطأ فادح وعدوان على شرع الله أن يضيع هذا الأصل».

ويقول الإمام ابن رشد : «الأصل أن حكمهما – أي الرجل والمرأة – واحد إلى أن يثبت في ذلك فارق شرعي».

ومن حيث الأصل، فإن الخطاب القرآني الموجه للمؤمنين، أو للناس أو للمسلمين، أو غيرهم موجه للرجال والنساء معًا، وهناك حالات يذكر فيها النص القرآني النساء مع الرجال وذلك فضل من الله وتأكيد منه سبحانه على المساواة.

مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١] .

وقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ

(١) عبد الحليم أبو شقة – تحرير المرأة في عصر النبوة – الجزء الأول، دار القلم – الكويت – ١٩٩٠.

أُنْثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران:١٩٥] .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ . [النساء:١٢٤] .

وقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. [النحل:٩٧] .

وقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾. [غافر:٤٠] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ والصَّائِمِينَ والصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . [الأحزاب:٣٥] .

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .[الممتحنة:١٢] .

وهكذا فإنه يتعين على المرأة من عملها الثواب والعقاب لا شفاعة فيه لرجل ولا حوالة عليه، فليست الأسرة وحدة حساب أو عقاب بل وحدة الحساب هي الفرد رجلاً وامرأة، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٥] ، ولا يغني الزوج عن

زوجته ولا يغني مؤمن عن مؤمنة باعتبار الذكورة والأنوثة وإنما البشر سواسية في حساب الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس:٣٥-٣٨] ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحريم:١٠]، ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم:١١، ١٢].

وقد قرر القرآن مسؤولية المرأة الجنائية – فيما يدل على استقلالها – لقوله تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٨].

وقد فرض الله تعالى على المرأة المسلمة الهجرة – مثل الرجل تمامًا – لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ... ﴾ [الممتحنة:١٠].

وقد جعل الله تعالى للمرأة حق الوراثة والشهادة وفقًا لقواعد الشرع في ذلك، كما فرض الله عليهن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لقوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٧١].

والقرآن الكريم سجل الكثير من المواقف الخالدة لعدد من النساء بحيث تثبت هذه المواقف مدى ما تتمتع به المرأة من قوة إيمان أو شجاعة أو ذكاء أو غيرها، فأم موسى عليه السلام تمتثل لأمر الله تعالى وتلقي بابنها في البحر، وأخت موسى تظهر ذكاءها وحسن حيلتها، وفتاة مدين تثبت قوة فراستها وحسن حديثها، وامرأة فرعون تضرب المثل في الإيمان وامرأة عمران تنذر ما في بطنها الله تعالى، وخولة بنت ثعلبة تجادل رسول الله ﷺ فيسجل القرآن جدالها، وغيرهن كثيرات.



مكانة المرأة: في السنة النبوية

وفي السنة النبوية المطهرة نجد الكثير من المواقف والأقوال التي تؤكد على استقلال المرأة ومشاركتها في كافة أعمال المجتمع الإسلامي، ولعل عناوين الأبواب في صحيح البخاري[1]، في حد ذاتها ما يؤكد هذه الحقيقة فهناك مثلاً

في كتاب العلم:

- باب عظة الإمام للنساء وتعليمهن.
- باب هل يجعل للنساء يومًا على حدة في العلم.

وفي كتاب الصلاة:

- باب نوم المرأة في المسجد.
- باب خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس.
- باب صلاة النساء خلف الرجال.
- باب سرعة انصراف النساء من الصبح.
- باب استئذان المرأة زوجها بالخروج إلى المسجد.

وفي كتاب العيدين:

- باب خروج النساء والحيض إلى المصلى.
- باب موعظة الإمام النساء يوم العيد.
- باب إذا لم يكن لهن جلباب يوم العيد.

(١) نقلاً عن عبد الحليم أبو شقة – مرجع سابق.

- باب اعتزال الحيض المصلي.

وفي كتاب الجمعة:

- باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم.

أبواب الكسوف:

- باب صلاة النساء مع الرجال في الكسوف.
- أبواب العمل في الصلاة:
- باب التصفيق للنساء.

كتاب الجنائز:

- باب قول الرجل للمرأة عند القبر: اصبري.
- باب اتباع النساء الجنائز.

كتاب الحج:

- باب طواف النساء مع الرجال.
- باب حج المرأة عن الرجل.

كتاب صلاة التراويح:

- باب اعتكاف النساء.
- باب اعتكاف المستحاضة.
- باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه.

كتاب البيوع:

- باب الشراء والبيع مع النساء.

كتاب الشهادات:

- باب شهادة النساء.
- باب شهادة المرضعة.
- باب تعديل النساء بعضهن بعضًا.

كتاب الجهاد:

- باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء.
- باب جهاد النساء.
- باب غزو المرأة في البحر.
- باب حمل الرجل امرأته في الغزو دون بعض نسائه.
- باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال.
- باب حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو.
- باب مداواة النساء الجرحى.
- باب رد النساء الجرحى والقتلى.
- باب إرادف المرأة خلف أخيها.
- باب دواء الجرح بإحراق الحصير وغسل المرأة عن أبيها الدم عن وجهه.

كتاب فرض الخمس:

- باب أمان النساء وجوارهن.

كتاب التفسير:

- باب ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾.
- باب ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾.

كتاب النكاح:

- باب قول الرجل لأخيه انظر أي زوجتي شئت.
- باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح.
- باب الدعاء للنسوة اللائي يهدين العروس وللعروس.
- باب النسوة يهدين المرأة إلى زوجها.
- باب ذهاب النساء والصبيان إلى العرس.
- باب قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس.
- باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المغيبة.
- باب ما يجوز أن يخلو الرجل بالمرأة عند الناس.
- باب نظر المرأة إلى الحبش ونحوهم من غير ريبة.
- باب خروج النساء لحوائجهن.

كتاب الطلاق:

- باب إذا قال لامرأته وهو كاره هذه أختي فلا شيء عليه.
- باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة.
- باب الظهار وقوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾.
- باب التلاعن في المسجد.
- باب قول الإمام المتلاعنين «إن أحدكما كاذب فهل منكما من تائب؟».

كتاب المرضى:

- باب عيادة النساء للرجال.

كتاب الطب:

- باب هل يداوي الرجلُ المرأةَ، والمرأةُ الرجلَ.
- باب المرأة ترقي الرجل.

كتاب الأدب:

- باب الساعي على الأرملة.

كتاب الاستئذان:

- باب تسليم الرجال على النساء، والنساء على الرجال.

كتاب الحدود:

- باب الرجم بالمصلي.
- باب رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت.
- باب البكران يجلدان وينفيان.

كتاب الديات:

- باب قتل الرجل بالمرأة.
- باب القصاص بين الرجال والنساء في الجراحات.

كتاب الأحكام:

- باب من قضى ولاعن في المسجد.
- باب بيعة النساء.

كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة:

- باب تعليم النبي ﷺ أمته من الرجال والنساء مما علمه الله ليس برأي ولا تمثيل.

المرأة المسلمة في عصر الرسالة

وإذا أخذنا في صدد المرأة ما جاء في القرآن والسنة النبوية المطهرة وكافة اجتهادات العلماء ووفقًا للأستاذ عبد الحليم أبو شقة في كتابه الفذ «تحرير المرأة في عصر الرسالة» نجد أن المرأة في الإسلام كائن إنساني مستقل ومكلف، ولها ذمة مالية مستقلة، وهي تحظى بكل تكريم واحترام، بل هي تهاجر بنفسها ولها الحق في المشاركة في الجهاد بالسيف أو من خلال التمريض والمداواة وسقي المقاتلين أو تزويده بالماء والطعام، وهي ترث وتشهد في القضاء، ولها الحق في طلب العلم وعمل المعروف بل هي مأمورة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله وهي تشارك في العمل المهني والسياسي وتحضر الاحتفالات وتشاهد الترويح الطاهر بل وتشهد المباهلة، وهي تُعلم الرجال والنساء على السواء وتشهد صلاة الجمعة والعيدين بل وأي صلاة حتى ولو كانت العشاء أو الفجر، وتحضر الاجتماعات السياسية في المسجد وتناقش الرسول والصحابة بل وترد أحيانًا أقوال وأعمال بعض الصحابة ولها الحق في تحية الرجال أو تلقي التحية من الرجال وتحضر الولائم مع رسول الله ﷺ وأصحابه وتختلط عمومًا بالرجال في إطار الآداب العامة وتعمل خارج البيت لمصلحة الأسرة وتحرص على استفتاء الرسول بنفسها كلما عرض أمر لها حتى تتبين حكم الشرع وهي أيضًا تسأل الرجال وتحاور الرجال في أمور العلم وهي تنقل وتروي الأحاديث عن رسول الله ﷺ، بل يتحاكم إليها الرجال عن اختلافهم، وتفتح بيتها للضيوف من أصحاب الرسول ﷺ بل وهي موضع استشارة الرسول والصحابة وهي تعمل في الزراعة أو الرعي أو الصناعات

المنزلية والتمريض والمداواة أو غيرها من الأعمال المهنية، وهي تعرض نفسها على المسلمين للزواج، ولها الحق في قبول أو رفض أي زوج يتقدم لها، وهي تبايع الرسول ﷺ بنفسها وتهاجر إلى الحبشة أو المدينة وحدها أو مع زوجها وتسلم حتى لو كان زوجها أو ابنها أو أخوها كافرًا، وهي تواجه طغيان الولاة وهي بالطبع تصلي وتصوم وتزكي وتتصدق وتحج وهي تشارك في حفلات الاستقبال مثل احتفال أهل المدينة لاستقبال الرسول يوم الهجرة إلى المدينة، وتشارك في حفلات الزفاف وولائم الأعراس والاحتفال بالعيدين وهي تلعب وتغني اللعب والغناء البريء وهي تلقي بالرجل في الكثير من الأحوال عند الزيارة وعند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعند بذل المودة وحسن الرعاية وعند التكريم والثناء وعند طلب الدعاء والبركة وخلال الضيافة وعند تبادل الهدايا بين الرجال والنساء وعيادة المرضى وعند المشاركة في السكنى وعند اللقاء على الطعام والشراب وخلال السفر وخلال أحوال الموت كالتأبين والدعاء والمواساة والصلاة على الجنازة، أو عند مراجع أولى الأمر أو عند مراجعة أولى الأمر أو عند الشفاعة أو الشهادة والتقاضي وتنفيذ العقوبة أو عند المباهلة أو تسمع الأخبار السارة واستعادتها أو عند التبسيط والمؤانسة أو غيرها مما أحصاه الأستاذ أبو شقة في كتابه الفذ «تحرير المرأة في عصر الرسالة» وكل ذلك طبعًا في إطار الآداب الإسلامية والضوابط الشرعية، والآداب والضوابط الشرعية لازمة لكل أمور المسلمين وليست خاصة بالمرأة وحدها.

***

وفي صحيح البخاري حديث هام لرسول الله ﷺ يقول: عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران**».

وبعيدًا عن كل التفسيرات والتأويلات الخاصة بهذا الحديث فإن معنى اكتمال إنسانية شخصيتين نسائيتين أن هذا الكمال الإنساني مفتوح للمرأة مثل الرجل تمامًا، بل هذا الحديث دعوة لكل امرأة مسلمة لبلوغ أو محاولة بلوغ هذا الكمال الإنساني.

***

ومن هدي الرسول ﷺ مع النساء، أن ميمونة أم المؤمنين (زوجة الرسول) تعتق جاريتها دون علم الرسول ﷺ بذلك. ولم ينكر عليها الرسول ذلك، وإنه ﷺ كان يقبل الهدية من النساء باسمهن لا باسم أزواجهن مثل هدية أم سليم بنت ملحان التي أهدت الرسول ﷺ يوم عروسه وذلك باسمها لا باسم زوجها وأنه ﷺ كان يساعد أهله في أعمال المنزل ويصحبهن في أسفاره ويستقبلهن في معتكفه ويأبى إجابة دعوة الطعام حتى تصحبه زوجته، وإن كان مهد لزوجه موضعًا لينًا لركوبها ويضع ركبته فتصعد عليها، ويعرض على زوجته النظر إلى لعب الأحباش ويقف معها حتى تنصرف هي، وإنه كان يقوم مرحبًا بابنته ويقبلها ويجلسها عن يمينه، ومع نساء المؤمنين كان ﷺ يسمع بكاء الصبي في المسجد فيتجوز في صلاته رفقًا بأمه، وأنه يمكث قليلاً بعد الصلاة ومعه الرجال حتى تنصرف النساء أولاً، وكان يأمر بإخراج العواتق والحيض ليشاركن في الاحتفال بالعيد، وإنه كان يخص النساء بنظر يوم العيد وإنه كان يقوم طويلاً لنساء من الأنصار ويعلن حبه لجماعتهن وأنه كان يسمع الحداد فيوصي أن يخفف رفقًا بالنساء، وأنه يشفق على امرأة تحمل النوى فينيخ راحلته ليحملها خلفه، وأنه أذن لعثمان في التخلف عن غزوة بدر ليرعى زوجته المريضة ويأمر رجلاً أن يدع الخروج للجهاد ليصحب زوجه في رحلة الحج ويأسف يوم دفنت امرأة دون إعلان ويخرج مع بعض صحبه ليصلي عليها[1] حتى

(١) عبد الحليم أبو شقة – مرجع سابق.

مع غير المسلمات فإنه ﷺ يغض الطرف عن سخرية امرأة ويتحرى حال امرأتين فزعتين ويكافئ امرأة بعد تسخيرها في مصلحة المسلمين، ويقبل هدية امرأة ثم يسامحها رغم دس السُّمِّ في الطعام، وينهي عن قتل النساء في العراء ويغض النظر عن سباب امرأة ويدعو لها بالهداية[1].

وإذ استعرضنا بعضًا من رؤوس الموضوعات التي تناولها الأستاذ عبد الحليم أبو شقة في موسوعته تحت عنوان «تحرير المرأة في عصر الرسالة – دراسة جامعة لنصوص القرآن الكريم وصحيحي البخاري ومسلم» نجد أنها اشتملت على «الرجل والمرأة من أصل واحد – مسؤولية المرأة الإنسانية – تحريرها من مظالم الجاهلية – تأكيد شخصيتها – مكانتها في الأسرة – مشاركتها الرجال في وجوب الهجرة من أرض الكفر – مشاركتها الرجال في الهجرة إلى المدينة – مشاركتها الرجال في مبايعة رسول الله ﷺ – مشاركته الرجال في الموالاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – مشاركتها الرجال في الشدائد – مشاركتها الرجال في المباهلة – مسؤوليته الجنائية – أهليتها للشهادة – مشاركتها في الحياة الاجتماعية ولقاؤها الرجال – المرأة تتلقى مع الرجل دعوة الله منذ اليوم الأول – المرأة تسبق قومها وزوجها إلى الإيمان بالدين الجديد – حقها في التربية والتعليم لتقوم بمسؤوليتها بكفاية – مشاركتها في رواية السنة – مشاركتها في العبادات الجماعية – مشاركتها في الاحتفالات العامة – مشاركتها في خدمة المجتمع بالنشاط الاجتماعي المتنوع مشاركتها في قوات الجيش في أعمال تناسب طبيعتها – مشاركتها في العمل المهني بما يتوافق مع مسؤوليتها الأسرية – تكريم الله تعالى لها – تكريم رسول الله ﷺ لها – الإسلام يحض على جميل رعايتها – مشروعية ذلك اسم المرأة وأوصافها وأخبارها

(١) عبد الحليم أبو شقة – مرجع سابق.

في حدود الآداب الشرعية – بذل المرأة النفس في سبيل الله – الطموح بالكمال – الإقبال على العبادة – الصدقة والبذل – بر الوالدين في حياتها وبعد مماته – حسن التوكل على الله – الصبر على المصيبة – الاستمساك بالعفو – سرعة الاعتراف بالذنب – الحرص على التطهر بالرجم – النساء يطالبن الرسول ﷺ بمزيد من فرص التعليم – أسماء بنت شكل تغالب الحياء لتتفقه في الدين – سبيعة بنت الحارث تعرف كيف تتحرى لتصل إلى اليقين – المرأة الخفية وهي شابة يشغلها حكم الحج عن أبيها – المرأة تتمسك بحقها في اختيار الزوج – المرأة تتمسك بحقها في مفارقة الزوج – عاتكة بنت زيد زوج عمر بن الخطاب تتمسك بحقها في شهود الجماعة – المرأة تمارس بعض الحرف لكسب المال وتتصدق – النساء يلبين الدعوة إلى الاجتماع العام في المسجد – أم كلثوم بنت عقبة تفارق أهلها جميعًا وتهاجر فرارًا بدينها – أم حرام تطلب الشهادة مع غزاة البحر – أم هانئ تجير محاربًا وتشكو أخاها المعترض – هند بنت عتبة تحيي رسول الله ﷺ إثر إسلامها – أم أيمن يشغلها ويحزنها انقطاع الوحي بموت رسول الله ﷺ - زينب بنت المهاجر تحاور أبا بكر الصديق – حفصة بنت عمر تستدرك على عبد الله بن عمر – أم يعقوب تحاور عبد الله بن مسعود – أم الدرداء تنكر على الخليفة عبد الله بن مروان».

وغيره من الموضوعات التي جاءت في تلك الموسوعة العظيمة، والتي تؤكد كلها على مدى ما تمتعت به المرأة المسلمة من حقوق في صدر الإسلام ومدى مشاركتها في الحياة العامة للمجتمع الإسلامي.



الفصل الثاني

المشاركة السياسية للمرأة المسلمة في صدر الإسلام وجهادها في سبيل الله



لعبت المرأة المسلمة دورًا أساسيًا وجهاديًا كبيرًا في صدر الإسلام، وذلك لأن الإسلام قد حرر المرأة وفتح لها الباب واسعًا بل أوجب عليها المشاركة في بعض الأمور السياسية وترك لها البعض الآخر اختياريًا، ولا شك أن هذا المبدأ الذي ثبت من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ووقائع صدر الإسلام يؤكد على ضرورة مشاركة المرأة في الجهاد السياسي والاجتماعي بل والعسكري في كل عصر وفقًا لحاجات وظروف العصر. ولا شك أننا الآن أحوج ما نكون إلى هذه المشاركة من المرأة المسلمة لأن أمة الإسلام تواجه حاليًا تحديات ضخمة تحتاج لجهود المرأة والرجل معًا.

ولقد ساهمت المرأة المسلمة في صدر الإسلام بجهد هائل في الدعوة إلى الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمشاركة في القتال بكافة الوسائل والهجرة وتحمل الأذى والتعذيب وغيرها من أشكال المشاركة السياسية.

فأول من استجاب إلى دعوة الإسلام امرأة وهي السيدة خديجة بن خويلد، وكان لاستجابتها وتصديقها أثر هائل في تثبيت قلب الرسول ﷺ مما ساهم في نجاح الدعوة، وكذلك ساهمت السيدة خديجة بأموالها ونفوذها وسمعتها الطيبة في الترويج لهذا الدين الجديد، وقال قولتها الخالدة لرسول الله ﷺ عندما أخبرها بنزول الوحي إليه وتكليفه بالرسالة قالت: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ، وتُكسِب المعدوم، وتقري الضيف.. إلخ»[1].

وكانت المرأة في بعض الأحيان أسبق إلى الإيمان من أبيها مثل أم حبيبة بنت أبي سفيان التي أسلمت وهاجرت إلى الحبشة ثم إلى المدينة ولم يزل أبوها أبو سفيان مشركًا[2].

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) أسلم أبو سفيان عام الفتح.

أو أسبق من أخيها مثل فاطمة بنت الخطاب التي أسلمت قبل عمر بن الخطاب بل كانت سببًا في إسلامه[1].

أو تسبق زوجها إلى الإسلام مثل أم سليم، ومثل حواء بنت يزيد الأنصارية وغيرهما[2].

والمرأة المسلمة تثبت على الإسلام رغم ردة زوجها، فها هي أم حبيبة بنت أبي سفيان التي أسلمت مع زوجها الأول عبيد الله بن جحش وهاجرت معه إلى الحبشة، فلما ارتد زوجها أثناء الهجرة في الحبشة ثبتت هي على الإسلام ثم هاجرت إلى المدينة وتزوجها الرسول ﷺ بعد ذلك[3]، والمرأة المسلمة تسبق مواليها إلى الإسلام رغم ما في ذلك من خطر تهديدها من هؤلاء الأسياد مثل حمامة وأم عبيس والنهدية وابنتها وزنيرة وجارية بني عدي وغيرهن[4].

بل وتسبق أهلها جميعًا إلى الإسلام مثل أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط[5] وقد أسلمت بعد صلح الحديبية فجاء أهلها يسألون الرسول ﷺ أن يردها إليهم فلم يقبل ذلك.

***

وقد تعرضت المرأة المسلمة للتعذيب والإيذاء النفسي والبدني بسبب إسلامها ولكنها تمسكت بالإسلام وصبرت على الأذى، فها هي السيدة سمية بنت خياط أم

(١) فتح الباري.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد.

(٤) البخاري – كتاب المناقب – باب إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد.

عمار بن ياسر تصبر عند التعذيب وتصر على الإيمان إلى أن يضيق بها معذبها وهو أبو جهل فيضربها بحربة فتكون أول شهيدة في الإسلام، وهاهي فاطمة بنت الخطاب يضربها أخوها عمر بن الخطاب عندما يعلم إسلامها فتصبر وتواجهه بالحق فيذعن لها ويُسلم ويكون هذا سببًا في إسلامه.

ومن النساء اللاتي تعرضن للتعذيب بسبب إسلامهن أم حمامة وأم عبيس، وزنيرة، والنهدية وابنتها، وجارية بنت بني عدي وكان عمر بن الخطاب يعذبها على الإسلام قبل أن يسلم[(١)].

***

وهاجرت المرأة فرارًا بدينها مثل أم حبيبة وأم سلمة وأسماء بنت عميس وأم خالد ابن سعيد بن العاص، ورقية بنت النبي ﷺ وسهلة بنت سهل امرأة أبي حذيفة وليلى بنت أبي حثمة امرأة عامر بن ربيعة وغيرهن[(٢)]، كما هاجرت الكثيرات إلى المدينة قبل هجرة الرسول أو بعدها إلى المدينة ومنهن من هاجرت مع صحبة من الرجال أو النساء ومنهن من هاجرت وحيدة مثل أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ووليدة وغيرهما[(٣)].

***

وقامت المرأة المسلمة بدورها في الدعوة إلى دين الله فها هي أم شريك القرشية تسلم وتدعو قومها إلى الإسلام، والمسلمون يومئذ قلة مستضعفة، وكانت تدخل على نساء قريش وتدعوهن وتُرغِّبهن في الإسلام[(٤)]، وها هي أم سليم امرأة أبي

(١) ابن عبد البر، كتاب الدرر في المغازي والسير.

(٢) فتح الباري.

(٣) البخاري- باب توبة المرأة في المسجد .

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني.

طلحة عندما جاء أبو طلحة ليخطبها فدعته إلى الإسلام وسفهت له الشرك وجعلت مهرها إسلامه فأسلم وتزوجها وكان ذلك مهرها، قال ثابت البناني : « إني ما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أم سليم»[1].

وعن عمران بن حصين: «أنهم كانوا مع النبي ﷺ في مسير.. وقد عطشنا عطشًا شديدًا، وبينما نحن نسير إذا بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين فقلنا لها: أين الماء؟ فقالت: إيه لا ماء. فقلنا: كم بين أهلك وبين الماء؟ قالت: يوم وليلة. قلنا: انطلقي إلى النبي ﷺ.. فأمر بمزاديتها.. فملأنا كل قربة معنا وأداوة غير إننا لم نسق بعيرًا وهي تكاد تبض من الملء ثم قال: هاتوا ما عندكم، فجمع لها من الكسر والتمر حتى أتت أهلها قالت: أتيت أسحر الناس أو هو نبي كما زعموا فهدى الله ذلك الصَّرم وتلك المرأة فأسلمت وأسلموا»[2].

***

وكانت النساء تبايعن رسول الله ﷺ باعتباره رسولاً وباعتباره إمامًا أي باعتباره مُبلغًا عن الله قائدًا لجماعة المسلمين ومما يؤكد وجود الاعتبار الثاني قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ وقوله ﷺ عن طاعة الأمير: «**إنما الطاعة في المعروف**»[3].

وقد شهدت النساء بيعة العقبة الثانية قال كعب بن مالك (.... فاجتمعنا عند العقبة ثلاثة وسبعين رجلاً ومعنا امرأتان أم عمارة بنت كعب إحدى نساء بني مازن، وأسماء بنت عمر بن عدى إحدى نساء بني سلمة) [4].

(١) صحيح النسائي – كتاب النكاح باب التزويج على الإسلام.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) عبد الحليم أبو شقة – مرجع سابق.

(٤) فتح الباري.

يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. [الممتحنة:١٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبو بكر وعثمان فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد. فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ حتى فرغ من الآية كلها ثم قال حين فرغ: أنتن على ذلك وقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله، لا يدري الحسن من هي، قال: فتصدقن وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال»(١).

***

وكانت المرأة المسلمة تجير على رسول الله ﷺ فلا يرد جوارها، مثل أم هانئ بنت أبي طالب التي أجارت ابن هبيرة فأراد علي بن أبي طالب أن يقتله، فذهبت أم هانئ إلى رسول الله ﷺ وقالت له ذلك، فقال رسول الله ﷺ: **«قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»**(٢).

***

والمرأة المسلمة تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، فهاهي أسماء بنت أبي بكر

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

ترحب بلقاء رجل فقير يطلب معروفًا وتسمح له بالبيع في ظل دارها، بل وتحتال مع الرجل على زوجها ليسمح له بذلك، عن أسماء قالت: جاءني رجل فقال: يا أم عبد الله إني رجل فقير أردت أن أبيع في ظل دارك، قالت: إني رخصت لك أبي ذلك الزبير، فتعال فاطلب إلى الزبير شاهدًا فجاء فقال: يا أم عبد الله إني رجل فقير أردت أن أبيع في ظل دارك، فقالت: ما لك بالمدينة إلا داري! فقال لها الزبير: ما لك أن تمنعي رجلاً فقيرًا يبيع؟! فكان يبيع إلى أن كسب..[(١)]، وها هي أم شريك الأنصارية تفتح بيتها للضيفان فينزل عليها المهاجرون من أصحاب رسول الله ﷺ وكأنه منتدى للخير[(٢)]، عن فاطمة بنت قيس قالت: «قال لي رسول الله ﷺ : انتقلي إلى أم شريك – وأم شريك امرأة غنية من الأنصار عظيمة النفقة في سبيل الله ينزل عليها الضيفان – فقلت: سأفعل، فقال: لا تفعلي إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان» وفي رواية : «بآيتها المهاجرون الأولون»[(٣)].

وفي إطار النهي عن المنكر فها هي أم الدرداء امرأة الصحابي الجليل أبي الدرداء تتصدى للخليفة عبد الملك بن مروان فتنهاه عن منكر صدر منه، وذلك عندما قام الخليفة عبد الملك بن مروان بلعن خادمه، فقالت له أم الدرداء: سمعتك الليلة لعنت خادمك حين دعوته، فقالت : سمعت أبا الدرداء يقول : قال رسول الله ﷺ: «**لا يكون اللعناء شفعاء ولا شهداء يوم القيامة**»[(٤)].

ولعل الآية القرآنية الكريمة قد أوجبت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الرجال والنساء على حد سواء لقوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ**

---

(١) رواه مسلم.

(٢) عبد الحليم أبو شقة – مرجع سابق.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم .

بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.[التوبة:٧١].

وها هي امرأة من المسلمين تأمر القوم بالمعروف عندما ترى أحد المسلمين يؤم المسلمين وهو يرتدي بردة قصيرة إذا سجد تقلصت فتطلب من المسلمين أن يغطوا عورة هذا القارئ وهو سلمة أبو عمر فيقوم المسلمون بشراء قميص له، ويقول عمر بن سلمة عن أبيه في هذا الصدد (... وكانت عليَّ بردة كنت إذا سجدت تقلصت عني فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنها است قارئكم؟ فاشتروا فقطعوا لي قميصًا فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص»[(١)].

وفي إطار معارضة الحاكم المسلم فالسيدة عائشة ﵂ تعارض الإمام عليا ﵁، وها هي السيدة أسماء بنت أبي بكر تواجه الحجاج بن يوسف الثقفي وتصفه بالمبير أي الكثير القتل قائلة له : «أما إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذابًا ومبيرًا، فأما الكذاب فرأيناه وأما المبير فلا أخالك إلا إياه»[(٢)].

وهي نفسها التي تشجع ابنها على المضي في المعارضة قائلة له «وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها».

ولعل من أهم الوقائع المشهورة في صدر الإسلام إنكار امرأة على عمر بن الخطاب وهو فوق المنبر أمام المسلمين جميعًا عندما دعاهم إلى تقليل المهور وقد أقر عمر برأيها قائلاً : «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

***

وفي إطار اهتمام المرأة المسلمة بأمور السياسة في صدر الإسلام فها هي زينب

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

بنت المهاجر يشغلها مستقبل الأمة الإسلامية وتتحدث مع أبي بكر في ذلك[١]، وتقول له : «ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية، قال: بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم، قالت: وما الأئمة، قال: أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعون، قالت:بلى، قال: فهم أولئك على الناس»[٢].

وها هي عائشة تتحرى أحوال أحد الأمراء. عن عبد الرحمن بن شماس قال: أتيت عائشة أسألها عن شيء فقالت: «من أنت: فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئًا إنه كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه والعبد فيعطيه العبد ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة.. »[٣].

***

وكانت المرأة في صدر الإسلام تشير على الرسول ﷺ وصحابته فها هي أم سلمة تشير على الرسول ﷺ يوم الحديبية مشورة عظيمة يكون فيها نجاة المسلمين، ذلك أن بعض المسلمين شعر بالضيق من شروط صلح الحديبية، فلما أبرمه الرسول ﷺ وجاء إلى المسلمين يطلب منهم أن يقوموا فينحروا ثم يحلقوا ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة: «يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة، حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك. نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق لبعض ...»[٤].

---

(١) عبد الحليم أبو شقة – مرجع سابق.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

وقد حفظت لنا كتب السيرة أخبار أم سلمة تشير على رسول الله ﷺ يوم حنين، وحفصة تشير على أخيها عبد الله بعد طعن عمر بن الخطاب، وكذلك حفصة تشير على أخيها عبد الله يوم التحكيم بين علي ومعاوية فقد أشارت عليه بحضور التحكيم والصلح ففعل.

***

وشاركت المرأة في رواية الأحاديث النبوية الخاصة بالهدي النبوي في مجال السياسة مثل أم سلمة وعائشة وأم الحصين[1].

وكانت المرأة المسلمة من قوة الشخصية والثقة بالنفس وبالدين، وكذلك كان المجتمع الإسلامي بالنسبة لها يحفظ لها مكانتها ويحترمها لدرجة أن كثيرات من المسلمات كن يخالفن الرجال من الصحابة في كثير من المواقف والآراء دون أن يستنكر أحد عليهن ذلك، فها هي حفصة بنت عمر تستدرك على عبد الله بن عمر عن نافع قال: لقي ابن عمر ابن صائد في بعض طرق المدينة فقال له قولاً أغضبه فانتفخ حتى ملأ السكة فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها فقالت له: «رحمك الله ما أردت من ابن صائد! أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما يخرج من غضبة يغضبها**»[2].

وكذلك استدراك أم يعقوب وحوارها مع ابن مسعود، وجدال خولة بنت ثعلبة مع رسول الله ﷺ حول ظهار زوجها منها، ومواجهة أسماء بنت قيس لعمر بن الخطاب يوم قلل من شأن هجرة أصحاب السفينة، ومواجهة أم سلمة لعمر بن الخطاب يوم إنكاره على نساء النبي مراجعتهن له، واستدراك فاطمة بنت قيس على القائلين بوجوب إقامة المطلقة ثلاثًا في بيت الزوجية فترة العدة، أما السيدة عائشة

(١) راجع في هذا الصدد عبد الحليم أبو شقة – مرجع سابق.

(٢) رواه مسلم.

رضي الله عنها فقد استدركت على كثير من الصحابة في كثير من الأمور مثل استدراكها على عبيد الله بن عمير في طريقة اغتسال النساء واستدراكها على رواية عبد الله بن عباس في شأن الهدي، واستدراكها على قول ابن عمر بشأن تطيب المحرم وكذلك استدراكها على أبي هريرة وغيرهم من الصحابة، وقد أورد الزركشي استدراكها على ثلاثة وعشرين من أعلام الصحابة مثل بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وبلغ عدد استدراكاتها تسعة وخمسين، وقد ألف الزركشي كتابًا قصره على موضوع واحد هو استدراك السيدة عائشة على الصحابة وأسماه «الإجابة لا يراد ما استدركته عائشة على الصحابة»[1].

ولقد شاركت المرأة المسلمة في صدر الإسلام في القتال بطرق متعددة فقد كن يشاركن في حمل القرب إلى الناس في الغزو، فعن ثعلبة بن مالك « ... قال عمر: فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد»[2] ويقصد أم سليط وهي من نساء الأنصار ممن بايع الرسول ﷺ .

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقلان القرب ... على متونهما ثم تفرغانه في أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنها ثم يجيئان فتفرغانه في أفواه القوم»[3].

ومنها مداواة الجرحى :

فعن أنس بن مالك قال : «كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار

(١) عبد الحليم أبو شقة - مرجع سابق.

(٢) رواه البخاري وتزفر لنا القرب: أي تحملها.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى »[١].

وعن الرُّبيع بنت معوذ قالت : «كنا نغزو مع النبي ﷺ نسقي ونداوي الجرحى»[٢].

وكذلك رد الجرحى والقتلى إلى المدينة.

عن الرُّبيع بنت معوذ قالت «كنا نغزو مع النبي ﷺ نسقى القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة»[٣].

وقامت بعض النساء يحملن السلاح للدفاع عن أنفسهن، فعن أنس أن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرًا فكان معها فرآها أبو طلحة فقال: «يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه فجعل رسول الله ﷺ يضحك»[٤].

وقد شارك في غزوة خيبر على سبيل المثال خمس عشرة امرأة هن «أم سنان الأسلمية، أم أيمن، وسلمى مولاة رسول الله ﷺ، وامرأة أبي رافع كعيبة بنت سعد الأسلمية، أم مطاع الأسلمية، أم بنت قيس الغفارية، أم عامر الأشهلية، الضحاك بن مسعود الحارثية، هند بنت عمرو بن حرام، أم منبه بنت عمرو، أم عمارة نسبية بنت كعب، أم سليط النجارية، أم سليم، أم عطية الأنصارية، أم العلاء الأنصارية»[٥].

بل وشاركت النساء أحيانًا في القتال مباشرة فها هي صفية بنت عبد المطلب

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه مسلم.

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد.

كانت في أحد الحصون في غزوة الخندق ويسمى «حصن فارع» فلما شاهدت أحد اليهود يحوم حول الحصن نزلت إليه بعامود في يديها فصرعته وبرهنت على مدى قوتها وبطولتها وشجاعتها[١].

وها هي نسيبة بنت كعب الشهيرة بأم عمارة، تثبت بجانب الرسول ﷺ في غزوة أحد عندما حاصره المشركون بسيوفهم وتقوم بالقتال بالسيف ضد الكفار وجهًا لوجه بشجاعة نادرة حتى تصاب ثلاث عشرة إصابة إحداها في عنقها وقد نزف منها الدم بغزارة دون أن تتزحزح عن مكانها دفاعًا عن الرسول ﷺ[٢].

وها هي السيدة أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب عندما شاهدت أبا لهب وهو يهجم على أبي رافع ويطرحه أرضًا ويحاول قتله تعالجه بضربة قوية من عامود حديدي فوق رأسه فيصاب بإغماء وينجو ذلك الصحابي أبو رافع، وقد ظل أبو لهب طريح الفراش حتى هلك[٣].

بل وتصل المرأة المسلمة إلى الذروة في صبرها وجلدها على المصائب فها هي الخنساء التي قامت بحثِّ أبنائها الأربعة على الجهاد في سبيل الله والخروج إلى معركة القادسية فلما استشهدوا جميعًا صبرت صبرًا جميلاً عندما علمت بذلك وقالت قولتها المشهورة: «الحمد الله الذي شرفني بقتلهم، وإني لأرجو الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته».

وقد سجلت كتب السيرة الصبر والاحتساب لكثير من المسلمات الأوائل مثل حمنة بنت جحش التي فقدت في معركة واحدة زوجها مصعب بن عمير وخالها حمزة

(١) سيرة ابن هشام.
(٢) سيرة ابن هشام.
(٣) الإصابة في تميز الصحابة.

ابن عبد المطلب فلم تزد عن قولها: إنا الله وإنا إليه راجعون.

ولقد ظلت المرأة المسلمة دائمًا في طليعة المجاهدين دفاعًا عن الإسلام في مختلف المعارك بعد ذلك حتى أن المستشرق المعروف إدوارد جيبون يقول: «إن هؤلاء النساء اللاتي تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي بالنبل هن اللاتي إذا وقعت إحداهن في الأسر، تكون قادرة على صيانة عفتها وحفظ دينها وكرامتها في مواجهة أي إنسان تحدثه نفسه أن يريدها بسوء»[1].

***

وهكذا فإن المرأة المسلمة وإن لم يفرض عليها الجهاد، فإن الباب مفتوح لمن أرادت منهن التطوع وأنست من نفسها قوة ورغبة، هذا حين يكون الجهاد فرض كفاية، أما حين يكون فرض عين ولم يَفِ الرجال بالحاجة وجب على المرأة القادرة الخروج إلى الجهاد[2].



(١) إدوارد جيبون – سقوط الدولة الرومانية.

(٢) عبد الحليم أبو شقة – مرجع سابق.

الفصل الثالث

الجهاد والنضال السياسي للمرأة المسلمة المصرية في التاريخ المعاصر





ونقصد بالتاريخ المعاصر لمصر تاريخها منذ الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م، وهو تاريخ شهدت فيه مصر مثلها مثل غيرها من بلدان العالم الإسلامي العديد من عمليات الغزو العسكري والاحتلال الأجنبي ومحاولة طمس هويتها الحضارية والثقافية، وكان للمرأة المسلمة في مصر بالضرورة واستنادًا إلى الوجدان الإسلامي دورها في مقاومة الاحتلال والتغريب والاستبداد والتمسك بالهوية الحضارية والثقافية والتأكيد على الذات والمشاركة في مجمل النضال الوطني دفاعًا عن الدين والأرض.

جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ وكان الهدف منها احتلال مصر والقضاء على تميزها الحضاري والثقافي وربطها بفرنسا، وهبَّ الشعب المصري كله للدفاع عن الوطن والثقافة ضد المحتل الكافر، واندلعت المقاومة المسلحة في كل مكان من مصر، في الوجه البحري والقبلي والقاهرة، وكانت المرأة المسلمة في مصر في القلب من هذه المقاومة. فبمجرد نزول الحملة في الإسكندرية كان الرجال والنساء في خندق المقاومة.

يقول الرافعي: «احتشد الأهالي الذين يحملون السلاح على الأسوار وفي الأبراج التي تتخللها للدفاع، فلما اقترب الجيش الفرنسي وقبل أن يبدأ هجومه صعد نابليون على الربوة المقامة عليها عامود السواري ورأى أهل الإسكندرية محتشدين بأعلى الأسوار مشاة وركبانا، رجالاً ونساءً، كبارًا وصغارًا ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح، فأصدر أمره بالهجوم العام وأخذ الأهالي يطلقون النار وانتهى الأمر بدخول المدينة وكانت مقاومة الأهالي قد فدحتهم بالخسائر فهاجموا الناس في بيوتهم فدافع هؤلاء عن أنفسهم وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين وكاد نابليون نفسه أن يصاب برصاصة قاتلة»[١].

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – تاريخ الحركة القومية تطور نظام الحكم في مصر – الجزء الأول – دار المعارف – الطبعة الخامسة – ١٩٨١ ص ١٧٠.

ويقول بوربين سكرتير نابليون الخاص: «دخل بونابرت المدينة من حارة لا تكاد لضيقها تسع اثنين يمران جنبًا لجنب وكنت أرافقه في سيره، فأوقفتنا طلقات رصاص صوبها علينا رجل وامرأة من إحدى النوافذ واستمرا يطلقان الرصاص فتقدم جنود الحرس وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم وقتلوا الرجل والمرأة»[1].

واستمرت المقاومة في الإسكندرية بعد احتلالها، وكذلك في كل المدن والقرى التي سارت بها قوات الحملة حتى وصلت إلى القاهرة، وقد استخدم المؤرخون ألفاظ الأهالي، والجموع، والناس لوصف المقاومين مما يدل على اشتراك النساء في المقاومة؛ لأنه لو لم تكن النساء تشارك لاستخدم المؤرخون كلمة الرجال مثلاً أو الجنود، حتى نلاحظ أن المقاومين استخدموا البنادق والسيوف وكذلك الأحجار وأن المقاومة كانت من المساجد والشوارع والبيوت وأسطح المنازل؛ مما يدل على اشتراك النساء فيها، وخاصة تلك التي تنبعث من المنازل أو أسطح المباني أو تلك التي كانت الحجارة هي سلاحها.

أما في ثورة القاهرة الأولى فقد استخدم أيضًا المؤرخون من المصريين والفرنسيين على حد سواء ألفاظ الجموع، والأهالي، والناس، والحشود مما يدل على اشتراك كل أهل القاهرة من رجال ونساء فيها، ومما يُعدُّ دليلاً قطعيًا يبين مشاركة النساء في ثورة القاهرة الأولى هو قول المسيو بوربين سكرتير نابليون الخاص في مذكراته «سيق المسجونون إلى القلعة، وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثنى عشر سجينًا كل ليلة، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتغرق في النيل، واستمر ذلك ليال عديدة، وكان كثير من النساء ممن نُفِّذ فيهم حكم الإعدام ليلا»[2].

(١) مذكرات بوربين سكرتير نابليون الخاص - الجزء الأول.

(٢) مذكرات بوربين سكرتير نابليون الخاص - الجزء الأول.

وبديهي أنه طالما كان من المحكوم عليهم بالإعدام عدد من النساء فإن هذا يعني أن النساء كن ضمن قيادات الثورة أو المشاركين فيها أو المنظمين لها، ويؤكد الرافعي على ذلك بقوله : «وقد أسرف الفرنسيون في القتل بعد الثورة ولم تأخذهم رحمة بالنساء فقتلوا كثيرًا منهن»[1].

وفي قريتي غمرين وتتا وهما بلدتان متجاورتان شمال منوف يقول الكابتن فيروس في رسالته إلى الجنرال كافاريللي في ١٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ : «تعاونت الكتيبتان الفرنسيتان على مهاجمة قرية غمرين فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين وقتلنا من الأهالي من أربعمائة إلى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة وإقدام»[2].

. ويعلق الرافعي على ذلك قائلاً: «فانظر إلى هذا الوصف، وتأمل كيف كان النساء يشاركن الرجال في مقاتلة الفرنسيين، وهذا لعمري من أبلغ ما يذكر عن استبسال شعب في الدفاع عن كيانه، وأبلغ منه أن الشهادة جاءت به من عدو، وسنرى في خلال الوقائع التي تأتي عليها الفصول التالية أن النساء كن في بعض البلاد يشاركن الرجال في مقاومة الفرنسيين»[3].

ويقول ريبوا عن المقاومة في المنصورة «نادت المدينة كلها بالثورة رجالاً ونساء، وكان النساء يحرضن أزواجهن على أن يثوروا بالفرنسيين»[4].

---

(١) الرافعي – مرجع سابق ص ٢٨٤ – الجزء الأول.

(٢) وقد ذكر نابليون في رسالته إلى الديركتوار بتاريخ ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨ واقعة غمرين بإيجاز، ونشرت رسالته في مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٢٤٨٨.

(٣) الرافعي – مرجع سابق – ص ٣٠٢ – الجز الأول.

(٤) الجنرال ريبوا – التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية – الجزء الثالث.

وعن المقاومة في جزيرة فيلة فيقول الجنرال بليار في يومياته : «حمل الأهالي أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب والهيجاء ويهيلون التراب في وجوهنا»[١].

وفي ثورة القاهرة الثانية التي كانت من أشد الثورات على الفرنسيين والتي اشترك فيها أهل القاهرة جميعًا رجالاً ونساء وأطفالاً، فإن ذكر اشتراك النساء في الثورة أمر بديهي، وهم يدخلون في عداد الثوار عند حديث المؤرخين عن الناس، أو العامة، أو الجمهور أو الأهالي، وقد جاء ذكرهن مباشرة في أكثر من مرجع نذكر منها المسيو جالان الذي يقول : «اندفعت جموع الثائرين تتقدمهم طائفة من المماليك والانكشارية وانضم إليهم النساء والأطفال، فكان لهم نداءات تصم الآذان وهبت عاصفة الثورة على أحياء العاصمة كلها»[٢].

ويقول الرافعي : «اتسع نطاق الثورة وغامرت فيها طبقات الشعب كافة»[٣].

ويقول الرافعي أيضًا: «تطوع الأهالي لإمداد الثوار بالزاد وتوزيع الإمدادات وكذلك جميع أهل مصر كل إنسان سمح بنفسه وجميع ما يملكه»[٤].

وهكذا فإن المرأة المسلمة استمرت تقاتل إلى جانب الرجل حتى نجح الشعب المصري رجالاً ونساءً في إجلاء الفرنسيين سنة ١٨٠١، وبديهي هنا أن نقول : إن الثورة التي شملت كل شبر في مصر من القاهرة والأقاليم، والقرى والمدن، الوجه البحري والقبلي، كانت ثورة شعبية شاملة، وبالتالي شاركت فيها المرأة في كل مكان

(١) نقلاً عن الرافعي – مرجع سابق ص ٣٦٧

(٢) المسيو جالان – صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسي.

(٣) الرافعي – مصدر سابق ص ١٥٢ الجزء الثاني.

(٤) الرافعي – مصدر سابق ص ١٥٤ الجزء الثاني.

ولكننا اكتفينا بتسجيل أقوال المؤرخين التي جاء فيها ذكر النساء مباشرة وذكر مشاركتهن في المقاومة.

***

وعندما جاءت الحملة الإنجليزية بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧ تكرر نفس الشيء، وقاومت رشيد من خلال أهلها رجالاً ونساءً فهزموا الجيش الإنجليزي وكذلك تطوع الأهلي رجالاً ونساءً من القاهرة والأقاليم وتجمعوا في معركة كبيرة ضد الإنجليز وانتصروا عليهم في موقعة الحماد وانتهى الموقف بجلاء الإنجليز عن مصر وفشل حملتهم عليها سنة ١٨٠٧.



دور المرأة المسلمة في أحداث ثورة عرابي

وفي أحداث الثورة العرابية، وعندما جاء الإنجليز إلى الإسكندرية تطوع الأهالي من رجال ونساء للدفاع عن المدينة، وفي هذا الصدد يقول محمد عبده : «كان الرجال والنساء تحت مطر الكلل ونيران المدافع ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها، وكانوا يغنون بلعن الأميرال سيمور ومن أرسله»[(١)].

ويقول عرابي في ذلك : «وفي أثناء القتال تطوع الكثير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات»[(٢)].

ويقول محمود باشا فهمي في كتاب البحر الزاخر : «ورأيت في ذلك الوقت بعيني ما حصل من غيرة الأهالي بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابي باب العرب وهمتهم في مساعدة عسكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالي صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول»[(٣)].

وقال عرابي في مذكراته : «إنه استشهد من رجال الطوابي وحدهم مائة رجل وامرأتان من المتطوعات اللواتي كن يضمدن الجرحى وهذا طبعًا عدا خسائر

---

(١) محمد عبده – مذكرات ص ٢٥٠ تاريخ الأستاذ الإمام للسيد محمد رشيد رضا.

(٢) مذكرات عرابي.

(٣) محمود باشا فهمي – البحر الزاخر ج ١ ص ٢٢٠.

الأهلية في المدينة»[١].

وفي إطار التبرع للمجهود الحربي للجيش المصري ضد الإنجليز عام ١٨٨٢ نجد أن الرجال والنساء على حد سواء قد تطوعوا أو تبرعوا، وقد جاء ذكر بعض السيدات اللاتي تبرعن للمجهود الحربي المصري ومنهن والدة الخديوي إسماعيل وحرم خيري باشا رئيس ديوان الخديوي وحرم رياض باشا وكثير من الذوات والسيدات[٢] ونلاحظ هنا أن سيدات العائلة الخديوية أو زوجات كبار الموظفين قد تبرعن برغم أنف الخديوي وكبار موظفيه وكان الخديوي منحازًا إلى المعسكر المعادي للثورة العرابية ومؤيدًا للإنجليز، وهذا يدل على مدى شجاعة هؤلاء النسوة في أثناء الاحتلال الإنجليزي لمصر، وكان من الشهداء الكثيرات من النساء ففي حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦ كانت الشهيدة أم محمد زوجة محمد عبد النبي هي أول من سقط برصاص الإنجليز، وكان استشهادها سببًا في هياج الأهالي ويقول الرافعي : «وأقبل الرجال والنساء والأطفال هائجين الخواجة قتل المرأة وحرق الجرن، الخواجة قتل المرأة وحرق الجرن، وأحاطوا بالضابط وجاء بقية الضباط الإنجليز لإنقاذ زميلهم فتكاثرت جموع الأهالي.. وحملوا على الضابط بالطوب والعصى الغليظة وأثخنوا من لحقوا بهم ضربًا فأصيب الماجور بين كوفين كومندان الكتيبة بكسر في ذراعه وجرح الملازمان سميث ويك وبرثر، وأحاط بهم الأهالي فأخذوا منهم أسلحتهم وحجزوهم»[٣].

وقد لعبت المرأة المصرية دورًا بارزًا في جهاد الحزب الوطني ووجدنا النساء

(١) مذكرات عرابي.

(٢) مذكرات عرابي.

(٣) الرافعي – مصطفى كامل – دار المعارف – القاهرة – الطبعة الخامسة ١٩٨٤ ص ٢٠٦.

تشكلن اللجان لتأبين مصطفى كامل أو محمد فريد أو التضامن مع انتفاضات طلبة المدارس فيقول الرافعي : « ... فسارت المشيعات من الفضليات والسيدات والآنسات تسير مثنى مثنى وفي أولاها أسرة الفقيد وفي الثانية لجنة تأبين من السيدات ...»[1].

وكان الحزب الوطني يهتم بنشر التعليم بين الأولاد والبنات على حد سواء يقول الرافعي : «كان محمد فريد دائمًا يدعو إلى تعميم التعليم وجعله إلزاميًا ومجانيًا لكل مصري ومصرية»[2].



(١) الرافعي – محمد فريد – دار المعارف – القاهرة – الطبعة الخامسة ١٩٨٤ – ٤٢٨.

(٢) الرافعي – مرجع سابق ص ١٤٠.

ثورة المرأة المسلمة في ثورة ١٩١٩

وعندما اندلعت ثورة ١٩١٩ وهي ثورة فجرها الحزب الوطني من خلال نضاله الطويل منذ أوائل القرن وحتى اندلاع الثورة، وكذا قيامه بتشكيل خلايا سرية مسلحة كان لها الفضل الأول في تفجير الثورة واستمرارها وصمودها، إلا أن تلك الثورة قد سرقها المتغربون فيما بعد[١] عندما اندلعت تلك الثورة كانت المرأة المسلمة في مصر في القلب منها وقد سجلت أحداث ثورة ١٩١٩ العديد من مظاهرات السيدات واستشهاد عدد كبير منهن ففي يوم ١٦ مارس ١٩١٩ نظمت السيدات المصريات مظاهرة احتجاج على الاحتلال يقول الرافعي : «شاركت المرأة المصرية الرجال في الثورة وأعلنت عن مساهمتها فيها بمختلف الوسائل، وكان أول مظهر رائع لهذه المساهمة تلك المظاهرة الكبرى التي قامت بها السيدات والآنسات يوم الأحد ١٦ مارس سنة ١٩١٩ وكان الغرض منها الإعراب عن شعورهن والاحتجاج على ما أصاب الشعب من القتل والتنكيل في المظاهرات السابقة، خرجت المتظاهرات في حشمة ووقار وعددهن يربو على الثلاثمائة من كرام العائلات وأعددن احتجاجًا مكتوبًا ليقدمنه إلى معتمدي الدولة وقد تضامن معهن أكثر أهل القاهرة رجالاً ونساءً وأخذوا يرددون هتافاتهن[٢]».

وقد أحدثت تلك المظاهرة دويًا هائلاً لدرجة أن حافظ إبراهيم قد سجلها في شعره بقصيدة منها:

(١) د. عصام ضياء الدين – الحزب الوطني والنضال السري – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) الرافعي – ثورة ١٩١٩ – دار المعارف – القاهرة – الطبعة الخامسة ص ٢٠٩ – ٢١١.

فليهنــأ الجــيش الفخــور	بنصرهنــه وبكسرهنــه
فكــأنما الألمـــان قـــد	لبســوا البراقــع بيــنهن
وأتـــــوا بهنـــــدنبرج	مختفيًـا بــمصر يقودهنـه
فلــذاك خــافوا إبــاءهن	وأشــفقوا مــن كيدهنــه

***

وفي عشرين مارس نظمت السيدات مظاهرة أخرى يقول الرافعي : «وعقد النساء عزمهن على إقامة مظاهرة أخرى فاجتمعن يوم الخميس ٢٠ مارس صباحًا بالحديقة القريبة من النيل بجاردن سيتي ومن هناك سرن ماشيات وفي مقدمتهن ستة أعلام كتب على إحداها باللغة العربية «إننا نحتج على سفك دماء الأبرياء والعزل من السلاح» وكتب على الثاني «نحتج على قتل الأبرياء» وعلى الثالث «نطلب الاستقلال التام» وعلى الأعلام الثلاثة الأخرى هذه العبارات مترجمة إلى الفرنسية، وسارت المتظاهرات حتى وصلن إلى شارع قصر العيني حتى وصلن إلى شارع سعد زغلول وأخذن يهتفن ثم أقبلت قوة كبيرة من البوليس ومن الجنود الإنجليز في سيارات مسلحة فضربوا نطاقًا حولهن وظل الحصار نحو ساعتين وهن واقفات في الشمس من منتصف الساعة الحادية عشر صباحًا حتى الساعة الواحدة بعد الظهر وأرسلن باحتجاجاتهن إلى سفراء الدول»[(١)].

وفي يوم الجمعة ١٢ ديسمبر اجتمع عدد عظيم من السيدات المصريات من مسلمات وقبطيات بالكنيسة المرقصية للاحتجاج على قيام وزارة يوسف وهبة باشا، وقدوم لجنة ملنر وأصدرن بيانًا ضمنه رأيهن في الموقف السياسي وإخلاف الإنجليز وعودهم في المسألة المصرية وضمنه بتأييد مقاطعة لجنة ملنر والاحتجاج على

(١) الرافعي – مرجع سابق ص ٢٣٥.

قدومها والإصرار على التمسك بالاستقلال التام، وقامت السيدات يوم ١٦ يناير ١٩٢٠ بمظاهرة سارت من محطة مصر إلى شارع كامل «الجمهورية الآن» فميدان الأوبرا فميدان عابدين وتعرض لهن الجنود البريطانيون وطلبوا منهن التفرق فأبين واستمررن في المظاهرة[١].

ولعل هذه الأحداث تثبت أن المرأة المسلمة المنحازة إلى الإسلام كدين وكثقافة وكحضارة وكوطن هي التي كانت تقاوم الإنجليز ومن قبلهم الفرنسيين في حين أن أمثال قاسم أمين، كانوا منحازين للإنجليز جملة وتفصيلاً، أكثر من هذا أن النساء القبطيات وهن جزء من الانتماء الحضاري للإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن انضممن إلى أخواتهن المسلمات، بل وقامت هؤلاء وهؤلاء بالاجتماع في الكاتدرائية المرقصية لتأكيد وحدة هذا الشعب مسلمين وأقباط في رفض الاستعمار وتأكيد الانتماء إلى الحضارة الإسلامية كثقافة وكحضارة وكوطن، في حين أن قاسم أمين الذي كان ينتمي إلى حزب الأمة وكان من كتاب صحيفة «الجريدة الناطقة» بلسان الحزب ذلك الحزب الذي يثير الفتنة الطائفية وينحاز إلى الإنجليز ويعلن عدم إيمانه بالحركة الوطنية وثقته بالإنجليز وتقديره لما قدموه إلى مصر من خدمات!

ويلخص الرافعي دور المرأة في ثورة ١٩١٩ قائلاً : «اعتادت السيدات تأليف المظاهرات وإلقاء الخطب في المجتمعات وتأليفهن الجمعيات ونشر آرائهن وأبحاثهن في الصحف والمجلات ومساهمتهن في تطور الحوادث عامة. واضطلاعهن بأعمال البر والإحسان وبخاصة التي يقصد منها النهوض بالطبقات الشعبية»[٢].

(١) الرافعي – مرجع سابق ص ٤٢٧.

(٢) الرافعي – مرجع سابق ص ٥٨٤.

وهذا لعمري – هو التحرر الحقيقي للمرأة وليس ذلك التحرر الذي يدعو إليه قاسم أمين ونوال السعداوي وأمثالها من التهتك والخلاعة والاندماج في ثقافة المستعمر والترحيب بالاحتلال!

وبالطبع لم يكن دور المرأة قاصرًا على تنظيم المظاهرات والاجتماعات النسائية بل قامت المرأة بالمشاركة في كل أحوال الثورة، ولعل مراجعة قوائم الشهداء في تلك الثورة كما جاءت في كتاب الرافعي يعطينا الدلالة القاطعة على ذلك، فقد تضمنت قوائم الشهداء عددًا كبيرًا من النساء.

ففي أسماء شهداء يوم ١٤ مارس ١٩١٩ جاء اسم السيدة حميدة خليل من الجمالية بالقاهرة (الرافعي ص ٢٠٢).

وفي المظاهرات التي اندلعت في القاهرة في أوائل شهر أبريل سجل الرافعي ضمن أسماء الشهداء السيدة شفيقة محمد من سكان قسم الخليفة استشهدت يوم ١٠ إبريل.

وكان من الأمور العادية مشاركة النساء في تشييع جنائز الشهداء يقول الرافعي : «وفي ١٢ إبريل احتفل بتشييع جنازة أربعة قتلى آخرين من شهداء المظاهرات في مشهد جليل اشترك فيه المشيعون من الرجال والنساء » (الرافعي ص ٢٣٨ من كتاب ثورة ١٩١٩).

ومن الجرحى في بلدة ميت القرشي مركز ميت غمر الآنسة صديقة عروس عبد المجيد إبراهيم (الرافعي ص٢٥١).

واستشهدت السيدة بنت بدران من كفر الوزير مركز ميت غمر دقهلية (الرافعي ص٢٥٢).

وفي دنديط مركز ميت غمر استشهدت السيدة حنيفة أم عجوة (الرافعي ص ٢٥٣).

وفي تفهنا الأشراف مركز ميت غمر دقهلية استشهد رقية بنت أحمد متولي (الرافعي ص٢٥٢).

وفي الزقازيق استشهدت أم محمد بنت جاد وعين بنت صبيح (الرافعي ص٢٥٤).

وفي الفيوم استشهدت نعمات محمد وفاطمة محمود (الرافعي ص٢٥٥).

وكان من بين شهداء مظاهرات ٩، ١٠، ١١ إبريل في القاهرة السيدة عائشة عمر من السروجية الدرب الأحمر، والسيدة شفيقة محمد من الخرطة القديمة بالخليفة، والسيدة فهيمة رياض من الدرب الأحمر (الرافعي ص٣١٤).



جهاد المرأة المسلمة في عهد عبد الناصر

وإذا كنت المرأة المسلمة في مصر قد قامت بواجبها في قتال المحتلين، أو شاركت الرجال في القتال السياسي من أجل الاستقلال، ودفعت حياتها ثمنًا لهذا وذاك، فإنها أيضًا مارست النضال السياسي ضد الاستبداد، وخاصة في عهد الطاغية عبد الناصر، فها هي السيدة زينب الغزالي تدخل السجن دفاعًا عن دينها وحرية شعبها وتتعرض لأقسى أنواع التعذيب النفسي والبدني دون أن تلين لها قناة أو تتراجع عن موقفها بل تتمسك بالدين والمبدأ بلا هوادة وتظل على الطريق داخل السجن، وحتى بعد خروجها منه لم تنقطع عن جهادها بل استمر تجاهه حتى اليوم بل وتسجل خبراتها في الدعوة في كتب لتساهم بذلك في المجهود العلمي والسياسي لحركة الإخوان المسلمين[1].

وها هي زوجة المرحوم المرشد العام للإخوان المسلمين المستشار حسن الهضيبي تدخل السجن هي وبناتها دفاعًا عن الدعوة الإسلامية فتظل صامدة صابرة، وهي التي أفنت حياتها دفاعًا عن الدعوة، واهتمامًا بها من خلال زوجها ومن خلال نشاطها الشخصي في خدمة الدعوة في قسم الأخوات المسلمات والتي كانت مثالاً للتجرد والوعي في نفس الوقت، فهي ترفض أن تستخدم سيارة المرشد في غيابه لأن هذه السيارة لا تستخدم إلا في الدعوة وبالتالي فليس لها الحق في استخدامها، وهي التي ترفض محاولة بعض وزراء الثورة في استخدامها للمهادنة بين الثورة والمستشار حسن الهضيبي، فها هي تقول لزوجة أحد هؤلاء الوزراء: «يا سعدية هانم اسمعي مشكورة وبلغي السيد الوزير أن حسن الهضيبي ما تولى قيادة الإخوان

(١) زينب الغزالي – أيام من حياتي.

المسلمين إلا وهو يعلم أن سلفه العظيم حسن البنا قد اغتيل وأهدر دمه علنًا في شارع رئيسي بالعاصمة، وما رضي الهضيبي أن يكون خليفته إلا وهو ينتظر هذا المصير، وقد باع لله نفسه، وبعناه سبحانه أنفسنا معه، فلن يرانا أحد إذا كان هذا قدر الله إلا نماذج سكينة واطمئنان، سعداء أن نحتسب مصيرنا عند الله، وأوفر سعادة أن نلحق به شهداء» ثم تلتفت إلى بناتها لتقول: هذا ما عندي فماذا عندكن يا بنات.! فتنبعث الصيحة من بناتها علية وخالدة وسعاد: ليس عندنا إلا ما عندك يا أماه»[1].

ومن أقولها التي سجلها التاريخ : «وسواء استشهد الهضيبي أو طالت به حياة فلن تقف عجلة الصراع لأنه في الواقع ليس صراعًا بين الهضيبي وعبد الناصر، ولا بين الإخوان والثورة، ولكنه الصراع الأزلي الأبدي بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين الهدى والضلال، بين جند الله وحزب الشيطان وسيظل لواء الدعوة مرفوعًا وعلمها موصولاً، ولو ذهب في سبيله آلاف الشهداء من رجال ونساء حتى تعلو كلمة الله، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون»[2].

وها هي السيدة أم محمد عبد المنعم. وهو أحد الإخوان بالإسكندرية عندما اعتقل ابنها في ١٩٥٤، ١٩٦٥ ظلت صابرة محتسبة معتزة بابنها وجهاده مكررة قول أسماء في ولدها عبد الله بن الزبير وهو يواجه القتل : «اللهم قد سلمته لأمرك ورضيت بما قضيت فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين»[3].

وعلى نفس الدرب لمعت أسماء مثل الأخوات فاطمة البدري وسنية الوشامي وسنية عبد الواحد وأمينة الجوهري وحميدة قطب وأمينة قطب وغيرهن.

---

(١) مقال للأستاذ عبد الحكيم عابدين في مجلة الشهاب البيروتية - العدد ١٥ سنة ١٩٧٤.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) محمد محمود الجوهري - الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية.

في أعقاب حادث المنصة الذي نفذه خالد الإسلامبولي ورفاقه في ٦ أكتوبر ١٩٨١ لمع اسم السيدة الفاضلة أم خالد الإسلامبولي فلولا هذه السيدة الفاضلة لما حدث أي استفادة سياسية من حادث المنصة، ومما لا شك فيه أن حادث المنصة قد حقق فائدة سياسية ضخمة للاتجاه الإسلامي داخل مصر وخارجها، وكان من الممكن أن يتم تطويق الآثار السياسية للحادث، وخاصة أن الإعلام الحكومي والعلماني قد بدأ يؤدي هذه المهمة عقب الحادث مباشرة، واصفًا هؤلاء الذين قاموا بالعملية بأنهم مجموعة من المعقدين نفسيًا أو الذين في شقاق مع أهلهم.

وكان هذا الإعلام يستهدف حصار هؤلاء الشباب نفسيًا عن طريق الضغط عليهم داخل السجن وعن طريق استدراج أهلهم لاستنكار ما فعلوه والتبرؤ منهم، ولكن أم خالد وقفت شامخة تعلن فخرها واعتزازها بما قام به ابنها وتعلن تضامنها معه مما كان له الأثر في رفع الروح المعنوية لابنها ورفاقه في السجن، وكذلك أعلنت أن ابنها كان مثالاً للابن البار بأهله، وأنه فعل ذلك من أجل الإسلام ومصر وليس كمجرد رد فعل لعقد شخصية أو غيرها مما أفسد الخطة الإعلامية التطويقية التي أرادت إفساد الأثر السياسي للحادث، بل إن أم خالد بموقفها هذا وزيارتها لابنها ورفاقه وتصريحاتها المتكررة ونشاطها بين أسر المتهمين جعلت المتهمين أنفسهم يعلنون اعتزازهم بما فعلوه ويعلنون أسباب قيامهم بهذا العمل.

ومن الأشياء التي يعتز بها التاريخ الإسلامي المعاصر، أن أم خالد الإسلامبولي قد أعلنت عقب استشهاد ابنها بعد تنفيذ حكم الإعدام فيه أنها تحتسبه شهيدًا عند الله، بل وتقوم بذبح خروف بهذه المناسبة وتقوم بتوزيع اللحوم على الجنود والمساجين بهذه المناسبة[1].



(١) د. محمد مورو – تنظيم الجهاد الجذور والأسرار – الشركة العربية الدولية للنشر – القاهرة – ١٩٩٠.

الفصل الرابع

المرأة في الحضارة الغربية



أعطى الإسلام للمرأة كل الحقوق، وحررها كما ينبغي أن يكون التحرير، لأنه شريعة الله العادل الحكيم، وشهد المجتمع الإسلامي في عصر النبوة وبعد عصر النبوة وإلى يومنا صورًا شتى من المشاركة السياسية والاجتماعية والثقافية للمرأة ولم تنتقص حقوق المرأة في مجتمعاتنا إلا بعد غياب شريعة الإسلام عن الحكم أو سوء تطبيقها وما أصاب النساء في ذلك من الحيف والظلم أصاب الرجال أيضًا، أي أنه كان جزءًا من انحطاط عام.

أما في التصور الإسلامي الصحيح وفي المجتمعات التي تحتكم إلى شريعة الإسلام قلبًا وروحًا فإن المرأة كائن مستقل مكلف، لها ذمتها المالية المستقلة ولها الحق في حضور الاجتماعات الدينية والسياسية، بل وتروي الحديث عن الرسول ﷺ ولها الحق في العلم والعمل والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل تحاور الرجال بما فيهم الرسول ﷺ نفسه وتشير عليه، بل وتستدرك على الصحابة في بعض الأمور وتخطئهم في قضايا الفقه ويأخذ خليفة المسلمين عمر بن الخطاب برأيها ويعلن خطأه أمام جمع كبير من المسلمين ومن فوق المنبر.



المرأة في الحضارات القديمة والحديثة

أما في الحضارات الأخرى، فإن المرأة قديمًا وحديثًا أي في الحضارات القديمة والحديثة كانت ولا تزال مظلومة مهضومة الحقوق أو سلعة تباع وتشترى أو خاضعة للاستغلال.

ففي المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام كانت المرأة مظلومة في كثير من حقوقها فليس لها حق الإرث، وليس للطلاق عدد محدود، ولا لتعدد الزوجات حد معين، ولم يكن لها الحق في اختيار زوجها بل كان هذا الحق في يد أبيها أو أخيها، بل كان الابن الأكبر للأب الميت له الحق في وراثة زوجات أبيه كبقية أموال أبيه ويمكن له أن يتزوجهن، بل ووصل الأمر إلى حد قتل البنات المولودات خشية الفقر أو العار في بعض القبائل العربية[1].

وفي شريعة حورابي كانت المرأة تحسب في عداد الماشية المملوكة حتى أن من قتل بنتًا لرجل كان عليه أن يسلم بنته ليقتله أو يتملكها، وفي شريعة مانو كانت المرأة قاصرة طيلة حياتها ولم يكن لها حق في الحياة بعد وفاة زوجها بل يجب أن تموت يوم موت زوجها وأن تحرق معه وهي حية على موقد واحد، واستمرت هذه العادة حتى القرن السابع عشر حيث أبطلت على كره من رجال الدين الهنود، والفتاة في الهند كانت تقدم قربانًا للآلهة لترضي، وجاء في شريعة الهندوس: «ليس الصبر المر والريح والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار أسوأ من المرأة»[2].

---

(١) د. عبد الودود شلبي – في محكمة التاريخ – دار الشروق القاهرة – ١٩٩١.

(٢) د. عبد الودود شلبي – في محكمة التاريخ – دار الشروق القاهرة – ١٩٩١.

وكان الكاهن عند الأشوريين والبابليين يجمع العذارى مرة كل عام ويبيعهن في المزاد العام، وبعد الشراء إذا لم تعجب الفتاة الشاري فمن حقه أن يردها ويسترد ثمنها[١].

وفي اليهودية المحرفة طبعًا، كانت بعض طوائف اليهود تعتبر البنت في مقام الخادمة، وكان لأبيها الحق في أن يبيعها قاصرة، وما كانت لترث إلا إذا لم يكن لأبيه ذرية من البنين وإلا ما كان يتبرع به لها أن تنقل ميراثها إلى سبط آخر، واليهودية المحرفة تعتبر المرأة لعنة لأنها أغوت آدم[٢].

وفي المسيحية المحرفة فإن الزواج يجب الابتعاد عنه وأن الأعزب عند الله أكرم من المتزوج، وأن المرأة باب الشيطان، وأن جمالها سلاح إبليس للفتنة والإغراء، وفي القرن الخامس اجتمع مجمع «ماكون» للبحث في مسألة «هل المرأة لحم وجسم لا روح فيه؟ أم أن لها روحًا؟» وأخيرًا قرروا أنها تخلو من الروح الناجية من عذاب جهنم ماعدا أم المسيح!

وفي عام ٥٨٦ للميلاد عقد الفرنسيون مؤتمرًا للبحث: هل تعتبر المرأة إنسانًا أم غير إنسان؟ وأخيرًا قرروا أنها إنسان خلقت لخدمة الرجل فحسب.

ومن أقوال القديسين المسيحيين فيها – طبعًا المسيحية المحرفة – يقول القديس سوستام: إن المرأة شر لا بد منه، وأنه مرغوب فيها وخطر على الأسرة والبيت، وأنها فتاكة ومصيبة مموهة.

ويقول القديس ترتوليان : أنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ناقضة لنواميس الله، مشوهة لصورة الله أي الرجل[٣].

---

(١) الغزالي حرب – استقلال المرأة في الإسلام – دار المستقبل العربي القاهرة – بدون تاريخ.

(٢) د. عبد الودود شلبي – مرجع سابق.

(٣) د. عبد الودود شلبي – مرجع سابق.

أما في الحضارة اليونانية والإغريقية والرومانية، وهي التراث الحضاري الذي اعتمدت عليه أوروبا في نهضتها الحديثة وخاصة بعد بعث ذلك التراث فيما يسمى بعصر النهضة في أوروبا والذي تعتبر الحضارة الأوروبية حاليًا آخر تطوراته، فإن المرأة عند اليونان رجس من عمل الشيطان، وكانت محتقرة، ومن الناحية القانونية كانت المرأة عندهم تباع وتشترى في الأسواق وهي مسلوبة الحرية والكرامة، وليس لها الحق في الإرث، وليس لها ذمة مالية مستقلة.

وفي آخر عهد الحضارة اليونانية أباحوا الجنس الحرام والشذوذ وغيره مما أثر على المرأة كثيرًا، كما هو حادث الآن في أوروبا[١].

أما عند الرومان فلم يكن للمرأة الحق في اختيار زوجها، ولم يكن لها ذمة مالية مستقلة.

وفي أوروبا الحديثة بيعت المرأة سنة ١٧٩٠ في أسواق إنجلترا بشلنين لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التي كانت تؤويها، وبقيت المرأة إلى سنة ١٨٨٢ محرومة من حقها الكامل في ملك العقار وحرية المقاضاة، وكان تعليم المرأة سمة تشمئز منها النساء والرجال، ففي سويسرا عندما دخلت امرأة جامعة جنيف عام ١٨٤٩ لتتعلم الطب وهي اليصابات بلا كويل قاطعتها النساء واحتقرنها وكذلك الرجال، وفي أمريكا عندما أقيم معهد لتعليم النساء الطب في مدينة فيلادلفيا سنة ١٨٧١ أعلنت نقابة الأطباء في المدينة براءتها من كل طبيب يقبل التعليم في ذلك المعهد النجس، بينما الأمر في الإسلام مختلف فمثلاً وقبل أربعة عشر قرنًا كان هناك

(١) من بحث مقدم للمؤتمر المشبوه للمرأة والذي عقد تحت رعاية نوال السعداوي سنة ١٩٨٦ ومولته الدوائر الغربية المشبوهة، ورغم ذلك وجدنا من بين الباحثات اللاتي تقدمن بأبحاثهن في المؤتمر من يعترف بأن المرأة في أمريكا غير متحررة وليست أكثر من سلعة.

طبيبات مثل رفيدة يصنعن خيمة يداوين فيها الجرحى والمرضى.

والقانون الإنجليزي حتى عام ١٨٠٥ كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته وقد حدد ثمن الزوجة بسبعة بنسات، وقد حدث أن باع إيطالي زوجته لآخر على أقساط، فلما امتنع المشتري عن سداد الأقساط الأخيرة قتله الزوج البائع، ولما كانت الثورة الفرنسية ١٧٨٩ وأعلنت تحرير الإنسان من العبودية والمهانة لم تشمل بنودها على المرأة، فنص القانون المدني الفرنسي على أنها ليست أهلاً للتعاقد دون رضا وليها، وقد حدد النص القانوني في فرنسا القصر على أنهم الصبي والمجنون والمرأة، واستمر ذلك حتى عام ١٩٣٨ حيث تم تعديل بعض نصوص القانون، إلا أنها مازالت تحمل بعض القيود على تصرفات المرأة المتزوجة.

وحتى عندما أعلنت أوروبا التحرر الكامل للمرأة، فإنها في الحقيقة فعلت ذلك لتحويل المرأة إلى سلعة تدخل في سوق الرأسمالية البشع وفتحت الباب واسعًا أمام الإيدز والمخدرات والانتحار والجنون، لأن المرأة في حقيقة الأمر لم تتحرر ولكنها استعبدت لآلة السوق القاسية ليس أكثر.

وإذا كانت أمريكا هي كعبة العلمانيين فانظر مثلاً إلى آخر الإحصائيات بشأن عمل المرأة ومشاركتها في السياسة، تقول تلك الإحصائيات أن نسبة العاملات في الولايات المتحدة الأمريكية بلغت ٢٪ من عدد القادرات على العمل، كما أن نسبة النساء في المجلس التشريعي «الكونجرس» بلغت ٤٪، وهذا يثبت أن حق المرأة في العمل في أمريكا ليس إلا مجرد وسيلة لإشباع حاجات السوق، فإذا كانت هذه السوق غير محتاجة إلى ذلك تدنت مستويات عمل المرأة لتصل على ٢٪ مثلاً، ويتم الاستغناء عن النساء العاملات بصرف النظر عن حاجاتهن، وعلى كل حال فالمرأة والرجل ضحايا لقوانين السوق في الغرب.

ويمكن أن تقارن هذا مثلاً بعدد العاملات في بلد مثل مصر بأنه يراعي الإسلام الرجعي الذي يحرم المرأة من حقوقها كما قالت نوال السعداوي مثلاً في مؤتمر المرأة المشبوه الذي عقد سنة ١٩٨٦، ويمكن أيضًا مقارنة نسبة المشاركة السياسية في إيران الإسلامية مثلاً حيث وصل عدد النائبات في البرلمان الأخير تسع سيدات[١].

والمجتمعات الغربية التي تمنع قانون تعدد الزوجات، والتي يريدنا البعض أن نقلدها، وهي نفسها تدفع ثمن هذا المنع، لأن تعدد الزوجات شرع رحمة بالمرأة أساسًا. فمن البديهي أن عدد النساء في العالم أكثر من عدد الرجال، ويعني منع التعدد أن نفتح باب العنوسة لكثيرات من النساء، ونفتح الباب أيضًا للعلاقات المحرمة التي ستكون على حساب المرأة الثانية أو الثالثة التي بدلاً من أن تكون زوجة لها حقوق الزوجة شرعًا وقانونًا ستكون مجرد عشيقة يلقيها الرجل في الطريق في أي وقت يشاء حقوق ولا كرامة، ولأن تعدد الزوجات حاجة بديهية وضرورة أيضًا فإن أهالي بون مثلاً تقدموا بطلب إلى السلطات سنة ١٩٤٩ يطلبون فيه أن يُنص في الدستور الألماني على تعدد الزوجات، بل إن المؤتمر الذي عقد في ميونخ سنة ١٩٤٨ والذي بحثت إحدى لجانه مشكلة زيادة عدد النساء في ألمانيا أضعافًا مضاعفة بعد الحرب العالمية الثانية أوصى بالمطالبة بإباحة تعدد الزوجات كحل لمشكلة زيادة عدد النساء على الرجال في ألمانيا[٢].

وقد اعترف الكثيرون من المفكرين الغربيين بصواب فكرة تعدد الزوجات مثل جرونيوس العالم القانوني المشهور[٣].

(١) نقلاً عن محمد عبد القدوس – جريدة الشعب – مايو ١٩٩٢.
(٢) محمد يوسف موسى – في الأحكام الشخصية.
(٣) العقاد – حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

أما شوبنهور الفيلسوف الألماني المعروف فيصف أحوال النساء في ظل غياب تعدد الزوجات قائلاً: «ولا تعدم المرأة في الأمم التي تجيز تعدد الزوجات زوجًا يتكفل بشؤونها، والمتزوجات عندنا نفر قليل وغيرهن لا يحصين عددًا تراهن بغير كفيل بين: بكر من الطبقات العليا قد شاخت وهي هائمة متحسرة، ومخلوقات ضعيفة من الطبقات السفلى يتجشمن الصعاب ويتحملن شاق الأعمال وربما ابتذلن فيعشن تعيسات متلبسات بالعار والخزي، ففي مدينة لندن وحدها ثمانون ألفًا من البنات العموميات سفك دماء شرفهن على مذابح الزواج، ضحية الاقتصار على زوجة واحدة»[١].

ومنع تعدد الزوجات كما قلنا يأتي على حساب المرأة من حيث ازدياد أعداد العانسات، ويأتي أيضًا على حسابها من حيث العلاقات غير الشرعية التي تجمع بين الرجل والمرأة فتحمل المرأة فتتحمل ابنها غير الشرعي أو تلجأ إلى الإجهاض، ولقد بلغت وفيات النساء بسبب الإجهاض ١٠٪ من جملة الوفيات بين الأمهات[٢]، هذا طبعًا فضلاً عن مشاكل اللقطاء وانتشار الأمراض السرية.

أما هؤلاء الذين يدعون إلى منع الطلاق، فترى أمرهم عجبًا، فهم يريدون تقليد الحضارة الغربية في كل شيء، ويتناسون أن تلك الحضارة نفسها قد اضطرت تحت ضغط الواقع وفي كل بلادها بما فيها إيطاليا بلد البابا إلى إباحة الطلاق، لأنه ضرورة إنسانية واجتماعية، وما دام الطلاق قد فرض نفسه على كل البلاد الأوروبية فمن العجب إذا أن يطالب به هؤلاء الذين تمولهم أمريكا والغرب، على أن هذا المطلب في حد ذاته يكشف عن حقيقة هامة وهي أن القصة كلها مفتعلة للهجوم على شرائع

(١) هذا على زمن شوبنهور فما بالك اليوم!

(٢) وفقًا لتقارير منظمة الصحة العالمية.

الإسلام لا أكثر ولا أقل، فهؤلاء لا يعنيهم تحرر المرأة في الشرق ولا في الغرب، والموضوع ليس إلا قفازًا للهجوم على الإسلام خدمة لأهداف الدوائر الغربية المشبوهة.



الفصل الخامس

التحرر الحقيقي والتحرر المزيف

- دعوات مشبوهة
- ورموز مشبوهة





فرق كبير بين التحرر الحقيقي للمرأة والتحرر المزيف لها، التحرر الحقيقي للمرأة العربية والمسلمة هو تسليحها بالوعي بحقوقها الضخمة في الإسلام ودفعها لممارسة دورها الطبيعي الذي فرضه عليها الإسلام أو أتاحه لها، أما التحرر المزيف فهذا الذي يدعوها إلى الانسلاخ عن دينها وثقافتها والاندماج في ثقافة الغرب.

التحرر الحقيقي للمرأة ورموزه

والتحرر الحقيقي للمرأة هو جهادها وقتلها في سبيل الله دفاعًا عن دينها ووطنها ونضالها السياسي ضد الاستبداد وتحملها مسئوليات الدعوة إلى الله أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو طلب العلم وتحريضها أبناءها وزوجها وإخوتها على حمل أمانة الجهاد والتحدي الحضاري ومشاركتهم في ذلك، أما التحرر المزيف فهو دعوتها إلى مهادنة الاستعمار أو القبول به وبتقاليده وقيمه وأفكاره وسلوكه.

والتحرر الحقيقي هو تمسك المرأة بهويتها الإسلامية فكرًا وسلوكًا وتمسكها بهدى الإسلام الأخلاقي، أما التحرر المزيف فهو جريانها وراء أزياء الغرب والإباحية والشذوذ والتحلل الأخلاقي.

وعندما يدعو الإمام الشهيد حسن البنا في «رسالة التعاليم»[1] المرأة المسلمة ألا تأكل ولا تلبس إلا من صنع وطنها، فهذا هو التحرر الحقيقي؛ لأن هذا نوع من المقاطعة الاقتصادية للاستعمار وقطع خيوط التبعية معه، أما هؤلاء الذين يدعون المرأة إلى الجري وراء الموضة وأحدث الأزياء فهم يدعونها إلى الخضوع الاقتصادي

(١) الإمام الشهيد حسن البنا – رسالة التعاليم، وقد جاء فيها في هذا الصدد «على المرأة المسلمة أن تخدم الأمة الإسلامية بتشجيع المنتجات الإسلامية، وأن تحرص على القرش فلا يقع في أيد غير إسلامية، فلا تأكل ولا تلبس إلا من صنع وطنها الإسلامي».

والثقافي للغرب، بل ويروجون لسلع الغرب ويحققون أقصى ما يطمع فيه الغرب وهي التبعية الاقتصادية.

إن المرأة المسلمة حين تلتزم بالزي الإسلامي والآداب الإسلامية في اللبس والزينة فإنها في حقيقة الأمر تطيع الله أولاً ثم هي تحقق استقلالاً اقتصاديًا لبلدها وتقطع خيوط التبعية الاقتصادية للغرب، فليس جديدًا أن نعرف أن بيوت الأزياء ومصانع الغرب تكسب كثيرًا جدًا من ترويج بضاعتها من ملابس وأدوات زينة وغيرها في بلادنا.

التحرر الحقيقي هو الذي مارسته النساء اللاتي قاومن الحملة الفرنسية في مختلف الأماكن وكذا حملة فريزر والحملة الإنجليزية الثانية سنة ١٨٨٢، ثم قتالهن ضد الاستعمار الإنجليزي ثم ضد الاستبداد السياسي، هذا التحرر الحقيقي هو ما عرفته المرأة التي أطلقت النار على نابليون أو شاركت الرجال في قتال الفرنسيين أو التي تبرعت للمجهود الحربي للجيش المصري سنة ١٨٨٢ أو هؤلاء اللاتي سقطن شهداء في الإسكندرية سنة ١٨٨٢ أو في حادثة دنشواي، أو أثناء ثورة ١٩١٩ أو من تصدين للاستبداد الناصري، والتحرر المزيف هن النسوة اللاتي ارتبطن بجنود الاحتلال الفرنسي أو الإنجليزي أو عقدن الصفقات مع مؤسسات المال الأمريكية لتمويل مؤتمراتهن المشبوهة.

رموز التحرر الحقيقي هُنَّ المرأة التي أطلقت النار على نابليون في الإسكندرية سنة ١٧٩٨، أو اللائي قاتلن الفرنسيين في الوجه البحري والقبلي، أو هؤلاء اللائي أعدمن بتهمة الاشتراك في ثورة القاهرة الأولى أو هؤلاء اللاتي شاركن في ثورة القاهرة الثانية، أو هؤلاء اللاتي استشهدن في طوابي الإسكندرية سنة ١٨٨٢ أو داخل المدينة، أو هؤلاء اللاتي تبرعن بالمال وغيره للمجهود الحربي المصري سنة

١٨٨٢، أو اللاتي نظمن المظاهرات في ثورة ١٩١٩، واللاتي سقطن فيها شهيدات، أو هؤلاء اللاتي تصدين للاستبداد الناصري مثل زينب الغزالي، وحميدة قطب. والسيدة أم أسامة زوجة المستشار حسن الهضيبي، أو اللائي وقفن بجانب أبنائهن عقب حادثة المنصة سنة ١٩٨١ مثل أم خالد الإسلامبولي.

أما رموز التحرر المزيف فهن اللاتي دُرْنَ مع جنود الاحتلال الفرنسي ١٧٩٨ – ١٨٠١ مثل هوى وشوق أو اللاتي أخذن التمويل من مؤسسات فورد كونديشن وغيرها مثل نوال السعداوي.

دعاة التحرر الحقيقي أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وحسن البنا وعبد الحليم أبو شقة وصافيناز كاظم، ودعاة التحرر المزيف أمثال قاسم أمين ولويس عوض وأمينة السعيد ونوال السعداوي.

***

فمصطفى كامل حين يتصدى لقاسم أمين ويرد على ما يروجه بشأن الدعوة إلى الانحلال وتقليد سلوك الغرب بالنسبة إلى المرأة، وحين يكشف حقيقة تلك الدعاوى المريبة فإنه هنا كان يدافع عن التحرر الحقيقي للمرأة؛ لأنه كان يدعوها في الوقت نفسه للنضال ضد الاحتلال، ورفض ثقافة هذا الاحتلال وعدم تقليده في العادات والسلوك بل التمسك بالعادات الإسلامية الوطنية والسلوك الإسلامي الوطني والزي الإسلامي الوطني[1].

ومحمد فريد كان من دعاة التحرر الحقيقي للمرأة حينما بذل جهوده في فتح المدارس والمعاهد للبنين والبنات على السواء، وعندما دعا لجعل تعليم البنات إلزاميًا في المرحلة الابتدائية وفي نفس الوقت حرص على دعوة المرأة إلى النضال ضد

(١) الرافعي – مصطفى كامل – دار المعارف.

الاحتلال والتمسك بالثقافة الإسلامية الوطنية ورفض الثقافة الاستعمارية[١].

والإمام الشهيد حسن البنا كان من دعاة التحرر الحقيقي للمرأة حين طالبها بطلب العلم والتزود منه، وحين طالبها بأداء دورها في الدعوة إلى الله أو النضال ضد الاستعمار وحين طالبها بالعمل على التمسك بالعادات الإسلامية ونبذ العادات الغربية الاستعمارية، وحين طالبها بمقاطعة منتجات الاحتلال وألا تأكل أو تلبس إلا من صنع يديها، بل قام بعمل خاص بالأخوات المسلمات كانت المرأة المسلمة تمارس من خلاله نشاطها السياسي والاجتماعي والخيري، وقام بإنشاء العديد من المدارس «مدارس أمهات المسلمين» في أكثر من مدينة مصرية، وقد بدأت هذه المدارس بمدرسة أمهات المسلمين بالإسماعيلية، وكان لقسم الأخوات المسلمات دور هام في أثناء عمليات الاعتقال والسجون التي لحقت بالحركة في عهد عبد الناصر حيث قامت الأخوات المسلمات بزيارة أسر المسجونين وتقديم الرعاية لهم، وكذلك إعداد الطعام والملابس للإخوان المسلمين بالسجون[٢].

وكان لقسم الأخوات المسلمات دور هام في النضال السياسي ضد الاحتلال الإنجليزي، ففي مجلة الإخوان المسلمين الصادرة في ٥ مارس ١٩٤٦ نشرت المجلة برقية أرسلها قسم الأخوات المسلمات إلى المندوب السامي البريطاني بالقاهرة تحتج فيه الأخوات المسلمات على اعتداء جنود الجيش البريطاني المحتل على المصريين الآمنين[٣].

---

(١) الرافعي – محمد فريد – دار المعارف.

(٢) محمود محمد الجوهري – الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية – دار الوفاء – ١٩٨٩ – المنصورة.

(٣) نقلاً عن محمود محمد الجوهري – مرجع سابق.

أما الأستاذ عبد الحليم أبو شقة وهو من الإخوان المسلمين، ودخل السجن لفترات طويلة جدًا بسبب الانتماء إلى الإخوان، فقد بذل جهدًا فكريًا ضخمًا لإصدار موسوعة عن تحرير المرأة في عصر الرسالة وأثبت فيه حقوق المرأة من خلال القرآن والسنة، وبذلك يكون من دعاة التحرر الحقيقي للمرأة، بل وقدم برنامجًا هامًا عن المعالم الشرعية لنشاط المرأة السياسي في عصرنا جاء فيه «المرأة المسلمة – مثل الرجل – مدعوة إلى الاهتمام بشئون السياسة في مجتمعها، وكذلك مدعوة للإسهام في حدود ظروفها وقدر طاقتها في إنهاض المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النصيحة أي بتدعيم الإيجابيات ومقاومة الانحرافات وهذا نوع من الجهاد المأجور لتحقيق رشد السلطة وعدلها.

- النشاط السياسي يكون فرضًا أحيانًا، وعلى المرأة المسلمة أن تقوم بما يعد من فروض الكفاية على النساء في هذا المجال، ومن هذه الفروض:

(أ) كل عمل يجب أداؤه لتأمين رشد السلطة وعدلها واحتيج منه إلى جهد النساء مع الرجال لكي يتم على الوجه الصحيح، ومثال ذلك مشاركة النساء في انتخاب العناصر الصالحة بالمجالس التشريعية والمحلية والنقابية، وكذلك المشاركة في التصويت على الاستفتاءات التي تعرض على الرأي العام فتعين بذلك على إقرار معروف أو إبطال منكر.

(ب) الانضمام إلى الأحزاب والقوى السياسية المخلصة التي تريد الخير للأمة وتسعى إلى ترشيد السلطة وتعمل على الإصلاح الشامل القائم على مبادئ الإسلام من ناحية، والمستوعب للتجارب البشرية وعلوم العصر من ناحية، وذلك لتدعيم نشاط تلك القوى والأحزاب في مواجهة القوى التي تعادي الإسلام، والأحزاب النفعية الانتهازية التي يدعم نشاطها أعداد كبيرة من الرجال والنساء ويكسبونها

السطوة والغلبة.

(ج) نشر الوعي السياسي بين الناس وخاصة في بعض المواسم مثل موسم الانتخابات، وذلك إذا اقتضى الأمر ذهاب القائمات على نشر الوعي إلى البيوت ومخاطبة النساء عن قرب وإجراء حوار معهن.

(د) الإشراف على تنفيذ وتنظيم عملية الانتخاب لتحقيق صدقها ونزاهتها.

***

- ينبغي أن يكون ضمن أهداف تعليم بنات المسلمين تزويدهن بالمعلومات الأساسية عن أحوال المجتمع السياسية مع تنمية اهتمامهن بشئونه، هذا مع توعيتهن بالدور الواجب عليهن في المجال السياسي، ومن ذلك:

(أ) المشاركة في التعبير عن الرأي في القضايا العامة سواء بالكتابة أو التظاهر أو المشاركة في الأحزاب أو بأية وسيلة وقائية.

(ب) ممارسة واجب النصيحة وحق التأييد والاعتراض.

(ج) تدعيم الحزب أو التيار السياسي الذي تكون مبادئه أقرب لتحقيق الخير للمجتمع.

(د) اختيار المرشح القادر على حمل أمانة النيابة عن الأمة، أي ممارسة حق انتخاب أصلح المرشحين.

(هـ) قبول الترشيح للمجالس النيابية عند القدرة على تمثيل الأمة[1].

- تندب المرأة للبذل من مالها ثم من مال أسرتها بالمعروف في النشاط السياسي

---

(١) وقد ناقش الأستاذ عبد الحليم أبو شقة الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وكافة مصادر التشريع المعتمدة وخلص إلى حق المرأة في الانتخاب وحقها في الترشيح.

الواجب والمندوب، ويندب الرجل لمعاونة زوجته في شئون البيت إذا غلبها النشاط السياسي المندوب وتجب عليه المعاونة إذا كان نشاطها السياسي واجبًا.

- المجتمع المسلم متضامن في تهيئة الأسباب التي تعين المرأة على الوفاء بمسؤولياتها السياسية إزاء مجتمعها بجانب مسؤوليتها إزاء أسرتها.
- الحكومة المسلمة مسئولة عن توجيه المرأة وتشجيعها على المشاركة في النشاط السياسي.
- أن يكون كل ذلك في إطار آداب المشاركة الإسلامية[١].

وفي الحقيقة فإن دعوة التحرر الحقيقي للمرأة كان هدفًا ثابتًا لكل المقاومة الإسلامية في مصر وخارجها، فحركة المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي شهدت مشاركة نسائية واسعة بل إن إحدى النساء قادت إحدى الثورات المسلحة في بداية الاحتلال وهي لا لا فاطمة[٢]، وسجلت أحداث ثورة الجزائر، والشهيدة أم محمد وفضيلة سعدان وغيرهن[٣].

وفي إطار نضال الجبهة الإسلامية للإنقاذ ضد الفساد والتغريب والاستبداد كانت المرأة الجزائرية تقوم بالمظاهرات والإضرابات وتشارك في الانتخابات لدعم الجبهة الإسلامية للإنقاذ[٤].

ويرى الدكتور عباس مدني زعيم الجبهة الإسلامية للإنقاذ أن المرأة الجزائرية شريك في النهضة الإسلامية، وأن المرأة الجزائرية تتمتع بثقافة ممتازة وستشارك في

(١) وكل شيء وليس مشاركة المرأة فقط - ينبغي أن يكون في إطار الآداب الإسلامية العامة.

(٢) بسام العسيلي – المجاهدة الجزائرية – دار النفائس بيروت – ١٩٨٤.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) د. محمد مورو – الجزائر تعود إلى محمد – المختار الإسلامي – ١٩٩٢ – القاهرة.

العمل السياسي الإسلامي بكل فاعلية، وستناضل المرأة المسلمة معنا سافرة أو متحجبة، صغيرة أو كبيرة[1].

ويقول الأستاذ محفوظ نحناح رئيس حركة حماس الإسلامية في الجزائر: «إن المرأة عنصر كالرجل تمامًا سواء فهي شريكته من حيث الخلقة وشريكته من حيث التكليف، وشريكته من حيث وحدة المصير، ونظرتنا إلى المرأة هي كما أمر الله المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر».

ولا يمكن أن يأمر الرجل بالمعروف وينهي عن المنكر في غياب المرأة فلا بد أن يكونا مشتركين معًا في القضاء على المنكر، وعندي أن أعظم المنكر هو الاستبداد السياسي، ومن هنا فإن المفهوم الذي يريد أن يحجر على المرأة ينتفي انتفاء كاملاً مع النص الشرعي ومقاصده، فنحن نقول: إن المرأة مكرمة كالرجل، وأن للمرأة دورًا لا يقل أهمية عن دور الرجل في أعظم مسألة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا بد أن يكون هناك اشتراك.

هذا الاشتراك قد يكون في حزب أو جمعية أو برلمان أو مظاهرة أو أحزاب أو إنتاج أو استهلاك أو تربية أو اتخاذ موقف حازم، والرسول ﷺ كان يساعد أهله، كان يكنس بيته ويخصف نعله ويطهو مع زوجته ويداعب نساءه فلماذا لا يكون الرجل على هذا المستوى من التأسي للرسول ﷺ، ولكن نحن تأثرنا في نظرتنا إلى المرأة بنظرة عصر الانحطاط في الأمة الإسلامية، ولكن الإسلام جاء ليرفع شأن المرأة إلى أعلى مكانة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ...﴾ إلى آخر الآية الكريمة من سورة الأحزاب آية ٣٥.

---

(١) من المؤتمر الصحفي الذي عقده الدكتور عباس مدني في قاعة إفريقيا بالجزائر العاصمة بتاريخ ١٢ يونيو ١٩٩٠.

عشر صفات وصف الله بها الذكر والأنثى يجعلها في قمة الولاء لله تعالى والعمل من أجل التغيير السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الأمة، من خلال المنطلقات القرآنية ومن خلال المواقف التي اتخذتها المرأة في العصور الإسلامية الزاهرة وأيام الجهاد، إن المرأة والرجل على قدم المساواة جهادًا وعملاً وتربية وتوجيهًا وصياغة حضارية وتشكيل عقلية تتسم بالشمول والتكامل والاعتدال والاتزان»[1].

وجاء في برنامج الجبهة الإسلامية للإنقاذ: «نظرًا للسمعة التي اكتسبتها المرأة في عهد الرسول ﷺ وبما توصلت إليه في نماذج أمهات المؤمنين ومنها عائشة رضي الله عنها بعلمها حتى كانت راوية لأكثر من ألفي حديث – ومشاركتهن مع الرسول ﷺ في غزواته وموقف أم سلمة بالحديبية – مما يدل على وعيها السياسي وفي عصور النهضة العلمية والفكرية ومشاركتها بعبقرية النابغات في الفكر والأدب والفقه والسياسة والطب، وفي عهود كثيرة كانت استماتتهن في المواقف في المغرب والأندلس وفي عهد احتلال الجزائر وثورة نوفمبر التي برزت فيها مجاهدات مؤمنات أحيت أمجاد المرأة المسلمة، فإن مهمتها في هذه المرحلة، وقد أصبحت تمثل أكثر من ثلثي الطلبة الجامعيين وتلامذة الثانوي، فإن الجبهة الإسلامية للإنقاذ تعتبر هذه الطاقة من العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية الجديرة بالاهتمام قصدت توجيهها بحكمة وتوظيفها برشد في الخطة الإنمائية الحضارية الشاملة، وذلك بتخصيص المرأة بالعناية ورفع مستواها العقائدي وجودة تكوينها المسلكي، رفع مستوى وعيها السياسي والتربوي والحضاري، إعادة الاعتبار إلى مكانتها الإسلامية بحفظها من التعسف والانحلال وآفة التقليد الأعمى، توعية المجتمع كي يدرك أهمية طاقتها وعظيم رسالتها، من أجل ذلك كان الإسلام وما يزال الدين الذي لم

(١) عبد الله رزاقي – الأحزاب السياسية في الجزائر خلفيات وحقائق – الجزء الأول.

يميز المرأة عن أخيها الرجل بكل ما كرم به الإنسان وشرفه لقوله عليه الصلاة والسلام: «النساء شقائق الرجال» وقوله: «استوصوا بالنساء خيرًا»[1].

***

ومن دعاة التحرر الحقيقي للمرأة الحركة الإسلامية في السودان، تلك الحركة التي استطاعت أن تقدم النموذج والقدوة في مشاركة المرأة السياسية والاجتماعية في نضال الجبهة القومية الإسلامية في السودان واضطلاعها بدور هام في العمل النقابي والسياسي والحزبي عمومًا، وقد نشأت الجبهة الإسلامية النسوية سنة ١٩٦ ثم ما لبثت أن تقدمت المرأة بكثافة في كافة أنشطة الجبهة الإسلامية والمجتمع السوداني.

يقول الدكتور حسن الترابي: «أصبح خطاب الحركة الإسلامية تبشيريًا تحريريًا في مغزاه، ودعا هذا الخطاب وأدى إلى تحرير النساء من أسر العرف التقليدي الظالم، وأن يستعين بقوة التدين لتعزيز تحرير المرأة، ومن وراء التحرير جاء خطاب الحركة ليلهم المرأة روحًا رسالية في الحياة، بأن تجد المرأة مغزى لحياتها ودورًا يرضي ذاتها ويشفي تطلعاتها من حيث هي إنسان لا يكتمل وجوده إلا باحتمال أمانة وأداء رسالة الوفاء بالواجب بعد استيفاء الحق، وكانت هذه الرسالة أن تجاهد المرأة مع أخيها الرجل لإحياء الدين وتحرير المجتمع وأن تهب نفسها لطلب المثل العليا وابتغاء وجه الله، ولو جمدت الحركة في مرحلة الفقه الاعتذاري – إن الإسلام لم يظلم المرأة – وراحت تدرأ الشبهات التاريخية والفقهية وتتولى الدفاع، لتأخر تحرر المرأة ولو أنها اقتصرت على الفقه الناقد للتقاليد لما بلغت بحركة المرأة الاجتماعية ما بلغت، ولما دخلت النساء في الحركة أفواجًا وانفعلن واشتغلن بقضاياه بأقدار ثورية تاريخية، ولما مرقن من ذل التبعية للرجال ولو في الضلال ولما خلصن من قيود

(١) من برنامج الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

الأعراف ولو كانت منكرة، ولما خلصن من الولاء الطائفي الخرافي ليدخلن في بيعة حركة الإسلام، وقد كان هذا التحول الديني أبلغ آية على أثر الدين في التحرر والنهضة لمقاصد الدنيا والآخرة»..

ويختم الدكتور الترابي قوله : «فبنعمة الله وهداه رتبت الحركة الإسلامية تأسيسها التنظيمي الأخير على مشاركة الرجال والنساء في الائتمار والشورى والقيادة ثم في الدعوة والمجاهدة»[1].

***

وفي إيران الإسلامية، كانت الثورة الإسلامية تحريرًا لكل المجتمع وتحريرًا في الوقت نفسه للمرأة الإيرانية، فشاركت المرأة في الجهاد لإسقاط الشاه، وبعد الثورة كانت المرأة الإيرانية في أوج مشاركتها السياسية، فقد كانت الفتيات ضمن هؤلاء الذين اقتحموا السفارة الأمريكية في طهران في أوائل الثورة، وكانت فتاة إيرانية هي الداعية والمنظمة والمشرفة على مؤتمر الأقليات الإسلامية في العالم والمنعقد في طهران ١٩٨٤، وفي البرلمان الإيراني الأخير والذي أجريت انتخاباته في مايو ١٩٩٢ نجحت تسع سيدات في الحصول على عضوية البرلمان.



(١) د. حسن الترابي – الحركة الإسلامية في السودان – القارئ العربي للإعلام والنشر – القاهرة – ١٩٩١.

التحرر المزيف للمرأة ورموزه

هذا هو التحرر الحقيقي للمرأة المسلمة، أما التحرر المزيف فهو الذي يدعو إلى الانحلال والتخلي عن ثقافتنا وهويتنا والاندماج في ثقافة الاستعمار والرضى بوجوده في بلادنا، فها هو لويس عوض مثلاً وهو المنحاز إلى الاستعمار والثقافة الاستعمارية، بل ويعتبر أن الحملة الفرنسية على مصر لم تأت من أجل الاحتلال والاستعمار ولكن من أجل تحرير مصر!

بل ويعتبر المتعاونين مع الحملة أي الخونة من أمثال يعقوب وفرط الرمان هم دعاة التحرر الوطني ورموز القومية المصرية! وهو الذي يدافع عن وجود الإنجليز في مصر ويعتبر كل من قاوم الاحتلال من أمثال الأفغاني والنديم ومصطفى كامل ومحمد فريد ما هم إلا مجموعة من المهرجين أو العملاء أو ضيقي الأفق! بل ويدعو إلى نبذ اللغة العربية واستخدام العامية وغيرها من الدعوات المشبوهة[1]، هو نفسه الذي يعتبر رموز تحرر المرأة المصرية هم هوى وشوق وغيرهما من اللائي درن مع جنود الاحتلال وأقمنا علاقات جنسية مع الفرنسيين أي أنه يعتبر المومسات والمتعاونات مع جنود الاحتلال بالسلاح وهن اللاتي ذكرناهم في فصل سابق، وخاصة هؤلاء اللاتي أعدمن بسبب اشتراكهم في ثورة القاهرة الأولى، وهذه التي أطلقت النار على بونابارت في أول أيام دخوله إلى الإسكندرية في إحدى حواري الإسكندرية[2].

(١) أحمد محمد شاكر، أباطيل وأسمار.

(٢) د. محمود مورو – صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر – الزهراء للإعلام العربي – القاهرة – ١٩٩٢.

يقول لويس عوض: «أما عن ١٨٠٠ فهو عام تحرير المرأة لأن هذا العام شهد بدايات حركة السفور وانطلاق نساء القاهرة لمخالطة الفرنسيين ومحاكاتهم في الزي والسلوك»[(١)].

وينقل لويس عوض عن الجبرتي في قوله: «أما الجواري السود فإنهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجًا فرادي وأزواجًا فنططن الحيطان وتسلقن إليهم من الطبقات ودلوهم على مخبأة أسيادهم وخبايا أموالهم ومتاعهم إلى غير ذلك»[(٢)].

وعلى الرغم أن الجبرتي هنا يصف أوضاعًا اجتماعية جزئية صاحبت الاحتلال وترتبت عليه إلا أن لويس عوض يعتبرها ثورة تحرير للمرأة، ويعلق جلال كشك على ذلك قائلاً: «ومع أن الجبرتي لم يترك فرصة لسوء الفهم هذا فإن لويس عوض يصر على أنها ظاهرة عامة نابعة عن ثورة تحريرية وليست حالة انهيار تحدث في جميع المجتمعات التي تتعرض للاحتلال والنهب والسلب والتجويع» ويضيف جلال كشك «لويس عوض مؤرخ المدرسة الاستعمارية يجعل انحطاط المرأة إلى حد التكسب بالجنس ثورة نساء وبداية تحرر المرأة»[(٣)].

ولنعرض مزيدًا من وقاحات لويس عوض يقول لويس عوض: «وليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن كل من خالط الفرنسيين أو حاكاهم أو قبل وجوها من حضارتهم قد فعل ذلك عن فُجْر وافتتان بأسلوب الحكام – وهو ظاهرة اجتماعية وإنسانية – أو عن مصلحة ذاتية أو رغبة في التزلف إلى الحكام، ولا شك أن تحرير

(١) لويس عوض – تاريخ الفكر المصري الحديث – الجزء الأول.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) محمد جلال كشك – ودخلت الخيل الأزهر – دار المعارف.

المرأة على النحو العملي هذا الذي وصفه الجبرتي كان حركة اجتماعية بالمعنى المألوف وتعبيرًا عن رأي عام وفي شرائح معينة من مختلف مستويات المجتمع المصري بضرورة الانفتاح لهذه الحضارة الحديثة والقيم الاجتماعية الحديثة التي جاء بها الفرنسيون من أوروبا»[1].

وبالطبع فإن الجبرتي لم يقصد هذا الذي استنتجه لويس عوض بل كان يرصد ظاهرة يرفضها هو وكل المؤرخين المحترمين، ولكن لويس عوض يريد أن يجعل من الدعارة مع جنود الاحتلال تحررًا ويريد أن يجعل من ظاهرة جزئية منحطة ومرفوضة ظاهرة اجتماعية تريد الانفتاح على الحضارة الحديثة التي جاء بها الفرنسيون من أوروبا، وبالطبع لويس عوض يدعو إلى الأخذ بتلك الحضارة وسلوكها وقيمها بل ويقدم لنا رمزين لتحرر المرأة من أسوأ ما يكون.

أولهما: هي زينب البكرية، وثانيهما هي: هوى.

فأما زينب البكرية التي يقدمها لنا لويس عوض على أنها رائدة التحرر فهي بنت الشيخ البكري وهو أحد الخونة والعملاء الذين تعاونوا مع الاحتلال الفرنسي، وما دام متعاونًا مع الاحتلال أي خائنًا لبلاده فلا مانع لديه أن يتخلى عن عرضه وشرفه، فيقدم ابنته القاصر التي كانت تبلغ ستة عشر عامًا في ذلك الوقت إلى جنود الاحتلال للتمتع بها لينال بذلك الحظوة لدى الاحتلال، وهذا بالطبع أسوأ ما يكون الرمز والمثل.

أما هوى : فهي امرأة ساقطة تعيش مع أي صاحب سلطان سواء كان مملوكيًا أو تركيًا فرنسيًا، وتهرب من هذا إلى ذاك، أو تهرب منهم جميعًا[2].

---

(١) لويس عوض – مرجع سابق.

(٢) محمد جلال كشك – مرجع سابق.

قاسم أمين داعية للتحرر المزيف

أما قاسم أمين الذي يعتبره كل رواد ودعاة حركة تحرر المرأة المزيف رائدًا له، فأمره محير، فهو مؤلف كتاب «المصريون» سنة ١٨٩٤ باللغة الفرنسية، وقد أورده الدكتور محمد عمارة في الأعمال الكاملة لقاسم أمين[١]، وهو كتاب دافع فيه قاسم أمين عن الإسلام وعن المرأة المسلمة كأفضل ما يكون الدفاع وكأنه شيخ متعصب بل ومتزمت، وهو في كتابه الثاني «تحرير المرأة» يقف موقفًا وسطًا قريبًا من مدرسة الإمام محمد عبده التوفيقية، وفي كتابه الثالث «المرأة الجديدة» يدعو إلى خلع الدين تمامًا والتبرؤ من الإسلام والأخذ بكل الثقافة الغربية فيما يخص المرأة، بل يهاجم الإسلام هجومًا مريرًا.

وبعيدًا عن الخوض في أسباب هذا التغير في فكر قاسم أمين، فإن ما يعنينا هنا أن مدرسة التحرير المزيف للمرأة أخذت كتابه الثالث واعتبرته مرجعًا لتحرير المرأة بل واعتبرت قاسم أمين رائدًا لتحرير المرأة والمسألة هنا ليست قيمة فكر قاسم أمين المضطرب ولا دعوته ولكن المسألة في أصلها كما هي دائمًا مسألة أن هؤلاء الذين يرفعون رايات تحرر المرأة المزيف لا يريدون إلا القضاء على الإسلام والكيد له، وذلك بالطبع خدمة لأسيادهم ومحركيهم من الأوروبيين والأمريكيين الذين يدركون أن الإسلام هو وحده العقبة الرئيسية للسيطرة على بلادنا ونهبها وتنفيذ مخططاتهم فيها.

ومما يؤكد هذا الأمر أن قاسم أمين الداعي إلى تحرير المرأة، هو نفسه الذي يقف

---

(١) د. محمد عمارة – الأعمال الكاملة لقاسم أمين.

معارضًا لتحرير مصر من الإنجليز بل يهاجم كل زعماء حركة التحرر الوطني في ذلك الوقت أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد، ولأن مصطفى كامل كان يفهم الدافع وراء قاسم أمين وحقيقة دعواه فإنه تصدى بنفسه كتاب جريدة «اللواء» الناطقة بلسان الحزب الوطني في ذلك الوقت لتفنيد آراء قاسم أمين والتأكيد على المضمون الحقيقي لتحرر المرأة المسلمة.

قاسم أمين هو أحد المروجين للاستعمار، وهو أحد أعضاء حزب الأمة وهو الحزب المعروف بولائه للإنجليز وخيانته للقضية الوطنية، ولم يكن عجيبًا أن تدافع «الجريدة» وهي صحيفة حزب الأمة عن قاسم أمين وآرائه لأنها تصب في خانة خدمة الإنجليز.

«قاسم أمين محرر المرأة نفسه الذي يصف مصطفى كامل بأنه نصاب، وهو الذي يرى أن الاستعمار الإنجليزي هو الذي حررنا وأسرف في تحريرنا فقد كنا محكومين بالاستبداد، ولما احتلنا الجيش البريطاني وأصبحت مصر تحكم من دار المندوب السامي أصبحنا أحرارًا ونحب الحرية وبدأ التعليم الصحيح ينتشر بين أفراد أمتنا»[1].

***

أما عن نوال السعداوي فقد كشفها وعراها زميلاتها في حركة تضامن المرأة المزعوم، وقد اعترفت نوال السعداوي بنفسها بأن الذين مولوا مؤتمر تضامن المرأة المنعقد في القاهرة سنة ١٩٨٦ في أفخم فنادقها وهو فندق النيل كانوا من الهيئات الأجنبية المشبوهة.

تقول جريدة «الأهالي» وهي جريدة قريبة الاتجاه لأمثال د. نوال السعداوي

(١) نقلاً عن جلال كشك – جهالات عصر التنوير – مكتبة التراث الإسلامي – القاهرة – ١٩٩٠.

وليس من مصلحتها فضحها ومع ذلك اضطرت للاعتراف بالحقيقة فنقلت اعترافات نوال السعداوي – تقول جريدة الأهالي : «عندما سألت إحدى المشتركات عن مصادر تمويل هذا المؤتمر أجابت د. نوال السعداوي رئيس المؤتمر ورئيس جمعية تضامن المرأة العربية أن هناك بالفعل جهات أجنبية قامت بتمويل المؤتمر فقد أرسلت رسائل إلى ما يقرب من مائة جهة طلبًا لتمويل المؤتمر واستجابت لها ثلاث جهات فقط هي جمعية نوفيك الهولندية، ومكتب مؤسسة فورد كونديشن الأمريكية بالقاهرة، ومكتب اكسفوان الأجنبي بالقاهرة، وأضافت د. نوال السعداوي أن مكتب مؤسسة فورد كونديشن بالقاهرة هو الذي تحمل نفقات سفر المشاركات فقط وتحملت المكاتب الأخرى باقي النفقات، وقالت د. نوال السعداوي : إن مكتب هيئة المعونة الأمريكي في القاهرة «الأيد» سوف سيتحمل نفقات طبع كتاب باللغة العربية والإنجليزية لأهم الأبحاث التي نوقشت في لجان المؤتمر »[1].

وبالطبع كان من البديهي أن تنسحب الشخصيات النسائية والوفود النسائية التي ما زال لها بقية من احترام نفسها أو تلك التي لا تريد أن تسقط ورقة التوت عن عورتها في هذا المؤتمر المشبوه الذي افتضح أمره.

وكانت وما زالت تلك الحركات المشبوهة تستخدم قضية تحرير المرأة كقفاز للهجوم على الإسلام، وها هي إحدى السيدات تقول تلك الحقيقة بعد أن اكتشفتها من خلال هذا المؤتمر، تقول السيدة نفيسة عابد في مجلة صباح الخير : «ولست أدري لماذا يهاجم الإسلام من بعض الذين يدعون أو يدعون الدعوة إلى حرية المرأة أو

---

(١) جريدة الأهالي – سبتمبر ١٩٨٦ وانظر أيضًا أخبار اليوم – روز اليوسف وغيرها من الصحف والمجلات التي غطت أخبار المؤتمر .

المطالبة بحقوقها، فهذا الهجوم يحمل في طياته ما يقنعني تمامًا بعدم صدق دعواهم»[1].

ونقول لهذه السيدة: عليك الآن أن تدري أن تلك الدعوات والمؤتمرات والحركات ما صنعت أساسًا من أجل المرأة، بل من أجل الهجوم على الإسلام خدمة لأهداف الغرب الاستعماري.

وهكذا فإن الحقائق الواضحة حول حركة تحرير المرأة الحقيقي وحركة تحرر المرأة المزيف تقول إن حركة تحرر المرأة الحقيقي هي تلك التي تؤكد على مقاومة الاحتلال ورفض الاستبداد والتمسك بالهوية والثقافة الوطنية، وأن حركة تحرر المرأة المزيف ما هي إلا حركة مصنوعة وممولة من الاستعمار ويقف على رأسها المشبوهون والمشبوهات ممن تعاونوا مع الاحتلال ودعوا إلى رفض الثقافة الوطنية والاندماج في ثقافة المحتل، فهذه الحركة المزيفة ما هي إلا قناع للهجوم على الإسلام لخدمة أهداف الاستعمار باعتبار أن الإسلام هو العقبة الرئيسية أمام المخططات الاستعمارية وباعتبارها الأيديولوجية الوحيدة القادرة على تحقيق النهضة والتقدم في بلادنا، ولنتأمل في قول المبشرة أنا ميليهان: «ليس هناك طريق لهدم الإسلام أقصر مسافة من إبعاد المرأة المسلمة والفتاة المسلمة عن آداب الإسلام وشرائعه».



(١) مجلة صباح الخير – سبتمبر ١٩٨٦.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- تفسير الطبري « جامع البيان » أبي جعفر ، محمد بن جرير الطبري ٢٢٤ – ٣١٠ هـ – دار الفكر – بيروت .
- تفسير القرطبي « الجامع لأحكام القرآن » أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي توفى ٦٧١ هـ – دار الكتب المصرية .
- صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري توفى ٢٥٦ هـ – طبعة دار الشعب – القاهرة ١٩٥٥ م.
- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج القشيري ٢٠٦ – ٢٦١ هـ – طبعة دار الشعب – القاهرة ١٩٥٥ م .
- صفي الدين المباركفوري الرحيق المختوم – دار الريان – القاهرة ١٩٨٥م .
- ابن عبد البر الدرر في اختصار المغازي والسير – طبعة القاهرة ١٩٦٦ م.
- ابن الأثير أسد الغابة في معرفة الصحابة – طبعة دار الشعب – القاهرة ١٩٦٨ م .
- الماوردي الأحكام السلطانية – مطبعة السعادة ١٩٠٩ م – مصر .
- د / توفيق الشاوي فقه الشورى والاستشارة – دار الوفاء – مصر – ١٩٩٢ م .
- د / صبحي عبده سعيد السلطة السياسية في المجتمع الإسلامي – طبعة

١٩٩٦ م – الكتاب الجامعي – جامعة القاهرة – مصر .

- عباس محمود العقاد حقائق الإسلام وأباطيل خصومه – نهضة مصر – القاهرة – طبعة ١٩٨٩ م .

- عباس محمود العقاد التفكير فريضة إسلامية – دار نهضة مصر – القاهرة – طبعة ٢٠٠٠ م .

- عباس محمود العقاد الإنسان في القرآن الكريم – نهضة مصر – القاهرة – طبعة ٢٠٠٣ م .

- عباس محمود العقاد الديمقراطية في الإسلام – نهضة مصر – القاهرة – طبعة ٢٠٠٥ م .

- د/ عبد القادر عودة الإسلام وأوضاعنا القانونية – دار المختار الإسلامي – القاهرة – ١٩٧٧ م .

- د/ عماد الدين خليل القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي – مكتبة النور – القاهرة –طبعة ١٩٨٥ م .

- د/ محمد أبو زهرة المذاهب الإسلامية – دار الفكر العربي –القاهرة – ١٩٨٠.

- الشيخ محمد الخضر حسين - الحرية في الإسلام – دار الاعتصام – القاهرة – ١٩٨٢ م.

- الشيخ محمد الغزالي الإسلام والأوضاع الاقتصادية – نهضة مصر – القاهرة – طبعة ٢٠٠٢ م .

- الشيخ محمد الغزالي الإسلام والمناهج الاشتراكية – نهضة مصر – القاهرة

– طبعة ١٩٧٧ م .

- الشيخ محمد الغزالي الإسلام والاستبداد السياسي – نهضة مصر – القاهرة – طبعة ٢٠٠٤ م .

- د / محمد ضياء الدين الريس النظرية السياسية الإسلامية – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – طبعة ١٩٦٠ م.

- د / محمد عمارة الإسلام وحقوق الإنسان – دار الشروق – القاهرة – طبعة ١٩٨٩ م .



فهرس الكتاب



الفهرس

الموضوع **الصفحة**

(١) علمانيون وخونة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

